افتتاحية العدد

بصدور هذا العدد تكمل مجلة «تراثيات» العام الرابع من عمرها وعلى مدى هذه الأعوام الأربعة حرصت المجلة على أمرين: أولهما: الحفاظ على المستوى العلمي لما تقدمه لقرائها دون تهاون أو تقصير أو مجاملة، وثانيهما: الالتزام بفترات الصدور التي حددتها المجلة لنفسها منذ بداية صدورها بحيث يصدر منها عددان في كل عام أحدهما في مطلع العام، والثاني في منتصفه.

وإذا كانت هيئة تحرير المجلة هي المسئولية عن الالتزام الأول الخاص بالمستوى العلمي، فإن الالتزام الثاني الخاص بمواعيد الصدور لا تنفرد به هيئة التحرير ولا مركز تحقيق التراث وإنما تدخل فيه اعتبارات أخرى، منها ما هو خاص بإمكانات مطابع دار الكتب، وما هو خاص بترتيب الأولويات في تلك المطابع، وبالمتغيرات التي تطرأ في بعض الأحيان فتتسبب في شيء من التأخير.

ولقد تأخر صدور هذا العدد بعض الوقت لأسباب خارجة عن إرادة المجلة والمركز، وكان بالإمكان يحمل رقمي ٨، ٩ ويغطي سنة كاملة، ولكننا حرصنا علي أن تنتظم المجلة في الصدور مرتين في كل عام عملاً يقول القائل: إن ما لا يُدرك كله يُترك كله.

وبهذه المناسبة تتقدم هيئة التحرير عذرها للقراء الكرام راجية أن تتمكن من تدارك هذا التأخير بحيث يصدر العدد القادم في موعده إن شاء الله.

رئيس التحرير

التراث في فكر المجددين(*)

أ. د. حسين نصار(*)

الأمر الغريب فى اعتقادى أن يردد المثقفون كلمات التراث دون أن يحسنوا مدلول هذه الكلمة، وأن ينطلقوا من هذا التصور إلى مواقف حاسمة، وأن يروجوا لهذه المواقف فى كل تجمع، وقد اشتدت هذه الدعاوى خاصة عند المجددين المعاصرين الذين لم يرضوا حتى بهذا الوصف، وسموا أنفسهم الحداثيين، ومن أجل الكشف عن بذور هذه الدعوة وحقيقتها وتطوراتها، وما قد يكون وراءها أخصص هذه المقالات للبحث عن التراث في فكر المجددين منذ بدء نهضة العصور الحديثة إلى اليوم لأعين القارئ الدارس المعاصر في استخلاص تصورهم لهذه الكلمة الموهمة.

(١)

رفاعة رافع الطهطاوى

(١٢١٦ - ١٢٩٠/ ١٨٠١ - ١٨٧٣)

ولد فى طهطا بصعيد مصر، وتلقى التعليم الدينى المعروف فى عصره إلى أن أتمه فعين مدرسًا بالأزهر. ولما عزم محمد على الكبير على إيفاد بعثة كبيرة من الدارسين إلى فرنسا رأى أن يرسل معها من يؤمها فى الصلاة ويفتيها فيما يواجهها من قضايا دينية. فرشحه أستاذه الشيخ حسن العطار لهذه الوظيفة لإعجابه به فرحل معهم إلى فرنسا، غير أنه صمم منذ اليوم الأول فى رحلته على أن يشارك فى طلب الثقافة الفرنسية، فشرع يتعلم اللغة الفرنسية وهو ما زال على الباخرة، وقضى فى فرنسا خمس سنوات، من ١٢٤١/ ١٨٢٦ إلى ١٢٤٦/ ١٨٣١، نهل فيها ما غير مجرى حياته، وجعله جديرًا بقول أمير الشعراء أحمد شوقى يقول فى رثاء ابنه:

يا ابن الذى أيقظت مصرًا معارفُه أبوك كان لأبناء البلاد أبا

وجديرًا بأن يعلق محمد عمارة على هذا البيت، فيقول: «وأنا أعتقد أن ضرورة الشعر هى التى جعلت شوقى يضع (مصرًا) فى بيته هذا، ولا يضع مكانها (الوطن العربى) و (والعالم الإسلامى)، ذلك أن ساحاتهما الفكرية جميعًا، ومنتدياتهما العلمية قاطبة، قد أيقظتها معارف الطهطاوى، ومن ثم كان، بحق، أبًا ليقظتها الحديثة وأبًا لكل الذين يعتزون بهذه النهضة التى قادها فى مطلع مصرنا الحديث» (الأعمال ٩/١).

ولست فى حاجة إلى تفصيل الحديث عن حياة الطهطاوى وما فعله فى الثقافة،

فقد فعلت ذلك عدة كتب كاملة، وفصول من كتب، ومقالات فى صحف ومجلات، فصار الرجل معروفًا من القاضى والدانى، العربى والأجنبى، وإنما همى (التراث) فى فكره، وأنا لا أذكر أنه استعمل هذه الكلمة، ولكن كثيرًا مما فاه به، أو دوّنه، أو قام به من أعمال كان هدفه التراث.

وأول ما يجب أن نضعه فى الاعتبار، فى هذا الشأن، أن رفاعة مصرى، من ذوي الأصول العربية، فهو من جهة الأب ينتمى إلى الحسين بن على، وحفيد النبى (ﷺ) وتحفظ أسرته سلسلة هذا النسب إلى اليوم، وهو من جهة الأم ينتمي إلى بني الخزرج من الأنصار.

ليس معنى ذلك الحط من إحساسه بالمصرية، بل العكس هو الصحيح، فهو من أوائل الذين عرفوا الوطنية، واشتد إيمانهم بها، فكانت الباعث الأول على كل أعماله، ولذلك لم يجد تلميذه المباشر، الملازم له، صالح مجدى حين أراد أن يدون سيرته بدًا من أن يجعل عنوانها «حلية الزمن بسيرة خادم الوطن».

لا عجب إذن أن نراه يفضل العرب وما يتصل بهم، فهم خيار الناس، ولون سُمرتهم أشرف الألوان وأحسنها، لا ينكر أحد أن السماحة والإيثار من خواصهم، ولقد ثبت بالعقل تواترًا أنهم أكثر الأمم شجاعة ومروءة وشهامة (الأعمال ١/١٣٧ - ١٤٠).

وكان يفضل اللغة العربية تفضيلاً جليًا. فهى عنده «أفصح اللغات وأعظمها وأوسعها وأغلاها على السمع... ولسانها كالذهب الصرف، هيهات أن يحاكيه البهرج... وأتم الألسنة بيانًا وتمييزًا للمعانى جمعًا وفرقًا...» (الأعمال ١/١٣٧ - ١٣٨).

ولذلك ركز تركيزًا شديدًا على ضرورة العناية بها، وتعلمها، وفقه علومها... بل لقد تعدى بهذه الضرورة نطاق الشعب العربى إلى نطاق الأمم الإسلامية غيرالعربية، وتحدث عن الربط الوثيق بين هذه اللغة وبين الشريعة الإسلامية التي تدين بها هذه الأمم... فهذه اللغة بالنسبة إلى هذه الممالك معرفتها ضرورية، لا سيما لأهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة» (الأعمال ١/١٣٥).

وطبيعي من رجل يحمل هذا الإيمان أن يبذل كل جهد ليحيى اللغة العربية ويجعل منها اللغة الرسمية لمصر بدلا من التركية، وأن يجعلها اللغة الإجبارية في المدارس العالية (الأعمال ١/٥١، ٦٤، مناهج - الخاتمة ٣).

وقد تمثل هذا الجهد فى تعريب الوثائق المصرية، وكتابة المقالات باللغة العربية، ونشر قصائد الشعر فيها ومحاولة إصدار مجلة عربية خالصة، ووضع المصطلحات

العربية (الأعمال ١/٥٥ - ٦، ٧٢ - ٣، مناهل خاتمة ٣، ٥).

وتمثل فى الأمر الذى يهمنا هنا أكثر من غيره، وهو تصحيح المخطوط من التراث، وطبعه فى المطبعة الأميرية ببولاق، مثل: «مفاتيح الغيب» لفخر الدين الرازى، و«خزانة الأدب» للبغدادى، ومقامات الحريرى، و«معاهد التنصيص» للعباسى (مناهج - الخاتمة ٣).

وإذا انتقلنا إلى التراث خاصة وجدنا الطهطاوى يحث مؤدب الأطفال أن يعرفهم ما يستحسنه من المراسلات والأشعار، وأن يطالب تلميذه «بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التى تجرى مجرى ما تعوده بالأدب، حتي يتأكد عنده بروايتها وحفظها ... ويحذره من النظر فى الأشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق وأهله، وما يوهمه أصحابها أنه ضرب من الظرف ورقة الطبع، فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جدًا». (مناهج ٦٨، ٧٠).

إذن هو يجعل التراث شطرين، والمعيار الذي يستند إليه فى هذا التقسيم خلقي، فما وافق الأخلاق الحميدة فهو ما طلب معرفته وحفظه والالتزام به، أما ما لم يوافقها فقد نهى عن مجرد النظر فيه.

ويتنوع التراث الحميد عنده كما ترى فى جعله «الوطن كالجسد، يصلحه إزالة العضو غير النافع كما أن الشجرة تثمر بتقليم الغصن اليابس، وإبقاء المثمر اليافع، وفي قوله يشرح هدفه ومنهجه فى كتاب «مناهج الألباب»: «فلهذا بذلت المجهود لبيان الغرض والمقصود بتصنيف نخبة جليلة، وترصيف تحفة جميلة، في المنافع العمومية التي بها للوطن توسيع دائرة التمدنية...، وعززتها:

بالآيات البينات،

والأحاديث الصحيحة،

والدلائل البينات.

وضمنتها الجم الغفير من :

أمثال الحكماء،

وآداب البلغاء،

وكلام الشعراء...»(الأعمال ١/٥)

ومتابعة الاطلاع علي الكتاب تضيف إليها:

التاريخ،

والحكايات،

والكتب.

أما الآيات القرآنية فهي واضحة وضوحا بارزًا فى جميع أرجاء كتبه، يقول فى «مناهج»: «وتكفى حب الوطن أن كراهة الإجلاء منه مقرونة بكراهة قتل الإنسان نفسه، فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وقد تتبعت الصفحات الخمس والعشرين الأولي من الكتاب، فوجدت الطهطاوي يكاد يأتي بالآيات فى كل صفحة (١٣، ١٤، ١٥، ١٧- ٢٠، ٢٤، ٢٥).

ويقول فى «المرشد»: فقد كتبت يد القدرة الربانية بغير آلات، وسطرت الإرادة الصمدانية خطوط المصنوعات، وجعلت ذلك وقفًا على تلاوة البصائر والألباب... فكل هذا يرشد إلى معرفته - تعالى -، وحكمته وحوله وقوته، كما نبه عليه - تعالى - بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ﴾ ونحو ذلك من الآيات الدالة على بديع صنعته، وتدبير ملكه وحكمته» (الأعمال ٢/٢٨٤).

ويقول: «وأما من يعرف الواجب والجائز والمستحيل فيعلم أن كل مقدور - بالإضافة إلى قدرته تعالى ، قليل - فالعاقل إذا سمع معقولاً غريبًا استحسنه، والجاهل إذا سمعه قطع بتكذيب قائله، وزيف ناقله، لقلة بضاعة عقله، وضيق فضله، ولهذا وصف - تعالى - الجهال بقوله: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾.

وقد أودع الله - سبحانه وتعالى - من عجائب المصنوعات فى الآفاق والسموات كما قال: ﴿وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ وقد نبه إلى النظر فى عجائب الدنيا بقوله: ﴿قل: سيروا فى الأرض فانظروا﴾ الأعمال ٢/٢٨٥).

واغترف الطهطاوى من الحديث النبوى الكثير، يمثل ذلك فى «مناهج» قوله: «إرادة التمدن للوطن لاتنشأ إلا عن حبه من أهل الفطن كما رغب فيه الشارع، ففى الحديث: (حب الوطن من الإيمان)» (الأعمال ١/١٠)، وقوله: «حسب المؤمن بحب الوطن أن رسول الله (ﷺ) حين خرج من مكة، علا مطيته، واستقبل الكعبة، وقال: (والله: لأعلم أنك أحب بلد الله إليّ، وأنك أحب أرض الله إلى الله (عز وجل) وأنك خير بقعة على وجه الأرض، وأحبها إلى الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لما خرجت)... وقال

ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (مصر خزائن الأرض، والجيزة غيضة من غياض الجنة)، ذكر هذا الحديث صاحب المفاخرة بين مصر والشام»(١٥).

وفى «المرشد» قال: «وفى الحديث القدسي قال الله تعالى: ﴿ومن أظلم من ذهب يخلق كخلقى، فليخلقوا، ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة) (الأعمال ١/ ٢٨٨) وقال: «وقد ورد فى الخبر عن خير البشر أنه قال: (إن الله ـ تعالى ـ يقول: يا عبدى: حرِّك يدك، أنزل عليك الرزق)... ولاينبغى أن يتوهم أن الأمر الوارد فى قوله ـ ﷺ ـ (توكلوا على الله) بالتوكل الذي مرجعه إلى أن يوكل الأمر كله إلى مالكه... وقد أشار ـ ﷺ ـ إلى أن التوكل ليس التعطيل، بل لابد فيه من التوسل بنوع من السبب، حيث قال: (ولو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير، تغدو خماصًا ، وتروح بطانا)، فإن الطير ترزق بالطلب والسعى. نعم إنه لاينبغى الإفراط فى الكدر، وصرف النظر عن الاستراحة بعض الأحيان، يشهد لذلك حديث: (إن المنبتّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى) (الأعمال ١/ ٣١٧).

واستخدم مصطلحات علم الحديث فى قوله: «يروي مرسل النسل، مسلسلا بسند الاتصال، وحديث النبل مرفوعًا مدبجًا بلجين العدوّ وذهب الآصال) (الكواكب ٧).

أما الأمثال فلم تحظ عنده بما حظيت به الآيات والأحاديث من كثرة، ولكنه كان يأتي بها بين الفينة والفينة على تباعد ما بينهما، ويشهد لها في «المناهج» قوله: «ويقال: (الدراهم مراهم) لأنها تداوى كل جرح، ويطيب بها كل صلح» (الأعمال ٢٨/١) وقوله فى ذم الدَّين «وعلى لسان العامة (لا همَّ إلا هم الدين، ولا وجع إلا وجع البيت)» (الأعمال ٤٧/١)، وقوله: «وقد قيل فى الحكم والأمثال: (من العجائب عبد بطال، ويطلب منازلة الأبطال) و(خير الناس من صنع الخير، وانتفع بمعروفه)» (الأعمال ٧١/١).

وقال فى (الكواكب ١٥): «ولما كانت أنوار ليلات الأنس المخصوصة بهذا الأمير كغيرها من التفريح فى الدرجة القصوى أنست أفراح بوران، وبها انطوى ذكر قطر الندى، وغدت حكايتها كهَيّان بن بيان». والتعبير الأخير كناية عمن لا يعرف ولا يعرف أبواه.

وأما أقوال البلغاء والحكماء والمشهورين من الأعلام فقد جلعها عمادًا لكلامه فى كل موضع، فكثرت عنده حتى ساوت الأحاديث الشريفة أو ربما زادت عنها كثرة، مثال ذلك فى «مناهج» قوله: «قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ (عمّر الله البلاد بحب الأوطان). وقال على ـ كرم الله وجهه ـ: (سعادة المرء أن يكون رزقه فى بلده). وقال بعض الحكماء: (لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير المخصبة). وقال

الأصمعى: دخلت البادية، فنزلت على بعض الأعراب، فقلت له: أفدني، فقال: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، ومكارم أخلاقه، وطهارة مولده، فانظر إلى حنينه لأوطانه، وشوقه إلى إخوانه)»(الأعمال ١/ ١٠).

وقوله: «وقال عبد الرحمن بن عوف: (يا حبذا المال: أصون به عرضي، وأرضي به ربي) وقال ابن عباس: (الدراهم والدنانير خواتم الله فى الأرض، لا تؤكل ولا تشرب، وحيث قصدت به قضيت حاجتك)، قيل لبعضهم: لِمَ تحب الدنانير وهى تدنى من النار؟ قال: (هى وإن أدنتْ منها ـ فقد صانت عنها)، وقال لبعض الحكماء من الملوك: (من أصلح ماله فقد صان الأكرمين: الدِّين والعرض) (الأعمال ١/ ٢٧).

وفى «المرشد» قوله: «قال بعضهم: (إن طلبت المورد العذب فاسلك طريق الصعب، وسر سير المجدِّ الحازم، ولا تتكاسل في العزائم، واطلب مطالب الرجال، وإياك أن تُدعي بالبطال،ومن كلام لقمان الحكيم: الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما)» (الأعمال ٢/٢١٤).

وقوله: «وفى حكمة داود ﷺ: (المرأة السوء لبعلها كالحمل الثقيل علي الرجل الكبير، والمرأة الصالحة له كالتاج فى رأس الأمير). وقال بعضهم: (إن المرأة السوء مثل شرك الصياد، لاينجو منها إلا من رضي الله عنه، وعن الأصمعي عن أبى عمرو بن العلاء قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (النساء ثلاثة: هينة لينة عفيفة: وأخرى وعاء للولد، وثالثة غل يلقيه الله فى عنق من يشاء من عباده)» (الأعمال ٢/٤٩١).

وأما الشعر فيكاد لا تخلو منه صفحة من صفحات «مناهج الألباب» فقد أورد فى ص ٣:

لاتعجبوا لهم فى أهل مصر أنْ وفوا ... بوعودهم، ما فى ألوفا منهم جفا
وافى لهم فى كل عـــام نيلُهم ... فتعلموا من نيلهم ذاك الوفا

وفى ص ٤:

ديار مصر هى الدنيا، وساكنها ... هم الأنام، فقابلها بتفضيل
يا من يباهي ببغداد ودجلتها ... مصر مقدمة، والشرح للنيل
و: لا تعاد الناس فى أوطانهم ... قلَّمـــا يرعَى غـــريب الوطن
وإذا شئت عيشًا بينهم ... خـــالق الناس بخلُق حسن
و: إني سمعت مع الصياح مناديًا ... يا من يعيش على الغنى المعوانا

وفى ص ٥

وإذا الصنيعة صادفت أهلا لها ... دلت على توفيق مصطنع اليد

وهو كثير أيضًا فى «المرشد». ونمثل به بما أورده فى ٢٧٨/٢ من الأعمال الكاملة قال الشاعر:

ومـــا شىء أحب إلى لئـــيم - وإذا شتم الكريم - من الجواب
مـــتاركـة اللئـيم بلا جـواب أشـدُّ على اللئيم من السـبـاب
و : كل الأنام بنو أب، لـكنمـــا فى الفضل تُعرف قيمة الإنسان

وفى ٢٧٩/٢: قال الشاعر:

فى المهد، ينطق عن سعادة جده أثر النجـابة سـاطع البـرهان
و: ســـأطـلـب كـل مـنـزلـة تعــــرض دونهـــا العطب
فـــإن أسلم رجــعتُ، وقـــد ظفــــرتُ، وأنجـح الطـلب
وإن أعطب فـــلا عـــجـب لـكـل مـنيـــة ســـبـب

ولا تخلو منه صفحة من صفحات «الكواكب، ففى ص ٧ مثلا:

لـكل شىء صنعـــة أحكمت وصنعة العقل اختيار الكرام
و : محبة ما عرفت الدهر سلوتها تحرى من النفس أو تسرى مع النفس
و : مـــا لهـــا آخـــر لكن أولهـــا تعارف سابق فى حضرة القدس
و: روحـــاها روح ونفـــساهمـــا نفس كـــذا فليكن الحب
و: أنا من أهوى، ومن أهوى أنا نحن روحـــان حللنا بدنا
و: بكم أتحدثُ هوى فلو حييتكم قلت السـلام عليّ، إذ أنتم أنا
أرى قربه قربي ومغناه غنية ورؤيته ريًا، ومحياه لي حيا

واستقى الطهطاوى كثيرًا من مواده التراثية من التاريخ، ولاعجب فى ذلك؛ لأن التاريخ كان أحد العلوم التى عني بها فى فرنسا، وقد كانت ثمرة هذه العناية الكتب والفصول التاريخية البارزة فى أعماله (انظر الأعمال ٤٤٧/٢ - ٤٦٥)، وشاهدنا علي ذلك ما أورده فى «مناهج» فى ص ٤٠. «قال عبد الله بن عتبة: كان لعثمان - رضي الله عنه - يوم قتل مئة ألف وخمسون دينارًا وألف ألف درهم، وترك ألف فرس وألف مملوك، وخلف من ضياعه بئر أريس وخيبر، ووادى القرى ما قيمته مئتا ألف دينار، وبلغ مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار، وترك ألف فرس وألف مملوك، وغنى عبد الرحمن بن عوف أشهر من أن يذكر.

وكانت الدنيا فى أكفهم لا فى قلوبهم: صبروا عنها حين فقدت، وشكروا الله تعالى حين وجدت، ابتلاهم الله - سبحانه وتعالى - بالفاقة فى أول أمرهم، حتي تكلمت أنوارهم، وتطهرت أسرارهم، فبذلها لهم حينئذ؛ لأنهم لو أعطوها قبل ذلك فلعلها كانت تأخذ بمجامع قلوبهم، فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ فى اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين، وامتثلوا فيها قول رب العالمين ﴿وأنفقوا مما جعلكم مسخلفين فيه﴾ فكانت الدنيا فى أيدي الصحابة لا فى قلوبهم.

ويكفيك فى ذلك خروج عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن نصف ماله،وخروج أبى بكر عن ماله كله، وخروج عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - عن سبعمئة بعير موفورة الأحمال، وتجهيز عثمان بن عثمان - رضي الله عنه - جيش العسرة، إلى غير ذلك من أفعالهم».

ويتصل بالتاريخ الحكايات الكثيرة التي أوردها شواهد على ما يقول. مثال ذلك قوله في «مناهج»:

في ص ٢٧: «مر رجل من أرباب الأموال ببعض العلماء، فتحرك له وأكرمه وأدناه، فقيل له بعد ذلك: أكانت لك إليه حاجة؟ فقال: لا، ولكن رأيت ذا المال مهيبًا فهبته.

وفي ص ٢٩: اشترى ابن عمر جارية أعجبته فأعتقها، فقيل له «أعتقتها ولم تصب منها؟ فقال: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

وفي ص ٣٤: مما يحكى أنه قيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ فقال: أن يُخْلَفُ على الضيف فيعتذر بالصوم.

وفي «المرشد».

يحكى أن امرأة من نساء بغداد جازت بمحل بين الرصافة والجسر، فمرت برجل فقال لها: رحم الله على بن الجهم، فأجابته: رحم الله المعرى، ثم تركته وانصرفت، ولم يدر من سمع ذلك ما أراد كل منهما بذلك، فكانت إشارته إلى قول على ابن الجهم:

عيون المهر بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وكانت إشارتها فى الرد عليها إلى قول أبي العلاء المعرى:

فيا دار بالخيف: إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوالُ

...كما يحكى أن بنتًا من بنات اليمن كان لها أخ يسمى ضياء فقاتل في هذه الأزمان القريبة العهد في معركة بمحل يقال له العيون، فقتل هناك، فنعته أخته ببيتين فى غاية الحماس والرقة، حيث قالت:

طاح فى معرك العيون ضياها فبكت فقده بدمع هتون
لم يكن عاشقا ولكن تقيا فلماذا غدا قليل العيون

(الأعمال ٢/٣٦١)

وقال يهنئ من اسمها فاطمة الزهراء بزواجها : «فقد آن لحضرة فاطمة الزهراء أن تتجلى لعروسها، كما تجلت سميتها قبل ذلك لامرئ قيسها، وانجلى لسليمان من مملكة سبأ جمال بلقيسها، ومالت لبنى بالوداد لقيسها (الكواكب ١٣).

وكشف الطهطاوى عن مصادر ما أتى به من أخبار تراثية فقال: «اقتطفتها من ثمار الكتب العربية اليانعة، واجتنيتها من مؤلفات الفرنساوية النافعة، مع ما سنح بالبال وأقبل علي الخاطر أحسن إقبال» (مناهج ٥).

فأبان أنه سعى وراء الأفكار الناضجة النافعة، وأنه استقاها من ثلاثة منابع:

١ - الفكر العربى.

٢ - الفكر الفرنسى.

٣ - فكره الشخصى.

وأبان أنه وجد ضالته فى المؤلفات الكثيرة التي أذكر منها:

- عوارف المعارف (مناهج ٦٦).
- الحسبة (مناهج ٦٨).
- أقوم المسالك فى معرفة الممالك (الأعمال ٢/٤٤٠).
- رسالة منسوبة للقاضى عياض (الأعمال ٢/٤٤١).
- صحيح البخارى (الأعمال ٢/٥١٥).
- الإحياء، للغزالى (نفس المصدر).
- عقلاء المجانين (الأعمال ٢/٥١٦).

ويتضح من النص الذى أتيت به أنه يستقي معلوماته التراثية من مصدرين أساسيين، أما المصدر العربى فلا يحتاج إلى دراسة؛ لأنه جلىّ فى كل ما كتب لا في «مناهج الألباب» وحده. ولكني أود أن أشير إلى أن هذا التراث أعطاه - فيما أعطى - عناصر تراثية فارسية، مثل قوله: «ومن كلام أردشير بن بابك كسرى الفرس: (شهد

الجهد أحلى من عسل الكسل» (الأعمال ٢/٣١٦)، وقوله أيضًا: و«كان الفرس أيضًا يرغبون فى العشق، ويحثون عليه، كما حكى أن بهرام جور لم يرزق سوي ولد، فأخذ فى ترشيحه للملك، وهو ساقط الهمة، إلى أن اتفق المعلمون من الحكماء وغيرهم على أن لا نافع له غير العشق، فسلط عليه الجواري يعبثن به إلى أن علق بواحدة منهن، فأمرها الملك بالتجني عليه، وأنها لا تطلب إلا رفيع الهمة فى العلم والملك، فكان - بسبب ذلك - من أجل ملوك الفرس وأعلمهم» (الأعمال ٢/٥٥٥)، وقوله: «رفعت ذكره ملوكُ أوانه، وتباهت دواوينها بديوانه.. وحبته ولا تحية اسكندر وكسرى، إذ تقف الآراء عن مداه حسرى» (الكواكب ٣).

وطبيعي أن يزاحم التراث الفرنسي عنده التراث العربى، فهو الذى انتقل به من دنيا الانحطاط العثمانى إلى دنيا النهضة العالمية الحديثة، وأخذ بيده ليقود أمته إلى عالم الضياء، وأمثل ذلك بقوله: «فالمملكة التى سخر الله لها الجمع بين صنعتي الملاحة والفلاحة كالديار المصرية.. محرزة لوسائط التمدن على وجه أكمل، بشرط زوال الموانع والعوائق التى لا تخلو منها مملكة فى إدراك مرامها، كما أشار إلى ذلك نابليون الأول ملك فرنسا بقوله: (إن فرانسا تسارع فى أسباب التمدن، وتحصل منه على الكثير، إلا أن دولة الإنكليز تعوقها عن تتميم بعض أغراضها، ولولا ذلك لتقدمت كل التقديم فى حيازة جواهر المنافع وأعراضها)» (مناهج ٨).

وقوله: «وقد أشار إلى الشغل والبطالة الحكيم لفنتينه [لافونتين] الفرنساوى فى حكاية على لسان العجماوات، جعلها مكالمة بين الصرار والنملة، وترجمها بعض الأفندية فقال:

حكاية موضوعها صرار ... أودى به الجوع والاضطرار
وكان قضى الصيف فى الغناء ... وما سعى فى ذخرة الشتاء
وحين جاء زمن الثلوج ... ومنع القوم من الخروج
شاهد بيته بلا مئونه ... فراح يومًا يطلب المعونة
وقال للنملة: أنت جارتى ... ما لى سواك فى قضاء حاجتى
هل تصنعين معى المعروفا ... لا ذُقت من دهر الردى صروفا
وتقرضينى ضواعًا غله ... وطبقًا ومثردًا وحله؟

فإن أتى الصيف فقبل الصبح — أردها عليك غير الريح
قالت له النملة وهى تجرى — عذرك يا مسكين مثل عذري
ماذا فعلت فى حصيد قد مضى؟ — قال لها: كان زمان وانقضى
قالت: وما ادخرت فيه للشتاء؟ — قال لها: مستهزئا منكتا
كنت أغنى للحمير القمص — قالت له : ياصاحبى الآن ارقص
واعلم بأن السعى فى الذخيرة — يسعد كل خله وجيره
والدرهم الأبيض وهو فى يدي — ينفعنى لدي النهار الأسود

(مناهج ١٢٢)

وكما كان التراث العربى مصدرا لألوان أخرى من التراث كذلك استقى من التراث الفرنسي ألوانًا من التراث الأوربى القديم والحديث، مثل التراث اليونانى الذى يتجلى فى قوله : «وقد كتب الإسكندر إلى أرسطاطاليس أن عظنى فكتب إليه: (إذا صنعت لك السلام فجدد فكر العطب، وإذا اطمأن بك الأمن فاستشعر الخوف، وإذا بلغت نهاية الأمل فاذكر الموت، ولذا أحييت نفسك فلا تجعل لها فى الآثام نصيبا)» (الأعمال ٢٨٢/٢).

وقوله: «كان يونان أسبرطة بجزيرة مورة ممنوعين من العلوم الدنيوية، ومن الصنائع التي هي على الزينة والزخرفة مبينة، وإنما كانوا يميلون إلى الشعر، لكونه يهيج نفوسهم، وبأيدها شجاعة وحماسًا، فمن ذلك ما حُكي عنهم أنه اجتمع شيوخهم وشبابهم وصبيانهم للغناء، وشرع كل يغني بشرح حاله.ونحن كذلك بهذا الوصف الآن، ومن أراد البرهان فها هي [الفرس] الشقراء والميدان، فرد عليهم صبيانهم بقولهم: ونحن سنصير يومًا من الأيام مثلكم فى حومة الفرسان، وفضلنا سيفوق فضلكم فى حوزة الشجعان، وبهذا هابهم الأجانب فى المشارق والمغارب» (الأعمال ٢٩٣/٢).

التراث اللاتيني مثل قوله: «كان الرومانيون - فى قديم الزمان - يجبرون الوطني الذي بلغ من العمر عشرين سنة أن يحلف يمينًا أنه يحامي عن وطنه وحكومته، فيأخذون عليه عهدًا بذلك، وصيغة اليمين:

(أشهد الله على أني أحمل سلاح الشرف، لأمانع به عن الوطن والدين أحاربه منفردًا أو مع الجيش، وأشهد الله على أنى لا أكدر صفو وطنى، ولا أخونه ولا أغدر به؛ وأني أركب البحار أيًا ما لزم ذلك فى جميع الغزوات التي تأمر بها الحكومة، وعلى أني أحافظ على امتثال القوانين والعوائد المقبولة فى بلادي، الموجودة فى الحال وما يتجدد منها، وأشهد الله أن لا أتحمل أحدًا يجسر أن يخل بها وينقص انتظامها).

فمن هذا يفهم أن أمة الرومانيين كانت متشبثة بحب وطنها؛ ولهذا تسلطت على بلاد الدنيا بأسرها، ولما انسلخت عنه صفة الوطنية حصل الفشل بين أعضاء هذه الملة، وفسد حالها، وانحل عقد نظامها بتعدد اختلاف أمرائها وتعدد حكامها، فبعد أن كانت محكومة بقيصر واحدة انقسمت فى المشرق والمغرب بين قيصرين: قيصر رومة، وقيصر القسطنطينية،وكانت الشوكة لباغ طويل، فصار أمرها إلى باغين قصيرين، فآل أمرها - فى جميع الحروب - إلى الانهزام، ورجعت بعد كمال الوجود إلى الانعدام، وهكذا شأن الملة المخلة الحكومة، والدولة الغير المنظومة» (الأعمال ٢/٤٣٤).

وأهم من ذلك ما أخذه من الثقافة الفرنساوية من مواد تاريخية عن القدماء والمحدثين، ودونه فى كتبه المتعددة (الأعمال ٢/٤٤٧ – ٤٦٥).

وعدد الطهطاوى الأهداف والمنافع التى يسعى إليها هو - وربما غيره - من وراء العناصر التراثية: فى مفتتح «مناهج الألباب»:

١ – تعزيز ما أتى به من أخبار.

٢ – ارتياح الأفهام إليها.

٣ – إزاحة الأوهام عن الذهن.

٤ – تأييد السعادة بها.

٥ – تأييد السيادة بها.

٦ – لتكون ذخرًا لأهل الوطن.

٧ – وسببًا للنجاح دنيا وأخرى، (مناهج ٥).

وأضاف في ص ٩: استحسانه والإعجاب به، وفى ص ٢٤: ترويح النفوس.

المراجع:

- الطهطاوي، رفاعة رافع: «الكوكب المنير فى ليالى أفراح العزيز المقمرة» - مطبعة بولاق - ١٢٨٩هـ.

- الطهطاوي : «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية»، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية - ٢٠٠٢م.

- د. عمارة ، محمد : «الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي» - بيروت - لبنان - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ط ١ - ١٩٧٣م.

رمضان في التراث المصري
في عصر سلاطين المماليك

أ. د. حسنين محمد ربيع(*)

احتفل سلاطين المماليك بشهر رمضان احتفالاً كبيرًا يتفق ومكانته الدينية عند المسلمين، واحتوت كتب التراث على معلومات كثيرة عن احتفالات السلاطين والأمراء وعامة الناس الناس لهذا الشهر الكريم.

وكان لشهر رمضان بهجة وجلال، فقد كانت تسبقه مقدمات تبشر بمقدمه الذى كان يبعث علي البهجة والانشراح بما كان فيه من بذخ ورخاء وخير وفير، فقد كان نظّار الأوقاف منذ شهر شعبان يأخذون فى تنفيذ شروط الواقفين على المساجد من تجديد الحصر، ونظافة المساجدوطلائها، وما يلزم لزيادة الإضاءة فيها، وإعداد القناديل اللازمة لإضاءة المنارات طوال الليل حتي السحور.

وتذكر كتب الحوليات التاريخية عناية السلاطين برؤية هلال رمضان، فقد كان يخرج قاضى القضاة والقضاة الأربعة، والشهود، ومعهم الشموع لرؤية الهلال، وكان يشترك معهم محتسب القاهرة، وتجارها، ورؤساء الطوائف والصناعات والشُعب، وكانوا يشاهدون الهلال من منارة مدرسة المنصور قلاوون بالنحاسين؛ لوقوعها أمام مدرسة الصالح نجم الدين، فإذا تحققوا من رؤيته أُضيئت الأنوار على الدكاكين، وخرج قاضى القضاة فى موكبه تحفُّ به الفوانيس بالشموع والمشاعل حتى يصل إلى داره، ثم تتفرق الطوائف إلى أحيائها معلنين الصيام.

ولم تكن الأقاليم أقل عناية من العواصم بالاحتفال برؤيا هلال رمضان ، فقد شاهد الرحالة ابن بطوطة في سنة ٧٢٧ هـ - ١٣٢٧م الاحتفال برؤيا رمضان فى مدينة أبيار ووصفه بقوله: «... ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليجى الشافعى، وحضرت عنده يوم الركبة، وهم يسمون بذلك يوم ارتقاب هلال رمضان، وعادتهم فيه أن يجتمع فقراء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين من شعبان بدار القاضي، ويقف على الباب نقيب المتعممين، وهو ذو شارة وهيئة حسنة لاستقبال الوافدين، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الأعيان تلقاه ذلك النقيب، ومشى بين يديه مقدمًا إياه قائلا؛ «بسم الله سيدنا». فيسمع القاضى ومن معه، فيقومون له، ويجلسه النقيب فى الموضع اللائق به، فإذا تكاملوا هناك ركب القاضى وركبوا معه، وتبعهم جميع من

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى ونائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق.

فى المدينة من الرجال والنساء، والصبيان، حتى يصلوا إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال، فإذا ما رأوه يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب، وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع، ويصل الناس مع القاضى إلى داره، ثم ينصرفون، وهكذا يفعلون كل سنة».

وهكذا بقية البلاد لا تكاد تخلو واحدة منها من جماعة فرَّغت نفسها بوحي من دينها، لترصد الهلال، وليكون لها شرف رؤيته، وإلى نهاية دولة المماليك والجراكسة كانت تقام حفلات رؤيا هلال رمضان بعد رؤيته من منارة مدرسة المنصور قلاوون كما ذكرنا، وتذكر إحدى الحوليَّات أنه فى سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م بعد أن حضر القضاة الأربعة بالمدرسة المنصورية وحضر المحتسب، وبعد رؤية الهلال سار المحتسب على رأس موكب كبير تتقدمه المشاعل وتحيط به الشموع والفوانيس، وأضيئت الحوانيت فى جميع الشوارع التى سلكها إلى داره، ثم تفرقت الجموع معلنين الصيام.

وفى مستهل الشهر يجلس السلطان فى الميدان تحت القلعة، ويتقدم إليه الخليفة والقضاة الأربعة بالتهنئة، ثم يستعرض أحمال الدقيق والخبز والسكر والغنم والبقر المخصصة لصدقات رمضان، يعرضها عليه المحتسب بعد أن يكون قد استعرضها فى أنحاء القاهرة، وينعم السلطان علي المحتسب وعلي كبار رجال الدولة.

ويذكر أحمد بن علي المقريزي المتوفى عام ١٤٤٢م فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف بخطط المقريزي، أن سوق الشماعين فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين فى النحاسين كان يحتفل بمقدم هذا الشهر، فتعلق على وجهات الحوانيت وعلى جوانبها أنواع الفوانيس المتخذة من الشمع، وأشكال ما بين كبيرة وصغيرة، ومنها شموع المواكب الكبيرة، ومنها ما يزن عشرة أرطال، ومنها ما يُحمل علي العجلة، ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار، برسم الركوب لصلاة التراويح والخروج ليلاً، فيمر في شهر رمضان من ذلك ما يجل عن الوصف، وتستمر حوانيته مفتوحة إلى منتصف الليل لكثرة ما يُشترى، وما يكترى من الشموع الموكبية، ومن تلك التقاليد نشأت فوانيس رمضان.

وكانت أنواع الياميش تفرش على أبواب البدَّالين يعجُّ بها سوق السكَّرية داخل باب زويلة، فيتسابق الناس إلى الاغتراف منه، وكانت رخيصة السعر فيتمتع بها الغني والفقير، ويوزَّع منها علي أطفال الحارة حينما يطوفون على الدور بفوانيسهم الموقدة محيين أصحابها.

وكانت وكالة قوصون بشارع باب النصر التى شُيدت حوالي سنة ١٣٤٠م - والباقى مدخلها إلى الآن - مقر تجَّار الشام ينزلون فيها ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والفستق والجوز واللوز والخرنوب، وكانت حركة التجارة فيها مدهشة؛ لكثرة ما فيها من أصناف البضائع وحركة البيع والشراء.

ولمَّا تخرَّبت تلك الوكالة انتقلت تجارة الياميش إلي وكالة مطبخ العسل بالتمبكشية بالجمالية،وكانت مخصصة لبيع أصناف النُقل كالجوز واللوز ونحوهما.

واهتم سلاطين المماليك بالتوسع فى الإحسان والصدقة طيلة رمضان ، فالسلطان برقوق كما ذكر المؤرخ أبو المحاسن ابن تغري بردي فى كتابه «مورد اللطافة»اعتاد أن يذبح طوال سلطنته في كل يوم من أيام رمضان خمسة وعشرين بقرة، يصدَّق بلحومها - مع ما يُطبخ من الطعام، وما يخبز من آلاف الأرغفة - على أهل الجوامع والخوانق والربط والسجون، بحيث يخصّ كل فرد رطل لحم مطبوخ وثلاثة أرغفة، وحاكى السلطان برقوق فى ذلك من أتى بعده من السلاطين، فأكثروا من ذبح الأبقار وتفريق لحومها، أما المساكين والمعدومون فرتَّب لهم سلاطين المماليك في شهر رمضان مطابخ لإفطار الصائمين وتوزيع الصدقات عليهم، وقد بلغ عدد المترددين على هذه المطابخ أيام السلطان بيبرس البندقداري خمسة آلاف نفس في كل يوم من أيام شهر رمضان كما أشار المقريزي فى كتاب «السلوك»، كذلك اعتاد سلاطين المماليك - كما ذكر المقريزي أيضًا - أن يعتق الواحد منهم فى شهر رمضان ثلاثين نسمة، أي بعدد أيام الشهر، يضاف إلى ذلك كله أنواع التوسعة على العلماء وأصحاب الجامكيات الذين تصرف لهم رواتب إضافية فى شهر رمضان، وبخاصة السكر الذي تتضاعفت كمية المستهلك منه في هذا السهر بسبب الإكثار من عمل الحلوى، وقد بلغ راتب السكر أيام الناصر محمد في رمضان سنة ٧٤٥ هـ - اعتمادًا على كتاب «خطط المقريزى» - ثلاثة آلاف قنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار، منها ستون قنطارًا كل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية.

وحاكى أمراء المماليك سلاطينهم في الإكثار من الصدقة والإحسان فى شهر رمضان كما ذكر أستاذنا أ. د. سعيد عاشور فى كتابه «المجتمع المصرى فى عصر المماليك»، من ذلك أن الأمير طشتمر البدرى عُرف عنه حرصه على الإكثار من ذبح البقر والغنم فى ليالي رمضان، كذلك حرص السلطان برقوق على فعل ذلك أيام إمارته قبل أن يصبح سُلطانًا.

وأشار ابن الحاج فى كتابه «المدخل إلى الشرع الشرف» أن عامة الناس كثُرت اجتماعاتهم وزياراتهم فى شهر رمضان. فإذا تخلّف فرد عن زيارة قريبه أو صاحبه أو معلمه فى شهر رمضان أدى ذلك إلي سوء تفاهم بين الطرفين، وعمد كثير من الناس إلى إحياء رمضان فى الجوامع والمساجد بقراءة صحيح البخارى، أو صحيح مسلم، أو بالذكر، أو بالصلاة، ولا سيما صلاة التراويح. وجرت العادة فى عصر المماليك ـ اعتمادا على كتاب ابن الحاج أيضًا ـ أنه عند ختم القرآن بأحد المساجد فى شهر رمضان يُحتفل بذلك احتفالا كبيرًا: فتقرأ القصائد، ويجتمع المؤذنون ليكبروا جماعة فى موضع الختمة، ثم يؤتى بفرس أو بغلة ليركبها القارئ الذى تولى قراءة الختمة، ويزفوه إلى بيته فى موكب هائل، وأمامه القراء يقرأون، والمؤذنون يكبرون، والفقراء يذكرون، وربما أضاف بعضهم إلى ذلك ضرب الطبل والدف والأبواق.

واشتملت حجج أوقاف المساجد والمدارس على الكثير من أنواع البر والصدقات فى هذا الشهر، من زيادة مرتبات خدمة المساجد وأئمتها، وتوزيع السكر عليهم وكسوتهم مع كسوة فقيه وعرّيف الكتاب الملحق بهما، وكسوة التلاميذ اليتامى وغيرهم.

وفى المدارس تضاعف كميات الأكل والحلوى للطلبة والأساتذة، وتخُصّص الأموال الكثيرة لشراء قناطير اللحم الضأن والخبز والأرز والعسل والحبوب لطبخها وتوزيعها على الفقراء.

وفى بعض الخوانق والربط اشترط واقفها توزيع الحلوى على قاطنيها كل ليلة جمعة من رمضان ، هذا عدا زيادة المخصصات في رمضان.

وذكر المؤرخ بيبرس الدوادار وابن أيبك والمقريزي وغيرهم من مؤرخي عصر سلاطين المماليك أن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري كان يرتب في أول شهر رمضان بمصر (الفسطاط) والقاهرة مطابخ لأنواع الأطعمة، لتوزيعها على الفقراء والمساكين.

وفى دولتي المماليك ذكرت المصادر التاريخية أنه كان يوزع على الفقهاء والعلماء توسعة في شهر رمضان لأولادهم، وكان هناك تقليد طريف وهو إعداد أحمال من السكر والمكسرات ولحم الضأن منذ أول رمضان لتوزيعها على الفقراء فى شهر رمضان تحت إشراف المحتسب وناظر الدولة، وكانت الدور مفتوحة لاستقبال الوافدين عليها للإفطار، ولا فرق بين غنى وفقير.

وكانت قراءة صحيح البخارى بقلعة الجبل من أهم المظاهر الرسمية لإحياء شهر

رمضان في عصر سلاطين المماليك، وذكر المقريزي فى كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» وأبو المحاسن ابن تغري بردي في كتابه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» أنه جرت العادة أيام السلطان شعبان أن يبتدأ بقراءة البخاري في أول يوم من شهر رمضان بين يدى السلطان، ويحضره طائفة من قضاة القضاة والفقهاء، وظل الأمر على نفس المنوال حتى تولى منصب السلطنة المؤيد شيخ المحمودى سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، فجعل السلطان المؤيد قراءة البخارى بالقلعة تبدأ من أول شعبان، وتستمر حتي السابع والعشرين من رمضان، وأضاف المقريزي أن السلطان المؤيد شيخ زاد على ذلك بأن دعا لحضور ذلك المجلس جمعًا كبيرًا من مشايخ العلم والطلبة، حتى زاد عددهم على ستين فقيهًا، منح كل واحد منهم ألف درهم فلوسًا.

فإذا تم ختم صحيح البخارى - وذلك فى الثلث الأخير من شهر رمضان - احتفل السلطان بذلك احتفالاً كبيرًا فى القلعة، فترسل الخلع إلى القضاة والعلماء والفقهاء، وتوزع الأموال على الناس، وفى نهاية دولة المماليك الجراكسة كانت تقام حفلة ختام قراءة البخاري في سرادق كبير فى الحوش السلطاني بالقلعة.

وحفلت كتب التراث بمعلومات وافرة عن المغالاة فى إعداد موائد شهر رمضان، والإفراط فى المرطبات والحلوى وعلى رأسها القطايف والكنافة، وكلاهما مما اختصت به مصر من أقدم العصور، ويقال إن الكنافة صنعت خصيصًا لسليمان بن عبد الملك كما قيل إنها عملت لمعاوية وكلاهما كان يتسحر منها. وللعلامة جلال الدين السيوطي رسالة ظريفة عنوانها: «منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف».

وكانت الكنافة والقطايف موضع مساجلات بين الشعراء، فمن قول علم الرؤساء أبى القاسم عبد الرحمن بن هبة الله المصرى فى القطائف:

وافى الصيام فوافتنا قطائفه ... كما تسنمت الكثبان من كثب

وله أيضًا فى القطائف المقلوة:

أهلاً بشهر غدا فيه لنا خلف ... أكل القطائف عن شرب ابنة العنب

وللصلاح الصفدي من علماء ومؤرخي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادى:

أتاني صحن من قطائفك التي ... غدت وهى روض قد تنبت بالقطر
ولا غرو إن صدقت حلو حديثها ... وسكرها يرويه لي عن أبي ذر

ولبرهان الدين القيراطي وكتب بها إلى القاضي نور الدين بن حجر والد القاضي والمؤرخ شهاب الدين أحمد بن على العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م:

مولاي نور الدين ضيفك لم يزل ... يروي مكارمك الصحيحة عن عطا
صدقت قطائفك الكبار حلاوة ... بفمي وليس بمنكر صدق القطا

وللشاعر المصرى الجمال أبى الحسن الجزار المتوفى سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م فى عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الألفى من قصيدة إلى الأمير جمال الدين ابن يغمور:

ما رأت عيني الكنافة إلا ... عند بياعها على الدكان

وقوله للوزير شرف الدين الفائزى:

أيا شرف الدين الذى فيض جوده ... براحته قد أخجل الغيث والبحرا
لئن أمحلت أرض الكنافة إننى ... لأرجو لها من سحب راحتك القطرا
فعجل به جواد فما لي حاجة ... سواه نباتا يثمر الحمد والشكرا

وقوله:

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر ... وجاد عليها سكر دائم الدر
وتبًّا لأوقات المخلل إنها ... تمر بلا نفع وتحسب من عمري

وهناك أنواع أخرى من الحلوى اهتم المصريون بأكلها فى شهر رمضان، تصادف أن ارتفعت أثمانها في رمضان سنة ٩١٧هـ/ ١٦٦١م فى عهد السلطان قانصوه الغوري فرفعت شكوى منظومة إلى المحتسب حوت أنواعًا من الحلوى منها:

لقد جاد بالبركات فضل زماننا ... بأنواع حلوى نشرها يتضوع
حكتها شفاه الغانيات حلاوة ... ألم ترني من طعمها لست أشبع
فلا عيب فيها غير أن محبها ... يبدد فيها ماله ويضيع
فكم ست حسن مع أصابع زينب ... بها كل ما تهوى النفوس مجمع
وكم كعكة تحكي أساور فضة ... وكم عقدة حلت بها البسط أجمع
وكم قد حلا في مصر من قاهرية ... كذاك المشبك، وصله ليس يقطع
وفى ثوبه المنفوش جاء برونق ... فيا حبذا أنواره حين تسطع
وقد قصرت فى وصف القطايف هائمًا ... تراني لأبواب الكنافة أقرع
فيا قاضيًا بالله محتسبًا عسى ... ترخص لنا الحلوى نطيب ونرتع

أما عن التسحير، وهو إيقاظ النيام كي يتسحروا ويشربوا قبل فوات الوقت، فيؤثر عن عنبسة بن إسحاق والي مصر فى سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٢م أنه كان يذهب إلى جامع عمرو ماشيًا من مدينة العسكر، وكان ينادي في طريقه بالسحور.

وكان الأديب ابن نقطة المتوفى سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م فى عهد السلطان العادل الأيوبي يسحر الناس مناديًا «نياما... قوما قوما للسحور».

وكان المؤذنون يتجاوبون على المنارات بتذكير النيام للسحور فى فترات متفاوتة من الليل بأشعار لطيفة وبأهازيج عامية نذكر منها على سبيل المثال:

أيها النوَّام قوموا للفلاح ... واذكروا الله الذى أجرى الرياح
إن جيش الليل قد ولى وراح ... وتدانى عسكر الصبح ولاح

اشربوا عجلى فقد جاء الصباح

معشر الصوَّام يابشراكمو ... ربكم بالصوم قد هناكمو

وقد ذكر العالم والفقيه محمد بن الحاج العبدري الفاسي المصري، وكان عالمًا فاضلاً متزمتًا توفي في القاهرة سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م فى عصر السلطان الناصر محمد ابن قلاوون - أنكر ابن الحاج فى كتابه «مدخل الشرع على المذاهب» كثيرًا من التقاليد والعادات التى انتشرت فى مصر فى عهده، وفى نقده لهذه التقاليد والعادات أعطانا فكرة عما كان عليه الحال فى مصر وفى غيرها فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، وعندما تحدث ابن الحاج عن التسحير فى عصره قال: إن المسلمين عرفوا التسحير منذ صدر الإسلام؛ إذ أنهم يعرفون جواز الأكل بأذان بلال ومنعه بأذان ابن مكتوم، ومن رأي ابن الحاج السير على تلك السنة أي أذانان - بشرط تمييز صوت الأول عن الثاني، وبخاصة أنه جرت العادة أن المساجد الجامعة يكون فيها أكثر من مؤذن.

ثم ذكر ابن الحاج أن التسحير فى الديارالمصرية - يقول المؤذن تسحروا كلوا واشربوا ، وما أشبه ذلك، ويقرأون الآية الكريمة ﴿يا أيها الدين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ ويكررونها مرارًا، ثم ينبهونهم إلى الشرب قبل الإمساك بتلاوة الآية الشريفة ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا﴾ إلى قوله تعالى ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا﴾، ثم ينشدون القصائد.

وجرت العادة في القاهرة ومصر (أي الفسطاط) - كما ذكر ابن الحاج - أن يطوف أصحاب الأرباع وغيرهم بالطبلة على البيوت، وهم يضربون عليها، أما أهل الإسكندرية فاعتادوا أن يكون التسحير بدق الأبواب على أصحاب البيوت والمناداة عليهم، ويقال إن بعض العلماء اقترح على السلطان الأشرف برسباي سنة ٧٣٠هـ/ ١٤٢٦م بعدم إطفاء القناديل فى رمضان إلا قبل طلوع الفجر، إيذانا بآخر فرصة للتسحير.

وأنكر ابن الحاج فى كتاب «المدخل» أيضًا تعليق الفوانيس التى جعلوها علمًا على جواز الأكل والشرب ما دامت معلقة علي المنارات، وعلي تحريم ذلك إذا أنزلوها؛ وذلك لأن المنارات كانت تعلق عليها القناديل أي الفوانيس مضاءة حتى السحور، ثم تطفأ إيذانًا بالإمساك.

والحقيقة أن فانوس السحور كان موضع مساجلة بين أدباء وشعراء عصرَي الأيوبيين والمماليك يتبارون فى وصفه بخيال رائق، منها ما ذكره على بن ظافر الأديب المصرى ، والأديب أبو الحجاج يوسف بن على المعروف بالنعجة المتوفى سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م وغيرهما من الأدباء والشعراء.

وإذا ما قارب شهر رمضان الانتهاء وحش المسحر الشهر بقوله «لا أوحش الله منك يا شهر الصيام، لا أوحش الله منك يا شهر القيام، لا أوحش الله منك يا شهر الولائم ،لا أوحش الله منك يا شهر العزائم، لا أوحش الله منك يا شهر الكرم والجود».

ولم يكن توحيش رمضان قاصرًا على المسحراتي، بل سبقه فيه المؤذنون والقراء، وأنكر جمال الدين القاسمي التوحيش، وعاب على أحد العلماء وهو يوحش رمضان، وقال: يجب أن يتوجه بالموعظة ويقول:

«عباد الله اشكروا نعمة الله على ما يسَّر لكم من صيام رمضان، وأعطاكم من نعمة الإيمان، فقد أمركم بذلك من بنوره يهتدى المهتدون... وَدِّعوا شهر رمضان بكثرة الاستغفار من التقصير، والعزم على دوام الجد والتشمير، فقد كان للمتقين روضة وأنسًا، وللغافلين قيدًا وحبسًا، كان نزعة للأبرار، وقيدًا للأشرار، فطوبى لمن حل فيه عقدة الإصرار، وحل فى روضة التقوى فى منزل الافتقار».

وفى أواخر شهر رمضان اعتاد الناس فى عصر سلاطين المماليك عمل الكعك وتوزيعه، وكانت هذه عادة ترجع إلى أيام الدولة الإخشيدية، واستمرت فى عصرَي

الأيوبيين والمماليك، فتذكر كتب التراث أن أبا بكر محمد بن علي المادرائي وزير الدولة الإخشيدية عمل كعكًا حشاه بالدنانير الذهبية أطلقوا عليه اسم (افطن له)، واعتنى الفاطميون بعمل الكعك، وهذه العناية جعلت لمطبخهم وطباخيهم شهرة، وقد بقيت من طباخيهم بقية عملت فى القصور الأيوبية.

وللشاعر المصرى الجمال أبي الحسن الجزار الذى عاش عصر المماليك في السلطان المملوكي قلاوون الألفي أبيات طريفة فى طلب الكعك، منها ما كتبه إلى الأمير جمال الدين ابن يغمور:

أيهذا الأمير قد أشكل المعنى ومازالت عارفًا بالمعاني

ظاهر البستندود لم أدر ماذا فيه حملا وباطن الخشكنانِ

أتراني فى العيد أجهل ذا المعنى كجهل الحلواء فى رمضانِ

واستمرت مصر فى عصر سلاطين المماليك معنية بعمل الكعك وتوزيعه كصدقه على الفقراء؛ حتى لا يحرموا منه، وتنص وثائق الوقف، من ذلك العصر على توزيعه في عيد الفطر على الفقراء واليتامى، ومنها وقفية الأميرة تتر الحجازية، والتى ينص فيها على توزيع الكعك الناعم والخشن على موظفي مدرستها التي أنشأتها سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م.

وأصبح المصريون يتهادونه ويتفاخرون بإجادته ، ويقول محمد بن السعودي الخياط، وكان يسكن درب الأتراك بجوار الأزهر إنه في سنة بضع وستين وسبعمائة، أي فى عصر السلطان الأشرف شعبان جاءه في عيد الفطر من الجيران أطباق كعك على عادة أهل مصر ملأ بها زيرًا كبيرًا، لأن هذا الحي كان يسكن به الأكابر والأعيان.

ولرواج هذا النوع من الحلوى اهتم به تجار الحلوى، وكانت أسواقه رائجة فى عصر سلاطين المماليك، وكان للفن دخل فى صناعته، فعملت له القوالب المنقوشة والمكتوبة، ومنها مجموعة في متحف الفن الإسلامى مكتوب على بعضها: «كل هنيًا»، و«كل واشكر»، «كل واشكر مولاك»، و «بالشكر تدوم النعم».

ولم يقف الاهتمام بالعيد عند عمل الكعك وأصناف الحلوى، بل شمل السمك المملَّح، فقد ذكر سبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٧م أنه أكل يوم الفطر سمكًا مملحًا.

وكذلك انتقد ابن الحاج في كتابه «المدخل» أهل مصر فى أكلهم السمك المشقوق في عيد الفطر، كما انتقدهم فى أكل الكعك عقب الصيام؛ لأن كليهما ضار عقب الصيام.

هذه لمحات سريعة عن شهر رمضان فى التراث المصرى في عصر سلاطين المماليك.

ما الكتاب؟

د. أحمد شوقي بنبين

إذا ما حاول الإنسان أن يبحث فى الأشكال والأحجام التى اتخذهاالكتاب عبر تاريخه الطويل فإنه يجد أن أهم تحول حدث فى شكله هو ذلكم الانتقال الذى تم فى بداية العهد المسيحى من اللفافة إلى الكراس[(١)] وهو شكل الكتب الذى تبنته معظم المجتمعات الإنسانية بما فيها المجتمع العربى الإسلامى الذى أخذ فيه القرآن الكريم أول شكل للكتاب[(٢)]. فما معنى هذا اللفظ؟ وما هى الدلالات المختلفة التى لحقته فى اللغة العربية عبر العصور؟ وما هى مرادفاته؟ أسئلة ثلاثة هى محور هذا العرض.

الكتاب من الكَتب وهو لفظ سامي يعني الجمع، إذ الكتابة فى اللغة الآرامية تعنى رسم الحروف، يقول الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ): الكتب ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط. وقد يقال ذلك المضموم بعضها إلى بعض باللفظ[(٣)]. ولهذا سُمي كتاب الله وإن لم يكتب كتابًا ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[(٤)]، وكان لفظ «كتاب» مطلقًا بدون تعريف يعني قبيل الإسلام وبعده وثيقة[(٥)] من الوثائق قد تكون رسالة أو معاهدة أو نقشًا أو غيرها، والكاتب فى ذلكم العهد هو الناسخ[(٦)] فكُتّاب الوحى نساخه، وقد أطلق «الكتاب» بالتعريف على القرآن الكريم شأنه فى ذلك شأن (Livre) اللاتينى و (Bible) اليونانى، فكلاهما يعنى لغة: «كتاب»، وأصبحا يطلقان على الكتاب المقدس مع تغليظ الحرف الأول (Bible)[(٧)] و (Livre).

---

(١) يعتقد أن لفظ كراس تعريب للفظ اللاتينى (codex) الذي يعني الخشبة، والكوديكس هو الشكل الذى أخذه الكتاب بعدما أصبح الورق مادة للكتابة عوض الألواح الطينية وورق البردى وغيرها من مواد الكتاب التى كانت سائدة فى العصر القديم، وظهور الورق ساعد على تطوير الكتاب ذي الصفحتين المتقابلتين. ولما كتب القرآن جمع أولاً بين لوحين أو دفتين من الخشب قبل أن يأخذ شكل الكراس علي عهد عثمان ﷺ.

(٢) حسب ابن الكلبى وجد كتاب مكتوب فى الحيرة قبل الإسلام.

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن: مادة كتب.

(٤) البقرة، ١.

(٥) لايكاد مفهوم الوثيقة فى ذلك العهد يختلف كثيرًا عن مفهومها الحديث الذي يعني كل ما يشتمل على معلومات سواء كان رسالة أو مخطوطًا أو مطبوعًا أودورية أو غيرها، وهو المفهوم اللاتينى القديم للفظ «وثيقة» التى هى (Do-cere) فى اللاتينية و (document) فى الفرنسية، ويعني كل ما يعطينا معلومة من المعلومات.

(٦) الكاتب بمعنى المؤلف المبدع لم يظهر إلا فى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجرى مع عبدالحميد الكاتب وغيره، شأنه فى ذلك شأن اللفظ الفرنسي (écrivain) أي كاتب، فقد كانت تعني الناسخ قديمًا (Scribe)، ولم تصبح تعني المؤلف المبدع إلا مع عصر النهضة، وكذلك قل في المصطلح اليوناني ببليوغرافوم (biblio-graphum) فإنه كان يعنى الناسخ الذي ينسخ الكتب فى العصر المصطلح وأصبح فى القرن التاسع عشر الكاتب الذي يكتب عن الكتب وليس الذي ينسخها.

(٧) من المستحن أن نشير إلى أن أصل كلمتى Lovre و bible تعنيان «كتابا» في اللاتينية واليونانية، هو قشرة الشجرة وهو لحاء الشجر عند العرب.

وقد أخذ لفظ «كتاب» معان مختلفة فى القرآن الكريم، فقد أطلق علي الكتاب الذى يكتبه الناس بأيديهم، كما أطلق على القرآن، وعلى الكتب السماوية الأخرى، وهى: التوراة، والإنجيل، وصحف إبراهيم، وقد جمعت آية هذه المعاني الثلاثة فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ والكتاب الثاني التوراة، والثالث الجنس كتب الله سبحانه وتعالى وكلامه[١].

فالكتاب الأول ما كتبوه بأيديهم المذكورة فى قوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾، والكتاب الثاني التوراة، والثالث لجنس كتب الله أي ما هو شيء من كتب الله سبحانه وتعالى وكلامه[٢] وقد يعني لفظ «كتاب» الكتب المنزلة كلها من عند الله ، قال تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾[٣] أي بالكتب المنزلة، فوضع ذلك موضع الجمع إما لكونه جنسًا كقولك الدرهم في أيدي الناس أو لكونه فى الأصل مصدرًا[٤].

والكتاب هو الصحيفة والدواة كما جاء فى لسان العرب. يقول الراغب الأصفهاني: الكتاب فى الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيها، وفى قوله: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء﴾، فإنه يعنى صحيفة فيها كتابة، ولهذا قال: ﴿ولو نزلنا عليك كتابًا فى قرطاس﴾ أى مكتوبًا فى قرطاس[٥].

والكتاب هو القَدَر[٦] قال تعالى: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾، وقوله: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾. وجاء الكتاب فى القرآن الكريم بمعنى العلم: قال تعالى: ﴿قال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله يوم البعث﴾ أي فى علمه وإيجابه وحكمه[٧]، ويعني الكتاب كذلك الحكم، قال تعالى: ﴿لكل أجل كتاب﴾ أي حكم. والكتاب ما أثبت على بني آدم من أعمال كما جاء فى قوله تعالى فى سورة الطور: ﴿والطور وكتاب مسطور). والكتاب كذلك الحجة الثابتة من جهة الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[٨].

---

(١) آل عمران، ٧٨.

(٢) معجم الراغب الأصفهاني مادة كتب.

(٣) آل عمران ، ١١٩.

(٤) معجم الراغب الأصفهاني مادة كتب.

(٥) معجم الراغب الأصفهاني: مادة كتب.

(٦) جاء فى كتاب «شعراء النصرانية» للأب لويس شيخو أن عدي بن زيد الشاعر النصراني استعمل لفظ كتاب بمعنى القدر في بيت من شعره، ولكن يحتمل أن يكون هذا البيت من الشعر الموضوع بعد الإسلام. انظر شعراء النصرانية، ص ١٠٢.

(٧) معجم الراغب الأصفهاني: مادة كتب.

(٨) الحج، ٨.

هذه بإيجاز بعض معانى لفظ «كتاب» التى وردت فى القرآن الكريم، وعند بداية حركة التأليف فى التراث العربى فإن «كتاب» لم يكن يعني المعنى المتعارف عليه اليوم، بل كان يعني فى الغالب الأعم بابًا أو فصلاً أو جزءًا من الكتاب المعروف، فكان حجمه صغيرًا؛ لذا أطلقت عليه تسميات أخرى توحى بصغره مثل المجلدة والكراسة وغيرها من المرادفات التي سنعود إلى معالجتها لاحقًا.

وبعد هذا أصبح لفظ «الكتاب» علَمًا على الكتب الأساسية فى علوم العربية، فالكتاب معرفًا يعنى القرآن كما سبق ذكره، وإذا أطلق فى النحو أريد به كتاب سيبويه (١٤٨ - ١٨٠هـ)؛ لأنه لم يوضع كتاب مثله فى النحو قبله أو بعده كأنه قرآن النحو، وسمي كذلك؛ لأن سيبويه لم يتمه ولم يسمه بسبب الموت المبكر والمفاجئ لصاحبه.

وإذا ذكر الكتاب فى الفقه أريد به مختصر القدوري فى فروع الحنفية لأبي الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي الحنفي (٤٢٨هـ)، إنه متن متين معتبر متداول بين الأئمة الأعيان وشهرته تغني عن البيان، قال صاحب مصباح أنوار الأدعية: «إن الحنفية يتبركون بقراءته فى أيام الوباء، وهو كتاب مبروك مَن حفظه يكون أمينًا من الفقر»[(١)]. وإذا أطلق الكتاب فى المعانى والبيان أريد به كتاب «دلائل الإعجاز» للشيخ عبد القاهر الجرجانى، وأضاف أحمد بن سليمان بن كمال باشا التركي (٩٤٠هـ) أن الكتاب فى عرف الأصوليين يطلق على أحد أركان الدين، وفى عرف المصنفين على طائفة من المسائل اعتبرت منفردة عما عداها[(٢)].

وقد يكون لفظ كتاب جزءًا من العنوان فيجب كتابته مع عنوان الكتاب كـ«كتاب الأم» للإمام الشافعى، فلفظ «كتاب» هنا جزء لا يتجزأ من العنوان، ولا يجوز تسمية كتاب الشافعى بالأم، وقد خصص حاجي خليفة (١٠٧٦هـ) فصلا فى حرف الكاف من الجزء الثانى من «كشف الظنون» الذى يعتبر أول ببليوغرافيا دولية عامة فى التراث العربي

(١) يشتمل مختصر القدوري على اثني عشر ألف مسألة، وعليه شروح كثيرة ونظم وتلخيصات ومختصرات. وإذا أتيح لنا أن نطلق لفظ كتاب على مؤلف من المؤلفات المالكية فنطلقه بالدرجة الأولى على «رسالة ابن أبى زيد القيراوني» (٤٨٦هـ) التى كان يحفظها المالكيون، أو «المدونة فى فروع المالكية» لعبد الرحمن بن القاسم (١٩١ هـ) أو «مختصر الشيخ خليل» (٧٧٦ هـ) الذى أعطى الشكل النهائي للمذهب المالكي، أما فى المذهب الشافعي فقد يطلق الكتاب على «مختصر المزني الشافعي» (المتوفى ٢٦٤ هـ) الذى يعتبر أحد الكتب الخمسة المشهورة بين الشافعية التي يتناولونها أكثر تداول وهى سائرة فى كل الأمصار كما ذكره النووى فى «التهذيب»، والمزني أول من صنف فى مذهب الشافعي. وقد عاصر القدوري رجلين انتهت إليهما رئاسة مذهبيهما، هما: أبو حامد أحمد ابن محمد الإسفراييني الشافعي المتوفى ببغداد فى عام ٤٠٦هـ وقد شرح المزني فى تعليقه نحوًا من خمسين مجلدًا ذكر فيها مذاهب العلماء، وعبد الوهاب المالكي البغدادي الذي توفي بالقاهرة سنة ٤٢٢هـ ودفن بالقرافة. أما في ميدان التصوف فإن «الفتوحات المكية» لابن عربي الحاتمي المتوفى سنة ٦٣٨ أجدر بأن يطلق عليه لفظ «الكتاب».

(٢) كشف الظنون، ج ٢ ، ص ١٣٨٣.

المخطوط، وعنوانه كالتالى: فصل فى الكتب التى لا يصح تجريدها عن الإضافة، وأعطى مجموعة كبيرة من الكتب التى يعتبر لفظ «كتاب» جزءًا لايتجزأ من العنوان نذكر منها على سبيل المثال: «كتاب فعلت وأفعلت» لأبي علي القالي، و«كتاب الهاءات» لأبي بكر النحوى ٣٢٨هـ، و«كتاب الأبنية» لأبى إسحاق النحوى، و«كتاب الأخفش» فى النحو، و«كتاب الباء» لابن عربي تكلم فيه على أسرار الحروف، و«كتاب الياء» له كذلك، و«كتاب التصغير» لثعلب النحوي وغيرها كثير.

وقد سار على هذا المنوال إسماعيل باشا البغدادى (١٩٢٠م) مستدركًا ما فات حاجى خليفة من الكتب التى يعتبر لفظ «كتاب» جزءًا من عنوانها، ولم يبين صاحبا الكشف وذيله «إيضاح المكنون» الطريقة التى توصلا من خلالها إلى التأكد من الكتب التى لا يصح تجريدها عن الإضافة، كما لم يشيرا إلى مصادرهما فى هذا الباب، وقد ثبت بعد القراءة الدقيقة فى هذه العناوين أن حاجي خليفة صنف بعض الكتب باعتبار أول كلمة من العنوان، كما صنفها ضمن الكتب التى لا يصح تجريدها عن الإضافة مثل كتابى أبى بكر ابن المنذر النيسابورى (٣١٨ هـ): «الإشراف على مذاهب الإشراف»، و«الاقتصاد فى الإجماع والخلاف». فالكتابان مصنفان فى باب الألف وضمن لفظ كتاب فى الكشف.

وأما مرادفات لفظ «كتاب» فهى متعددة رافقته منذ نشأته فى المجتمع العربى الإسلامى إلى العصر الحديث، وأول هذه المرادفات لفظ «قرآن» الذى انتهت معظم الأبحاث إلى أنه لفظ اقتبسه العرب من الآرامية أو السريانية، وكلاهما لغة سامية ومعناه القراءة والتلاوة[1].

وقد اضطر العرب إلى هذا الاقتباس؛ لأن فعل «قرأ» فى الجاهلية لم يكن يعني التلاوة، بل كان يعني الحمل والولادة، فيقال قرأت الناقة أي حملت، وقرأت المرأة أي ولدت، ولا يعني هذا أن اللغتين الساميتين المذكورتين أقدم من العربية لأن وجود القرآن بمعنى القراءة فى اللغات السامية الأخرى، وعدم وجود نصوص عربية جاءت فيها هذه المادة هو السبب فى هذا الاقتباس، قال المستشرق الألماني برجستراسر: إن اللغات الآرامية والحبشية، وهما ساميتان والفارسية، وهي إحدى اللغات الهندية

(١) قال المستشرق الألمانى شفالي (١٩١٩م): لفظ قرآن يعنى القراءة أي قراءة الكتب المقدسة بالسريانية ، وقد تبعه فى ذلك معظم علماء أوروبا من المستشرقين، وكان شفالي قد أشرف على إعادة نشر كتاب «تاريخ القرآن» الذي وضعه أستاذه نولدكه (Nöldeke) وقد نقله من اللغة الألمانية إلى اللغة العربية الأستاذ جورج تامر ونشره فى نيويورك فى سنة ٢٠٠٠م.

الأوربية تركت في العربية آثارًا لا تنكر؛ لأنها كانت لغات الأقوام المتمدينة المجاورة للعرب في القرون السابقة للهجرة. وقيل القرآن بالهمز، وقيل قران[١] بدون همز بحسب اختلاف مذاهب العلماء، وسواء كان مهموزًا أو بدون همز فإن معناه الجمع، يقول الراغب الأصفهاني: القراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل بمعنى جمع الحروف بالنطق، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ قال ابن عباس: إذا جمعناه وأثبتناه في صدرك فاعمل به[٢]. وقال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله لكونه جامعًا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، أما الذين قرأوا قرآن بدون همز فإنهم جعلوه مشتقًا من «قرن» بمعنى جمع، قال الأشعري: «قرن الشيء بالشيء إذا ضمه إليه»، ولأن السور والآيات تقرن فيه ويضم بعضها إلى بعض[٣].

ولفظ كتاب يتناوب في الاستعمال مع لفظ قرآن في كلام الله[٤] والكلمتان مترادفتان، وكثير من الآيات تؤكد نزول الكتاب أو القرآن مجزءًا من السماء، ومع ذلك فقد لاحظ المستشرق الدانماركي بوهل (Buhl) (المتوفى ١٩٣٢) أن من يدقق في استعمالهما معًا يخلص إلى أن هناك فرقًا بينهما بحيث إن لفظ كتاب أوسع دلالة من لفظ قرآن، وقد يسمى الوحي قرآنًا عندما يوحي به مجزءًا حسب الأحداث[٥].

وفي الثلاثينيات من القرن العشرين استنتج المستشرق الإنجليزي ريشارد بل (Richard Bell) من دراسة الأبحاث التي وضعها كل من نولدكه (Nöldeke) ١٩٣٠م وتلميذه شفالي (F. Schwally) ١٩١٩م أن لفظ قرآن قد غلب استعماله في السور المكية والسور المدنية الأولى، وأن لفظ كتاب هو الأكثر استعمالاً في السور المدنية للتعبير عن القرآن الكريم، وقد استخلص من هذا أن فكرة القراءة والتلاوة كانت هي السائدة في المرحلة الأولى من نزول الوحي، وأن فكرة الكتابة بدأت تأخذ مكانها في التفكير الإسلامي لما استقر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالمدينة المنورة[٦]، ولا ينفي هذا فكرة كتابة الوحي في المرحلة المكية.

---

(١) من الذين رأوا أنه بدون همز الشافعي والفراء والأشعري، وممن رأى أنه مهموز الزجاج واللحياني وجماعة انظر: «مباحث في عوم القرآن» لصبحي الصالح، ص ١٨.

(٢) معجم الراغب الأصفهاني: مادة قرأ.

(٣) البرهان، ٢٧٨/١.

(٤) لفظ كتاب أكثر استعمالا في كلام الله من لفظ قرآن.

(٥) بوهل (Buhl) : لفظ قرآن في دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الأولى.

(٦) F. Déroche: le livre manuscrit arabe p. 13.

ومن أسماء القرآن الفرقان[١] وهو كلام الله ـ تعالى ـ لفرقه بين الحق والباطل فى الاعتقاد، والصدق والكذب فى المقال، والصالح والطالح فى الأعمال[٢]، ولفظ «فرقان» لا يعنى بالفعل «كتاب»، بل يفيد كاسم مجرد معنى الوحي، وتستعمل للوحي سواء للوحي الذى تلقاه سيدنا محمد ـ ﷺ ـ أو باقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان﴾[٣] وقال تعالى: ﴿تبارك الذى نزَّل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾[٤].

ومن مرادفات لفظ كتاب كلمة مصحف (مثلث الميم)[٥] وهو الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين. وقبل أن يصبح اللفظ علمًا على القرآن كان يعنى بشكل عام الكتاب المجلد. يقول امرؤ القيس:

أتت حجج بعدى عليها فأصبحت   كخط زبور فى مصاحف رهبان

وروي عن جعفر الصادق أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لعلي بن أبى طالب ـ رضي الله عنه ـ : «يا علي القرآن خلف فراشى فى المصحف والحرير والقراطيس فخطوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة».

ويؤكد هذا المعنى نص لابن عبد البر فى كتابه «القصد والأمم» جاء فيه: «من جملة وما وجد فى الأندلس اثنان وعشرون مصحفًا محلاة كلها من التوراة ومصحف آخر محلى بفضة فيه منافع الأحجار والأشجار والدواب وطلسمات عجيبة، فحمل ذلك إلى الوليد (الأموى) وكان فى المصاحف مصحف فيه عمل الصنعة وأصباغ اليواقيت»[٦]. وهذا النص لم يدع مجالا للشك فى أن معني مصحف هو الكتب، وقد سمى القرآن مصحفًا بضم الميم؛ لأنه يعنى «كتاب»، ولأن الأحباش يسمون كتابهم المقدس مصحفًا بضم الميم، وقد تمت الموافقة على اللفظ الحبشى؛ لأن مادة (صحف) جذر سامي يوجد فى العربية والحميرية أي العربية الجنوبية، كما يوجد فى اللغة العربية؟[٧].

---

(١) يوجد اللفظ فى الآرامية والإثيوبية بكسر الفاء (فرقان).

(٢) «معجم ألفاظ القرآن»: مادة فرق.

(٣) الأنبياء، ٤٨.

(٤) الفرقان، ١.

(٥) تميم تكسرها وقيس تضمها، لسان العرب: مادة صحف.

(٦) ابن عبد البر: «القصد والأمم»، ص ٣٤، طبعة القاهرة ١٣٥٠هـ.

(٧) تكاد تجمع المصادر على أن عبد الله بن مسعود هو الذى اقترح هذا اللفظ الحبشي ليسمى به القرآن يروى الجاحظ أن الأحباش يقولون: إن العرب نقلوا عنهم فيما نقلوا المصحف، انظر رسائل الجاحظ. ط. بريل، ليدن، ص ٧١ سنة ١٩٠٧م، و«الإتقان» للسيوطى، و«تاريخ القرآن»: لنولدكه.

ومن مرادفات الكتاب الزبور والدفتر والمجلدة والرسالة والكناشة والكراسة والسفر والتقييد والمختصر وغيرها، وقد يسمى الكتاب كراسة عندما لايتجاوز حجمه العشر ورقات. وأثبت البحث الكوديكولوجى فى المخطوطات العربية أن كراسة تعني عشر ورقات وقد تكون اثنتي عشرة ورقة فى بعض المخطوطات العربية بالأندلس التي ربما تكون من تأثير المخطوطات العربية التي بلغت فيها الكراسة اثنتي عشرة ورقة. أما المجلدة فمن الصعب تحديد حجمها؛ لأن القدماء كانوا يسمون الكتاب مجلدة كيفما كان حجمه، أما الزبور فيبدو أن أصله يعود إلى العربية الجنوبية بمعنى كتاب، ويطلق على كل كتاب غليظ الكتابة، وقد وردت الكلمة فى القرآن الكريم بمعنى الكتاب الدينى، وقد غلب الزبور على صحف داود عليه السلام.

ويسمى الكتاب رسالة، وقد يسمى سفرًا؛ لأنه يبين الشيء ويوضحه ، وهو لفظ سامى يوجد فى العبرية والسريانية والنبطية[١]،.

أما دفتر وهو مرادف للفظ كتاب فيعني الجلد فى اللغة اليونانية. وكان يعني اللفافة البردية قبل أن يصبح معناه ملزمة أو كتابًا كبيرًا فى العصر الإسلامي[٢].

أما كناش أوكناشة فيوجد فى كثير من الغات السامية، وقد دخل العربية من السريانية، وهو دفتر تقيد فيه الفوائد والشوارد للضبط وقد يعني الترجمة الذاتية[٣].

وقد أطلق على الكتاب مصطلحات أخرى عبر التاريخ، أمثال: «التقييد» حيث أطلقه بعض القدماء عنوانًا على كتبهم مثل «تقييد العلم» للخطيب البغدادى، و«تقييد المهمل» للجيانى، و«المختصر» الذى أطلق على كتب الفقه الكبرى مختصر القدوري والمنزي والشيخ خليل.

وبعد، فهذه بعض مرادفات الكتاب فى العربية فى العصور السالفة، أما فى العصر الحديث فإن الثورة التكنولوجية والثقافة التى أحدثتها الطباعة قد واجهتها ثورة أخرى أبدعت الكتاب الإلكترونى؛ فأصبح المكروفيش والميكروفيلم - وغيرها من أنواع الكتب الحديثة التي لا تقرأ إلا آليًا - نوعًا من مرادفات الكتاب.

---

(١) «معجم مصطلحات المخطوط العربي»: أحمد شوقى بنبين ومصطفى طوبي.

(٢) أثبت المؤرخ اليونانى هيرودوت (Herodote) أن كلمة دفتر من الكلمات الفينيقية التي تسربت إلى اليونانية قديمًا.

(٣) «معجم مصطلح المخطوط العربى»: أحمد شوقى وطوبى.

أدبيات التسامح في التراث الإسلامي(*)

د. وجيهة محمد مرزوق(*)

التسامح التزام أخلاقى يوجبه الدين الإسلامى على كل مسلم ومسلمة ، وهو من القضايا الحضارية الهامة التى أثارت نظر الفلاسفة والسياسيين والمفكرين الدينيين عبر العصور، والتي أصبح لها مكانة خاصة فى الفكر الفلسفي الحديث، لما لها من دور فعال وأثر قوي في العلاقات الداخلية على مستوى الأفراد فى المجتمع ، وكذلك فى العلاقات الخارجية على المستوى الدولي. فالتسامح خلق ينبع من سلوك الإنسان ، ويوجه حركته الاجتماعية والعالمية ، وهو فى ذات الوقت يتأثر بالتنظيم السياسي والقيم الاجتماعية والدينية للأمة .

وتعبر حقيقة التسامح أن عن مسؤولية حضارية على درجة كبيرة من الحساسية والخطورة فى آن واحد ، إذ أن اختلاف العقيدة أو الفكر فى المجتمع الديمقراطي المعاصر لا يجوز أن يؤدى إلى التعصب لما عليه بعض أفراد المجتمع ضد الآخرين ، وقد اهتمّ الإسلام بهذا الأمر اهتمامًا خاصًا ، إذ نصت تعاليمه على الأسس النظرية العامة التى تحث على التسامح ، كما نصت على الوسائل العملية لممارسة التسامح فى المجتمع الإنسانى .

وفى تراثنا الإسلامى يجد الباحث أن جوهر العلاقات سواء أكانت بين المسلمين بعضهم البعض أم بين المسلمين وغير المسلمين تقوم على أساس احترام التعددية فى كل أشكالها ، وفى كل مظاهرها ، فهى تطالب المسلم بالتعامل مع الآخرين بالسماحة، سواء أكانوا متفقين معه أم مختلفين عنه : فى الدين ، أو المذهب ، أو الجنس ، أو اللغة ، أو الفكر ، وغير ذلك مما يمكن أن يكون فيه الاختلاف بين البشر ؛ فهى فى مجملها تطلب من المسلم أن ينظر إلى الآخرين نظرة احترام يستطيع من خلالها أن يتعامل معهم تعاملاً إنسانيًا شريفًا ؛ ليحققوا جميعا هدف وجودهم العمرانى . وهذا ما يتبين لنا بالنظر إلى بعض التشريعات الإسلامية التى تقوم على أصول من القرآن الكريم ، وتستند إلى دلائل من السنة النبوية الشريفة وتدعمها السيرة النبوية، وتؤكدها حقائق تاريخية يشهد بها تاريخ الحضارة الإسلامية ، منها :

- الإيمان بوحدة النوع الإنسانى ومبادئ المؤاخاة والمساواة.
- العفو أساس أخلاقيات المجتمع الإسلامى .

(*) محاضر لغة عربية بكلية التربية للبنات بعفيف ، المملكة العربية السعودية .

- العدل فى معاملة الأعداء فى الإسلام .
- عهد الموادعة ومفهوم السلم الاجتماعي.
- توازنات التسامح فى الجانبين المادي والروحي فى تاريخ الحضارة الإسلامية.

* * *

الإيمان بوحدة النوع الإنسانى ومبادئ المؤاخاة والمساواة:

إن وحدة النوع الإنسانى ترجع إلى الارتباط بين البشر جميعًا ، فى وحدة النشأة فكلهم لآدم ، وآدم خُلق من تراب: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر:٢٨) وقد كرم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإنسان ، وخصه دون الملائكة بل دون سائر المخلوقات بالخلافة فى الأرض : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠) ، ولكن الملائكة لم تكن لتتفهم هذا الأمر؛ وذلك لأنه يفوق مدى إدراكها وإحاطتها بحكمة العناية الإلهية ، فهى ترى أنها أحق من الإنسان بالخلافة بقولها : «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» ، فهى تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية ، وهو الحكيم الذى لا يفعل إلا الخير ، ولا يريد إلا الخير [1] .

ويأتى الرد الإلهى على الملائكة موضحًا وجه التفضيل للإنسان عليها، وهو العلم الذى خص به البشر وحدهم على سائر المخلوقات : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة:٣١-٣٣) .

فالبشر جميعًا من حيث أصل النشأة الأولى يتساوون في:مادة النشأة «التراب» ، وفى السيادة فى الأرض «الخلافة»، وفى خصوصية العلم بين الكائنات جميعًا.

هذه النشأة هى التى تعمق فى النفس الإنسانية حقيقة أنه لا تمييز بين البشر ولا أفضلية ؛ وبهذا تصبح وحدة النشأة قاعدة سلوكية إنسانية تلغي الفوارق بين الإنسان وأخيه الإنسان ، مهما اختلفت القبائل والشعوب والأمم ، فالإنسان ليس سوى عضو فى أسرة الإنسانية الكبيرة التى تبدأ بالأب آدم والأم حواء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي، «الكشاف»، دار الفكر العربي١٩٧٧م ،ج ١ ، ص ٦١.

اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١) . ولن يستطيع الإنسان تحقيق هذه النظرة إلى الآخرين إلا بالتسامح . وقد أرسى الإسلام من الدعائم ما يكفى لحماية أواصر هذه الأخوة الإنسانية ، وسلك فى ذلك مسلكين :

المسلك الأول: تأكيد الأخوة بين المسلمين بعضهم البعض ، وقد أكد النبي - ﷺ - ذلك بقوله : «إنما المؤمنون مثل رجل - أو كرجل - واحد ، إذا اشتكى عيناه اشتكى كله ، وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله» [١] ، فالنبى عليه الصلاة والسلام يجعل العلاقة بين المسلمين ، مساوية للعلاقة بين أعضاء الجسد الواحد، ومثلما يتداعى ويتألم سائر الجسد إذا أصاب أحد أعضائه مكروه ، ويتحرك بحركة شعورية تلقائية، للمشاركة والتخفيف ، كذلك يتألم سائر المسلمين إذا أصاب أحدهم مكروه ، ويتحركون بنفس الحركة الشعورية التلقائية، ومثلما تهدف الحركة فى الحالة الأولى إلى المشاركة والتخفيف، فإن الحركة فى الحالة الثانية أيضا تهدف إلى المشاركة والتخفيف وكذلك يتألم سائر المسلمين إذا أصاب أحدهم مكروه، ويتحركون بنفس الحركة الشعورية التلقائية، ومثلما تهدف الحركة في الحالة الأولى إلى المشاركة والتخفيف، فإن الحركة الثانية أيضًا تهدف إلى المشاركة والتخفيف. وقد جسد النبي - ﷺ - هذه المشاركة التلقائية بقوله : «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا. وشبك بين أصابعه»[٢] .

وكان أعظم شاهد على ذلك ، بل أول شاهد على ذلك حفاوته عليه الصلاة والسلام بالأخوة الإسلامية ، تلك المؤاخاة التى عقدها بين المهاجرين والأنصار، والتى تمثل الركيزة الأولى فى تأسيس الدولة الإسلامية بعد هجرته وفور دخوله المدينة ، بقوله : «تآخوا في الله أخوين أخوين» [٣]. ثم أخذ النبى ﷺ يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، وفي ذلك يروي ابن هشام فى سيرته النبوية: «كان حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله ﷺ ، وعم رسول الله ﷺ ، وزيد بن حارثة ، مولى رسول الله ﷺ أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد ... وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ابن أبي قحافة، وخارجة بن زهير ، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين... » [٤] . واستمر عليه الصلاة

(١) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، كتاب الآداب دراسة وتحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، باب التعاون على البر والتقوى ، ص ٨٨ .

(٢) نفسه ، ص ٨٨ .

(٣) أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، السيرة النبوية ، مراجعة لجنة من العلماء ، مطبعة الأنوار المحمدية ، ١٩٩١م ، ج٢ ، ص١٠٧ .

(٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

والسلام يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ؛ ليعلم الناس أن الأخوة في الإسلام هى أخوة في الله تهدف إلى تحقيق المنهج السماوي الذى ينظر إلى الناس جميعًا على أنهم يتساوون فى إنسانيتهم ، وأنه لا تمييز ولا أفضلية بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

أما المسلك الثانى : فإنه يتعلق بتأكيد الأخوة بين المسلمين وغير المسلمين ، وهذه الأخوة العامة فى حقيقتها مكملة للأخوة الخاصة التى أقامها الإسلام بين المسلمين بعضهم البعض ؛ وذلك لأنها موجهة لتحقيق المصلحة للمجموع ، فالمجتمعات البشرية تضم أجناسًا متعددة ﴿ ... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة : ٤٨) .

وتتبين لنا أهمية هذه الأخوة العامة حين يقوم الإنسان بدوره فى الاجتماع والقضاء والسياسة ؛ لأنه بطبيعة الحال لن يكون منفردًا، وإنما هو مرتبط بالآخرين الذين يقومون معه بنفس الرسالة فى العمران ، وهنا يكون التعارف بهم والتداخل معهم قاعدة ملزمة ؛ لأن التعارف هو الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها تحقيق التعاون، وقد أكد هذا المعنى كثير من رجال الدين ، فنجد الدكتور محمود حمدى زقزوق يقول: «ولقد اقتضت حكمة الله فى خلقه أن جعل الناس مختلفين فى ألوانهم وألسنتهم ومداركهم وتصوراتهم ، ولكن الله جل شأنه لم يرد أن يكون هذا الاختلاف بين الناس مدعاة إلى النزاع والشقاق ، بل جعله دافعا إلى التآلف والوئام ... وهذا التعارف من شأنه أن يكون مبنيًا على الاحترام المتبادل والفهم المتبادل ، ومؤديًا إلى التعاون المشترك» [1] ، فبدون التعاون لا يمكن أن يقوم الإنسان بوظيفته فى الخلافة ؛ فهذا الغرض لا يمكن أن تفي به القدرات الفردية ، سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات أو الدول ، وهنا تكون الأخوة العامة هي الضمان لحفظ أواصر تلك العلاقة الإنسانية.

مبدأ المساواة فى الإسلام: إن مبدأ المساواة فى الإسلام تتجلى مظاهره أكثر ما تتجلى فى العدل المطلق ؛ فمن منطلق الإخاء الإنسانى الذى تتحقق به الوحدة الإنسانية ، جاء الإسلام بمبدأ العدل ؛ ليحفظ الأمن والاستقرار بين الناس جميعا ، والقرآن الكريم يأمر المسلمين بالعدل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(النساء:٥٨) ، فالمسلمون عليهم أن يقيموا عدلهم بين الناس جميعًا، على

---

(٤) د. محمود حمدي زقزوق، سلسلة إعادة نشر تراث التقريب بين المذاهب الإسلامية ، العدد الثاني ، ١٩٩٤م ، ص٥.

أساس الأخذ بالحق والابتعاد عن الهوى ؛ ذلك أن العدل فى الحكم بين الناس هو «تحري المساواة والمماثلة بين الخصمين ، والمسلمون مأمورون بالعدل فى الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق» [١] .

ولم تكن إقامة العدل داخل المجتمع الإسلامي فى عهد النبوة بالأمر الذى يسهل على العرب قبوله وتنفيذه بهذه الصورة ؛ لما درجوا عليه من تقديم فروض العزة للسادة والنبلاء ، فقد روي عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : «إن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت، فقالوا: مَن يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة، حِب رسول الله ﷺ ؟ فكلمه أسامة فقال رسول الله ـ ﷺ ـ أتشفع فى حد من حدود الله ؟، ثم قام فاختطب فقال: أيها الناس! إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[٢] .

وكانت نتيجة محاولتهم غير موفقة؛ لأن ذلك أغضب رسول الله ﷺ ، فقام وخطب فيهم مؤكدًا لهم أن مبدأ العدل لا هوادة فيه ، وأن السارقة لو كانت ابنته لأقام الحد عليها؛ لأن المحاباة فيه تؤدي إلى الهلاك وضياع الأمم ، «فقد مضت سنة الله العادلة فى خلقه بأن جزاء ترك العدل وعدم إقامة القسط في الدنيا هو ذل الأمة وهوانها ، واعتداء غيرها من الأمم على استقلالها ، ولجزاء الآخرة أذل وأخزى ، وأشد وأبقى . قال نبينا ـ ﷺ ـ : إذا ظُلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو» (رواه الطبرانى عن جابر رضي الله عنه) [٣] .

وبمبدأ العدل هذا يقر الإسلام معنى التسامح فى نفوس المسلمين ؛ فتساويهم فى القيمة الإنسانية معناه أيضًا تساويهم أمام القوانين التى تحكم علاقاتهم الاجتماعية ، فالتشريع الإسلامى يقرر مبدأ العدل للأشخاص على أنهم أفراد فى أسرة إنسانية واحدة، ومن هذا المنطق يأمر الله المؤمنين بالعدل حتى ولو كان على أنفسهم :﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ... ﴾ (النساء : ١٣٥) .

---

(١) الشيخ محمد رشيد ، «تفسير المنار»، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ ، ج ٥ ، ص ١٧٤ ، ١٧٩ .

(٢) «صحيح مسلم» ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره ، والنهي عن الشفاعة في الحدود ، ص ١٣١٥ .

(٣) الشيخ محمد رشيد رضا ، «تفسير المنار» ، ج ٦ ، ص ٢٧٤ .

ويتسع نطاق العدل فى الإسلام ، فيكلف الله المسلمين باتباعه مع أعدائهم : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٨) فهذه الآية الكريمة تحدد للمسلمين الآداب العامة ، والمبادئ الخلقية التى يجب عليهم الإتيان بها فى المجتمعات التى يعيشون فيها مع الجميع حتى مع أعدائهم .

وقد أعد الله تعالى المسلمين بهذه الفضائل الخلقية ، والتي هي الأساس الذي يقوم عليه العدل فى المجتمع ؛ ليستطيعوا فى النهاية القيام بالتكليف الأكبر ، وهو إقامة العدل مع أعدائهم ؛ فهم مأمورون أولا بأن يكونوا «قوامين لله » ومأمورون ثانيًا بأن يكونوا «شهداء بالقسط» ، أى بإقامة العدل فى مجتمعاتهم ؛ وذلك أيضًا بهدف حفظ الحقوق ، وتوثيق الروابط الاجتماعية بين كل من يضمه المجتمع الإسلامي، «فالشهادة بالقسط معروفة، وهى أن تكون بالعدل بدون محاباة مشهود له ولا مشهود عليه ، لا لقرابته وولائه ، ولا لماله وجاهه ، ولا لفقره ومسكنته . فالشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أو إظهاره هو إياه بالحكم به ، أو الإقرار به لصاحبه. والقسط هو ميزان الحقوق متى وقعت فيه المحاباة والجور لأى سبب أو علة من العلل زالت الثقة من الناس ، وانتشرت المفاسد وضروب العدوان بينهم ، وتقطعت روابطهم الاجتماعية ، وصار بأسهم بينهم شديدًا»[١] .

ثم يتأكد هذا الأمر الإلهي بنهي المسلمين وتحذيرهم عن الجور بالحياد عن العدل «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله» ، فكما رأينا كان يكفي المسلمين الأمران السابقان لإقامة العدل وتحري الحق فى مجتمعاتهم، ولكن هذا التحذير يقف حائلاً أمام من قد يدفعه ظلم الأعداء وحقدهم إلى عدم إقامة العدل معهم «ولا يكسبنكم ويحملنكم بغض قوم وعداوتهم لكم أو بغضكم وعداوتكم لهم على عدم العدل فى أمرهم ، بالشهادة لهم بحقهم إذا كانوا أصحاب الحق ، ومثلها هنا الحكم لهم به ، فلا عذر لمؤمن فى ترك العدل وإيثاره على الجور والمحاباة ، وجعله فوق الأهواء وحظوظ الأنفس ، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببهما . فلا يتوهمن متوهم أنه يجوز ترك العدل فى الشهادة للكافر ، أو الحكم له بحقه على المؤمن . ولم يكتف بالتحذير من عدم العدل مهما كانت أسبابه والنية فيه ، بل أكد أمره بقوله «اعدلوا هو أقرب للتقوى» أي قد فرضت عليكم العدل فرضًا لاهوادة فيه ، اعدلوا» [٢] .

---

(١) الشيخ محمد رشيد رضا ، «تفسير المنار» ، ج ٦ ، ص ٢٧٣ .

(٢) نفسه ، ص ٢٧٤ .

ولولا التسامح الإنسانى الذي رسخت تعاليم الإسلام مبادئه فى نفوس المسلمين ما استطاعوا الوفاء بمثل هذا العدل مع أعدائهم؛ لأن هذا أمر شاق يفوق قدرة الإنسان. ولما كان التسامح فى إقامة العدل مع الأعداء بهذه المشقة فقد ربطه الله - سبحانه وتعالى - شأنه بتقواه ورضاه عنهم ؛ ليستطيعوا الإتيان به : « اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله» .

* * *

العفو أساس أخلاقيات المجتمع الإسلامي :

يُعد العفو فى العلاقات الاجتماعية إصلاحًا، وضرورة تتطلبها طبيعة الاجتماع الإنساني، فالإنسان غير معصوم من الخطأ ؛ لعدم قدرته فى كل حال على الاحتفاظ بالتوازن السليم ، مما يحتم ظهور خلافات ومنازعات داخل البناء الاجتماعي فى كل المجتمعات البشرية . فالعفو يدعم الروابط الإنسانية داخل المجتمعات البشرية ؛ وذلك من خلال الجمع بين الذات الفردية والجماعية في قالب إنساني واحد تتحقق معه وحدة الإنسانية وجوهر وجودها ، «فكما أن للعفو أثره في نفس من يعفو، حيث يعينه على التقوى ، وعلى راحة الضمير وسكينة النفس فإن له كذلك أثرًا بالغًا فيمن يعفو الإنسان عنه ، إنه يستشعر خطأه وإساءته ، ويرى كيف قوبل خطؤه بالعفو والإحسان ، فيثوب إلى الرشد والصواب ، وتنطفئ من داخله الكراهية وتذوب النزعة العدوانية »[1] .

ولكن العفو ليس بالأمر الهين الذى يستطيعه الجميع؛ ذلك أن العفو عند البشر موقف يقدر عليه البعض ولا يقدر عليه الآخرون ، والإنسان يأخذ هذا الموقف فى الحالة التي يستطيع فيها أن يتحكم في ضبط نفسه ، حيث يسمو بها إلى مرتبة أعلى من مرتبة كظم الغيظ؛ لأن كتم الغيظ قد يكون على حقد وضغينة مصداقا لقوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣-١٣٤) .

وقد وضح الدكتور عبد الحليم محمود فى سياق هذه الآية الكريمة المراحل التي يتدرج فيها المسلم، والتي يستطيع من خلالها أن يسمو بنفسه ويصل إلى مرحلة العفو، فقال : «إن الأخلاق القرآنية تحدد الخلق الكريم فى حده الأدنى ، وترسم الفضيلة فى درجاتها الأولى ، ثم لا يقتصر القرآن على ذلك ، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق ، ويوجه إلى السنام منها ، ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين .

---

(١) د . أحمد عمر هاشم ، «في ظلال الشريعة الإسلامية» ، مطبعة الكليات الأزهرية ، ص ١٧٥ .

إن مقابلة السيئة بالسيئة عدل ، يقول الله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ ولكن القرآن - مع بيان عدالة هذا - يذكر درجة أعلى من الخلق الكريم ، تلك هى درجة «كظم الغيظ ». وهذا يأتي في وصف المسلم الذى مع مقدرته على مقابلة السيئة بالسيئة، يكظم الغيظ ، وهذا أسمى فى ميزان الأخلاق الكريمة من الذي يقابل السيئة بالسيئة.

ولا يقف القرآن الكريم عند هذا الحد؛ ذلك : أنه يرسم درجة ثالثة من الخلق الكريم ، وذلك أنه يتجاوز «مقابلة السيئة بالسيئة»، و «كظم الغيظ» إلى «العفو» والعفو مع المقدرة أسمى من مقابلة السيئة بالسيئة ، وأسمى من كظم الغيظ .

ثم يتجاوز القرآن ذلك كله ، إلى الدرجة العليا ، درجة المقربين، وهى «الإحسان». يقول الله تعالى « والله يحب المحسنين»، إنها درجات من الخلق الكريم كلها كريمة، بيد أنها تتفاوت ، فيما بينها ، من كريم إلى أكرم ، كتفاوت الناس فى الشرف من شريف إلى أشرف»[1] .

وهذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم للعافين عن الناس فيها حث لهم عليه، وتأكيد على ضرورته فى بناء المجتمعات الإنسانية ؛ لأنه من المحتم وقوع خلافات ومنازعات بين البشر ؛ نظرا لوجود أنماط مختلفة من السلوك داخل الجماعة الواحدة، ووسط هذه الاختلافات ، وما قد ينشأ عنها من المنازعات ، لو أراد كل طرف من الأطراف الأخذ بحقه كاملا من الطرف الآخر لتحولت الحياة إلى جمرة مشتعلة من النيران. ومن هنا فإنه لا يمكننا القول بوجود معايير أخلاقية ثابتة مثل الثواب - وهو من المعايير الإيجابية - ، والعقاب - وهو من المعايير السلبية - ، يجب أن تحكم سلوكيات الأفراد فى المواقف المتنوعة داخل المجتمعات؛ لوجود صراعات مستديمة بين المثل الأعلى للإنسان والمثل الأعلى للمحيطين به ، والذين هم يقاسمونه الحياة .

فبالإضافة إلى هذه الأنماط الثابتة المبنية على الثواب والعقاب لابد من وجود أنماط أخرى تتمثل فى العفو والتسامح ؛ تحقيقًا للثبات والتماسك، ونشرًا للحب داخل البناء الاجتماعي، فالعفو حين يتأصل فى النفوس يجعلها قادرة على التفاهم والتعايش مع الآخرين ، ويجعلها تعالج نقائصهم بدلا من التصادم بهم ومعاداتهم ، وحين يوجه الإنسان حركته تجاه الآخرين قاصدًا العفو والتسامح معهم فإن الضغينة ستذهب من النفوس ؛ لتحل محلها المحبة ، فيكون الترابط ولا يكون للتفرقة مكان حينئذ .

---

(١) د. عبد الحليم محمود ، سلسلة إحياء المفاهيم الإسلامية ، الإسلام والإيمان ، العدد الثاني . دار النصر للطباعة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م .

ولما كان العفو يتطلب من الإنسان أن يتنازل عن بعض من حقوقه فى مواقف معينة من الانفعال تحقيقًا لمصلحة البناء الاجتماعى أصبح أمرًا محتملاً ألا يستطيعه الجميع؛ فالعفو «ليس أصلا فى المعاملة بين الناس لأنه قدر زائد على العدالة ، بل هو ظلم بالفعل : ظلم المرء لنفسه بالتجاوز عن حقه ؛ وإنما نسمي هذا الظلم «عفوًا»؛ لأنه اسم جميل لهذا الظلم النبيل» (١) . من أجل ذلك لم يفرضه الله تعالى ، بل رغب فيه أو ندب إليه بوسائل شتى حيث نجد أن آيات العفو قد جاءت فى أروع ما تنطق به الأساليب المرغبة النادبة تحاشيًا لإثارة روح العناد في نفوس البشر؛ لتقبل عليه النفس الإنسانية بذاتها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة :١٠٩) . فالله تعالى يعدهم بأنه سيخفف عنهم ما يتحملونه. وقوله تعالى :﴿...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة : ٢١٩) . فالله تعالى يجعل العفو من وجوه الإنفاق فى سبيله . وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النور:٢٢) .فالله تعالى يعدهم بأنه سيرحمهم ويغفر لهم ذنوبهم ، مقابل عفوهم عن الآخرين .

وإذا انتقلنا إلى السيرة النبوية نجد أن النبي - ﷺ - له مواقف فى ذلك لا تحصى ، وكل منها يعطينا أعظم الأمثلة على حرصه - عليه الصلاة والسلام - على العفو والتسامح، ومن هذه الأمثلة التي تؤكد اختيار النبي ﷺ للعفو، وبعده حتى عن مجرد الرغبة فى العقاب والانتقام ما فعله مع أهل مكة الذين آذوه وشردوه ليس إلا لعقيدة التوحيد التي دعا إليها . فعندما جاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - لدخول مكة أعلن المسلمين وأمراء الجيوش بما يريد، وألزمهم به. فكان - عليه الصلاة والسلام - لا يريد القتال ؛ لذلك «أمنّ رسول الله - ﷺ - الناس إلا أربعة نفر وامرأتين»(٢)؛ وهنا أصبح لزامًا على الأمراء والمسلمين أن ينفذوا وصية رسول الله، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم باستثناء هؤلاء الستة . فقد كان لكل واحد من هؤلاء الستة قصة معروفة فى نقض العهد ، والسخرية من النبى والمسلمين . وحتى هؤلاء الستة نال بعضهم نصيب من عفو

---

(١) د . مهدي علام ، «العفو في الإسلام» ، صحيفة دار العلوم ، العدد الأول ، ١٩٣٨م ، ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، «البداية والنهاية» ، تحقيق أحمد فؤاد فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ١٩٩٤م، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

الرسول الكريم ؛ فقد عفا النبي - ﷺ - عن اثنين منهم ، وهما: عكرمة، وعبد الله بن أبي سرح[١] ، لقد كان من حق النبي - ﷺ - أن يأخذ بحقه من أهل مكة دون انتقام أو زيادة فى ذلك مصداقًا لقوله تعالى :﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل:١٢٦) . ولكنه - ﷺ - أراد أن يعلم المسلمين أعظم درس فى القيادة السمحة الحكيمة التي لا تطبق حتى المثلية فى أمر العقوبة .

إن هذا الموقف يكشف لنا عن شخصية القائد السمحة التي لا يعرف الانتقام إليه طريقًا ، وكيف يكون ذلك ، ومن أين يأتى مع نبي كان خلقه القرآن الكريم، ومع نبي أخذ يعلم المسلمين أن العفو قوة ومقدرة ترفع مكانة الإنسان، وهو يقول: «ما نقصت صدقة من مال . وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا . وما تواضع أحد لأحد إلا رفعه الله»[٢] ؛ ليغرس فى نفوسهم مفهوم العفو الذى ينبع من سلوك الإنسان ، ويوجهه في التعامل مع الآخرين لما فيه صالح الإنسانية . إنه العفو الذى ينبع من الأحكام الاعتقادية ويدخل فى الأحكام العملية ، وكما أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض العقائد على الإنسان وإنما جعله يعمل عقله للوصول إليها واعتناقها ؛ لتكون قوية راسخة فى قلبه ، كذلك كان الحال مع العفو فلم يفرضه على الإنسان .

* * *

العدل فى معاملة الأعداء فى الإسلام

على الرغم من أن الحرب التى شرعها الإسلام هى الحرب الدفاعية ، فإننا نجد آيات القتال في القرآن الكريم ترتبط كلها بالتقوى فى معاملة الأعداء، فهى تهدف إلى وقف العدوان فحسب، وهى تبعد المسلمين تمامًا عن كل معنى من معاني الانتقام، وفى هذه المعانى الأخلاقية العظيمة نجد:

- قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠). وقد اقترن هذا الأمر الإلهي بمبدأين يحددان للمسلمين الأصول التي تحكم الحرب التى أذن الله بها ، الأول منهما: النهي عن الابتداء بالقتال دون مشروعية «فالاعتداء يكون بابتداء القتال، أو بقتال من نهيتم عن قتاله من النساء والشيوخ والصبيان والذين بينكم وبينهم عهد، أو بالمثلة، أو بالمفاجأة من غير دعوة»[٣]

---

(١) راجع «البداية والنهاية »، لابن كثير ، تحقيق أحمد فؤاد فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٢٩١ .

(٢) الإمام مسلم ، «صحيح مسلم» ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ج ٤ ، كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع ، ص ٢٠٠١ .

(٣) الزمخشري ، «الكشاف» ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

والثاني منهما: النهى عن الاعتداء على المنتهين ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ (البقرة: ١٩٣) أى فلا تعتدوا على المنتهين لأن مقاتلة المنتهين عدوان وظلم[١].

- وقوله تعالى : ﴿ ... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة:٢) . فهذه الآية الكريمة تحدد لنا مبدأ ساميًا من مبادئ الدين الإسلامي الذى يعمل على خلاص المسلمين من آفة الحقد والكراهية حتى مع أعدائهم، فهي تنهي المسلمين «عن استئناف الاعتداء على سبيل الانتقام ، فإن من يحمله البغض والعداوة على الاعتداء على من يبغضه يكون منتصرا لنفسه لا للحق ، وحينئذ لا يراعي المماثلة، ولا يقف عند حدود العدل» [٢] .

- وقوله تعالى : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:١٩٤) . فالله سبحانه وتعالى يأمر المسلمين بالعدل مع هؤلاء الأعداء المشركين، لأن المثلية هنا تعنى المساواة وعدم الجور «والقصد أن يكون الجزاء على قدر الاعتداء بلا حيف ولا ظلم ... وإلا فاتت الحكمة لشرعية القتال وهى منع الظلم والعدوان ، والفتنة والاضطهاد ، وتقرير الحرية والأمان ، والعدل والإحسان . وهذه الشروط والآداب لا توجد إلا فى الإسلام» [٣] .

- وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨)، فالله سبحانه وتعالى يخبر المسلمين في هذه الآية «أنه لا ينهى عن البر والعدل وحسن المعاملة للمشركين الذين لم يشتركوا في قتال المسلمين ولا اضطروهم إلى الخروج من مكة . وقد استحال هذا البر لغير المسلمين فى عصر الفتوح وبعده - على مر الزمن حتى اليوم - قانونًا عامًا للمسلمين في تعاملهم مع أصحاب الملل الأخرى المسالمين لهم تعاملا سمحًا كريمًا، سواء أكانوا من أهل الكتاب أو وثنيين من الصابئة والمجوس وأمثالهم من الوثنيين فى آسيا وأفريقيا . والله - بذلك - وضع للمسلمين قواعد مُثلى فى تسامحهم مع كل الديانات ومع كل الأقوام ومع كل الأجناس والأعراق والألوان »[٤] .

---

(١) الزمخشري ، «الكشاف» ، ص ٢٤٢ .

(٢) الشيخ محمد رشيد رضا ، «تفسير المنار» ، ج ٦ ، ص ١٢٩ .

(٣) «نفسه» ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

(٤) د. شوقي ضيف ، «عالمية الإسلام» ، مكتبة الأسرة ، دار المعارف المصرية ، ص ٩٥ .

وبهذه الفضائل العالية، وبتلك التقوى الإسلامية، وبهذا التسامح المتأصل فى وجدان الرسول - ﷺ - كان يوم فتح مكة ؛ فعلى الرغم من الصورة التى خرج بها النبى والمسلمون من مكة : ﴿ ... رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء:٧٥) ، مهاجرين عبر الصحراء والفيافي، تاركين أوطانهم لمجرد عقيدة اعتنقوها مخالفة لما كانوا عليه من الشرك، فقد دخلوا مكة بالمسامحة والمسالمة ، وقد تجلت مظاهر هذا التسامح أول ما تجلت فى خطبة النبي - ﷺ - التي قالها فى المسلمين عند باب الكعبة، والتي منها قوله: «يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب . ثم تلا رسول الله : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1]. فنبى الإنسانية - ﷺ - بخطبته هذه يعرف المسلمين أنه لا ثأر ولا انتقام في الإسلام ؛ لأن الناس كلهم أخوة ، وأن الإسلام دين السلام .

وعندما دخل النبى - ﷺ - مكة جاءه أبو سفيان فقال : «يا رسول الله أبيدت خضراء قريش . لا قريش بعد اليوم . قال أبو سفيان : قال رسول الله - ﷺ - : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن . ومن ألقى السلاح فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن»[2]. وهذا التسامح من النبى عليه الصلاة والسلام لأهل قريش دفع أقرب الأقربين منه ، وهم الأنصار الذين آووا النبي والمسلمين ونصروهم، إلى الاعتقاد بأن النبي حنّ إلى عشيرته التى طردته ؛ حيث قال بعض من الأنصار لبعض: «أما الرجل فأدركته رغبة فى قرابته ورأفة بعشيرته»، وجاء رسول الله - ﷺ - الوحى ، وكان إذا جاءه لم يخف علينا ، فقال . يا معشر الأنصار قلتم كذا وكذا قالوا قد كان ذلك يا رسول الله ، قال : كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم ، فجعلوا يبكون»[3] ، وهذا البكاء إنما هو فى حقيقته ندم لعدم إدراكهم حقيقة هذا التسامح النبوي، وإقرار منهم فى نفس الوقت بهذا الموقف الإنساني العظيم الذي تعلموه من نبي الرحمة .

إن هذا العفو من النبي - ﷺ - عن الذين عذبوا المسلمين ، وقاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم ، يحدد لنا معالم الدين السمح الذى جاء به النبي - ﷺ -، والذى جعله يصفح

---

(١) أبوجعفر بن جرير الطبري ، «السيرة النبوية»، تحقيق جمال بدران ، الدر المصرية ١٩٩٤م ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) الإمام مسلم ، «صحيح مسلم» تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب الجهاد والسير ، باب فتح مكة ، ص ١٤٠٨ .

(٣) أبو الحسن البلاذري ، «فتوح البلدان» ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٨م ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، إشراف لجنة تحقيق التراث ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

هذا الصفح الكريم ، فإذا استعرضنا أبطال التاريخ من أوله إلى آخره لم نجد رجلاً واحدًا وقف من أعدائه هذا الموقف الكريم ، فقابل الإساءة العاتية بالعفو العظيم والتسامح الكريم «نعم ، ليس في التاريخ كله موقف بلغ من السماحة ما بلغه هذا الموقف ، ولا صورة بلغت من السمو ما بلغته هذه الصورة؛ لأنه ليس فى الناس كلهم بشر بلغ من الكمال الإنساني ما بلغه محمد رسول الله . ليس عجبًا إذًا أن يقف رسول الله من أعدائه هذا الموقف الفريد في التاريخ ، فلم يكن - ﷺ -ملكًا ولا قائدًا، ولم يكن يرمى إلى ما يرمي إليه الملوك والقواد من إرضاء شهوات النفوس ونزعات الهوى ، إنما كان رحمة من الله أرسلها إلى عباده»[1] .

وقد فتح هذا التسامح قلوب العرب الجامدة الجاحدة ، على الخير الشامل ، والنور الأعظم ؛ فدخلوا في دين الله أفواجًا ، فقال الله تعالى :﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سورة النصر) . فكان في تسامح النبى . عليه الصلاة والسلام . مع أهل مكة ما يغني عن القتال واستمرار العداوة بينهما ، وما يطفئ نار الكراهية ، وما يحقق الأمن والاستقرار لمجموع أهل مكة من المسلمين والقرشيين؛ ليمارسوا وظيفتهم فى الدعوة إلى السلام ونشر نور الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعمران الحياة على وجه جديد لم تعرفه البشرية من قبل .

* * *

عهد الموادعة ومفهوم السلم الاجتماعي:

وضع النبى . ﷺ . الأسس العريضة التى يجب أن تقوم عليها المجتمعات الإنسانية بعد قدومه إلى المدينة واستقراره بها بفترة قصيرة، فقد كانت المدينة عند مقدم الرسول . ﷺ . تضم عناصر لا يربطها نظام ولا وحدة ولا وفاق ، فكتب . ﷺ . كتابًا . أو دستورًا . لتنظيم العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع السياسي الجديد . وبالإضافة إلى التنظيمات التي تضمنها هذا الدستور، فإنه يتضمن «الالتزامات المعنوية والمادية التى يتطلبها الدخول فى الأمة حتى يدخل فيها من يريد الدخول على بينه . وحتى يعلم أنه بدخوله هذا يدخل فى أمة وعهد وعقد، بل يدخل فى عصر جديد من حياته لا علاقة له بما مضى من عمره »[2] . وباستقراء نصوص هذه الوثيقة[3] التى سنها الرسول . ﷺ . لأمته نجد أنها اشتملت على أهم القواعد التنظيمية الكافية لتوفير وحفظ السلم الاجتماعي، فهي تتضمن:

---

(١) أمين دويدار، «صور من حياة الرسول» ، دار المعارف المصرية ، ١٩٥٣م، ص ٥٤٠ .

(٢) د . حسين مؤنس ، «دستور أمة الإسلام» ، الهيئة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص ١٠١ .

(٣) انظر موسوعة العلوم السياسية، تصدير شعيب عبد الله شعيب ، الكويت ١٩٩٤م ، ص ٢٤٠-٢٤١.

- **تقرير وحدة الأمة:** فالمؤمنون والمسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم «أمة واحدة من دون الناس ... وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين» ولعل هذه هي المرة الأولى التى تظهر فيها لفظة «أمة» فى تاريخ السيرة النبوية. وقد ارتبط مفهوم «الأمة» فى هذه الوثيقة ارتباطًا وثيقًا بالإطار الجغرافي لدولة المدينة بحيث تضم العناصر التي كانت تعيش آنذاك فوق هذه الدولة الجديدة .

- **تقرير حرية الدين:** فقد أقر عهد الموادعة مبدأ حرية العبادة ، حيث نص على أن «لليهود دينهم وللمسلمين مواليهم وأنفسهم» وقد ارتبط بهذا المبدأ مبدأ آخر وهو اعتبار يثرب حرمًا آمنًا لأهلها «يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة». كما أقر العهد أيضا مبدأ حرية الانتقال» من خرج أمن، ومن قعد أمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم».

- **تأكيد معانى وحدة السلم والفداء** : فقد ورد فى دستور المدينة «أن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم»، وأن اليهود «إذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين» .

- **الأسوة أو العدالة** : ويعتبر مبدأ الأسوة داخل المدينة من المبادئ المهمة التى سجلتها الوثيقة . فإن من تبع المسلمين من اليهود «فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ...والمؤمنون يبيء - من البوأة أي المساواة - بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله» . ولما كانت العدالة من الأمور المهمة للأمن والاستقرار فقد أشارت الوثيقة إلى ضرورة التصدي الجماعي للبغي والظلم «المؤمنون المتقون أيديهم على من بغى منهم أو ابتغى دسيغة ظلم - أي عظيمة ظلم - أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم» .

وكما هو ملاحظ فإن أساس المبادئ الواردة بالصحيفة أساس أخلاقي جماعي؛ لأن أخلاقيات أمة الإسلام كلها جماعية، أي أنها روابط أخلاقية كريمة بين أعضاء الأمة، وهذه الأخلاقيات الجماعية تكشف لنا عن جانب كبير من التسامح الذى تضمنه هذا الدستور، والذى ألزم رسول الإنسانية نفسه به وأوجبه كذلك على المسلمين. فكان ينطوى على تسامح عظيم يتفق و فطرة الإنسان واستعداداته، وكان هذا هو الضمان لقبول أهل المدينة لهذا الدستور وتوقيعه، ومن ثم العمل بما جاء فيه؛ ومرجع ذلك لسببين بارزين :

الأول منهما : أنه لم يكن يخاطب المسلمين وحدهم ، على الرغم من أنهم يمثلون

الأغلبية فى مجتمع المدينة ، إنما جاء مخاطبا كل أهل المدينة من مسلمين ومشركين ويهود ، وهذا إشعار لهم ، بل وتأكيد فى نفس الوقت بأن الدولة الجديدة تضمهم فى الحسبان وتسوي بينهم وبين المسلمين ، فقوام العلاقة فى الدولة الإسلامية العدل والمساواة وحفظ الحقوق لكل أبنائها الذين تضمهم؛ والإسلام بذلك وضع قاعدة خلقية قويمة لحفظ الأمن الداخلي والسلم الاجتماعي لكل من يعيشون فى الدولة الإسلامية ؛ فكل من يعيش فى الدولة الإسلامية يصبح عضوًا فعالاً فيها تمنحه حقوقه كاملة ؛ ليؤدى بالتالى دوره العمراني. فدولة الإسلام لا تمييز فيها، ولا أفضلية لأكثرية على أقلية ، وإنما التفاضل بالعمل والمشاركة .

والثانى منهما : أن هذا الدستور ألزم كل طائفة فى المدينة ، من الأطراف الموقعة على الوثيقة ، أي «المسلمين و اليهود» بأعباء والتزامات خاصة ضمانًا لتحقيق التكافل بينهم ، وفى نفس الوقت جعل على الأمة تحقيق التضامن الاجتماعى لكل من يحتاجونه ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، وفى ذلك تأكيد لغير المسلمين بأن حياتهم آمنة فى الدولة الإسلامية الناشئة .

* * *

توازنات التسامح فى الجانبين المادي والروحي فى تاريخ الحضارة الإسلامية

ازدهرت فى العصر العباسي أعظم حضارة إنسانية فى ظل مبادئ التسامح والتواصل الثقافي التي جاء بها الوعى الجديد ، وقد سجلت هذه الحضارة العظيمة نجاحًا عمرانيًا هائلاً، يتأكد لنا من خلاله ضرورة التوافق والتلازم بين الجانبين المادى والروحي؛ ذلك أن «النشاط البشرى وحدة متكاملة ذات جانبين، أحدهما روحي، والآخر مادي ، فالروحي يمد المجتمع بأسباب اليقين النفسي ودواعي الاطمئنان الروحي ، والمادى يمد المجتمع بوسائل الاستعلاء على الطبيعة وتذليلها لإرادته ومشيئته»[1] ، وتتجلى مظاهر هذا التلازم فى اهتمام الأمة الإسلامية بالمعرفة وما تقدمه شعوب العالم من ألوان العلوم والفنون فى آفاقها النظرية والعملية .

وقد ترتب على هذا الاهتمام ظهور حركة الترجمة مبكرًا ؛ وذلك لأن «حركة النقل والترجمة قد بدأت بدايتها الشكلية أيام بني أمية ، وتواصل اهتمام الخلفاء بحركة الترجمة هذه إلى درجة أنهم كانوا ينفقون عليها بسخاء، ومن ذلك على سبيل المثال أننا نجد أن الخليفة المأمون «كان يعطي وزن ما يترجم ذهبًا ، فانهال عليه المترجمون من كل حدب وصوب : من الشام وفارس ، منهم : النساطرة واليعاقبة، والصابئة والمجوس ، والروم والبراهمة ، يساهمون جميعا فى حركة الترجمة من اليونانية والفارسية والسريانية والنبطية واللاتينية ،وغيرها»[1] .

---

(١) د.عصام الدين محمد علي، «بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة»، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٨٦م، ص ٣٨ .

وهؤلاء المترجمون على اختلاف أصولهم ومذاهبهم إنما تم إسهامهم الجليل فى حركة الترجمة بفضل سماحة ثقافية شجعت علماء الأمة على استقبال كل جديد مهما كان مصدره ما دام نافعًا لحياة الأمة الإسلامية ، وكان العرب يقومون بعملية دراسة واسعة للعلوم والمعارف التي تمت ترجمتها، وهذا يدلنا على مدى وعيهم بذاتهم الحضارية وتراثهم الديني الخاص؛ وذلك لأنهم «قد درسوا هذا التراث اليونانى ، وعلقوا عليه ، وشرحوه ، وأضافوا إليه ملاحظاتهم ، وانتقدوه فى مواضع كثيرة ، وأضفوا عليه فى كثير من الأحيان مسحة إسلامية إشراقية خاصة بقدر ما مكنتهم ظروف العصر ، وأمانة النقلة السريان ، وضبطهم . وهكذا حمل العرب الفلسفة القديمة إلى العالم الحديث، فأعطوه المفاتيح الفكرية لعصر النهضة، وأصبحوا الأساتذة الذين ثقفوا العالم الحديث بنتاج العالم القديم » (١) .

وبذلك أصبحت هذه الحضارة الإنسانية شاهدًا ودليلاً على أهمية التسامح فى بناء الحضارات ؛ فالحضارات لا تقوم إلا حين تتآلف وتتداخل وتندمج الجنسيات المكونة للبناء الهيكلي للأمة التي تضمهم ؛ وهذا يتطلب أن ينظر الإنسان إلى الآخرين نظرة احترام وتقدير ، قوامها التسامح الديني والفكري. كذلك فقد تأكد من خلال المآثر العظيمة التى تركتها هذه الحضارة حتمية الأخذ والعطاء؛ فأي حضارة لا يمكن أن تقوم منفصلة عن غيرها من الحضارات؛ لأن هذا معناه أنها ستبدأ من نقطة الصفر، وبالتالي لن تتحقق النهضة المطلوبة ، فالنهضة الحقيقية تتحقق بالبدء من المرحلة التي وصلتها الحضارات المعاصرة لها والسابقة عليها ، وقبول ما تم إنجازه من نجاح عن طريقها ؛ وبذلك تتواصل رحلة النجاح الحضارى للإنسانية عبر التاريخ .

وهذا بطبيعته يتطلب عقولاً متسامحة مدركة تمامًا لما تريد، فاحصة لما تتقبل من المفيد من ثمار العقل البشري وإلا كان التكبر والعلو الذى يدفع بدوره إلى النفور ثم الإعراض والغرور الذاتى والظن بأن لدى كل حضارة ما يكفيها لإحراز التقدم، وهذا العكوف على الذات والنكوص عن قبول ما ينفع مما أنجزته البشرية يؤدي فى النهاية إلى مرحلة أكثر تخلفًا وأكثر انغلاقًا ، ثم يكون السقوط التاريخي الذي لا نهضة بعده .

ويمكننا من هذا القليل الذى عرضناه من صفحات تراثنا الإسلامى تأكيد حقيقة التسامح في الإسلام باعتبارها قوة لا يمتلكها إلا أصحاب الهمم العالية والنفوس القويمة التي تستقى منهجها فى الحياة من تعاليم الحنيفية السمحة، وتعرف أن التسامح فى الإسلام يهدف إلى تحقيق الخير للفرد والجماعة والجنس البشري كله .

---

(١) د. عفت الشرقاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ،ص ١٠٨، ١٠٩ .

قديمًا وحديثًا
في سرقة وتهريب المخطوطات في العراق

د. أسامة النقشبندي

للمخطوطات العربية أهمية كبيرة فى التاريخ الإسلامى، فهى الوعاء الذى حفظ لنا العلوم والمعارف والفنون، والآداب، وأخبار التاريخ وأحداثه، وكل نتاجات العقل العربى، وكان لها دور فاعل فى التواصل الحضارى للأمة، ورفدها بأسباب النهوض فى كل العصور، كما كان لها تأثير مهم فى تقديم الحضارة الإنسانية، إضافة إلى قوامها المادي المتمثل بصناعتها، من الورق والكتابة والتجليد والزخرفة والتزويق، فهي من الآثار المنقولة التي تفردت بها الحضارة العربية الإسلامية.

وقد عرف الغزاة الأجانب أهمية المخطوطات فى حياة الأمة فى كل المجالات؛ لذلك استهدفت المخطوطات وتعرضت خزائنها إلى الدمار والسرقة خلال الغزو الأجنبي: فقد دمر طغرل بيك السلجوقي العديد من خزائن المخطوطات وأحرق دار العلم فى بغداد التي كانت تضم مئات الآلاف من المخطوطات، كما قام المغول عند احتلالهم بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م بتدمير وحرق خزائن المخطوطات، وسرقة أكثر من (٤٠٠) ألف مخطوط وتهريبها إلى مراغة بواسطة عمليهم الخواجة نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م؛ مما أدى إلى ضياع الكثير من الأصول والتآليف التى لم تصلنا إلا عناوينها.

ومع ذلك ظل اهتمام الأمة بتراثها قائما ولم تكسل صناعة المخطوطات، وكانت خزائن الكتب تعمر بعد كل غزو وكارثة، ويتسابق الغيارى من أبناء الأمة على رفدها بالمخطوطات من جديد لتستأنف دورها فى سند الحركة الفكرية والثقافية.

ومثلما تعرضت المخطوطات سابقًا تعرضت مرة أخرى إلى الاستلاب والتهريب فى مطلع القرن السابع عشر الميلادي عند مجىء طلائع الاستعمار المتمثلة فى الشركات الأجنبية، والدبلوماسيين، والرحالة والمنقبين غن الآثار، فاستلبت المخطوطات من خزائنها ونقلت مئات الآلاف إلى خزائن أوربا وأمريكا، وتشير معظم الفهارس التي صدرت عن تلك الخزائن إلى أسماء الأشخاص الذين هربوا المخطوطات إليها، وتضع رموزًا لأسمائهم ومجموعاتهم الخطية تخليدًا لما قاموا به من انتزاع التراث العربى المخطوط وإبعاده عن موطنه الأصلى؛ لكي لا تعود الأمة ثانية إلى جذورها التي كانت سبب نهوضها بعد كل هجمة أجنبية تتعرض لها.

وكان من أشهر السراق الذي تفاخر بنقله أكثر من (١٢٠٠) مخطوطًا من العراق

ونقلها إلى مكتبة المتحف البريطانى هوالرحالة البريطانى «ولسن بتج» الذي طبع رحلته وختمها بقائمة تضمنت عناوين المخطوطات التى هربها إلى بريطانيا وأودعها المتحف البريطانى، وذكر أرقامها فى ذلك المتحف، وقد رفعت تقريرًا بذلك فى الثمانينيات، معززًا بالقوائم التي صورتها من الرحلة المطبوعة والموجودة نسخة منها فى مكتبة المتحف العراقي، وعلمت أن الهيئة العامة للآثار والتراث طالبت باسترجاعها استنادًا إلى هذه الوثيقة دون فائدة. كما أن شركة الهند الشرقية قد اشترت المخطوطات التى جمعها المستشرق «ريتشارد جونسون»، ونقلت إلى مكتبة المتحف البريطاني، وتحتل مجموعته مكانة فى تلك المكتبة، كما قام السويدي «ف. ر. مارتن» فى أواخر القرن التاسع عشر بنقل مجموعة من المخطوطات والمنمنمات، ووصلت بعض المخطوطات التى جمعها إلى بوسطن فى الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق «جاردنر».

ونشطت أسواق بيع المخطوطات والمنمنمات والآثار والتحف فى أوربا فى مطلع القرن العشرين، وأقيمت لها معارض فى باريس سنة ١٩٠٢، وميونيخ ١٩١٠، وباريس ١٩١٢ وغيرها، وفى منتصف القرن العشرين صدرت بها كتالوجات وكتب ضخمة، واستمرت عملية المتاجرة والتهريب تجري في أسواق بغداد والموصل والبصرة والنجف وكربلاء وكركوك، حيث كانت تنقل آلاف المخطوطات إلى خارج العراق بمختلف الأساليب، من ذلك عملية الاحتيال التي قام بها أحد الدبلوماسيين الأجانب للاستحواذ على نسخة قيمة من مخطوطة «الحشائش» لديسقوريدس التى كانت محفوظة لدى إحدى البيوتات الموصلية، وذلك باستنساخ نسخة مشابهة لها بعد أن جلب الورق الجيد والألوان من باريس إلى الخطاط والمزخرف، وإعطاء المخطوطة المستنسخة الجديدة البراقة إلى حائزها وأخذ النسخة الأثرية النفيسة ونقلها إلى المكتبة الوطنية فى باريس، وقد نشر المرحوم صلاح الدين ساقي فى جريدة كركوك سنة ١٩٧٣ مقالة عن عمليات استلاب وتهريب المخطوطات، ومنها قيام مغترب لبنانى من جامعة «برنستن» يصحبه بعض العارفين بالمخطوطات في العراق، وجمع كمية كبيرة من المخطوطات نقلت إلى جامعة «برنستن»، وقيام المهرب يهودا (د. س.) ببيع كمية كبيرة من المخطوطات؛ حتى وصل عدد المخطوطات في تلك الجامعة إلى أكثر من عشرة آلاف مخطوط وقد عمل لها يهودا فهرسًا بطاقيًا، اطلع المرحوم كوكيس عواد على جانب منه خلال زيارته للمكتبة المذكورة سنة ١٩٥٠، وأشار إليها بكتابه «فهارس المخطوطات العربية» في العالم ص ٣٤٣، وفى مطلع الخمسينيات من القرن الماضي قام يهودا المذكور بتهريب ستة آلاف مخطوط إلى أمريكا لقاء مبلغ (٧٢) ألف دولار، وقد نقل لى المرحوم الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني فى منتصف الستينيات أنه اطلع خلال حضوره

مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد فى بغداد فى منتصف الستينيات أنه اطلع خلال وجوده فى نيويورك قبل حضوره للعراق على مجموعة من المخطوطات تقدر بعشرة آلاف مخطوط هربت من العراق عن طريق إيران إلى أمريكا، ولعل بعضها المتعلق بالتراث العلمي موجود الآن فى مكتبة الجيش الأمريكية.

وقام شخص يدعى «منكنا»، وهو عراقي من مدينة زاخو بنقل نحو ثلاثة آلاف مخطوط إلى مكتبة «سيلى أوك» فى برمنكهام فى بريطانيا، من بينها (٢٣١٧) مخطوطًا عربيًا و(٦٠٦) مخطوطات سريانية وكرشونية مع مجاميع أخرى، ونقل (أغناطيوس الموصلي) مجموعة من المخطوطات العربية وأهداها إلى مكتبة الفاتيكان ، وقائمة المخطوطات التى استلبت من العراق، والتي أشرنا إلى بعضها طويلة، والمخطوطات التى استلبت من الوطن العربى وبعض البلدان الإسلامية أطول، ويكفي أن أشير إلى بعض النوادر من المخطوطات التى كتبت في بغداد، ونقلت إلى مكتبات أوربا وأمريكا فى غفلة من الزمن، منها: المخطوطة النفيسة التي كتبها وزوقها الفنان العراقى فى بغداد يحيى الواسطي والتي تفتخر بها المكتبة الوطنية فى باريس، والتى نقلها إلى هناك شيفر الحريري، وكثيرًا ما يشار إليها فى المراجع باسمه، وهى المخطوطة الوحيدة لهذا الفنان العراقى وتمثل وخصائص فن التصوير فى المدرسة البغدادية، والمصحف الكريم الذى كتبه وزخرفه أشهر خطاط فى التاريخ، علي بن هلال ابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ هـ والموجود فى مكتبة المتحف البريطانى، وآلاف المخطوطات التى كتبها وزخرفها أعلام الخط والزخرفة في العراق، والمخطوطات الفريدة والنادرة فى مختلف العلوم والمعارف حبيسة خزائن المتاحف والمكتبات في دول أوربا وأمريكا، كما استحوذت تركيا على كمية كبيرة من نفائس المخطوطات فى أواخر الحكم العثماني ونقلت إلى خزائنها ويفتقر إليها الباحث والمحقق العربى اليوم بعد أن سلخت من موطنها الأصلي.

وفى منتصف الثمانينيات عرض أحد تجار الآثار والتحفيات فى لندن، وهو «أوليفر هور» بيع مصحف شريف وصل إلى حوزته ، كتبه وزوقه الخطاط البغدادى الشهير ياقوت المستعصمى سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م وقدحاولت هيئة الآثار اقتناءه واستعدادها لدفع مبلغ مقداره (١٠٠) ألف دولار بعد أن صدر قرار من اللجنة الفنية بذلك، فلم يردنا أى جواب، وبما أن هذه النسخة النفيسة من القرآن الكريم واحدة من الآثار المنقولة المهربة، وأنه من ممتلكات العراق ومشمول بقانون الآثار النافذ فقد فاتحت هيئة الآثار الانتربول فى وزارة الداخلية بكتابها المرقم ٢٦٤ والمؤرخ فى ١٩٨٥/٥/١٨ لمفاتحة السكرتارية العامة للشرطة الدولية فى باريس لاتخاذ الإجراءات الأصولية

لإعادة هذا المخطوط الأثري النادر إلى موطنه الأصلي (العراق) من الشخص المذكور أعلاه دون أن نتلقى أى رد، وعلمنا أنه نقل إلى أمريكا لقاء مبلغ (٥٠٠) ألف دولار.

وفى شهر آذار من عام ١٩٨٢ ورد كتاب من الدائرة الصحفية فى لندن رقم ٤٧ يعلم وزارة الثقافة والأعلام عن قيام مزاد علنى للفترة من ٢٦ - ٢٩ من شهر نيسان فى معارض سوثيبى بلندن، ستباع فيه مخطوطات ومنمنمات وعملات عربية وإسلامية قديمة، من بينها نسخة نفيسة من القرآن الكريم، ومخطوطة منطق الطير مؤرخة سنة ٩٧٧هـ، ومخطوطة نادرة أخرى فى الاسطرلاب مؤرخة سنة ٦٢٨هـ لم تتم متابعتها مع الأسف.

وفى الستينيات زار العراق الكتبي المصرى المشهور «عبد الرحمن الخانجي»، وجمع عددًا كبيرًا من المخطوطات المهمة بعضها عن طريق الشراء، وتمكن من الاستحواذ على مجموعة مهمة من المخطوطات بمساعدة بعض العارفين بالمخطوطات فى العراق، ومن بينها مخطوطات من مكتبة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء فى النجف الكبير تتعلق بعلوم مختلفة منها مخطوطة نادرة ترقى إلى القرن السابع الهجرى تقع فى ٦٠٠ ورقة تحتوى رسائل لأساطين الحكماء العرب كالفارابى وابن سينا وغيرهم، وقد باعها الخانجي إلى بعض المستشرقين ، كما ذكر ذلك الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء بوثيقة بخطه وتوقيعه والتي يذكر فيها أنه قاضاه لدى المحاكم فى مصر (أحتفظ بنسخة مصورة عنها).

وبعد العدوان الثلاثينى على العراق وخلال صفحة الغدر والخيانة تعرضت الكثير من المخطوطات إلى الدمار والسرقة كما فعل المغول عند احتلالهم بغداد، فأحرقت خزانة دار مخطوطات كربلاء فى الروضة الحسينية، وسرقت بعض مخطوطاتها، كما تعرضت مخطوطات دار صدام للمخطوطات التي نقلت إلى متحف كركوك البالغة نحو ٢٠ ألف مخطوط استطعنا من إنقاذ معظمها واستطاعت الجهات الأمنية وضع اليد على مجموعة بحوزة عصابة من الخونة وفقدت الدار (٣٦٤) مخطوطًا من بينها عدد من النوادر والأعلاق النفيسة تمت مطالبة الجهات الدولية لمتابعتها وإعادتها إلى العراق، وقدمنا قوائم بأرقامها وعناوينها وأوصافها بالعربية والإنكليزية.

وتعرضت مجاميع من مخطوطات مكتبات أخرى فى العراق لم يعلم عن مصيرها حتى الآن، من بينها سرقة مخطوطات نفيسة ونادرة من مكتبة الأوقاف فى الموصل وآثار مهمة كانت تحتفظ بها تلك المكتبة من بينها ثلاثة اسطرلابات كاملة مع صفائحها إحداها مؤرخة سنة ٦٠٤ هـ، وشمعدانات نحاسية مملوكية كبيرة، استطاعت الجهات

المختصة من استرجاع (٤١٦) مخطوطًا فقط، ويظهر أن البقية تسربت إلى خارج الحدود.

ثم بدأ نشاط بعض المهربين للاستحواذ على نوادر المخطوطات فى العراق، ومنهم عصابة كان يديرها جاسوس يحمل جواز سفر لبنانى لسرقة نسخة من القرآن الكريم بخط الإمام علي (ﷺ) محفوظة فى الوضة الحيدرية لتهريبها إلى خارج العراق لقاء مبلغ خمسة ملايين دولار، استطاعت الجهات المختصة من القبض على هذه العصاربة والحفاظ على هذا الأثر العظيم، كما قبضت الجهات المختصة الحدودية على شخص برازيلى كان يحوزته مصحف نفيس سرق من مجموعة لروضة الحيدرية فى النجف بغرض تهريبه، وقد سلم إلى هيئة الآثار والتراث، وقدر ثمنه من قبل اللجنة الفنية بمبلغ (٢٥٠) مليون دينار، كما أجهضت هذه الجهات محاولات تهريب مجاميع عديدة فى المراكز الحدودية وغيرها سلمت إلى هيئة الآثار.

ولا يفوتني أن أذكر المجاميع التى هربت إلى إيران منذ منتصف السبعينيات والثمانينيات، والتى تم وضع اليد على بعضها، وكان على رأس المهربين الإيرانى «المرعشي» الذي كان مشرفًا على مخطوطات الروضة العباسية فى كربلاء، ونقل هذه المجموعة إلى جهة مجهولة، فتمت متابعته، وأعيدت المخطوطات إلى مكانها، وأحيل إلى المحاكم على مخطوطات أخرى من قبل هيئة الآثار والجهات الأمنية سنة ١٩٧٦، إلا أنه لم يتوقف عند ذلك وحاول سرقة وتهريب مخطوطات المكتبة الهندية فى كربلاء البالغة (٨٨٩) مخطوطا فتم إنقاذها ونقلها إلى دار مخطوطات كربلاء فى الروضة الحسينية، ثم قام الإيرانى «الكاشاني» بتهريب (١٦٥) مخطوطًا إلى مدينة قم ولدينا قوائم بعناوينها، وقيام الإيرانى «الهمداني» بتهريب (٢٩٦) مخطوطًا إلى إيران، من بينها مخطوطات نفيسة تعود إلى القرن السابع الهجرى، وفى عام ١٩٧٨ وصل إلى النجف عدد من الإيرانيين كان على رأسهم «الشيخ البرقعي» لتهريب مخطوطات مكتبة أمير المؤمنين العامة البالغة (٢٨٧٤) مخطوطًا، من بينها مخطوط نسبت كتابته إلى الإمام علي بن أبي طالب ، وقد قام البرقعي بوضع مجموعة من المخطوطات فى صندوق خشبي ووضع فوقها عددًا من المصاحف الكريمة المطبوعة، وكتب فوق الصندوق ﴿لايمسه إلا المطهرون﴾ ،وغادر النجف فى ١٩٧٨/٢/١٥، وقد تم القبض على المخطوطات وأعادتها إلى مكانها، وقيام الإيراني الملقب بـ«البرغاني» بتهريب (٢٥٣) مخطوطًا إلى مدينة قزوين، وقيام الإيراني «ألقمني» بتهريب مخطوطات مكتبة القوام فى النجف إلى إيران، ومحاولة بعض الأشخاص تهريب مخطوطات المكتبة العسكرية فى سامراء التى تم نقلها إلى أحد البيوتات فى مدينة الحرية ببغداد تمهيدًا لتهريبها

إلى مدينة مشهد فى إيران بعد رزمها بصناديق من الكارتون كتب عليها العنوان الذي سترسل إليه في البحرين ومن هنالك إلى إيران، تمت متابعتها بالتعاون مع الجهات الأمنية ووضعت اليد عليها، ونقلها إلى دار صدام للمخطوطات أمانته، ثم صدر قرار بمصادرتها من قبل المحاكم المختصة بتاريخ ١٩٨٠/٧/٣٠، والقائمة تطول حول تهريب المخطوطات إلى إيران.

إن المعلومات التى استعرضتها أعلاه هى جزء يسير مما تعرضت له المخطوطات من الاستلاب والسرقة والتهريب مما يدمي القلب ويثير الآلام عند الغيارى من أبناء الأمة. وقد أشرت إلى بعض الأسماء بألقابهم وذكرت بعض المعلومات دون تفصيل لضرورات أمنية واجتماعية ، آملا فى التعاون ومضاعفة الجهود من قبل كل الجهات المعنية لاسترجاع ما استلب وهرب، وإن القيادة الحكيمة قد وضعت كل الإمكانات المادية وبكل سخاء، وأصدرت القرارات التاريخية المناسبة للحفاظ على هذا التراث الجليل.

الإمام الزركشي
وكتابه
[اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة]

د. عبدالحكيم الأنيس(*)

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه.

وبعد: فهذه سياحة علمية ليست بالطويلة مع أحد الأئمة الأتراك البارعين - وكم لهم من أياد على العلم - : العلامة بدر الدين الزركشي، الذي توفي ولم يبلغ الخمسين، وترك بعده ثروة علمية رائعة كانت محل اعتناء العلماء وتقديرهم، ومنها كتابه «اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة» - موضوع الدراسة - وهو من الكتب الرائدة في بابه.

وقد جاءت هذه الدراسة في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالإمام الزركشي وبالحديث المشهور، وفيه:

أولا - نبذة عن الإمام الزركشي ومصنفاته الحديثية.

ثانيا - تعريف الحديث المشهور.

ثالثا - أول من ألَّف في الأحاديث المشهورة.

المطلب الثاني: التعريف بكتابه «اللآلى المنثورة» ، وفيه:

أولا - اسمه.

ثانيًا - مخطوطاته.

ثالثًا - خطته ومصادره.

رابعًا - أثره فيمن جاء بعده.

خامسًا - طبعته ونقدها.

المطلب الثالث: مشكلة نسبة الكتاب إلى ابن حجر، وفيه:

أولاً - أول مَنْ وهم في ذلك ومَنْ تبعه.

ثانيًا - الأدلة على خطأ هذه النسبة، وإثبات أن الكتاب للزركشي.

ثالثًا - نظرات في منشأ الوهم.

وأرجو الله أن يكون التوفيق والصواب قد حالفني في ذلك ، والحمد لله أولا وآخرًا

(*) كبير باحثين في دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي، ومدير تحرير مجلة «الأحمدية».

المطلب الأول

التعريف بالإمام الزركشي والحديث المشهور

المفتي الشيخ محمد بن بهادر الزركشي، ويقال : ابن الزركشي - بوزن الجعفري - ويلقب: بدر الدين.

- تركي الأصل، مصري المولد والوفاة.

- ولد بالقاهرة سنة (٧٤٥هـ)، وطلب العلم من صغره، وعكف عليه إلى أن توفاه الله سنة (٧٩٤هـ) عن عمر بلغ (٤٩) سنة، ودفن بالقرافة الصغرى.

- أخذ فى القاهرة عن الشيخين جمال الدين الإسنوى، وسراج الدين البلقيني، وسمع من الحافظ مغلطاى وتخرج به فى الحديث، ورحل إلى دمشق فتفقه بها، وأخذ عن الحافظ ابن كثير الحديث، وإلى حلب وأخذ عن الشيخ شهاب الدين الأذرعي وغيره.

- أقبل علي التصنيف فكتب بخطه ما لا يحصى لنفسه ولغيره، وترك مصنفات كثيرة رائعة - علي الرغم من قصر عمره - فى التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والفقه الشافعى وأصوله، والأدب والبلاغة والتاريخ، وكان له اختصاص بكتاب المناهج للنووي، فنسب إليه فقيل عنه «المنهاجي».

- قال تلميذه البرماوي: كان منقطعًا إلى الاشتغال، لا يشتغل عنه بشيء، وله أقارب يكفونه أمر دنياه.

ولا يجب أن نهمل هنا قول المؤرخين إنه تولى إمامة الشافعية بالمدرسة الظاهرية، وولي مشيخة خانقاه كريم الدين بالقرافة الصغرى، ومعنى هذا أنه كان له مورد مالي غير الاعتماد على أقاربه.

- وقال ابن حجر: كان منقطعًا إلى منزله، ولايتردد إلى أحد إلا إلى سوق الكتب، وإذا حضره لايشتري شيئًا، وإنما يطالع فى حانوت الكتبى طول نهاره، ومعه ظهور أوراق يعلق فيها ما يعجبه، ثم يرجع فينقله إلى تصنايفه.

- وُصف خطه بأنه كان ضعيفًا قلَّ من يحسن استخراجه، وقد نشر الزركلى فى الإعلام أنموذجًا منه، وكذلك فعل الأفغانى فى صدر «الإجابة».

- ومصنفاته الحديثية هى:

١٠ - شرح البخاري، لخصه من شرح ابن الملقن وزاد عليه كثيرًا .

٢ - مختصر من شرح البخاري المتقدم سماه التنقيح[١]، ولعله يسمى أيضًا: النكت على البخاري (ط).

٣ - النكت على مقدمة ابن الصلاح[٢] (ط).

٤ - الذهب الإبريز فى تخريج أحاديث فتح العزيز.

٥ - المعتبر فى تخريج أحاديث المنهاج والمختصر (ط).

٦ - شرح الأربعين النووية.

٧ - الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة علي الصحابة (ط).

٨ - المختصر فى الحديث.

١٠ - جزء عن حديث «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»[٣].

١١ - قال الكتاني فى الرسالة المستطرفة ص ١٨٢ وهو يتحدث عن «نثر الدرر فى أحاديث خير البشر»: وصنف البدر الزركشي مثله أيضًا.

وكل هذه المصنفات محررة متقنة.

إن الزركشى جدير حقًا أن يدرس ويكتب عن جهوده الحديثية، إضافة إلى نبوغه فى العلوم الأخرى.

ثانيًا ـ تعريف الحديث المشهور:

يقول السيوطى شارحًا كلام النووى:

«قال شيخ الإسلام ـ ابن حجر ـ : المشهور ما له طرق محصورة بأكثر من اثنين ولم يبلغ حد التواتر، سمي بذلك لوضوحه، وسماه جماعة من الفقهاء: المستفيض يكون فى ابتدائه وانتهائه سواء، والمشهور أعم من ذلك، ومنهم من عكس.

هو قسمان: صحيح وغيره، أي حسن وضعيف، ومشهور بين أهل الحديث خاصة، ومشهور بينهم وبين غيرهم من العلماء والعامة، وقد يراد به ما اشتهر على الألسنة، وهذا يطلق على ما له إسناد واحد فصاعدًا، بل ما لا يوجد له إسناد أصلاً، وقد صنف

---

(١) ذكر محقق كتاب «الحطة» للقنوجى الشيخ على حسن الحلبي فى فهرس الكتب الواردة فى المتن ص ٥١١: نكت الزركشي علي التنقيح، وهذا وهم، والصواب: نكت القاضى محب الدين أحمد بن نصر البغدادي الحنبلي على «التنقيح» للزركشي.

(٢) نقل منه السخاوي والسيوطي وابن عراق وعلى اللكنوى والقاسمي فى كتبهم.

(٣) ذكره المؤلف فى كتابه «اللآلئ المنثورة» ص ١٧٢.

في هذا القسم الزركشي: التذكرة فى الأحاديث المشتهرة»[1].

ثالثًا. أول مَنْ ألَّف فى الأحاديث المشهورة:

قد يُؤخذ من كلام السيوطي أن الزركشي أول من ألف فيها، إذ لو علم أحدًا تقدمه لذكره، والواقع أن الكلام على أحاديث دائرة بين الناس قديم لدى المحدثين والعلماء، ويذكر الدكتور محمد الصباغ أن من أول من أشار إلى الأحاديث الدائرة على الألسنة الإمام ابن قتيبة (ت: ٢٧٦ هـ)، فلقد أشار إلى وجودها ونقد أئمة الحديث لها، وذلك فى كتابه «تأويل مختلف الحديث» يقول: «وقالوا فى أحاديث موجودة على ألسنة الناس: ليس لها أصل»، ثم ذكر عددًا من هذه الأحاديث.

وعقد تلميذ الإمام النووى ـ وهو الشيخ علاء الدين بن العطار ـ فى «فتاوى الإمام النووى» المسماة بـ«المسائل المنثورة» عقد بابًا فى الحديث جمع فيه أقوال النووى (ت : ٦٧٦ هـ) فى أحاديث شائعة، وقد استفاد المؤلفون فى هذا الفن من هذا الباب فائدة كبيرة.

وليس من شك فى أن أول ما ألف فى الموضوع رسالة صغيرة وهي «أحاديث يرويها القصاص عن النبي ـ ﷺ ـ وبعضها عن الله»، أجاب عنها شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية (ت : ٧٢٨)[2].

قلت: ثم جاء الإمام الزركشي فألف كتابه «اللآلئ المنثورة»، وكان أول كتاب جامع مرتب، تقدم بهذا اللون من التصنيف شوطًا كبيرًا، هيأ للسخاوي من بعده الخروج بكتابه العمدة فى هذا الجانب «المقاصد الحسنة».

وقد أشار الزركشى إلى أن الأئمة تكلموا فى شىء من ذلك فقال فى فصل بعد المقدمة[3]: «وقد تكلم[4] الأئمة فى شىء من ذلك، فذكر أبو عبدالله الحافظ النيسابوري فى كتاب «الجامع لذكر أئمة الأمصار المزكين[5] لرواة الأخبار»، قال: قرأت على قاضى القضاة أبى الحسن محمد بن صالح الهاشمي، حدثنا عبدالله بن الحسين ابن موسى، حدثنا عبد الله بن على بن المديني قال: سمعت أبى يقول: خمسة أحاديث يروونها ولا أصل لها عن رسول الله ﷺ...».

---

(١) «تدريب الراوى»: ٢/١٥٧.

(٢) مقدمة «مختصر المقاصد الحسنة» للزرقاني ص ١٦ - ١٧.

(٣) «اللآلئ المنثورة»، ورقة ٤ - أ، المطبوع ص ٣١.

(٤) تصحفت فى المطبوع إلى : ترجم.

(٥) فى المطبوع: المزكير ا.

المطلب الثاني

التعريف بكتابه «اللآلئ المنثورة»

أولا ـ اسمه:

سماه مؤلفه ـ حسب ما جاء فى مقدمته[١] ـ «اللآلئ المنثورة فى الأحاديث المشهورة» ،ثم اختلف النقل فيه اختلافًا كبيرًا، وإليك التفصيل:

١ – أول مَنْ ذكره ـ حسب تتبعي ـ الإمام ابن حجر العسقلاني وسماه: «الفوائد المنثورة فى الأحاديث المشهورة»[٢].

وأحسب أن لفظة «الفوائد» تصرف من النساخ، إذ كان ابن حجر قد وقف على الكتاب وطالعه وعلق عليه تعليقات نافعة، فلا بد أنه رأى تسمية المؤلف ، وما كان ليعدل عنها، أو أنه سها فى ذكر العنوان.

٢ – وجاء فى مخطوطة كتبت سنة (٨٥٧ هـ): التذكرة فى الأحاديث المشتهرة، وجاء فوق هذه التسمية: وسماه مؤلفه أيضًا بـ« اللآلئ المنثورة فى الأحاديث المشهورة»[٣]، فجعل الأصل فرعًا، والفرع أصلاً.

٣ – ويبدو أن السيوطى اطلع على نسخة مخطوطةٍ كُتب عليها العنوان المستحدث «التذكرة» فاعتمده، كما جاء في كلامه المنقول سابقًا، وهذا غريب إذ اطلع على الكتاب، وتسميتُه بـ«اللآلئ المنثورة»، واضحة كل الوضوح.

٤ – ثم جاء حاجي خليفة فقال فى كشف الظنون: «تذكرة الزركشي ـ وهو بدر الدين»، ثم قال فى موضع آخر: «اللآلئ المنثورة» وسكت، ولم يبين الموضوع واسم المؤلف[٤].

٥ – ثم جاء العجلونى فاعتمده فى تأليف كتابه «كشف الخفاء» وسماه «اللآلئ المنثورة فى الأحاديث المشهورة»، ولكنه نسبه إلى ابن حجر العسقلاني[٥]! وستأتى مناقشة هذه المسألة فى المطلب الثالث.

---

(١) «اللآلئ»: الورقة ٤ – أ.

(٢) انظر «إنباء الغمر» (٣/ ١٤٠).

(٣) انظر «مقدمة اللآلئ المطبوع» ص ١٨ .

(٤) «كشف الظنون» (١/ ٣٨٦، ٢/ ١٥٣٥).

(٥) «كشف الخفاء» (١/ ٧ – ٩).

٦ - ثم جاء إسماعيل البغدادي فذكر فى هدية العارفين[1]: «التذكرة» و«نشر اللآلئ»! ولم يضف شيئًا على ذلك.

٧ - ثم جاء الكتاني فتبع السيوطى، إذ كانت كتبه من مصادره فى تأليف كتابه الرسالة المستطرفة قال: «والتذكرة فى الأحاديث المشتهرة لبدر الدين الزركشى، والدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة للسيوطي، لخصه من التذكرة للزركشي، وزاد عليه»[2].

٨ - وقد ذكر بروكلمان التذكرة، وقال: هو كتاب اللآلئ المنثورة فى الأحاديث المشهورة نفسه[3]، وهكذا وضع حدًا للبلبلة، ولكن المعاصرين ظلوا يتابعون السيوطي فى تسميته، ومنهم:

- الأستاذ سعيد الأفغاني فى مقدمة تحقيقه لكتاب الزركشي الإجابة ص ٩.
- الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف فى مقدمة تحقيقه للمقاصد الحسنة ص ١١.
- الدكتور محمد الصباغ فى مقدمة تحقيقه لمختصر المقاصد الحسنة ص ١٧.
- الدكتور محمود الطحان فى كتابه أصول التخريج ودراسة الأسانيد ص ٦١.
- ناشر «اللآلئ المنثورة» مصطفى عبد القادر عطا فى مقدمة الكتاب ص ٨ - ١٣، وادعى أن هذا الكتاب قد ذكر فى جميع المراجع باسم التذكرة، ولا يصح هذا فلم تجمع المراجع على تسميته «التذكرة» كما رأينا، وكان عليه اعتماد تسمية المؤلف وإهمال ما سواها.
- محمد عبدالقادر عطا نشر «الغماز على اللماز» للسمهودي ص ٧.
- الشيخ أحمد مصطفى القضاة فى مقدمة تحقيقه (!) لـ«الغرر السوافر» ص ٦.

والغريب أن الدكتور محمد الصباغ قال:

«وكدت أجزم أن اسم كتاب الزركشيى هو «اللآلئ المنثورة فى الأحاديث المشهورة» تبعًا لبروكلمان، لولا أننى قرأت تصريحًا للسيوطي في تدريب الراوي بأن اسم كتاب الزركشي هو التذكرة... وهكذا يتبين لنا أن للزركشي كتابين في هذا الفن، هما:

اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة، والتذكرة فى الأحاديث المشتهرة»[4].

وهكذا صار للزركشي كتابان، والواقع أنه كتاب واحد لا غير، ولكن اختلاف

---

(١) انظر: (٢/١٧٤، ١٧٥).

(٢) «الرسالة المستطرفة» ص ١٩١، ١٩٢.

(٣) «تاريخ الأدب العربى» ٢/١٠٨، نقلاً عن مقدمة زهر العريش ص ٢٧.

(٤) مقدمة مختصر الزرقاني ص ١٧ ، ١٨.

العناوين أريك الأمر.

ولم ينفرد الصباغ بجعل الكتاب كتابين، بل لحقه آخرون، وسبقه الأستاذ سعيد الأفغاني، فقد ذكر للزركشي التذكرة ثم اللآلى، وقال عن الثاني: «تفرد بذكره للمؤلف بروكلمان فى الذيل، أما صاحب كشف الظنون فقد ذكره مغفلاً من التعريف واسم المؤلف»[1]، ويبدو أن الأفغاني - رحمه الله - لم يطلع على كلام ابن حجر فى إنباء الغمر الذى تقدم نقله.

٩ - وقد جاء على غلاف مخطوط بغداد من الكتاب هذا «اللآلئ المنتشرة فى الأحاديث المشتهرة»، وهذه تسمية رابعة.

والخلاصة:

أن الاسم العَلَمى الذى ذكره الرمام الزركشي لكتابه هو «اللآلئ المنثورة فى الأحاديث المشهورة»، فهو المعتمد وما سواه فحقه الإهمال.

ثانيا . مخطوطاته:

للكتاب عدة نسخ، منها نسختان فى دار الكتب المصرية:

١ - الأولى برقم وفن حديث طلعت (٥١٧) تتكون من (٢٦) ورقة، قال ناشر الكتاب مصطفى عطا: على هامشها تقييدات بخط ابن حجر[2]، وقد نسخت نقلاً عن نسخة وجدها الناسخ بخط ابن المصنف، وهو نقلها من خط والده، وتاريخ نسخها سنة (٨٥٧هـ).

٢ - الثانية ضمن مجموعة برقم وفن حديث طلعت (٥٢٦)، وهى برقم (٢) فى المجموعة من صفحة (٢٢) إلى صفحة (٥٩)، يبدو من خطها حداثة تاريخ نسخها[3]، ويبدو أن أخطاءها كثيرة.

ونسختان فى مكتبة الأوقاف العامة ببغداد:

٣ - نسخة مخرومة الآخر حديثة الخط كتبت سنة (١٣٣٢ هـ) ضمن مجموعة ، تقع فى (٦٧) ورقة [4]، وتحمل الرقم (١٣١٣٧/٨ مجاميع).

---

(١) مقدمة الإجابة ص ١٤.

(٢) هكذا قال الناشر ص ١٥ عن وفاته: إن ابن حجر توفي قبل نسخ الكتاب بـ (٥) سنوات !!.

(٣) مقدمة اللآلى ص ١٦.

(٤) فهرس المخطوطات العربية فى مكتبة الأوقاف العامة فى بغداد (٢٨٨/١).

٤ - والثانية تحمل الرقم (٢٩٤٣)، وهي في (٤٤) ورقة[١]، في كل لوحة (١٧) سطرًا، وهي نسخة قديمة وخطها واضح جميل، ويبدو على ناسخها الضبط والاهتمام[٢].

وقد جاء في آخرها: «قال كاتب هذه النسخة [القائل هو ابن المصنف]: إلى هنا انتهى ما وجدته في الأصل، والحمد لله على تمام ذلك، وهو حسبي ونعم الوكيل.

هذا آخر ما وجدته بخط ابن المصنف، وهو نقل من خط والده رحمهما الله تعالى، الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا أبدًا، قال كاتب هذه النسخة: ووجدت في ذيل هذا الكتاب بخط ابن المصنف ما صورته».

ومثل ما هنا جاء في نسخة دارالكتب المصرية الأولى، وهذا يعني أحد شيئين:

١ - إما أن ناسخ نسخة بغداد - وهو مجهول لدي - نقل من نسخة ابن المصنف.

٢ - أو أنه نقل من نسخة دارالكتب المصرية هذه نقلا مباشرًا أو بواسطة.

وقد رأيت عدة مواضع بيضاء، فكأنها مطموسة في الأصل غير واضحة.

هذا ، ولم أستطع معرفة تاريخ نسخها، ولكن جاء في تملك على الغلاف: «دخل في ملك الفقير عبده إبراهيم مناع بن أحمد مناع البقاعي في شهر شوال سنة (١١٩١هـ)». وعلى الكتاب ختم هذا نصه: «هذا الكتاب وقف المرحوم الحاج محمد أمين أفندي الكهيا في بغداد سابقًا على كتبخانة جامعة الواقع في محلة دكان شناوه (١٣٢١هـ)»، وجاء على الغلاف بجانب العنوان «قلت: ويليه الذيل لابنه رحمهما الله تعالى آمين». وهو يبدأ من الورقة (٤٥ -ب)،و وقد سها عن ذلك المفهرس الدكتور عبد الله الجبوري.

وعلى صفحات الكتاب تقييدات للحافظ ابن حجر يذكرها الناسخ بقوله: حش بخط ابن حجر . ومعني هذا أن ابن حجر وقف على كتاب اللآلئ المنثورة بخط ابن المصنف، وعلق عليه وعلى إضافات ابن المصنف بعض التعليقات، وقد أحصيتها فبلغت (١٦) تعليقة، وكان ينبغي على ناشر الكتاب أن يذكرها في الحواشي؛ فهي تعليقات مهمة، ولكنه لم يفعل..

---

(١) في «فهرس المخطوطات» (١/٢٨٨) ذكر المفهرس الأستاذ عبد الله الجبوري أنها في (٧٦) ورقة، والواقع أنها تنتهي في نهاية الورقة (٤٤)، وما بعدها ذيل لابن المصنف، وكذلك القول في النسخة المذكورة أولا .

(٢) وفي حوزتي نسخة مصورة عنها.

ثالثًا . خطته ومصادره:

قال رحمه الله فى المقدمة: «أما بعد: فإن من النصيحة الواجبة فى الدين التنبيه على ما يشتهر بين الناس مما ألفه الطبع، وليس له أصل في الشرع، وقد صنف الإمام تاج الدين الفزارى كتابًا فى فقه العوام وإنكار أمور قد اشتهرت بينهم لا أصل لها، أجاد فيها الانتقاد، وصان الشريعة أن يدخل فيها ما أخل بالاعتقاد، شكر الله صنعه وأثاب جمعه.

وقد رأيت ما هو أهم من ذلك، وهو تبيين الأحاديث المشتهرة على ألسنة العوام وكثير من الفقهاء الذين لا معرفة لهم بالحديث، وهى إما أن يكون لها أصل يتعذر الوقوف عليه لغرابة موضعه، أو لذكره فى غير مظنته، وربما نفاه بعض أهل الحديث لعدم إطلاعه عليه، والنافي له كمن نفى أصلا من الدين، وضل عن طريقه المبين، وإما لا أصل لها البتة، فالناقل لها يدخل تحت قوله ﷺ: «مَنْ نقل عني ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار»... وسميته باللآلئ المنثورة فى الأحاديث المشهورة» ورتبته على أبواب....»[1].

وقبل أن يدخل في الأبواب ذكر فصلاً في أن الأئمة تكلموا فى شىء من ذلك.

أما الأبواب التى دار عليها الكتاب فهي ـ مضافًا إليها عدد الأحاديث المذكورة فيها ـ:

الباب الأول: فيما اشتهر على ألسنتهم من أحاديث الأحكام (٣١) حديثًا.

الباب الثانى: فى أحاديث الحكم والآداب	(٦٠ حديثًا).
الباب الثالث: فى الزهد	(٣١ حديثًا).
الباب الرابع: فى الطب والمنافع	(١٨ حديثًا).
الباب الخامس: فى أبواب الفضائل	(٥٢ حديثًا).
الباب السادس: فى الأدعية والأذكار	(٤ أحاديث).
الباب السابع: فى القصص والأخبار	(١٤ حديثًا).
الباب الثامن: فى الفتن	(٩ أحاديث).
الباب التاسع: فى أمور منثورة	(٣ أحاديث).

ويكون المجموع (٢٢٢) حديثًا تراوحت بين الصحيح والحسن، والضعيف والموضوع، أما رسالة «أحاديث القصاص» لابن تيمية فقد اشتملت على (٧٩) حديثًا.

(١) «اللآلئ»: الورقة (٢ ـ أ. ٤ ـ أ).

وقد حكم المؤلف (الزركشي) على عدد من الأحاديث بأنه لم يجدها، واعتمد على حكم الحفاظ فى أحاديث أخرى، وتلقيت أحكامه بالقبول، مما يدل على بحثه التام وتتبعه الكامل.

أما مصادره:

فقد أحصيت ما صرح بالنقل منه، فبلغ العدد (١٣٥) مصدرًا تتوزع على كل القرون ابتداءًا من القرن الثاني حتى القرن الثامن الذى عاش هو فى نصفه الثاني.

وهناك نقولٌ لم يذكر مصدرها، كأن يقول: قال فلان، أو يقول: نقلت من خط فلان...[1] وعلى هذا يرتفع عدد مصادره إلى أكثر من (١٤٠) مصدرًا جزمًا.

وهكذا نرى أهمية هذا الكتاب ، ومزيد اعتناء مؤلفه به، وجدارته بأن يخدم خدمة علمية صحيحة؛ ليأخذ مكانه اللائق فى المكتبة الحديثية الإسلامية لدى الخاصة والعامة.

والآن أذكر أسماء الكتب التي صرح بها:

- الإبانة: للوائلى.
- الأحاديث الواهية: لابن الجوزي (ط).
- – الأحكام: لعبد الحق.
- الأحكام: للحافظ المقدسي.
- أخلاق حملة القرآن: للآجرى (ط).
- أدب الرملاء: لأبى سعد السمعاني (ط).
- الأذكار: للنووي (ط).
- الإرشاد: للخليلي (ط)
- الاستذكار: لابن عبدالبر (ط).
- الأسماء والصفات: للبيهقي (ط).
- الأطعمة: للدارمى.
- الاقتراح: لتقى الدين [ابن دقيق العيد] (ط).
- الأمالى: لأبى القاسم بن بشران (ط)
- الأمثال: لابن الجوزي.

(١) نقل عن : ابن الصلاح، والمزي، وابن حزم، وابن تيمية (من كتابه أحاديث القصاص، ولكن لم يصرح)، والمنذري، وابن طاهر المقدسي، والسبكي، وغيرهم.

- الأمثال: لأبى أحمد العسكري.
- البحر :للروياني (ط).
- البر والصلة: لعبد الله بن المبارك (ط).
- بيان العلم: لابن عبد البر (ط).
- تاريخ أصبهان: لأبي نعيم (ط).
- تاريخ بغداد: للخطيب (ط).
- تاريخ سمرقند: لأبي سعد الإدريسي.
- التاريخ: لابن كثير (ط).
- تاريخ مصر: لابن يونس.
- تاريخ نيسابور: للحاكم (ط منتخب منه).
- التصحيف: للدارقطني.
- التعليق :لأبى حامد.
تفسير ابن كثير (ط).
- تفسير الطبري (ط).
- تفضيل العرب: لان قتيبة (ط).
- التمهيد: لابن عبد البر (ط)
- تهذيب الآثار : للطبرى (ط بعضه).
- الثقات: لابن حبان (ط).
- الجامع لذكر أئمة الأمصار المزكين لرواة الأخبار: للحاكم أبى عبدالله الحافظ النيسابورى.
- الجامع: للخطيب (ط).
- الجرح والتعديل: لابن أبى حاتم (ط).
- جزء ابن الغطريف (ط).
- جزء المزكي.
- جزء عن البطيخ: لأبى عمر محمد بن أحمد التوقاني.
- جزء عن حديث «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»: للمؤلف.
- جزء عن حديث «يا سارية»: لقطب الدين عبد الكريم الحلبي.
- الجليس الصالح: لأبي الفرج النهرواني (ط).
- الجنائز: لأبي موسى المديني.

- الحجة: لنصر المقدسى (ط).
- الحلية: لأبى نعيم (ط).
- دلائل النبوة: للبيهقي (ط).
- الذخيرة: لابن طاهر (ط).
- ذم الكلام: لشيخ الإسلام الهروي (ط).
- رسالة الحسن البصرى.
- الرواة عن مالك للخطيب.
- رواية الكبار عن الصغار: لأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم البغدادي.
- الريحان والراح: لابن فارس اللغوي.
- الزهد: لأحمد بن حنبل (ط).
- الزهد: لأحمد بن حنبل (ط).
- الزهد: للبيهقي (ط).
- سؤالات ابن الجنيد: لابن معين (ط).
- السؤدد: لأبى بشر.
- السنة: للطبرانى.
- سنن ابن ماجة (ط).
- سنن البيهقي (ط).
- سنن الترمذي (ط).
- سنن النسائي (ط).
- سيرة ابن إسحاق (ط بعضه).
- شرح الإلمام: لأبي الفتح القشيرى.
- شرح المهذب: للنووي (ط).
- شرح صحيح البخاريى: لابن بطال (ط).
- شعب الإيمان: للبيهقي (ط).
- شعب الايمان: للحليمي (ط).
- الشهاب: للقضاعي (ط).
- صحيح ابن حبان (ط ترتيبه).
- صحيح البخاري (ط).
- صحيح مسلم (ط).

- الضعفاء: لأبي الفضل السليماني.
- الطب: لأبي نعيم (ط).
- الطبقات: لابن الصلاح (ط).
-- العرش: لابن أبي شيبة (ط).
- العقل: لأبى الحسن التيمي (من الحنابلة).
- العلل: لابن أبي حاتم (ط).
- العلل: لابن ماجه.
- العلل: للترمذي (ط).
- العلل: للدارقطني (ط ١١ مجلدًا منه).
- علوم الحديث: لابن الصلاح (ط).
- عيون الأمثال: لابن خلاد الرامهرمزي.
- غريب الحديث: لأبي عبيد (ط).
- الفائق: للزمخشري (ط).
- الفتاوى: للنووي (ط).
- الفردوس: لأبى شجاع الديلمي (ط).
- فضائل الشام: للربعي (ط).
- فضل القرآن: لأبي عبيد (ط).
- القواطع :لأبى المظفر بن السمعاني (ط).
- الكامل: لابن عدي (ط).
- المجتبى فى الكلمات التي تفرد بها النبى ﷺ: لابن دريد (ط).
- المحكم :لابن سيده (ط).
- مختصر المستدرك: للذهبى (ط).
- مختصر سنن البيهقي: للذهبي.
- المدخل: للبيهقي (ط ناقصًا).
- مرآة الزمان: لسبط ابن الجوزي (ط بعضه).
- المراسيل: لأبي داود (ط).
- مسائل الكرماني: لأحمد بن حنبل (ط).
- المستدرك: للحاكم (ط).
- مسند أبي عوانة (ط).

- مسند أبي يعلى الموصلي (ط).
- مسند أحمد (ط).
- مسند إسحاق بن راهويه (ط بعضه).
- مسندر البزار (ط).
- مسندر الفردوس.
- مسند عبد بن حميد (ط المنتخب).
- مصنف عبد الرازق (ط).
- المصنف: لابن أبى شيبة (ط).
- المصنف: لأبى على بن السكن.
- المعتبر فى تخريج أحاديث المنهاج والمختصر: للمؤلف (ط).
- المعجم الأوسط: للطبراني (ط).
- المعجم الكبير: للطبراني (ط).
- المعجم: لابن جميع (ط).
- المعجم: لأبي القاسم البغوي (ط، وهو ناقص).
- المعجم: للقاضي أبي الفضل ابن موسى (ط).
- معرفة الرجال: لأبي جعفر محمد بن الحسين البغدادي.
- معرفة الصحابة: لأبى موسى المديني.
- معرفة الصحابة: لأبي نعيم (ط).
- المعرفة: للبيهقي (ط).
- المغنى: لابن قدامة (ط).
- مكارم الأخلاق: لأبي الشيخ.

مكارم الأخلاق: لأبي بكر ابن لال.

- منازل السائرين: للأنصاري.
- مناقب أحمد بن حنبل: للبيهقي.
- منهاج القاصدين: لابن الجوزي.
- الموضوعات: لابن الجوزي (ط).
- الموطأ: للإمام مالك (ط).
- نهاية الغريب (ط).
- نوادر الأصول: للحكيم الترمذي (ط).

- الوهم والإيهام: لابن القطان (ط).

- اليواقيت: للمطرزي.

رابعًا - أثره فيمن جاء بعده:

١ - أول أثر يظهر لنا عند ابن المصنف:

يقول رحمه الله في آخر النسخة التي نقلها من خط والده: «وهذه أحاديث تتعلق بهذا الكتاب ظفرت بها فأرادت إثباتها في ذيل هذا الكتاب، فمن ذلك:...» ثم ذكر (٢١) حديثًا، وبعدها يأتي نقل من «مختصر كتاب الأباطيل للجوزقاني» للذهبي، دون تصريح باسمي الجوزقاني والذهبي، ثم تأتي فصول في موضوعات متعددة.

ولا أعلم هل هذا كله من زيادات ابن المصنف أو بعضه، وتعليقات ابن حجر تتوقف في الأحاديث الأولى من الزيادات، فهل هذا يشعر أن الزيادات ابن المصنف تنتهي بنهاية الأحاديث الواحد والعشرين؟

والجدير بالذكر أن الزيادات تمتد من (ورقة ٤٥ - أ) إلى (ورقة ٧٦ - أ) وتنتهي فجأة دون تصريح بالنهاية، ودون أي تعليق من الناسخ، وكان ناشر الكتاب قد رأى أن هذه الزيادات كلها لابن المصنف، وقال: «وقد أورد ابن المصنف عددًا من الأحاديث والفوائد العظيمة ما يصلح أن يكون كتابًا منفردًا، ففضلت فصله عن كتاب والده، واعتباره كتابًا منفردًا نطلق عليه مجازًا اسم «ذيل تذكرة الزركشي» وسنقوم بإعداده إن شاء الله»[1].

٢ - والأثر الثاني يظهر في تعليقات ابن حجر على الكتاب، وقد كان رحمه الله مهتمًا بالزركشي وآثاره، ويظهر هذا الاهتمام من ترجمته له، ومن وقوفه على آثاره والاستفادة منها، ويمكن إفراد هذه الفكرة بدراسة، وهي جديرة بذلك للوقوف على مصادر ابن حجر.

٣ - والأثر الثالث يظهر عند السخاوي (ت: ٩٠٢هـ) في «المقاصد الحسنة». فقد نقل عن الزركشي وصرح باسمه مرات، وأدخل مادة «اللآلئ» في «المقاصد»، ولكنه لم يذكر «اللآلئ» ولا مرة واحدة.

ومن ذلك قوله في حديث «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» ص ٢٨٦: «قال شيخنا [ابن حجر] ومن قبله الدميري والزركشي: إنه لا أصل له»، وهذا الكلام للزركشي مأخوذ من اللآلئ.

---

(١) «اللآلئ» ص ١٥. ولم أقف على هذا الذيل مطبوعًا.

وقد بلغت أحاديث الأبواب عند السخاوى (١٣٥٦) حديثًا، وهو بذلك قد أوصل هذا الفن من التأليف إلى الذروة عددًا وكيفية؛ إذ كان من العلماء المتقنين المتخصصين.

٤ - والأثر الرابع يظهر عند السيوطي (ت : ٩١١هـ) فى «الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة». قال في «تدريب الراوي» حين ذكر كتاب الزركشي فى مبحث «المشهور» : «وقد ألفت فيه كتابًا مرتبًا على حروف المعجم استدركت فيه ما فاته من الجم الغفير»(١)، وقال فى مقدمة «الدرر المنتثرة»: «إن من المهم بيان حال الأحاديث التي اشتهرت على ألسنة العامة، ومن ضاهاهم من الفقهاء الذين لا علم لهم بالحديث، وبيان ما له أصل من ذلك من غيره، وقد ألف الشيخ بدر الدين الزركشي فى ذلك كتابًا لطيفًا، غير أنه محتاج إلى تنقيح وزيادة، وتنكيت وإفادة، فلخصته هنا مع زيادة الجم الغفير، ونبهت على ما فيه اعتراض من كلامه وتنقير، وميزت ما زدته به : «قلت» فى أوله وبـ«انتهى» فى آخره، ورتبته على حروف المعجم»(٢).

وقال العجلوني عن «الدرر» هذه : «هى نسختان صغرى وكبرى»(٣) قال الدكتور الصباغ: «وقد وقفت عليهما عندما جمعت عددًا من مخطوطات الكتاب»(٤).

٥ - والأثر الخامس يظهر عند الشيخ على القاري (ت : ١٠١٤هـ).

فقد نقل عنه فى كتابيه: المصنوع فى معرفة الحديث الموضوع»، وهو الموضوعات الصغرى، والأسرار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة، وهو الموضوعات الكبرى(٥)، ولكن لم يشر القارى فى كلا الكتابين إلى اسم كتاب الزركشي.

٦ - والأثر السادس يظهر عند غرس الدين محمد بن أحمد الخليلى الأنصارى الشافعى المدنى (المتوفى: ١٠٥٧هـ) إذ نظم قصيدة سماها «كشف الالتباس عن الأحاديث التي تدور بين الناس» قال فيها:

وألفوا مؤلفات جمه ... فى ذالكم نصيحة للأمه
من ذلكم مقاصد السخاوى ... فهو لمعظم الحديث حاوى
أعنى أن يجرى على الألسنةِ ... جوزى خيرًا عن أهالى السنةِ
والزركشىُّ قبله قد ألفا ... لآلئًا تحكى نظامًا أُلِّفا

(١) «تدريب الراوى» (١٥٧/٢).
(٢) «الدرر المنتثرة» ص ١٧ ، ١٨.
(٣) «كشف الخفاء» (٩/١).
(٤) مقدمة «مختصر الزرقانى» ص ١٩، وقد طبع الدرر عدة طبعات.
(٥) انظر «المصنوع» بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والأسرار المرفوعة بتحقيق الدكتور الصباغ.

ثم شرحها بكتاب سماه «تسهيل السبيل إلي كشف الالتباس» وذكر في مقدمته أن أحاديثه مأخوذة من أربعة كتب، وهي: «اللآلئ» للزركشي، و«الدرر» للسيوطي، و«المقاصد» للسخاوي، و«تمييز الطيب» لابن الديبع[1].

٧ - والأثر السابع يظهر عند نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت: ١٠٦١ هـ) في كتابه: «إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن».

قال في مقدمته بعد أن ذكر كتب للزركشي والسخاوي والسيوطي: «رأيت الجمع بين الكتب الثلاثة في كتاب، مع زيادات لا غنى عنها لطالب هذا الباب»[2].

٨ - والأثر الثامن يظهر عند العجلوني (ت: ١١٦٢هـ) في كتابه «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» فقد أدخل مادته في كتابه الكبير هذا الذي بلغت أحاديثه (٣٢٨١) حديثًا، ولكنه نسبه إلى ابن حجر، وهذا غريب!.

ورأيته أحيانًا يصرح باسم الزركشي، وحين تتبعت ذلك تبين لي أن نقله عنه بواسطة إما السخاوي وإما القاري من الذين نقلوا عن الزركشي مباشرة[3].

خامسًا - طبعته ونقدها:

طبع كتاب «اللآلي» للمرة الأولى عام (١٤٠٦ - ١٩٨٦)، وقامت بطباعته دار الكتب العلمية في بيروت[4]، وكتب على غلافه: «دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا»، ولهذا الرجل ولآخرين من أسرته أعمال متعددة، وتسجل على أعمالهم ملاحظات كثيرة.

وقد ذكر المحقق (!) أنه اعتمد على نسختين للكتاب - وقد سبق ذكرهما - الأولى كتبت سنة (٨٥٧هـ)، والأخرى حديثة، وذكر أنه نسخ الكتاب من القديمة وقارنها بالحديثة، ويبدو أن هذا مجانب للحقيقة؛ فمن خلال مقارنة النماذج المخطوطة المصورة في أول الكتاب مع ما ورد فيه تبين لي أنه اعتمد على النسخة الحديثة، لوجود أخطائها في النص المحقق، هذا شيء، والشيء الآخر أنه جاء في ص ١٨٨ في صلب

---

(١) مقدمة «مختصر» الزرقاني ص ٢٠ - ٢١، ومن الكتاب نسخة مخطوطة في مكتبة الحرم المكي.

(٢) «إتقان ما يحسن» (١/٢٤).

(٣) ذكر الشيخ محمد إسحاق محمد إبراهيم السلفي محقق كتاب «الغماز على اللماز» للسمهودي (ت: ٩١١هـ) أن من مصادره فيه: اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة للزركشي، وقال ص ١١: «يظهر أن المؤلف اطلع عليها»، يقصد الكتب التي ذكرها في الأحاديث المشهورة، ومنها اللآلئ.

قلت: وهذا بعيد، فهو لم يصرح باسم الزركشي إلا مرة واحدة، وأغلب نقوله من السخاوي والسيوطي.

ومن الذين نقلوا عنه بواسطة كذلك الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) في كتابه «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة».

(٤) وعلى منشورات هذه الدار كلام طويل.

النص [قال السيوطي...]، وعلق المحقق على ذلك: «ما بين المعقوفين هو من كلام السيوطي فى اختصاره لكتاب الزركشي هذا... فإن الزركشي لا يصح أن يكون ناقلاً عن السيوطي». أقول: وهذا يستحيل أن يكون في النسخة المكتوبة سنة (٨٥٧هـ) ، وكان على المحقق ألا يحشره فى صلب النص إذا كان اعتمد على النسخة القديمة، فتأملْ!.

أما تعليقاته: فأغلبها نقل حرفى من «المقاصد الحسنة»، ولا أدري ما الفائدة من تكرار الكتب فى النقول والحواشي؟ وقد ترك نقول الزركشي دون توثيق.

وبالنسبة للنص : فإن الأخطاء والتحريفات والسقط والزيادات المقحمة الواردة فيه أكثر من أن تحصى، وأذكر هنا نماذج قليلة منها، وأضع بجانبها الصواب:

الخطأ	الصواب	الخطأ	الصواب
الغزارى	الفزارى	الصالب	الطالب
مظنه	مظنته	ترجم	تكلم
إطاعته	إطلاعه	المزكير	المزكين
العاقل	العادل	الخفاري	المغاري
كبير	كثير	نسبه	فيه
يقبل	يجهل	المنهى	المغمى
عليه	علمه	بكريز	كثير

ولهذا يجب إعادة تحقيقه، وضبطه، وتوثيق نقوله، وتقديم دراسة شاملة عنه، تكشف عنه، وعما حدث من أوهام في: اسمه، ونسبته، ومسيرته عبر القرون.

المطلب الثالث

مشكلة نسبة الكتاب إلى ابن حجر

تعرض هذا الكتاب لثلاث مشكلات:

الأولى: الوهم في اسمه،

والثانية: إخراجه بهذه الصورة الشائعة.

والثالثة: نسبته إلى غير مؤلفه، أعني للإمام ابن حجر،

وقد سبق الكلام عن المشكلتين الأوليين، وأتناول هنا المشكلة الثالثة.

أولاً ـ أول مَنْ وهم في ذلك ومَنْ تبعه:

أول من وهم في ذلك - حسب بحثي الآن - الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني (ت: ١١٦٢هـ) في كتابه «كشف الخفاء»، قال رحمه الله في المقدمة: «إذ من النصيحة في الدين ـ كما قال الحافظ ابن حجر في خطبة كتابه «اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة» ـ التنبيه على ما يشتهر بين الناس مما ألفه الطبع...»، ثم قال: «واعلم أني حيث أقول: قال في اللآلئ أو ذكر فيها فالمراد به كتاب الحافظ العسقلاني المذكور»[1].

وأخذ المتأخرون من هذا أن لابن حجر كتابًا في الأحاديث المشهورة اسمه اللآلى المنثورة غير كتاب الزركشي المسمى ـ عندهم ـ بالتذكرة، ومن هؤلاء:

١ - الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف في مقدمة المقاصد ص ١١.

٢ - الدكتور محمد الصباغ في مقدمة المختصر للزرقاني ص ١٨.

٣ - الدكتور محمود الطحان في كتابه أصول التخريج ص ٦١، ٦٤.

٤ - محمد عبد القادر عطا في مقدمة تحقيقه «الغماز» للسمهودي ص ٧.

ثانيًا ـ الأدلة على خطأ هذه النسبة، وإثبات أن الكتاب للزركشي:

الصواب الذي لاريب فيه أن هذا الكتاب للزركشي، ويؤيد هذا:

١ -.أن ابن حجر نفسه قد نسب هذا الكتاب للزركشي ـ كما مرّ معنا ـ.

---

(١) كشف الخفاء ص ٧ - ٩، ونتج عن ذلك أن العجلوني ينقل كلام الزركشي منسوبًا إلى ابن حجر، ثم يقول ـ أحيانا ـ : قال الزركشي ـ ناقلاً لكلامه من السخاوي ـ ولا بُد في إخراج «كشف الخفاء» من معالجة هذا الارتباك والتنبيه عليه.

٢ - أن أحدًا من الذين ترجموا لابن حجر أو ذكروا كتبه كالبقاعي والسخاوي والسيوطي وحاجي خليفة[١] لم يذكر له هذا الكتاب، ولا كتابًا فى الأحاديث المشهورة، ولو كان اللآلئ له لما نقل السخاوي منه على أنه للزركشي، والسخاوي من أعرف الناس بابن حجر وهو أشهر تلميذ له،ومع ذلك لم يذكر له شيئًا من ذلك.

٣ - فى اللآلئ دلائل صريحة تنفي أن يكون هذا الكتاب لابن حجر نفيًا قاطعًا:

أ - ففيه يروى المؤلف عن الحافظ مغلطاي، وهو قد توفي قبل ولادة ابن حجر بـ(١١) سنة.

ب - ويذكر الحافظ ابن كثير بلفظ: شيخنا ، وقد توفى ابن كثير ولابن حجر من العمر سنة واحدة[٢].

وهذان الشيخان من شيوخ الزركشي كما مرّ معنا.

جـ - ثم إنه يذكر مؤلفين له؛ أحدهما: «المعتبر فى تخريج أحاديث المنهاج والمختصر»، ولا يعرف لابن حجر كتاب كهذا، بل إن ابن حجر نفسه قد نسب «المعتبر» للزركشى فى ترجمته له فى «إنباء الغمر»[٣].

ثالثًا - نظرات فى منشأ الوهم:

ما سبق يجعلنا نتساءل:

١ - كيف لم يكتشف العجلوني فى استحالة أن يكون الكتاب لابن حجر وهو قد وقف عليه ونقل منه واشتغل به طيلة مدة تأليفه لـ«كشف الخفاء»؟

٢ - وما الذى جعله يعتقد أنه لابن حجر؟

ولاجواب عن السؤال الأول إلا القول بأن الكمال لله، والعصمة للأنبياء، وأما السؤال الثانى فقد قال فى جوابه ناشر الكتاب مصطفى عطا: «والجدير بالذكر أن مخطوطة الزركشى قد كتبت عليها بعض التقييدات والحواشى علي هامش بعض الصفحات بخط ابن حجر [!!] ... ولعل الخطأ قد أتى من هنا فاعتقد أن الكتاب لابن حجر العسقلانى»[٤].

---

(١) انظر «عنوان الزمان» (١/٣٥ - ٧٤) من مخطوطة كوبريلى للبقاعى، و«الجواهر والدرر» (٢/٦٥٩ - ٦٩٦) للسخاوى، و«نظم العقيان» ص ٤٥ - ٥٣ للسيوطى، وكشف الظنون» لحاجى خليفة، وكتاب «ابن حجر العسقلانى ودراسة مصنفاته ومنهجه وموارده فى كتابه الإصابة» للدكتور شاكر محمود عبد المنعم.

(٢) انظر «اللآلئ» المطبوع ص ٣٤ ، ١٦٠.

(٣) انظر (٣/١٤٠).

(٤) مقدمة اللآلئ ص ١٤.

قلت: ويحتمل أن النسخة التي وقعت للعجلوني كتب عليها اسم ابن حجر خطأ من الناسخ، ولم يقرأها الشيخ رحمه الله قراءة ناقدة متفحصة، ولعلنا لو بحثنا في مخطوطات دمشق وعثرنا على نسخة من «اللآلئ المنثورة» لاتضح الأمر لنا.

بعد كتابة هذا رجعت إلى «المنتخب من مخطوطات الحديث» - في الظاهرية بدمشق - للشيخ الألباني فوجدته ذكر نسختين من هذا الكتاب، الثاني، وعنوانها: «اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة» لم يذكر مؤلفها، أما الأولى وعنوانها: «اللآلئ المنتثرة في الأحاديث المشتهرة» فيقول عنها الشيخ ص ٢٩٢: «كتب علي الغلاف بخط مغاير لخط الكتاب أنه تأليف الحافظ ابن حجر العسقلاني، وليس له قطعًا، فإنه يذكر ابن كثير ويقول «شيخنا»، وعلى حاشية الكتاب بعض التعليقات عليه يصدرها كاتبها بقوله (حاشية بخط ابن حجر...) ولعل هذا هو منشأ وهم من كتب ذلك على الغلاف، ويغلب على الظن أنه للزركشي فيحقق» ا. هـ. ولعل هذه النسخة هي التي وقعت للعجلوني، وبهذا ينحل الإشكال[1]، لكن يبقى تساؤل مهم وهو : كيف مر الشيخ العجلوني على نسبة الكتاب إلى ابن حجر وهو يري تعليقات عليه منقولة من خط ابن حجر فيها نقد للمؤلف، كقوله في بعضها: «هذا قصور شديد، فإن الحديث عند الترمذي»؟!.

ثم كيف لم يتوقف عند اتحاد المعلومات التي ينقلها عن الزركشي بواسطة السخاوي والمعلومات التي ينقلها عن كتاب نفسه المنسوب - عنده - إلى ابن حجر؟!.

هذا ما بدا لي والله سبحانه أعلم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) قد يقال: إن العنوان المثبت على الغلاف هو «اللآلئ المنتثرة في الأحاديث المشتهرة»، بينما يذكره العجلوني باسم «اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة».
أقول: لعل العجلوني اعتمد التسمية التي نص عليها المؤلف في المقدمة.

المصادر والمراجع

١ - ابن حجر العسقلاني؛ «مصنفاته ودراسة فيمنهجه وموارده فى كتابه الإصابة» :للدكتور محمود عبد المنعم ، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

٢ - «إتقان ما يحسن من الأخبارالدائرة على الألسن»: للغزي :(ت: ١٠٦١هـ)، تحـ: خليل ابن محمد العربي، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر - القاهرة، ط ١ (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

٣ - «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» : للزركشي (ت : ٧٩٤هـ)، تحـ: سعيد الأفغانى، المكتب الإسلامى، ط ٣ (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

٤ - ا«لأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة»: للقاري (ت : ١٠١٤هـ)، تحـ: محمد الصباغ، المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٢ (١٤٠٥هـ - ١٩٨٦م).

٥ - «أصول التخريج ودراسة الأسانيد» : للدكتور محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض، ط ٢ (١٤١٢هـ - ١٩٩١م).

٦ - «الأعلام»: للزركلي (ت: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط ١١ (١٩٩٥م).

٧ - «إنباء الغمر بأبناء العمر»: لابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ)، مصورة دار الكتب العلمية عن الطبعة الهندية.

٨ - «تدريب الراوي فى شرح تقريب النواوي»: للسيوطي (ت: ٩١١خ)، تحـ: د. أحمد عمر هاشم، دار الكتاب العربى، - بيروت، (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).

٩ - «الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر»: للسخاوي :(ت: ٩٠٢هـ)، تحـ : إبراهيم باجس عبد المجيد، دار ابن حزم - بيروت، ط ١ (١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م).

١٠ - «الحطة في ذكر الصحاح الستة»: للقنوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، تحـ: على حسن الحلبى، دار الجيل - بيروت ودار عمار - عمان، ط ١ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧).

١١ - «الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة»: للسيوطي (ت : ٩١١هـ)، تحـ: محمود الأرناؤوط ومحمد بدر الدين قهوجى، دارالعروبة - الكويت، ط٢ (١٤١٠هـ - ١٩٠٩م)

١٢ - «الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة» :للكتاني (ت: ١٣٤٥هـ) كتب مقدماتها ووضع فهارسها محمد المنتصر الكتاني، دار البشائر الإسلامية - بيروت.

١٣ - «زهر العريش فى تحريم الحشيش» : للزركشي، تحـ: د. السيد أحمد فرج، دار الوفاء ـ المنصورة، ط ١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

١٤ - «عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران»: للبقاعي (ت: ٨٨٦هـ)، الجزء الخاص بابن حجر، فى مكتبة الدكتور شاكر محمود، مصور عن نسخة كوبريلى.

١٥ - «الغرر السوافر عما يحتاج إليه المسافر» : للزركشي، تحـ: أحمد مصطفى القضاة، المكتب الإسلامى ودار عمار ـ عمّان، ط ١ (١٤٠٩ - ١٩٨٩م).

١٦ - «الغماز على اللماز»: للسمهودي (ت : ٩١١هـ):

ـ تحـ : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

تحـ : محمد إسحاق محمد إبراهيم السلفي، (١٤٠١هـ).

١٧ - «فهرس المخطوطات العربية فى مكتبة الأوقاف العامة فى بغداد»: لعبد الله الجبورى، مطبّعة الإرشاد ـ بغداد، ط ١ (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

١٨ - «فهرس مخطوطات دارالكتب الظاهرية المنتخب من مخطوطات الحديث» وضعه محمد ناصر الدين الألباني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، (١٤٩٠هـ - ١٩٧٠م).

١٩ - «الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة» : للشوكاني (ت : ١٢٥٠هـ)، تحـ : عبد الرحمن المعلمى، المكتب الإسلامى ـ بيروت، ط ٣ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

٢٠ - «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» : للعجلوني (ت : ١١٦٢هـ)، بعناية أحمدالقلاش، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٢١ - «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»: لحاجي خليفة (ت: ١٠٦٧هـ) ، مصورة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٢٢ - «اللآلئ المنثورة فى الأحاديث المشهورة» : للزركشي.

ـ نسخة خطية في مكتبة الأوقاف العامة فى بغداد بعنوان «اللآلئ المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة» ورقمها (٢٩٤٣).

ـ تحـ : مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م).

٢٣ - «مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة»:

للزرقاني (ت: ١١٢٢هـ)، تح: د. محمد الصباغ، المكتب الإسلامى، ط ٤ (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

٢٤ - «المصنوع فى معرفة الحديث الموضوع»: للقاري (ت: ١٠١٤هـ)، تحـ: عبد الفتاح أبوغدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط ٣ (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

٢٥ - «المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة»: للسخاوي (ت : ٩٠٢هـ)، تحـ: عبد الله محمد الصديق، مصورة دارالكتب العلمية - بيروت (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

٢٦ - «نظم العقيان فى أعيان الأعيان»: للسيوطي (ت : ٩١١هـ)، تحـ: د. فيليب حتى، مصورة المكتبة العلمية - بيروت.

٢٧ - «هدية العارفين؛ أسماء المؤلفين وآثار المصنفين»: للبغدادي (ا : ١٣٣٩هـ)، مصورة دار إحياء التراث العربى - بيروت.

[كبيكج] في المخطوطات العربية(*)

تأليف: آدم جاتشك(**)

عصام محمد الشنطي(***)

إنّ دراسة الملاحظات التي في العادة ما يدوّنها ناسخو المخطوطات ومالكوها الأوائل تُعَدُّ بحق من الجوانب الأكثر تشويقًا في مجال علم الخطوط وتطوره، ومن بين الملاحظات يجد الباحث كافة أنماط الأدعية والتعاويذ السّحْرية.

وإحدى هذه الأدعية تتضمن استعمال كلمة «كبيكج» التي يكتنفها كثير من الغموض: وهي - في الغالب - تُكتب على الورقة الأولى أو الأخيرة من المخطوطة. وكثيرًا ما تسبق هذه الكلمة أداة النّداء «يا»، فتضفي عليها روحًا خاصة، وغالبًا ما يتم تكرارها عدة مرات (يا كبيكج، يا كبيكج، يا كبيكج) أو تظهر في صورة جملة مثل: يا كبيكج احفظ الورق، أو أن يلحقها صفة حافظ أوحفيظ (يا كبيكج يا حافظ)(١).

وإذا ما رجع الباحث إلى معجم فير للغة العربية المعاصرة(٢) يجد أن هذه الكلمة تعني قدم الغراب الآسيوي.

(*) مقالة نشرها Adam Gacek، باللغة الإنجليزية، بعنوان :

The use of "Kabikaj" in Arabic manusripts

في مجلة : Manuscripts of the Middle Cast, Vol. 1 (Leisen 1989) pp. 49 - 53.

ويشكر المؤلف فى آخر الحواشي الدكتور ف. كيشڤارتس على مساعدته فى النصوص الفارسية، والدكتور جان جست ويتكام الذى اختار من مجموعة مخطوطات «ليدن» بعض نماذج بـ«كبيكج»، وزوّده بصور منها.

(**) تشيكي الأصل، ولد في ٢٠ ديسمبر ١٩٤٩م. ويقيم الآن في كندا، رئيسًا لمكتبة الدراسات الإسلامية جامعة ماكجيل، ومحاضرًا في معهد الدراسات الإسلامية التابع لها، وهو أحد الباحثين المدققين في حقل علم المخطوطات العربية والإسلامية، وعلم المكتبات، له كتب كثيرة نذكر منها: فهرس المخطوطات العربية في جامعة ماكجيل (١٩٩١م)، والكتب العربية المطبوعة بالليثوغراف «طبع حجر» (١٩٩٦م)، وتراث المخطوط العربي: ببليوغرافيا ومعجم للمصطلحات (ليدن، إبريل ٢٠٠١م)، وهو إنجاز رائد، ومن بحوثه ما كشف فيه عن طريقة لصناعة الورق في اليمن، في القرن السابع الهجري، وهي غير الطريقة المعروفة في المخطوطات - المترجم.

(***) خبير معهد المخطوطات العربية (القاهرة)، مدير سابقًا، والشكر خالص للصديق د. أيمن فؤاد سيد الذي أعارني عدد المجلة المتضمن هذه المقالة القيمة التي تُجيب على سؤال طالما سُئلته.

(١) انظر مثلا:

R. Selheim, Materalien Zur arabischen Literaturgeschichte, Teil I (wiesbaden, 1978), pp. 50, 355; A. Gacek, Catalogue of Arabic manuscripts in the library of the Institute of Ismaili Studies (London, 1984), Vol. 1, No. 139R

(حيث يُستعمل مصطلح كبيكج للإيجاء بفحيح الأفاعي)، وأيضًا No. 28, and p. 80 (illus) والكلمة غالبًا ما تكتب كبكج أوكيج.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة عربي - إنكليزي. H. Wehr, Adictionary of modern written Arabic, ed by J. M. Cowan (New York, 1976), p. 812.

ويعرّف ستينجاس[١] الكلمة بأنها: «نوع من نبات المَقْدُونِس البري ذي سُمٍّ قاتل، وأنها الملاك الحارس للزواحف، وملك الصراصير (في الهند كثيرًا ما تُكتب الكلمة في الصفحة الأولى من الكتاب، لاعتقاد خرافي لديهم أن الصراصير سوف تُحجم عن إيذاء الكتاب احترامًا لاسم ملكهم)».

وفي ضوء هذا التعريف فإن «كبيكج» تعني - في آن واحد - نباتًا، كما تعني نوعًا من الجنّ، يكفي ذكر اسمه، ليحمي الكتاب من الديدان (الأَرَضَة والسوس) والحشرات.

ويخبرنا «دوزي»[٢] بدوره أن «كبيكج» في أصلها كلمة فارسية، بينما «دايخدا»[٣]. مشيرًا إلى مصادر مختلفة يذكر للكلمة مرادفاتها العربية مثل: كف السبوع (أو كف الأسد)، وكف الضّبّ، وشجرة الضفادع، والشقيق (ورد الحب)، والشقيق بالعربية، والذي يُعرف أيضًا بالشقيق النعماني أو شقيق البساتين، له عديد من الأشكال مثل: التبني، والحَرِيف والشرير (ويسمى أيضًا زَغْلِيلة)، والبصيلي (ويسمى أيضًا ضُفَيْدَع)[٤].

ويرى معين[٥] أن «كبيكج» هي تعريف لـ Kabikag (وهي في الأصل كبيكه) ولها صور أخرى هي كبيكنج، ويضيف أنه كان يُعتقد أن الحشرات تهرب من رائحتها.

ويقدم «دايخدا» معلومة أخرى مفادها أنه يُعتقد أن الكلمة بالسريانية هي اسم ملك ذي سلطان على الحشرات، إلا أن هذه المقولة لايمكن تأكيدها؛ لأن علم دلالات الألفاظ وتطوره في اللغة السريانية يجعلها غير محتملَة.

أما البيروني (توفي ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) فيرى أن الكلمة مشتقة من كلمة كابي الهندية (السنسكريتية)، بمعنى قرد وقدّم تفسيرين جديرين بالتقدير، أولهما لأن القرد دائم الحركة ولا يهدأ، ومن يقترب من ذلك النبات يصبح مثله، والثاني لأن القرد يحب ذلك النبات، فاكتسب النبات اسمه[٦]، وكلمة كج تعني ملتو ومنحن، وهي صفة تناسب النبات بجذوره الليفية السميكة وأوراقه المتسلقة.

---

(١) F. Steing ass, Persian - English dictionary (Farhang - Istoyngas) (London 1977), p. 1013

(٢) R. Dozy, Supplement aux dictionnaires arabes, 3e ed. (Paris, 1967), Vol. 2, p. 441; وانظر أيضًا Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache حيث ترد الإشارات إلى أعمال طبية عربية أخرى Band I (Wiesbaden,m 1970) P. 542.

(٣) Ali Akbar Dihkhuda, Lughat, namah (Teheran, 1366 - 1400 [1964 - 1979]), Vol. 27, p. 331.

(٤) Hassan Kamal, Encyclopaedia of Islamic medicine (Cairo, 1974), p. 555.

(٥) Muhammad Muin, Farhang - i Farsi - i mutavassit (Teheran 1398 - 99/ 1977 - 78), Vol. 3, p. 2895.

(٦) Mahammad ibn Ahmad Al-Biruni, Saydanah, (translated into persian by Abu Bakr ibn Áli al-Kasani Teheran, 1977), Vol. 2, p. 579.

ملاحظة: الاسم اللاتيني «ranunculus» - (عائلة نباتية) هو تصغير rana بمعنى ضفدع إن اشتقاق كلمة «كبيكج» من =

وفي المخطوطات المغربية تظهر الكلمة بصورتها المحرَّفة «كيكتج»، وتُستعمل بوضوح طِلَّسْمًا (تعويذة، تحويطة)[١]، ويخبرنا بكر الإشبيلي (توفي ٦٢٨ أو ٦٢٩هـ/ ١٢٣١ - ١٢٣٢م)، في الفصل الأخير من كتابه «التيسير في صناعة التسفير» عن دور طائر الهُدْهُد وريشه في حفظ المخطوطات . كما يَذكر نقلا عن شخص يُدعى محمد السميري أنه إذا كتب أحدهم «يا كيكتج» على الورقة الأولى والأخيرة من الكتاب، فمن المؤكد أن الديدان لن تهاجمه[٢].

وواضح أن الأثر السِّحْري لكلمة «كبيكج» يشبه إلى حدٍّ كبير أثر كلمة «بدوح» حينما تُكتب على المخطوطات أو غيرها من الأشياء، سواء في صورتها الكاملة بالحروف، أو ما يقابلها بحساب الجُمَّل (٢، ٤، ٦، ٨)[٣].

ومن وجهة نظر علم النبات فإنّ «كبيكج» (ويعرف أيضًا بنبات الحَوْذان الفارسي أو ذي العمامة) نبات ينتمي إلى العائلة الحوذانية، وهي عائلة يندرج تحتها نحو أربعمئة نوع، كثير منها ذو سُمِّيَّة عالية[٤].

إن استخدام غراء الحوت أو معجون النشا أو العسل في صناعة تجليد الكتب العربية كثيرًا ما كان يجلب أنواع الديدان والحشرات كافة، وكان الأمل أن يقوم نبات الكبيكج بطردها جميعًا، لذا فإن المرء كثيرًا ما يلقي أوراقًا نباتية جافة في المخطوطات ، ولكنها ليست بالضرورة من أوراق الكبيكج.

ولاشك أن إضفاء قوى سحرية على «كبيكج» أسهم في سرعة اختفاء معرفة الخصائص السَّامَّة لهذا النبات، على أنه من الصعوبة بمكان أن نجزم بقدرة الكبيكج على حفظ الورق، دون تحليل كيميائي دقيق.

اللغة السنسكريتية فيه طرافة، خاصة حين نعلم أن كابي مصطلح ينسحب على الإله «فيشنو» (وهو الحامي الهندوسي المقدس) (انظر .J. T. platts, A dictionary of Urdu, Classical Hindi and English Oxford, 1982, p. 811).

وعند A. Dietrich في كتابه Medicinalia Arabica, (Göttingen, 1966), p. 41, n. 1) ما يفيد أن قيمة تكرار ذكر يا كبيكج ٦٦ مرة تساوي ذكر اسم الله!؟ .

(١) عبد الهادي التازي «الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ»، الرباط، ١٩٨٣، ص ٢٥.

(٢) بكر بن إبراهيم الإشبيلي، كتاب «التيسير في صناعة التسفير»، تحقيق عبد الله كنون، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ٧ - ٨ (١٩٥٩ - ٦٠)، ص ٤٠ وللهدهد انظر : A. J. Wensinck, E. I. 2, Vol. 3, pp. 541 - 542.

(٣) D. B. Macdonald, «Buduh» , E. I.2. Suppl,. Fasc. 3 - 4 , pp. 153 - 154.
وانظر مثله أيضًا في الترجمة العربية (دائرة المعارف الإسلامية)، المجلد، ص ٤٩٦ - ٥٠٤.
و Silvestre de Sacy, chrestomathie arabe, 2 ed, (Paris, 1826 - 27), Vol. 3, pp. 364 - 366

(٤) انظر على سبيل المثال: F. Stary, poisonous plants (London, Hamlyn, 1983), p. 170.

نماذج وأمثلة لـ «كبيكج» مختارة من مخطوطات مكتبة جامعة ليدن

١ - كبيكج. مخطوطة رقم or. 11.610: المختارات - في الفقه الحنفي. لـ علي بن أحمد الجمالي (توفي ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م). تركيا، القرن ١٨م [١٢هـ].

٢ - يا حفيظ يا كبيكج. مخطوطة رقم or. 11. 601 : مختار الصِّحاح - مختصر معجم الجوهري مؤرخة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م. من تركيا.

٣ - يا كبيكج يا حفيظ مخطوطة رقم or. 11. 564 : متقن الرواية في علوم القراءة والدِّراية، لـ ابن الكَتَّاني (القرن ١٨ - ١٩م)/ [١٢ - ١٣ هـ]، مؤرخة في إستانبول ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م.

٤ - يا كبيكج احفظ مخطوطة رقم or. 8513 : «خلاصة الإعراب»، لـ حاجِّي بابا - شرح على المصباح للبيضاوي، تركيا، القرن ١٨م. ١٢ هـ.

٥ - يا كنينكج. مخطوطة رقم or. 14. 257 ، ورقة ٢٢٩ ب: «شرح لب الألباب في علم الإعراب»، لـ نقره كار، من تركيا أو إيران، القرن ١٧ - ١٨م [١١ - ١٢ هـ].

٦ - أكيكنج كج كج، مخطوطة رقم or. 11. 684: «زبدة البيان في حرفة عيون الأعيان» - شرح لموجز أبي زيد عبد الرحمن الأخضري - في العقيدة الإسلامية مؤرخة ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م. من المغرب.

٧ - يا كيج. ويا كيكج، مخطوطة رقم or. 14. 316: الصفحة الأولى من مجموع يتضمن أربعة نصوص في النحو، من أتشه Aceh، إندونيسيا القرن ١٩ [١٣هـ].

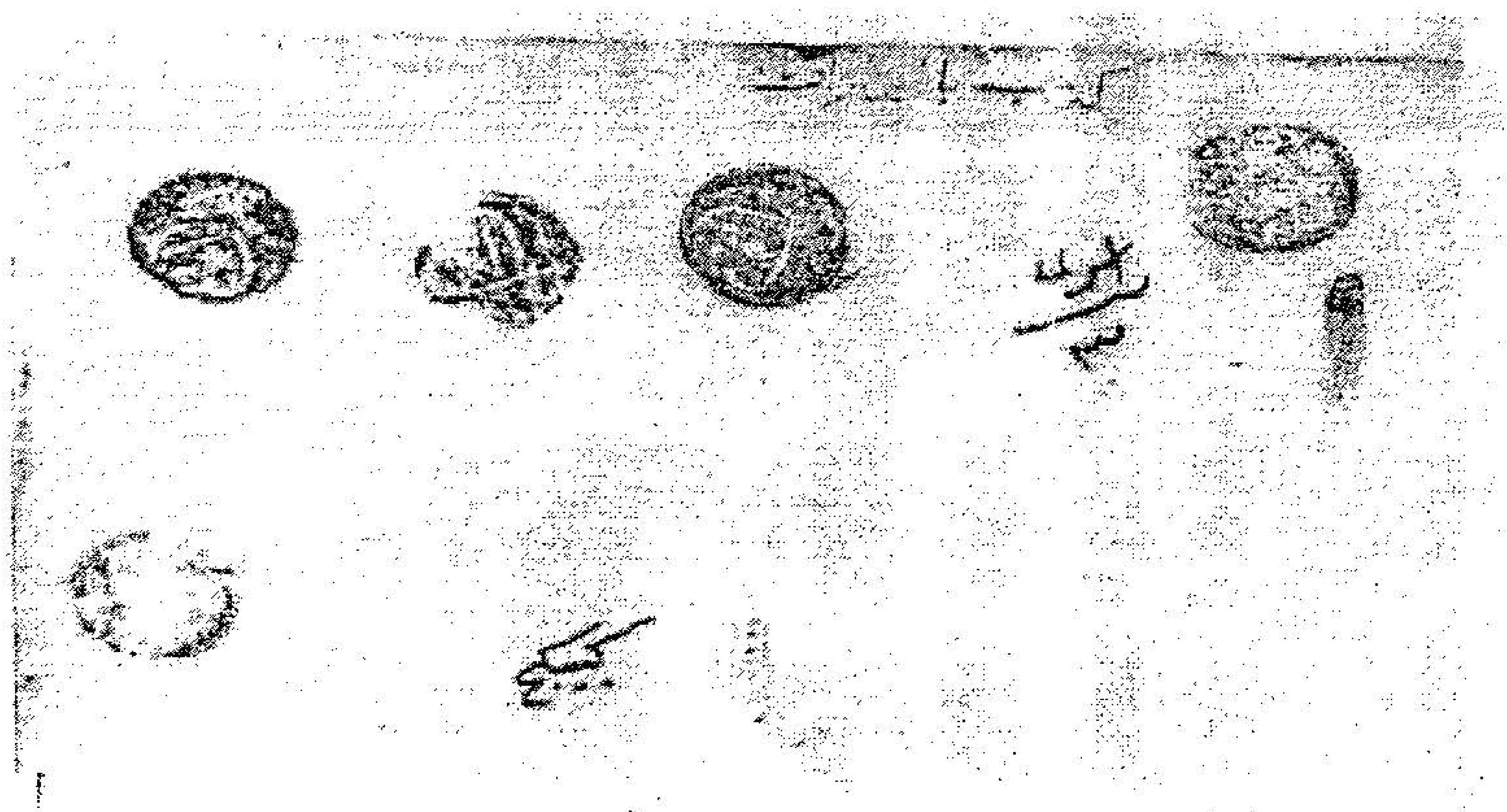

كبيكج. مخطوط رقم Or.11.610: المختارات - في الفقه الحنفي، لعلي بن أحمد الجمالي (توفي ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م). تركيا، القرن ١٨م [١٢هـ].

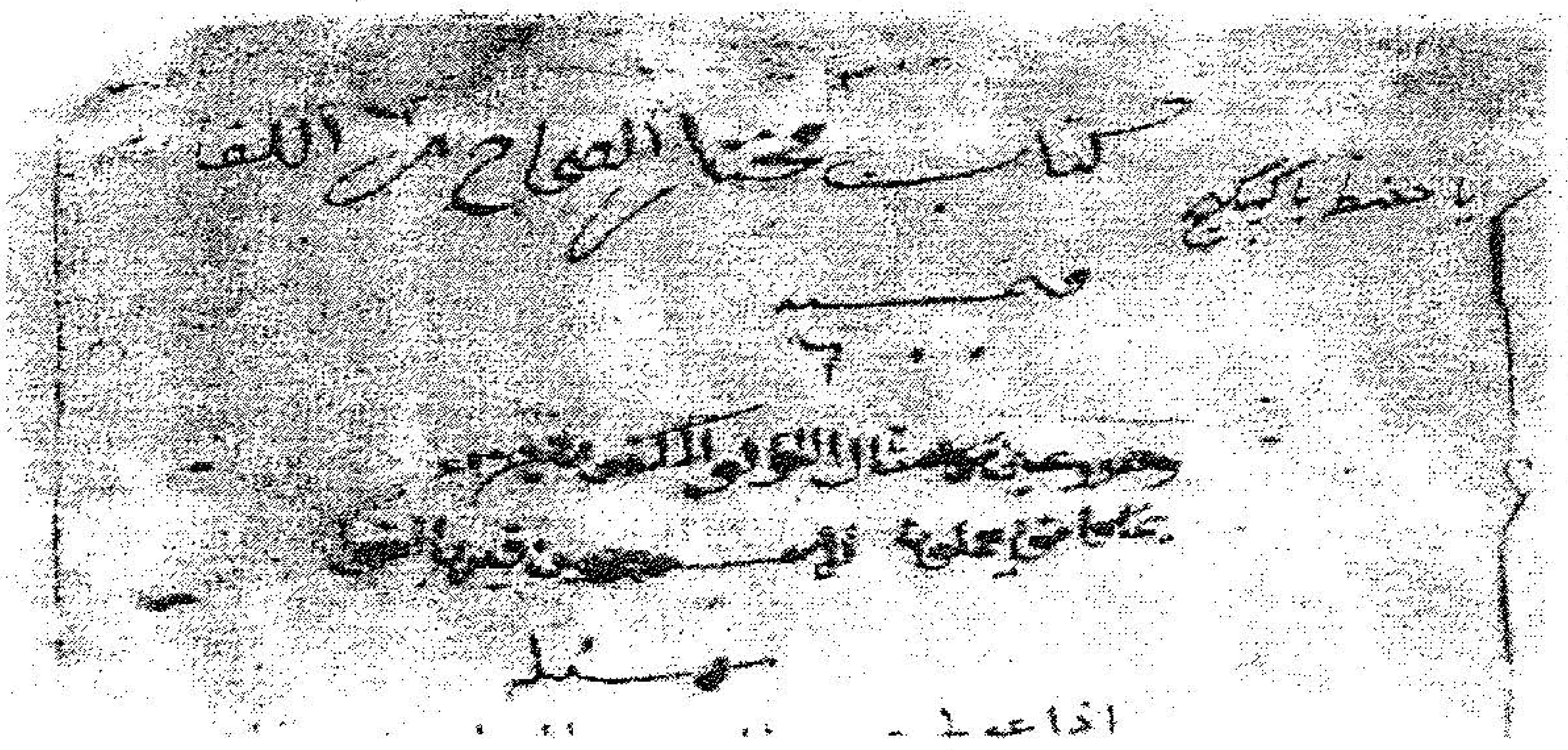

يا حفيظ يا كبيكج. مخطوطة رقم Or.11.601: مختار الصِّحاح - مختصر معجم الجوهري. مؤرخة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٩. من تركيا.

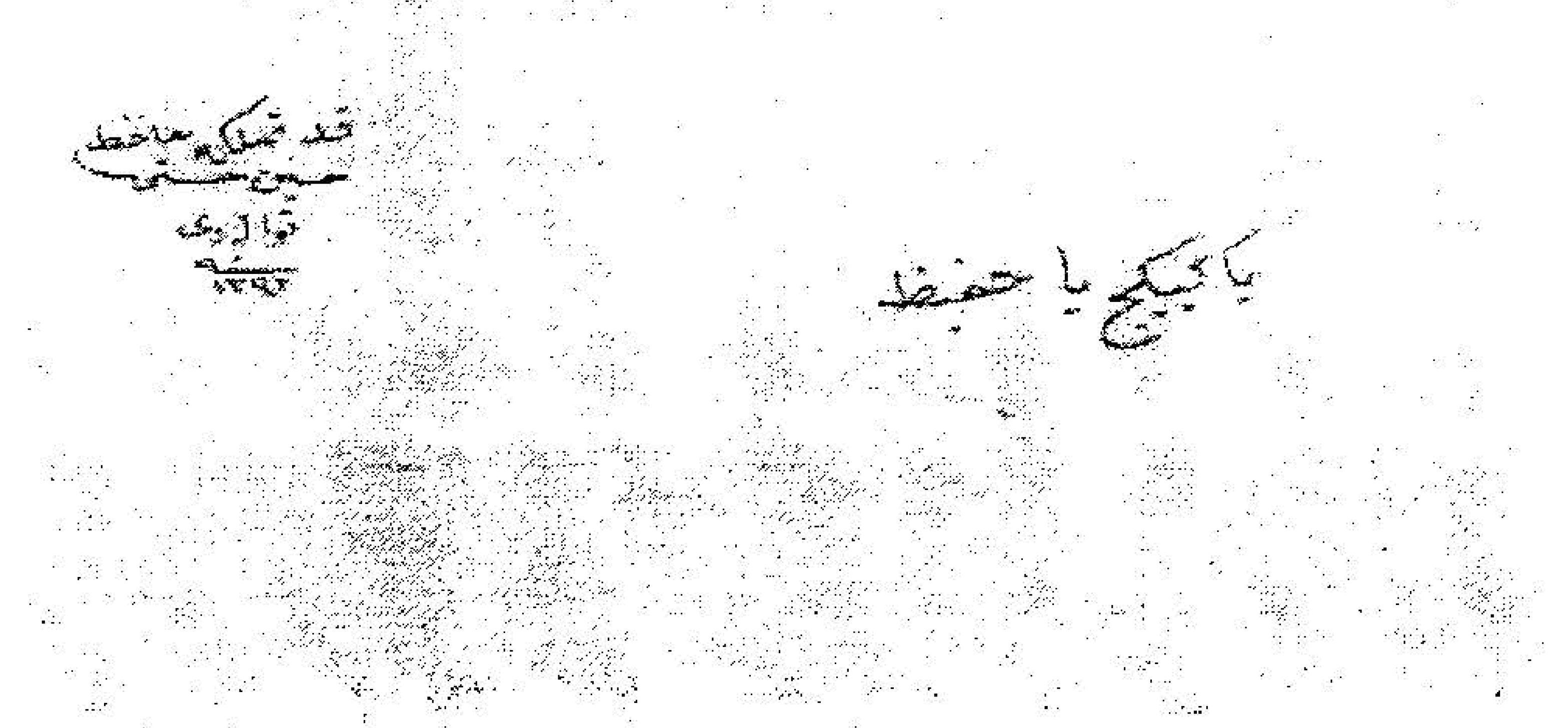

يا كبيكج يا حفيظ. مخطوطة رقم Or.11.564: مِتقن الرواية في علوم القراءة والدراية، لابن الكتاني (القرن ١٨ - ١٩) / [١٢ - ١٣]. مؤرخة في إستانبول ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م.

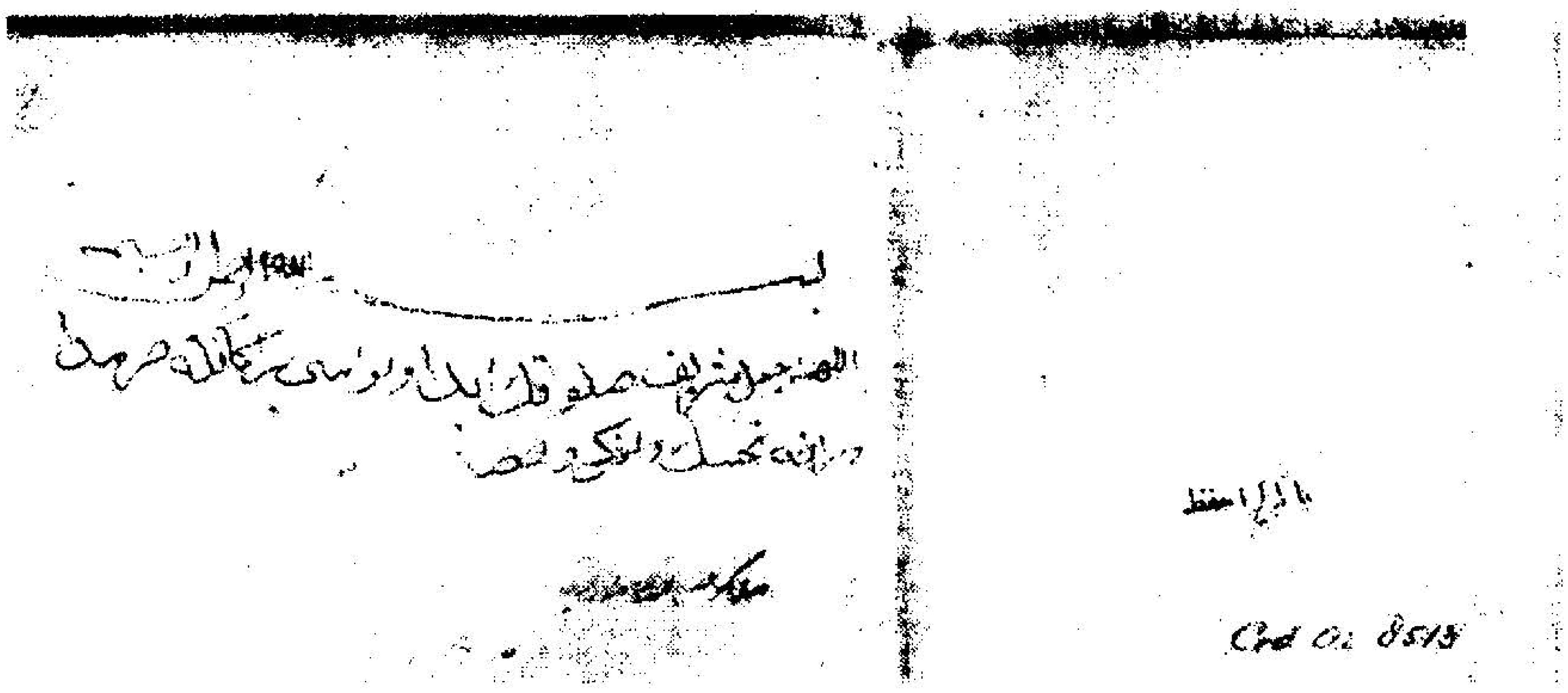

يا كبيكج احفظ. مخطوطة رقم Or.8513: خلاصة الإعراب، لحاجِّي بابا - شرح على المصباح للبيضاوي. تركيا القرن ١٨م [١٢هـ].

يا كنينكج. مخطوطة رقم Or.14. 257، ورقة ٢٢٩ب: شرح لب الألباب في علم الإعراب، لنقرة كار. من تركيا، أو إيران. القرن ١٧ ــ ١٨م [١١ ــ ١٢هـ].

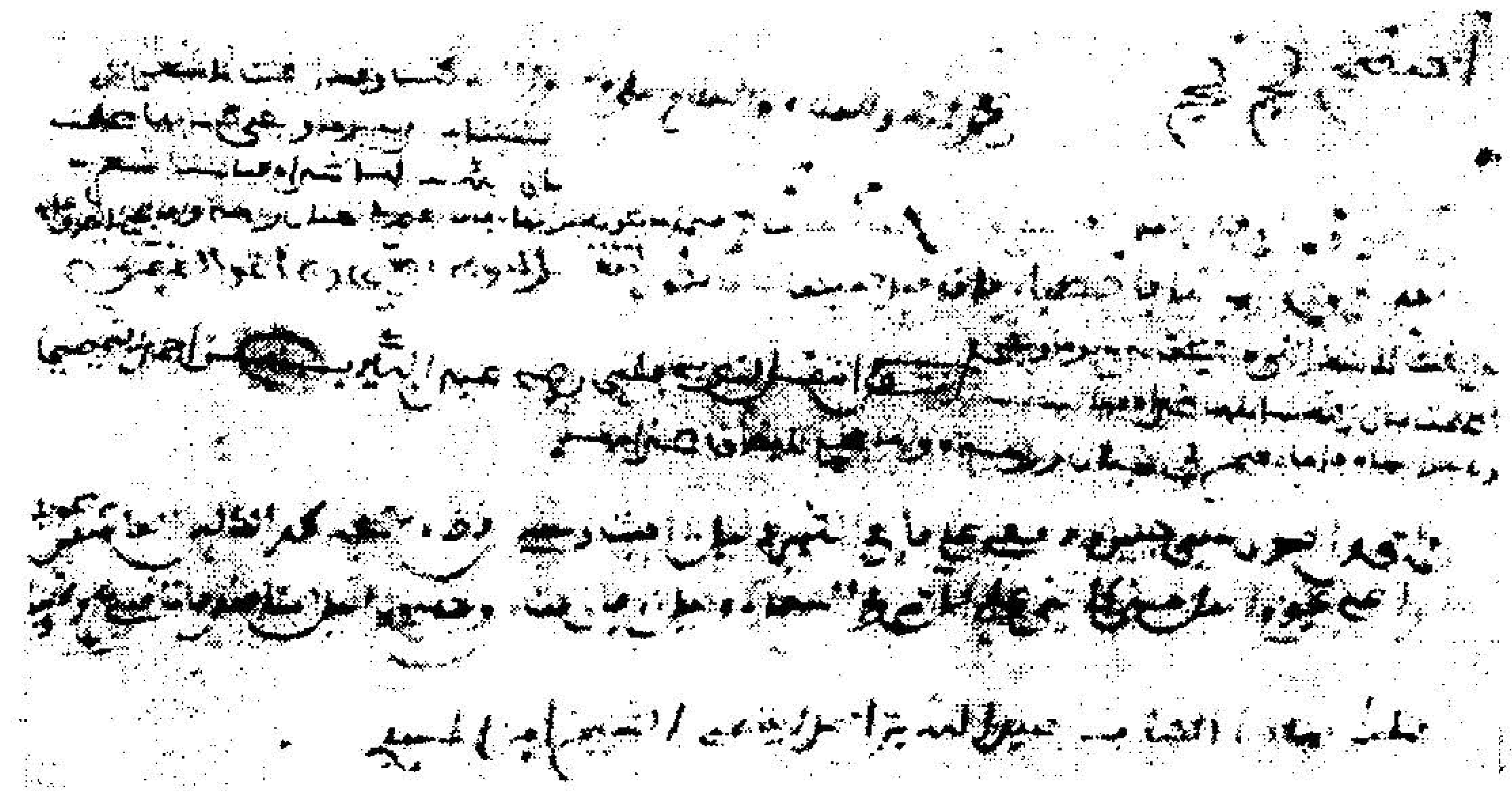

أكيكنج كج كج. مخطوطة رقم Or. 11. 684: زبدة البيان في حرفة عيون الأعيان - شرح لموجز أبي زيد عبد الرحمن الأخضري - في العقيدة الإسلامية. مؤرخة ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م. من المغرب.

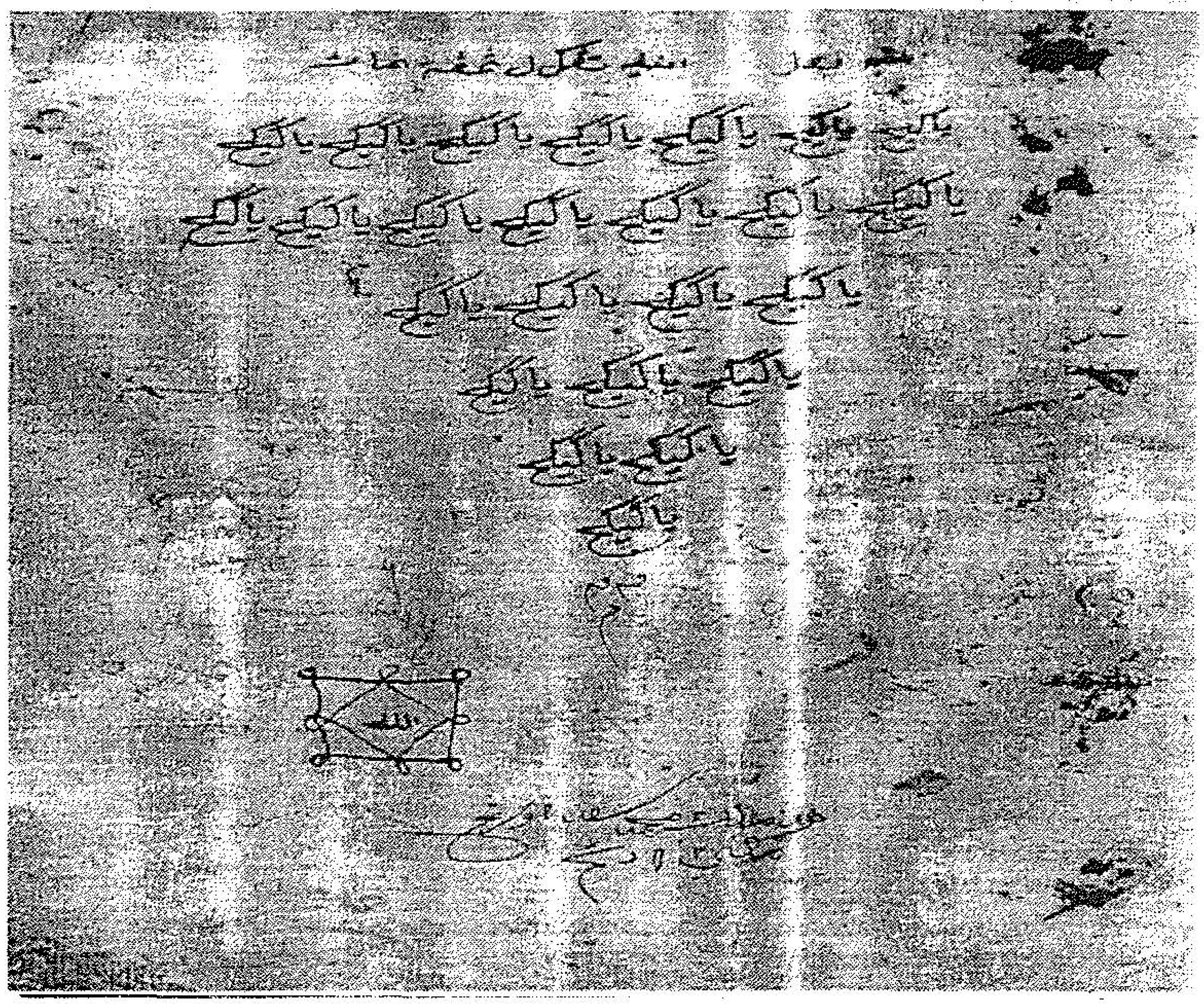

يا كيح، ويا كيكح. مخطوطة رقم Or. 14. 316: الصفحة الأولى من مجموع يتضمن أربعة نصوص في النحو. من أتشه Aceh، إندونسيا، القرن ١٩م [١٣هـ].

السيرة النبوية والمستشرقون اليهود

د. إبراهيم عوض

فى قائمة «المفضَّلة» عندي فى المشباك موقع يحمل اسم «Jewish En-cyclopedia.com» (الموسوعة اليهودية) كنت أرجع إليه بين الحين والآخر أستطلع وجهة النظر اليهودية فيما أكون بصدد البحث فيه من الموضوعات. وقبل أيام خطر لي أن أفتح الموسوعة على مادة «Mohammed»؛ لأرى ما الذى لدى اليهود ليقولوه عن نبينا الكريم، فراعني أن كاتب المادة ينظر إلى السيرة النبوية من منظار يهوديٍّ ضيق ومتعصب يقوم على التدليس والكذب ولَيّ الحقائق ،والزعم بأن الرسول ﷺ - قد استفاد فى تشريعاته من اليهود حين هاجر إلى المدينة وأصبح على علم بما فيها بعد أن كان لا يعرف عنها قبل وصوله إلى المدينة إلا معلومات غامضة مضطربة التقطها من هنا ومن ههنا، ثم أن الكاتب قد ركَّز معظم المادة للحديث عن اليهود وما وقع بينهم وبينه عليه السلام بطريقة توحي بأنه لم يكن هناك تقريبًا شىء آخر ذو أهمية فى حياته سواهم!

يقول الكاتب مثلاً: إن الرسول لم يكن فى بداية هجرته إلى المدينة ينظر إلى اليهود على أنهم أصحاب دين مختلف عن دينه. ولا أدرى على أى أساس ولا بأية أمارة يقول ذلك. أم ترى الأمر لا يزيد على أن يتوهم الإنسان الشىء، أو بالأحرى يزعمه زعما، فيكون الأمر كما أراد أن يتوهم أو يزعم. لكن العلم والحقيقة لا يرتاحان لمثل هذه الألاعيب ولا يعترفان بها حتى لو سُجِّلَتْ فى موسوعة عالمية لها موقعٌ على المشباك يزوره القراء من كل أرجاء الدنيا! هل يستطيع الكاتب أن يقدم لنا شاهدًا أو دليلاً واحدًا يتيمًا على ما يقول؟ هل صدر عن الرسول ما يفيد أنه كان ينظر إلى اليهود على أن دينهم لا يختلف فى شىء عن دينه؟ فلم جاء برسالة جديدة إذًا؟. بل لم قال القرآن منذ وقت مبكر، وقبل أن يهاجر الرسول الكريم إلى يثرب ويصطبح بخلقة اليهود هناك: إن رسالته عالمية تخاطب البشر جميعًا ولا تقتصر على بني إسرائيل (أو غير بني إسرائيل) وحدهم؟. وهذا إن أمكن أصلاً أن يكون، وهو العربى، نبيًا لبني إسرائيل. لقد ظهر النبيُّ فى محيطٍ عربيٍّ هو مكة، ولم يحاول أن يتصل باليهود أو يبحث عنهم، ولا أثنى عليهم ولا قال القرآن أيَّ شىء يُفْهَمَ منه ولو من بعيد - أنه يرى أن دينهم هو دين محمد، ولا أفردهم بما يميزهم عن غيرهم ويجعل لهم خصوصية فى دعوته دون مَنْ قَصّ أخبارهم من الأمم السابقة! بالعكس لقد حمل القرآن عليهم فى

الوحي المكي مرارًا، وذكر جحودهم وارتدادهم فى كل سانحة إلى الكفر والعصيان، مما يدل على أن الدعوة الجديدة لم تكن ترى فيهم منذ البداية صديقًا بَلْهَ مثيلا على أى نحو من الأنحاء! ومن الممكن أن يرجع القارئ الكريم إلى «الأنعام/ ١٤٦» و«الأعراف/ ١٣٩- ١٧١» و«الإسراء/ ٤- ٨» و«طه/ ٨٣- ٩٨» على سبيل المثال حيث تكلم القرآن عن ظلمهم وبغيهم، وعبادتهم العجل الذهبى الذى كادوا أن يقتلوا هارون بسببه، وإلحاحهم على موسى أن يصنع لهم صنمًا يعبدونه كأصنام القوم الذين أَتَوْا عليهم عقب انشقاق البحر لهم وعبورهم إياه، وكذلك عن الإفساد الذي سيفسدونه في الأرض مرتين حين يَعْلُون علوًا كبيرًا قبل أن يسلط الله عليهم من ينتقم منهم. فهل يمكن أن يُفْهَم من هذه الآيات القرآنية أنه عليه السلام لم يكن فى بداية هجرته للمدينة يرى فى ديانة اليهود شيئًا مختلفًا عما جاء به؟ ليس ذلك فقط، بل معروفٌ أنه عليه السلام، عند مهاجَره للمدينة، قد كتب معاهدة بين طوائف سكانها يتضح منها أن اليهود شىء، والمسلمين شىء آخر، وأن دين هؤلاء غير دين أولئك. وهذا نص الكلام: «كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة من دون الناس. وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصَرٍ عليهم. وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم: مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم». فما الرأى فى هذا الكلام؟ من البيِّن الجلىّ أن كاتب المقال يهرف باطلاً، ويتنفس كذبًا ومَيْنًا. إنه يريد أن يقرر فى عقول القراء أن الرسول الكريم كان يتخبط فى دعوته ولا يدري ماذا يفعل، وأنه لم يكن مرسلا من ربه، بل اخترع الإسلام اختراعًا، وأنه لم يكن يعرف شيئًا عن اليهود، بل كانت المعلومات تأتيه من تجاربه الشخصية وما يسمعه من الناس من حوله لا من الوحي، شأنه فى ذلك شأن أيّ إنسان آخر لا علاقة له بالسماء.

كذلك يَكْذِب الكاتبُ حين يزعم أن الرسول والمسلمين قد استعاروا من اليهود بعض شعائرهم كالصلاة الجماعية فى أوقات منتظمة، والصيام، والقِبْلة، ومحرَّمات الطعام. ولنتأمل قوله إن استعارة هذه الشعائر قد تمت من قِبَل الرسول والمسلمين، وهو ما يفيد أن الإسلام ليس صناعة محمدية فحسب على ما فى ذلك من طامّة ثقيلة، بل يدخل معه فى الصناعة والاختراع المسلمون أيضًا. وكأن الإسلام لعبة يعبث بها كل من هب ودب، ولا يقتصر أمرها على يد واحدة. ولنبدأ بالدعوى الأولى الخاصة بالصلاة الجماعية: لقد كان المسلمون يؤدون الصلاة جماعة منذ وقت جدّ مبكر فى

مكة. يتضح ذلك من الأخبار التالية: جاء فى «الروض الأُنُف» للقاضى عياض: «قال ابن إسحاق: ذكر بعضُ أهل العلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شِعَاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيًا من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا. فمكثا كذلك إلى ما شاء الله أن يمكثا، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يومًا وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: «أيْ عَمِّ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم (أو كما قال ﷺ)، بعثني الله به رسولا إلى العباد. وأنت، أيْ عَمِّ، أحقُّ مَنْ بذلتُ له النصيحة ودعوتُه إلى الهدى، وأحقّ مَنْ أجابني إليه وأعانني عليه»، أو كما قال. فقال أبو طالب: «أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكنْ والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ». وذكروا أنه قال لعلي: «أيْ بُنَيَّ، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: «يا أبت، آمنتُ بالله وبرسول الله وصدَّقْتُه بما جاء به وصلّيتُ معه لله واتبعته». فزعموا أنه قال له: «أمَا إنه لم يَدْعُك إلا إلى خير فالزمه». وفى سيرة ابن هشام: «قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلَّوْا ذهبوا في الشِّعاب فاستَخْفَوْا بصلاتهم من قومهم. فبَيْنَا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعْب من شِعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلّون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم. فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلَحْي بعير فشجَّه، فكان أول دم أُهْرِيق في الإسلام».

بل إن المسلمين قد أدَّوْا شعيرة الجمعة قبل أن يصل النبى عليه السلام إلى المدينة ويرى وجه اليهود أو حتى قَفَاهم. وننقل هنا ما جاء فى «زاد الميعاد» لابن الجوزي: «قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي حين كُفَّ بصره، فإذا خرجتُ به إلى الجمعة فسمع الأذان بها استغفر لأبي أمامة أسعد بن زرارة. فمكث حينًا على ذلك، فقلت: إن هذا لَعَجْزٌ ألا أسأله عن هذا. فخرجت به كما كنت أخرج ، فلما سمع الأذان للجمعة استغفر له فقلت: يا أبتاه، أرأيتَ استغفارك لأسعد بن زرارة كلما سمعتَ الأذان يوم الجمعة؟ قال: أي بُنَيَّ، كان أسعد أول من جمَّع بنا بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ في هزم النبيت من حَرَّة بني بياضة في نقيع يقال له: نقيع الخضمات. قلت: فكم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلا. قال البيهقي ومحمد بن إسحَاق: «إذا ذكر سماعه من الراوي وكان الراوي ثقة استقام الإسناد، وهذا حديث حسن صحيح الإسناد». انتهى. قلت: وهذا كان مبدأ الجمعة. ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة فأقام بقباء في بني عمرو

ابن عوف كما قاله ابن إسحاق يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس، وأسس مسجدهم. ثم خرج يوم الجمعة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة، وذلك قبل تأسيس مسجده. قال ابن إسحاق: وكانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن (ونعوذ بالله أن نقول على رسول الله ما لم يقل) أنه قام فيهم خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعد أيها الناس، فقدِّموا لأنفسكم. تَعْلَمُنَّ والله ليصعقنَّ أحدكم، ثم ليَدَعَنَّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلَّغك وآتيتُك مالا وأفضلتُ عليك؟ فما قَدَّمْتَ لنفسك؟ فلَيَنْظُرَنَّ يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا، ثم لَيَنْظُرَنَّ قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقٍّ من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجْزَى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». قال ابن إسحاق: ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله أحمده وأستعينه. نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إن أحسن الحديث كتاب الله. قد أفلح من زيَّنه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر فاختاره على ما سواه من أحاديث الناس. إنه أحسن الحديث وأبلغه. أَحِبّوا ما أَحَبَّ الله. أَحِبّوا الله من كل قلوبكم، ولا تملُّوا كلام الله وذِكْره، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم، فإنه مِنْ كل ما يخلق الله يختار ويصطفي. قد سماه الله خِيرَته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالحَ من الحديث ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام. فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتقوه حق تُقَاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروح الله بينكم. إن الله يغضب أن يُنْكَث عهده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ولا ينبغى أن ننسى أن الصلاة الأسبوعية عندنا إنما تُؤدَّى يوم الجمعة لا السبت، وأنه ورد عن الرسول الكريم أن اليهود والنصارى قد ضيَّعوا الجمعة: فاختار الأولون السبت، والآخَرون الأحد حسبما ورد فى الحديث التالى: «روى الدارقطني عن عثمان ابن أحمد بن السماك قال: نا أحمد بن محمد بن غالب الباهلي قال: نا محمد بن عبد الله أبو زيد المدني قال: نا المغيرة بن عبد قال: حدثني مالك عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: أَذِن النبي صلى الله عليه وسلم بالجمعة قبل أن يهاجر، ولم يستطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجمِّع بمكة ولا يبدي لهم، فكتب

إلى مصعب بن عمير: أما بعد فانظر اليوم الذي تَجْهَر فيه اليهود بالزَّبور لِسَبْتهم فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فتقرَّبوا إلى الله بركعتين. قال: فأوَّلُ من جَمَّع مصعب بن عمير، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فجمَّع عند الزوال من الظهر وأظهر ذلك». وفى ضوء هذا ينبغى أن نفهم قول النبي للمسلمين عن يوم الجمعة: «أضلَّته اليهود والنصارى، وهداكم الله إليه». وكذلك من المعروف أن النبي لم يستحبّ أن يكون بوق اليهود (أو ناقوس النصارى) هو أداة نداء المسلمين للصلاة، بل أنه لم يكن مستريحًا للاتجاه إلى بيت المقدس بعد مهاجَره إلى المدينة، وظل يبتهل إلى الله أن يأذن له فى التوجه إلى البيت الحرام، حتى أنزل سبحانه وتعالى عليه الآيات التى تعطيه الإذن بذلك. ولتوضيح هذه النقطة لا بد أن نعرف أنه عليه السلام كان إذا صلَّى وهو بمكة يقوم جنوب الكعبة مُوَلِّيًا وجهه نحو الشَّمال، فتكون قبلته الكعبة وبيت المقدس جميعًا، ثم لما هاجر لم يعد من الممكن استقبال القبلتين جميعًا معًا؛ إذ لم يعد موجودًا فى الشمال الآن إلا بيت المقدس. وكان عليه السلام يريد أن تكون قبلته إلى الكعبة لا إلى بيت المقدس؛ حتى لا يشترك فى نفس القبلة مع اليهود. ولم تكن الأمور قد ساءت بَعْدُ بين الفريقين حتى يقال، كما يزعم بعض المستشرقين كذبًا، إنه عليه السلام قد جاملهم فى البداية بالصلاة إلى قبلتهم كي يكسبهم في دينه، ثم لما عجز عن أن يجعلهم من أتباعه قام بتغيير القبلة بعد أن لم يعد للمجاملة معنى! ذلك أن القِبْلَة قد حُوِّلَت قبل غزوة بدر، أي قبل وقوع أيٍّ من المصادمات أو حتى الخلافات الأولية بين اليهود والمسلمين، فلا معنى إذن لمثل هذه التفسيرات السخيفة المتنطعة التى يراد من ورائها الإيهام بأن الإسلام ما هو إلا تعبير عن مواقف الرسول وآرائه، ولا وشيجة تصله بالسماء! فحقيقة الأمر إذن أن مسألة القِبْلَة قد جَرَتْ على خلاف ما ادَّعَى الكاتب، إذ كان المسلمون قبل الهجرة يصلّون إلى الشمال ميمِّمين وجوههم حيال بيت المقدس (وحيال الكعبة فى نفس الوقت)، ثم لما هاجر الرسول لم يرتح إلى الصلاة إلى قبلة اليهود، لكنه لم يتحول عنها رغم هذا إلا بعد أن استجابت السماء ونزل الوحى بالإذن له بذلك! وإلى القارئ ما جاء فى «الدُّرَر في اختصار المَغَازِي والسِّيَر» لابن عبد البر عن هذا الموضوع: «وصُرِفَت القِبْلَة عن بيت المقدس إلى الكعبة في السنة الثانية على رأس ستة عشر شهرًا، وقيل سبعة عشر شهرًا، من مَقْدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وذلك قبل بدر بشهرين». وفوق هذا فصلاة الجماعة فى الإسلام لا تحتاج لكهنوت كما هو الحال في اليهودية التي توجب أن يرأس طقوسها كاهن من سلالة هارون عليه السلام حسبما

بنص العهد القديم، بل يصح أن يؤمها أى فرد من المسلمين. وفضلاً عن ذلك فمفردات الصلاة فى الإسلام من أفعال وأقوال تختلف تمام الاختلاف عن مثيلاتها فى صلاة اليهود. وهذا كله مما يؤكد أن الإسلام حريص على تمايز المسلمين عن اليهود وغير اليهود، فكيف يزعم زاعم أنه - ﷺ - قد استعار من اليهود شعائر العبادات الإسلامية؟

ثم هل يُعْقَل، لو كان الإسلام قد استعار من اليهود شعيرة الصلاة الجماعية، أن يسخر هؤلاء اليهود أنفسهم من تلك الشعيرة نفسها فيتخذوها هُزُوًا ولَعِبًا كلما سمعوا النداء إليها؟ قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة/ ٥٨). وأدهى من ذلك وأمرّ أن يلجأوا إلى أساليب التآمر الخبيث فى حربهم لدين محمد، وليس هذا أسلوب الواثق من نفسه تجاه من يستمدون منه شعائرهم ويقتدون به، بل أسلوب الحاقد الذى يؤرّقه ما فى يد الآخرين من الجواهر الأصيلة النفيسة، والملتوي الذي لا يعرف المواجهة الصريحة واحترام النفس. وفى فضح هذه الأساليب المجرمة يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (المائدة/ ٦١). فلماذا ينافقون المسلمين لو كانوا يَرَوْن أن المسلمين يستعيرون منهم عباداتهم وأساليب تنظيمها؟ بل لقد كانوا يتواصَوْن بالتظاهر بالدخول فى دين أولئك المسلمين أنفسهم أول النهار ثم إعلان الخروج منه آخر اليوم بغية تشكيكهم فى دينهم؛ إذ كانوا يتصورون أن الصحابة سوف يرتابون عندئذ فى الإسلام ويتوهمون أن به عيوبًا فاتتهم وتنبّه اليهودُ لها فدفعتهم إلى تركه بعدما خبروه عن قرب؟ قال جل جلاله: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران/ ٧٢). لا، لا. لا يمكن أن يكون هذا هو أسلوب المطمئن إلى نفسه، الواثق بما فى يده، الذى يرى الآخرين ينقلون عنه عباداتهم وصور أدائها! بل إنهم هم أنفسهم قد لاحظوا مع الغيظ المر الشديد أن الرسول - ﷺ - لا يترك شيئا مما يفعلونه إلا خالفهم فيه، فما معنى هذه الافتراءات الرخيصة؟ عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - : «كانت اليهود إذا حاضت فيهم المرأة لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحابُ النبي رسولَ الله عن ذلك، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ (البقرة/ ٢٢٢)، فقال : «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»، فبلغ ذلك اليهودَ فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه». رواه مسلم في صحيحه.

وبالمناسبة فقد ترجم بلاشير المستشرقُ الفرنسيُّ الآيةَ الأخيرةَ على النحو

التالي: «وقالت طائفةٌ من أهل الكتاب: آمنوا بالذى أُنْزِل على الذين آمنوا وَجْهَ النهار واكفروا آخِرَه لعلهم يرجعون عن ضلالهم»، مضيفًا إلى النص القرآنى الكريم هذه الكلمات الثلاث الدنيئة السامة: «de leur erreur: عن ضلالهم»، التى يريد أن يقول من خلالها إن اليهود كانوا يعتقدون فى ضمائرهم أن المسلمين على ضلال، وإنهم كانوا يعملون على هدايتهم من ضلالهم (انظر كتابي: «المستشرقون والقرآن- دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآرائهم فيه»/ ط٢/ دار القاهرة/ ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م/ ٥٩). لكن هذا لا يمكن أن يكون، فالذى يعتقد أنه على حق ويريد أن يهدي الآخرين من ضلالهم لا يلجأ لمثل هذه الأساليب التآمرية الوضيعة، وبخاصة فى مجال الضمائر والإصلاح والأديان! ثم ما الذى كان اليهود يبغونه من وراء هذا؟ أكانوا يريدون هداية المسلمين إلى اليهودية؟ أبدًا؛ لأن اليهود لا يَدْعُون أحدًا إلى دينهم كما هو معروف، إذ يزعمون أن الله هو إلههم الخاص بهم يراعيهم من دون العالمين! أم كانوا يقصدون أن الوثنية الجاهلية أفضل من دين التوحيد كما قالوا للمشركين حين سألوهم: أيُّ الدينين أفضل: الإسلام أم الوثنية؟ فما كان جواب الضلاليين (الذين يزعم بلاشير العريق فى الضلالة مثلهم أنهم كانوا يريدون هداية المسلمين من ضلالهم) إلا أن قالوا إن دين الشرك خير من دين التوحيد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (النساء/ ٥١- ٥٢)؟ نعم بكل تأكيد هذا ما كانوا يريدونه، فهل أمثال هؤلاء يمكن أن يدور فى عقولهم النجسةِ العملُ على هداية أحد من ضلاله؟ إن هذا التفسير لا يمكن أن يدور فى ذهن أي شخص يحترم الحقيقة ولا يعرف الخبث ولا التواء الضمير. وهذا يدل على أن المؤامرة على الإسلام لا تزال ماضية فى طريقها على أشُدّها لا تعرف الهدوء ولا التوقف ولا التراجع إلى الحق المبين! وبالمناسبة أيضا فبلاشير هذا كان من أصدقاء طه حسين المقربين، وطه حسين (كما نعرف) كان يتعاون مع اليهود ثقافيًا وأكاديميًا ويعاونهم على الخروج من مصر إلى فلسطين أيام الصراع العربي الصهيوني على مَسْرَى النبى الكريم قبل أن تُحْسَم جولته الأولى بامتلاخ الأمم المتحدة والقوى الكبرى المجرمة لتلك الأرض المباركة من أيدى العرب والمسلمين وإعطائها لليهود، كما كان يزعم أن القرآن يعمل على التقرب منهم ويستعين بالأساطير الخرافية لهذا الغرض حسبما بَيَّنّا فى كتابنا «معركة الشعر الجاهلى بين الرافعي وطه حسين»، وكذلك فى عدد من الدراسات التي نُشِرَتْ فى بعض المواقع المشباكية. فالأمر، كما يشاهد

القارئ، مثل شبكة الأواني المستطرقة: كل إناء منها يوصل إلى كل إناء آخر، ويساويه في مدى ارتفاع السائل الذي يحويه، وفى نوعيته، وفى كل خصيصة أخرى من خصائصه!

أما بالنسبة لما قاله كاتب الموسوعة عن استعارة الرسول المزعومة لشعيرة الصوم من اليهود فإنى أحيل القارئ إلى ما كتبته ذات الموسوعة فى مادة «Fasting and Fast-Days»، إذ قالت إن الصوم موجود فى كل الأديان رغم اختلاف أشكاله. أى أن اليهودية ليست وحدها التى تعرف الصوم، حتى إذا شرعه الإسلام كان ذلك بالضرورة متابعةً لليهودية بالذات. يقول القرآن فى هذا الصدد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة/ ١٨٣). ونضيف إلى هذا أن المسلمين كانوا يصومون، مثل العرب، يوم عاشوراء فى مكة قبل أن يهاجروا إلى يثرب ويلتقوا باليهود هناك. وهذا يتعارض مع ما قاله كاتب المادة من أن الرسول حينما هاجر ووجد اليهود يصومون يوم عاشوراء صامه تقليدًا لهم. صحيح أنه وجدهم يصومونه كما جاء في بعض الروايات، لكنه كان يصومه هو والمسلمون قبل الهجرة كسائر العرب كما قلنا لتونا. كل ما هنالك أنه سأل عن السبب الذى يصومه من أجله اليهود، فلما أُخبر أنهم يصومونه ابتهاجًا بانفلاق البحر لموسى ونجاته هو وقومه من مطاردة فرعون ردَّ بأن المسلمين أجدر بصيامه ابتهاجًا بنجاة ذلك النبي الكريم وحصول المعجزة الإلهية على يديه بوصفه أخًا له فى الرسالة. ولا بد أن نعرف أن يوم عاشوراء عند المسلمين يختلف عنه عند اليهود: فهو عندنا العاشر من المحرم، وهو شهر قمرى، على حين أنه عندهم يقع يوم الكفارة الذي يتبع التوقيت العبري، إذ هو العاشر من شهر تسرى، فهما توقيتان مختلفان تماما كما نرى. والملاحظ أن كاتب المادة الخاصة بالصيام فى «الموسوعة اليهودية» قد أهمل ما قاله صاحب مادة «Muhammad» من أن امتداد الصيام فى الإسلام لمدة شهر كامل مأخوذ من النصارى، إذ نراه بدلا من ذلك يقول بأن الرسول قد استعار صوم رمضان من اليهودية أيضًا. وهو، كما ترى، تناقضٌ فجّ، علاوة على أن مدة أي نوع من الصوم عند النصارى ليست شهرًا كما هو معروف، كما أن توقيت الصيام عندهم يختلف عن توقيتنا!

ليس ذلك فحسب، فصيام اليهود ينحصر فى الامتناع عن الأكل والشرب كما يقول واضع مادة «الصيام» فى الموسوعة المذكورة، بل إن بعض الأصوام عندهم يجوز فيها الأكل والشرب أيضًا ما عدا اللحم والخمر حسبما جاء فى المادة التي نحن بصددها، أما في الإسلام فيمتنع الصائم عن الأكل والشرب، وكذلك النكاح أيضًا، علاوة على ما

لفت إليه الرسول الكريم من أن الصيام عن هذه الثلاثة لا يكفي، إذ لا بد أن يصوم المسلم معها عن الغِيبَة والنميمة وقول الزور والعمل به...إلخ. أي أن الصيام في الإسلام ليس صيامًا بدنيًا فقط بل أخلاقيًا أيضًا. كذلك فالصيام الفرض عند اليهود متعدِّدٌ وموزَّعٌ على مدار العام، أما في الإسلام فليس إلا رمضان. ولا ننس أن صومنا يجري على التوقيت القمرى، بخلاف صيامهم. كما أنهم يبدأون الصيام من شروق الشمس، وينتهون منه حين تبدو أول نجوم المساء. أما فى ديننا فنصوم من الفجر (وليس من الشروق كما كتب واضع المادة)، ونُفْطِر مع الغروب. فكيف يقال بعد هذا كله إن الرسول قد استعار شعيرة الصوم من اليهود؟ ومع ذلك فينبغى أن نقول كلمة سريعة عن الصوم عند النصارى كي يتبين الحق من الباطل فى هذه النقطة، فهم (كما جاء فى مادة «Fasting» في «thefreedictionary.com» [تحرير] Farlex، و«The New Advent Catholic Encyclopedia») يصومون أصوامًا متعددة تختلف من مذهب لمذهب، ومن بلد لبلد، علاوة على أن الصيام عندهم متعدد وموزع على فصول السنة أيضًا بخلافه في دين سيد الرسل. أما عن كيفية الصوم فالكاثوليك يكتفون فى صيامهم بوجبة واحدة خالية من اللحوم وما إليها يتناولونها فى منتصف النهار، وقد يتناولون إلى جانبها وجبتين أُخْرَيَيْن خفيفتين فى أول اليوم وآخره، أما الأرثوذكس فيمتنعون عن جميع الأطعمة الحيوانية وزيت الزيتون، وربما باقي الزيوت الأخرى أيضًا، إلى جانب الخمر والكحوليات. وفى البروتستانتية نراهم يختلفون ما بين الاعتقاد فى أهمية الصوم أو عدم أهميته فى الحصول على الخلاص. لكن النصارى على تباين مذاهبهم لا يمتنعون عن الجماع كما نفعل نحن. وهو ما يبين بكل جلاء أن صيامنا يختلف اختلافًا شديدًا عن صيام أهل الصليب أيضًا.

وتبقى دعوى الكاتب بأن القرآن لم يأت فى مجال التشريعات الطعامية بشىء يخالف ما فى شريعة اليهود، وهذه دعوى يكذّبها الواقع الذي يفقأ عيون المدلّسين؛ فقارئ القرآن يعلم تمام العلم أنه لم يحرم من الأطعمة إلا ﴿الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ (المائدة/ ٣)، مع السماح للمضطر أن يتناول من ذلك على قدر الضرورة لا يعدوها. وكان سبحانه قد حرّم على اليهود جزاءً بغيهم ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ (الأنعام/ ١٤٦). وقد اعترض يهود المدينة على إباحة الإسلام لبعض الأطعمة التي يحرمونها هم، فرد القرآن عليهم قائلا: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا

حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (آل عمران/ ٩٣- ٩٤). ذلك أنهم لا يأكلون مثلا الجمل ولا الأرنب ولا الوَبْر ولا حيوان البحر عديم الزعانف والفلوس (تثنية/ ١٤/ ٧، ١١)، أما المسلمون فليس عليهم فى أكلها من حرج. كذلك فالإسلام يشدد فى تحريم الخمر تشديدًا مطلقًا حتى لَيُضْرَب بها المثل فى التحريم الذى لا تساهل فيه ولا مخرج منه، على عكس ما هو الأمر فى اليهودية وكذلك النصرانية. فكيف بعد هذا كله يزعم الكاتب أن دين محمد لم يأت فى مجال الأطعمة إلا بما لدى اليهود؟. وبعد فإنه لا يضير الإسلامَ فى شىء أن تتشابه بعض شرائعه مع شرائع التوراة أو الإنجيل؛ لأن المصدر واحد، وهو وحى السماء، إلا أن القول بأن الرسول الكريم قد استمد تشريعاته استمدادًا من اليهود أو النصارى أنفسهم لا عن طريق الوحى هو شىء مختلف عما نحن بسبيله هنا كما لا يخفى على كل من له عينان للإبصار، وأذنان للسمع، وقلب للتفقه والاعتبار.

ويزعم الكاتب أيضًا أن الإسلام، منذ بداية أمره حتى الفترة المكية المتأخرة، لم يكن يختلف فى شىء عن اليهودية والنصرانية، وأن الرسول لم يكن يوجه دعوته إلا إلى مشركي العرب، وأن اشتراط الإيمان بنبوته عليه السلام لم يُطْرَح على بساط الاعتقاد إلا فى المدينة؛ إذ لم تكن مهمته آنئذ إرساءِ القواعد اللاهوتية، بل الدعوة إلى القيم الخلقية ليس إلا، مع النص على أن ما جاء به حينذاك ليس شيئا غير ما عند «أهل الكتاب». ولست أدرى ماذا يمكن أن يقال لمثل هذا الكائن الذى يبدو وكأنه قد فقد عقله، وإن كان فى واقع الأمر لم يفقده، بل فَقَدَ، وبملء وعيه وتخطيطه وخبثه، خُلُقَ الصدق واحترام حقائق التاريخ ومراعاة نصوص الدين الذى يتحدث عنه، وكأنه يتحدث عن دين ضاعت كتبه فى مراحل ما قبل التاريخ!

إن القرآن المكي يفيض بالنصوص التي تتحدث عن رسالة محمد، وتضعه مع الرسل والأنبياء السابقين فى نفس السياق، وتقيس ما يلقاه من قومه على ما كان نظراؤه من أنبياء الأمم الأخرى يَلْقَوْنه، وأن الله هو رب السماوات والأرضين، وخالق الكون كله ومدبّر أمره، وهو الرازق المنعم، والرحمن الرحيم، والشديد العقاب ذو الطَّوْل، وأن القرآن هو وحى السماء، نزل به الروح الأمين جبريل على قلبه ليكون من المنذرين، وأن الله قد تكفل بحفظه، وأن هناك بعثًا وحشرًا وحسابًا وثوابًا وعقابًا، وأن من يجحد بذلك فهو من أهل الجحيم حيث العذاب الدائم الذى لا يطاق. أليست هذه كلها أمورًا اعتقادية؟ بطبيعة الحال كانت هناك توجيهات أخلاقية ودعوة إلى الإصلاح

الاجتماعي، لكن كانت هناك أيضًا مسائل اعتقادية تتعلق، كما قلت، بالله والرسل والملائكة والشياطين والجنة والنار، فبأي حق يَكْذِب الكاتب الصفيق ويَدَّعِى أن الإسلام فى المرحلة المكية لم يكن سوى مجموعة من التوجيهات الخلقية لا أكثر ولا أقل، وأن الإيمان بنبوة محمد لم يكن جزءا من هذا الدين حينذاك؟ إن هذا عبثٌ دونه عبثُ الأطفال السفهاء! وما هكذا تكون حروب الرجال لخصومهم! ولكن متى كان أمثال الكاتب يعرفون معنى للرجولة أو الشرف فى خصوماتهم مع الإسلام؟ إننا هنا إزاء نسخة أخرى من يهود المدينة، الذين لم يكن لهم قَطّ موقفٌ رجوليٌّ رغم كل الجعجعات والمؤامرات التى برعوا فيها، والتى كانت تقع مع هذا على رؤوسهم فى كل مرة وقوعَ الصواعق المدمرة، حتى انتهى أمرهم مع سيدنا رسول الله إلى ما انتهى إليه جَرّاءَ غدرهم وكفرهم وسفاهتهم وسفالتهم! ولن أقف الآن إلا عند النصوص القرآنية المكية التى تنصّ على نبوّة الرسول الكريم وتدعو إلى الإيمان به: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود/ ١-٢)، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ (الإسراء/ ١٠٥- ١٠٦)، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (الأحقاف/ ٢٩- ٣٢)، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ...﴾ (الأحقاف/ ٣٥)، ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ...﴾ (الأعراف/ ١٥٧)، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت/ ٦)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف/ ١٥٨)، ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ (الأعراف/ ١٥٨)، ﴿وقال الرسول: يا رب، إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ (الفرقان/ ٥٧)، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً؟﴾ (الإسراء/ ٩٣)، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا؟﴾ (المزمل/ ١٥- ١٧)، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (الجن/ ٢٣)، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾

(الأنعام/١١٢)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء/ ١٠٧)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ/ ٢٨)...إلخ. بل إن هناك (كما نرى) آيات تنص نصًا على أن رسالته - عليه الصلاة والسلام - موجهة إلى الناس جميعًا لا إلى قومه فحسب، فضلا عن الآيات ٢٩- ٣٢ من سورة «الأحقاف»، التى تشير إلى أنه لم يكن رسولا إلى الإنس وحدهم بل إلى الجن أيضًا، كما أن آيات سورة «الأعراف» موجهة إلى العالمين وكذلك اليهود أنفسهم، وهو ما يفضح بكل قوةٍ مزاعم هذا الأفاك! وقد انصب تكذيب المشركين من قوم الرسول - عليه الصلاة والسلام - على إنكارهم لنبوته، واشتراطهم أن ترسل السماء نبيًا من الملائكة لا من البشر، وأن يأتيهم بما يقترحونه عليه من آيات: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ (يوسف/ ١٠٩)، ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء/ ٥)، ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ (الإسراء/ ٩٠- ٩٣) ﴿وما منع الناسَ أن يؤمنوا إذ جاءهم الهُدَى إلا أن قالوا: أبَعَثَ اللهُ بشرًا رسولا؟(٩٤) قل: لو كان فى الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء مَلَكًا رسولا﴾ (الإسراء/ ٩٤- ٩٥)، فكيف يقال بعد هذا كله إن دعوة محمد فى مرحلتها المكية كانت تخلو من الكلام عن نبوته ولا تشترط الإيمان به ﷺ؟

أما عن زعم كاتبنا أن الآيات المكية المتأخرة ذاتها تنص على أن ما جاء به الرسول الكريم ليس شيئًا آخر سوى ما عند «أهل الكتاب: men of the revelation»، أي اليهود والنصارى كما يقول، فلسوف أفاجئ القارئ بما يجعله يفغر فاه دهشًا لجرأة الكاتب العجيبة وقدرته الفذة على الاختراع والتدليس دون أن يطرف له جفن، وأقول له: إن القرآن إذا ذكر «أهل الكتاب» فإنما يذكرهم فى مقام المجادلة لهم والزراية عليهم وتخطئتهم واتهامهم بالعناد والكفر، اللهم إلا عندما يعلن أحد منهم إيمانه بمحمد ويعتنق الإسلام مثلما هو الأمر فى الآية قبل الأخيرة من سورة «آل عمران» مثلا، وإن المواضع الإحدى والثلاثين التى ورد ذكرهم فيها فى كتاب الله كلها آيات مدنية ما عدا مرة واحدة يتيمة، هى قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (العنكبوت/ ٤٦)، وهى (كما ترى) فى الجدال والخلاف أيضًا لا فى الإشارة إلى تناغم الدعوة المحمدية مع ما عندهم كما يزعم مؤلف المادة! أما كلمة «يهودي» (مرة واحدة)،

وكلمة «يهود» (٨ مرات)، وكلمة «نصراني» (مرة واحدة)، وكلمة «نصارى» (١٤ مرة) فلم يرد منها شىء البتة فى الوحى المكي، كما أن السياقات التى وردت فيها هى كلها سياقات اتهام وتهديد بمصير أليم، اللهم إلا حين تقول: إن باب النجاة مفتوح لهم كما هو مفتوح للمسلمين بشرط أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر، أى يعتنقوا دعوة محمد ويدخلوا الإسلام، أو إنهم قد أسلموا فعلا كما هو الحال فى آيات سورة «المائدة» المشهورة التى يظن بعض الناس أنها تُثْنِى على النصارى بما هم نصارى، مع أنها تقول بصريح اللسان إن القساوسة والرهبان الذين ورد ذكرهم فيها قد سمعوا ما أُنْزِل إلى الرسول ففاضت أعينهم من الدمع تأثرًا بآيات الله وأعلنوا إيمانهم بمحمد ـ ﷺ ـ ! عجبي من هذا الكذب الوقح الوجه، السميك الجلد! على أن القرآن مع هذا قد يشير، فى خطابه للنبى ـ ﷺ ـ فى المرحلة المكية، إلى «الذين يقرأون الكتاب من قبلك» أو إلى «أهل الذكر»، لكن هذه الإشارات إنما تتحدث عن الذين كانوا يتوقعون منهم مجيئه أو أولئك الذين صدَّقوا فعلا برسالته بعد أن أعلن بها، وتستشهد بهم على أن ما جاء به هو الحق الذي لا ريب فيه، كما فى حالة ورقة بن نوفل مثلا. أما «أهل الكتاب» أو «اليهود والنصارى» فكَلاَّ ثم كَلاَّ، وهذه آيات القرآن موجودة لمن يريد أن يرجع إليها.

وكذلك هى موجودة لمن يريد أن يتحقق من كذب المؤلف فى زعمه أيضًا أن الإسلام فى مكة لم يأت بشىء يختلف عما عند اليهود والنصارى: فالمعروف أن القرآن المكيّ يؤكد أنه سبحانه وتعالى «لا تدركه الأبصار» وأنه «ليس كمثله شىء» وأنه «على كل شىء قدير»، وأنه «هو القوىّ المتين»، وهذا يتعارض مع ما يقوله العهد القديم مثلاً من أن يعقوب قد ظل يصارعه، عزَّتْ قدرته، طوال الليل ممسكا به بطريقة يصعب معها أن يفلت منه مما لم يجد الله معه بُدًّا من أن يضربه ضربة مؤلمة على حُقّ فخذه، وباركه فوق البيعة؛ ربما إعجابًا بمهارته فى المصارعة، تلك المهارة التى تفوّق فيها على الله، إذ أمسك بتلابيبه إمساكة لم يستطع أن يتفلفص منها إلا بعد أن نزل على شرطه وأعطاه البركة، وكأننا في مصارعة بين «فتوَّتَيْن» فى «مولد» أحد الأولياء، «شىء لله يا سيدنا الوليّ»! ولا أدري كيف فاتت هذه صلاح جاهين فلم يضمّنها رائعته «الليلة الكبيرة» حتى تكمل وتحلو وتبقى ليلة فُلِّيَّة! (تكوين/ ٣٢/ ٢٥- ٣١، و٣٥/ ٩-١٠)، كما يتعارض مع ما يقوله العهد القديم أيضًا من أن موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعين رجلا من قومه قد رأَوْا الله «وَتَحْتَ رِجْلَيْهِ شِبْهُ صَنْعَةٍ مِنَ الْعَقِيقِ الأَزْرَقِ الشَّفَّافِ وَكَذَاتِ السَّمَاءِ فِي النَّقَاوَةِ. .. فَرَأَوا اللهَ وَأَكَلُوا وَشَرِبُوا» (خروج/ ٢٤/ ١٠- ١١). الله أكبر! ما هذا الهنا الذى نحن فيه؟ وبالمثل ينفي القرآن عن رب العزة أنه يمكن أن يلحقه تعب؛

فيحتاج من ثم إلى شىء من الراحة بعد أن فرغ من خلق السماوات والأرض (ق/ ٣٨)، على عكس ما نقرأ فى سفر «التكوين» (٢/ ١- ٣) من أنه سبحانه، بعد أن انتهى من خلقهما فى ستة أيام، «استراح فى اليوم السابع». كما أن القرآن منذ وقت مبكر فى مكة قد حمل على من يجعلون لله ولدًا بما فيهم النصارى، الذين خطّأهم فى قولهم ببنوة عيسى عليه السلام لله مؤكدًا فى نصوص عنيفة أنه ليس إلا عبدًا له سبحانه أنعم الله عليه وجعله نبيًا لبني إسرائيل (الأنعام/ ١٠١، والإسراء/ ١١١، والكهف/ ٤- ٥، ومريم/ ٣٠- ٤٠، ٨٨- ٩٥، والأنبياء/ ٢٢، والمؤمنون/ ٩١، والفرقان/ ٢، والزخرف/ ٥٧- ٦٥ مثلا). ونحن نعلم أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة قد وجدوا أنفسهم فى موقف حَرِجٍ لا يُحْسَدون عليه حينما سألهم القساوسة فى مجلس النجاشي بتحريض من رسولَيْ قريش عن عقيدتهم فى عيسى عليه السلام، لكنهم رغم ذلك لم يجمجموا ولم يجاملوا، بل صَدَعوا بما تقوله سورة «مريم» من أنه عليه السلام ليس إلا عبدًا نبيًا، وهو ما لَقِىَ القبولَ من العاهل الحبشى الذى فتح الله قلبه لنور الحق وأعلن أن ما قالوه لا يختلف عما يؤمن هو به فى ذلك النبى الكريم أدنى اختلاف! ومعروف أيضًا أن النصارى يؤمنون بتوارث البشر عن أبيهم آدم وأمهم حواء ما يسمونه: «الخطيئة الأصلية»، كما أن اليهود يؤمنون بامتداد العقاب للجيل الثالث والرابع من ذرية المخطئ؛ لا لشىءٍ سوى أنهم من سلالته (خروج/ ٢٠/ ٥، و٣٤/ ٧، وتثنية/ ٥/ ١٠)، فجاء القرآن يحطم هذا الاعتقاد الذى لا معنى له ولا عدل فيه، مكررًا بعبارات متنوعة وفى مواضع مختلفة من آياته ﴿أن لا تَزِرُ وازرَةٌ وِزْرَ أخرى(٣٨) وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعي﴾ (النجم/ ٣٨- ٣٩). ومن عجب، وأمور القرآنِ كلها عجب فى عجب، أن النص القرآنى الحالى يستبق الأمر ويرد مقدمًا على كل من تسوّل له نفسُه الهجومَ الكاذبَ عليه، فنراه فى الآيتين السابقتين على آيتينا هاتين يلفت الأنظار إلى أن هذا المبدأ قد نُصَّ عليه نَصًا فى صحف موسى، على خلاف ما هو مثبت الآنَ فى العهد القديم من أن العقاب على الخطإ يطول الجيل الثالث والرابع من ذرية المخطئين! ثم يقول الكذاب: إن الإسلام لم يأت في مكة بشىء جديد ليس عند اليهود النصارى! الحق أن القرآن المكىّ لم يأت فقط بأشياء ليست في يد اليهود ولا النصارى، بل يخطّئهم أيضًا ويعلّمهم الصواب الذى كان عندهم يومًا لكنهم أَخْفَوْه أو مَحَوْه! ونكتفي بهذه الخطوط العامة، وفى ميدان العقيدة فقط، فلا ندخل في أخطاء الكتاب المقدس التي ترشدنا إليها المقارنة بينه وبين القرآن الكريم، أو الاختلافات الموجودة بين الكتابين في مسائل العبادات والمواريث والنجاسات والمعاملات، أو الطريقة البشعة التي صوَّر بها مؤلفو

الكتاب المقدس رسلَ الله وأنبياءه :فجعلوهم قتلةً مجرمين، وزناةً متهتكين، وللجنس مع المحارم ممارسين، وشرِّيبى خمرٍ سكّيرين، وبعبادة الأوثان راضين، فجاء القرآن وعدل الصورة بحيث تليق بمن اصطفاهم الله وجعلهم نبيين مصلحين، وإلا فلن ننتهي!

على أن الكاتب قد تجاهل أن العكس فى مسألة التأثر التشريعى هو الصحيح، إذ نقل اليهودُ الذين كانوا يعيشون فى المجتمع الإسلامى غَيْرَ قليل من تشريعات الإسلام وجعلوها جزءا لا يتجزأ من عباداتهم وأحوالهم الشخصية. ولأترك أحد المتخصصين فى لغة اليهود وآدابهم، وهو د. محمد جلاء إدريس يُلْقِي بعض الضوء على هذه النقطة، إذ جاء ردُّه على سؤالٍ سُئِلَه عن مدى تأثير الفقه الإسلامى على نظيره اليهودي على النحو التالي: «عاش اليهود في بيئة عربية إسلامية على مدى ١٤٠٠ سنة، فمن الطبيعي أن ينقل هؤلاء معهم بعد هجرتهم إلى إسرائيل التراث العربي والإسلامي والمصري على وجه الخصوص، وهذا التأثير كان له عدة مظاهر، منها: حفظهم للقرآن واستشهاداتهم بآياته، وكذلك الحديث وبعض الجمل الشعبية الأخرى مثل «عليّ الطلاق»، «والله العظيم» و «أقسم بالله». ومن اللافت للنظر أيضًا نقل الأفكار الإسلامية مثل التأثر بالجبرية والجبريين، وبعضهم تأثر بالفقه الإسلامي والمهدي المنتظر والفكر الشيعي. فقد أخذت طائفة القرائين (من اليهود) عن الفقه الإسلامي تحريم زوجة الأب، وقد اعترف علماؤهم اعترافًا صريحًا في ذلك بالأخذ عن مذاهب المسلمين، وتأثيرات إسلامية في مجال العبادات اليهودية كثيرة، مثل غسل الرجلين والذراعين، ومسح الأذنين، والمسح على الرأس، كما اشترطوا ضرورة اغتسال المحتلم للصلاة، وأبطل موسى بن ميمون سرية الصلاة وجعلها جهرًا مخالفًا بذلك شرائع التلمود ومقلدًا للمسلمين، فظهر ما أُطْلِق عليه: «الإسلاميات» في العقيدة اليهودية، وكتب الفقه لدى اليهود على غرار الفقه الإسلامي» (من حوار أجراه معه منير أديب بعنوان «الاستشراق الصليبي» فى مجلة «المنار» المشباكية).

وفى العلاقة بين الرسول واليهود فى يثرب يقول الكاتب: إنهم لم يعودوا قادرين مع الأيام على السكوت إزاء ما كان القرآن يحرّفه من روايات الكتاب المقدس عن شخصياتهم التاريخية مثل إبراهيم، الذى يزعم صاحبنا أن القرآن قد صيّره عربيًا ونسب إليه بناء الكعبة. وبالمثل يزعم أن الرسول لم يكن يطيق أن يصحح له أحد شيئًا من معلوماته المضطربة؛ ومن ثم أخذ يمطر اليهود بشتائمه العنيفة بعد أن كان يكتفي فى بداية أمره معهم بالهمز واللمز. وحين كانوا يستشهدون بالتوراة على صحة ما يقولون كان رده عليهم أنهم «كالحمار يحمل أسفارًا». ولأن معرفته بالتوراة كانت معرفة

غير مباشرة حسبما يقول الأفاك، فقد اتهمهم بأنهم لا يفهمونها كما ينبغى، أو أنهم يتعمدون إخفاء معناها الحقيقى. ثم يضيف الكاتب بالباطل أنه كان واضحا من سياق الأحداث أن عدوانه عليهم قادم لا محالة، لولا أن كراهيته كانت متجهة فى ذلك الوقت إلى القرشيين الذين كان ينظر إلى تأبّيهم عليه وموقفهم من أتباعه على أنه إهانة شخصية له ليس من سبيل إلى محوها غير شن الحرب عليهم؛ ومن ثم نزلت النصوص القرآنية تترى فى الحض على الجهاد وتدمير الحياة نفسها بوصفه جزءًا لا يتجزأ من الإيمان. صحيح أن النصوص القرآنية الأولى فى هذا الصدد كانت تحصر دوافع القتال فى رد العدوان، إلا أن الأمر اختلف بعد ذلك حسبما يزعم الكاتب، فرأينا الآيات تحض على المبادرة بالهجوم على الآخرين: فإما اعتنقوا الإسلام، وإما استحقوا القتل.

ويمضي الرجل فى كذبه وتدليسه فى وقائع التاريخ وحقائق الأخبار فيتهم النبي الكريم بأنه كان يحقد على اليهود؛ لأنهم كشفوا جهله بالتوراة ولم يَرْضَوْا أن يدخلوا فى دينه الزائف. وفاته أن التاريخ مسجِّل لم يضيِّع أو يعبث بحقائقه أحد كما ضاعت التوراة فزيَّفها اليهود، ولعبت أيديهم النجسة فيها، ثم ادّعَوْا أن عُزَيْرًا قد استعادها كلمةً كلمةً من الذاكرة لم يخرم منها حرفًا واحدًا. والذين يقرأون كلام صاحبنا من الأوربيين دون أن يكون لديهم علم بما حدث بين النبي واليهود سوف يصدقون كذب الرجل، فيظنون أن النبي فعلا كان صاحب اليد السفلى فى العلم بالتوراة! لكن ماذا يكون الحال يا ترى لو عرفوا أن بعض أحبار اليهود فى المدينة قد أسلموا نزولاً على صوت الحق النابع من أعماق ضمائرهم، وأن الذين عاندوا فلم يدخلوا فى دين الرسول قد فضحهم الله على ألسنة أقاربهم ممن كُتِب لهم شرف اعتناق الإسلام؟ لننظر فى قصة عبد الله بن سلام ومُخَيْرِيق وحُيَيّ بن أخطب مثلا لنرى أين الحقيقة وأين الباطل.

يقول ابن هشام في «السيرة النبوية» عن عبد الله بن سلام وظروف اعتناقه دين محمد: «قال ابن إسحاق: وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم، وكان حَبْرًا عالمًا، قال: لما سمعتُ برسول الله - ﷺ - عرفتُ صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكَّف له، فكنت مُسِرًا لذلك صامتًا عليه حتى قدم رسول الله - ﷺ - المدينة. فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجلٌ حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة. فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله - ﷺ - كَبَّرْتُ، فقالت لي عمتي حين سمعتْ تكبيري: خيَّبَك الله! والله لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادمًا ما زدت. قال: فقلت لها: أيْ عَمَّة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعِث بما بُعِث به. فقالت: أي ابن أخي،

أهو النبي الذي كنا نُخْبَر أنه يُبْعَث مع نفس الساعة؟ قال: فقلت لها: نعم. قال: فقالت: فذاك إذًا. قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله - ﷺ - فأسلمتُ، ثم رجعتُ إلى أهل بيتي فأمرتُهم فأسلموا. قال: وكتمتُ إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله - ﷺ - فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قومٌ بهت، وإني أُحِبّ أن تُدْخلني في بعض بيوتك وتغيِّبني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني. قال: فأدخلني رسول الله - ﷺ - في بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وساءلوه، ثم قال لهم: أيُّ رجل الحُصَيْنُ بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحَبْرنا وعالِمنا. قال: فلما فرغوا من قولهم خرجتُ عليهم فقلتُ لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله - ﷺ - وأومن به وأصدّقه وأعرفه. فقالوا: كذبت، ثم واقعوا بي. قال: فقلت: يا لرسول الله - ﷺ -! ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قومٌ بُهت، أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: فأظهرتُ إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحَسُنَ إسلامها».

وعن مُخَيْريق يقول ابن هشام أيضًا: «قال ابن إسحاق: وكان من حديث مخيريق، وكان حَبْرًا عالمًا، وكان رجلاً غنيًا كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وما يجد في عِلْمه، وغَلَبَ عليه إلْفُ دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أُحُد، وكان يوم أُحُد يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أنّ نصر محمد عليكم لحقّ. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سَبْتَ لكم! ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسولَ الله - ﷺ - بأُحُد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قُتِلْتُ هذا اليوم فأموالي لمحمد - ﷺ - يصنع فيها ما أراه الله. فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتِل، فكان رسول الله - ﷺ -، فيما بلغني، يقول: مخيريق خَيْرُ يهود. وقبض رسول الله - ﷺ - أمواله، فعامّة صدقات رسول الله - ﷺ - بالمدينة منها».

وأخيرًا هذا حديث صفية بنت حُيَيّ بن أخطب، فلننصت جيدًا إلى ما يرويه كذلك ابن هشام لنعرف ما كان يدور خلف الستار: «قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، قال: حُدِّثْتُ عن صفية بنت حُيَيّ بن أخطب أنها قالت: كنتُ أَحَبَّ وَلَدِ أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قطّ مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة ونزل قُبَاء في بني عمرو بن عوف غدَا عليه أبي حُيَيّ بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسَيْن. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالَّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَى. قالت:

فهَشْشْتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعتُ عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حُيَيّ بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتَعْرِفه وتُثْبِته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوتُه والله ما بَقِيت!».

فأما أن القرآن أو حتى المسلمين يقولون إن إبراهيم كان عربيًا فلا أدرى من أين للكاتب بهذا الكلام؟ إن كل ما يقولونه هو أنه أبو إسماعيل الذي تربى بين أَظْهُر العرب وتزوج منهم، فصارت ذريته جزءًا من هؤلاء العرب. فإبراهيم إذًا هو جدهم (أو «أبوهم» بتعبير القرآن)، لكنه هو نفسه لم يكن عربيًا. وهذا كلام يعرفه كل إنسان، فكان أحرى بالكاتب (لو كان ممن يحترمون أنفسهم وينزلون على كلمة التاريخ وأخلاق العلماء فى عدم كتمان الحقيقة والبعد عن التلاعب بها تبعًا لأهواء الباحث وعصبيته الدينية أو القومية أو القبلية) أن يراعيه فيما يخطه قلمه! وبالنسبة لذهاب إبراهيم إلى الحجاز وبنائه هو وإسماعيل الكعبة لا بد أن ننبه القارئ إلى أن هذه الرواية ليست من ابتداع القرآن، بل كان العرب يرددونها طوال تاريخهم قبل الإسلام، ولا نعرف أن اليهود قد أنكروها عليهم يومًا، بل لم يحدث أنْ كذّبوا النبى بشأنها رغم كثرة اعتراضاتهم السخيفة التى كانوا يشغبون بها عليه، فما الذى جَدَّ الآن حتى يتهم الكاتبُ رسولَ الله بأنه يستقي معلوماته التاريخية عن اليهود من مصادر غير موثوقة من هنا وههنا؟ لو أن إبراهيم عليه السلام لم يذهب إلى الحجاز، أكان اليهود قد سكتوا كل هذه المدة المتطاولة فلم يردوا على العرب ما كانوا يقولون؟ إن اليهود لا ينكرون أن العرب إسماعيليون، فما وجه الصعوبة إذًا، أو ما وجه الاستحالة فى أن يذهب إبراهيم إلى البلد الذى يقيم فيه ابنه، والذي أصهر إلى أهله وتزوج امرأة من نسائه؟ ثم لماذا يخترع العرب هذه القصة؟ لقد كانوا يستطيعون أن ينسبوا بناء الكعبة إلى نبي عربي مثل هُودٍ أو صالح مثلا حتى يكون الشرف الحاصل من هذا الإنجاز عربيًا، فلماذا لم يفعلوا واختاروا إبراهيم بدلا من ذلك؟ هل كانوا يريدون التقرب من اليهود؟ لكن أين فى تصرفاتهم أو أشعارهم أو أمثالهم ما يدل على أنهم كانوا يعملون على هذا التقرب؟ وما الذى كان يمثله اليهود فى ذلك الوقت عالميًا أو محليًا حتى يفكر العرب فى التقرب منهم؟ لقد كان اليهود غرباء طارئين على بلاد العرب، لجأوا إليها هروبًا من الاضطهاد الذى أنزله الرومان بهم فى بيت المقدس، وكان الأوس والخزرج فى يثرب يجيرونهم. وناسٌ مثلهم لا يمكن أن يشكّلوا لأهل الديار أية أهمية، فضلاً عن أن أخلاق اليهود ونفسيتهم الملتوية وجشعهم وحبهم الجارف للمال وحقدهم على البشر جميعًا ليست مما يبعث العرب على التفكير في التشرف بهم! ثم إن العلاقة بين اليثربيين واليهود لم

تكن علاقة مودة حتى يقال إن أهل يثرب كانوا حريصين على التقرب منهم. والنص التالي من «السيرة الحلبية»، وهو متعلق بالآية ٩٠ من سورة «البقرة»، يلقي الضوء على طبيعة تلك العلاقة التى لا يمكن أبدًا أن ترشّح لظهور مثل تلك الرغبة المزعومة عند العرب فى التقرب من يهود والابتهاج بالانتساب إليهم: «من ذلك ما حدث به عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إنما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى لنا وهُدَاه ما كنا نسمع من أحبار يهود. كنا أَهْلَ شِرْكٍ أصحابَ أوثان، وكانوا أهل كتابٍ عندهم علمٌ ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: قد تقارب زمانُ نبيٍّ يُبْعَث الآن يقتلكم قَتْلَ عادٍ وإرَم، أي يستأصلكم بالقتل. فكان كثيرًا ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله محمدا - ﷺ - أجبناه حين دعانا إلى الله - عز وجل - ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا. ففي ذلك نزلت هذه الآية في «البقرة»: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾». وعلى أية حال فلم يكن سائر العرب خارج يثرب يهتمون باليهود، بل ربما لم يكونوا على علم بوجودهم هناك، إذ لم تكن ليثرب فى نظر العرب آنذاك أية أهمية، على عكس ما حدث بعد الهجرة النبوية إليها حيث اقتربت مكانتها فى الضمير الإسلامى من مكانة أم القرى.

ولنفترض أن هذه المسألة مما لا يمكن البت فيها تاريخيًا، فهل الكتاب المقدس من العصمة بحيث لا يمكن أيةَ روايةٍ تخالف ما جاء فيه، أو على الأقل لم يذكرها بين ما ذكر من أحداث ووقائع، إلا أن تكون كاذبة أو خاطئة؟ تعالَوْا ننظر فى بعض ما رواه ذلك الكتاب لنرى مدى ما فيه من منطق أو سخف لا يقبله العقل، ومدى ما فيه من التاريخية أو الأسطورية والخرافة، ومدى ما فيه من التلاؤم أو التناقض بين أجزائه. ولنكن من الآن على ذُكْرٍ من أن الشك يحيط بالكتاب المقدس من كل أطرافه، سواء من جهة مؤلفي أسفاره، أو من جهة سلامته من العبث والتحريف، أو من جهة المعلومات التاريخية والعلمية التى يحتويها، أو من جهة الأرقام التي يذكرها ...إلخ، وهذا ما يقوله علماؤهم أيضًا لا علماؤنا وحدهم، ودَعُونا من العوامّ واعتقادات العوامّ، فليس لهؤلاء نكتب ما نكتبه هنا. والآن مع بعض نصوص الكتاب المقدس نوردها شواهد على ما نقول فى حق هذا الكتاب من أنه لا يصمد للعقل ولا للبحث العلمى، وأنه يناقض الحقائق التاريخية والطبيعية والرياضية:

«١٠وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ:

١١اِسْمُ الْوَاحِدِ فِيشُونُ وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الذَّهَبُ. ١٢وَذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ. هُنَاكَ الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزْعِ. ١٣وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي جِيحُونُ. وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. ١٤وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّالِثِ حِدَّاقِلُ. وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَشُّورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ الْفُرَاتُ» (تكوين/ ٢). أرأيت، أيها القارئ العزيز، هذه الدرر الجغرافية والجيولوجية الحلمنتيشية التى يتقاصر دونها كل ما فى كتب علماء الجغرافيا والجيولوجيا؟

«٦فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضاً مَعَهَا فَأَكَلَ. ٧فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. ٨وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلَهِ مَاشِياً فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلَهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ٩فَنَادَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ: «أَيْنَ أَنْتَ؟». ١٠فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ» (تكوين/ ٣). ترى أهذا إله أم عُمْدَة من عُمَد الريف عندنا فى مصر خرج لتفقد حقوله بعد غفوة القيلولة وهبوب نسمة العصارى؟ ثم أى إله هذا الذى يختبئ منه عباده فلا يستطيع أن يعرف أين اختبأوا فيُضْطَرّ إلى رفع صوته يسألهم أين يختبئون؟

«١وَحَدَثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْثُرُونَ عَلَى الأَرْضِ وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ ٢أَنَّ أَبْنَاءَ اللهِ رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا. ٣فَقَالَ الرَّبُّ: «لاَ يَدِينُ رُوحِي فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ. لِزَيَغَانِهِ هُوَ بَشَرٌ وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً». ٤كَانَ فِي الأَرْضِ طُغَاةٌ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ أَيْضاً إِذْ دَخَلَ بَنُو اللهِ عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوَلَدْنَ لَهُمْ أَوْلاَداً - هَؤُلاَءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ ذَوُو اسْمٍ. ٥وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ. ٦فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ: الإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ. لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ» (تكوين/ ٦). هل سمع أحد من عقلاء البشر أو حتى مجانينه أن لله أولادًا؟ فمَنْ أمُّهم يا ترى؟ ثم عندما ذهب أولاد الله ليخطبوا بنات الناس، هل أخذوه معهم ليفاتح آباءهن ويتفق معهم على الشبكة والمهر والشقة والأثاث والذى منه؟ ثم أى إله ذلك الذى يأسف ويندم على ما فعل؟ هذا ليس هو الله رب العالمين بل إله من آلهة الوثنيين البدائيين بلغ من غضبه وندمه أنْ تَشَوَّش عقله فلم يعد يستطيع أن يقوم بأتفه العمليات الحسابية، فمرة يقول لنوح: خذ من كل كائن حىٍّ اثنين اثنين ذكرًا وأنثى، ثم

ينسى ما قاله بعد قليل فيجعل العدد من الحيوانات الطاهرة ومن طير السماء سبعةً سبعةً ذكورًا وإناثًا، ليعود مرة أخرى إلى عدد الاثنين (تكوين/ ٦/ ١٩- ٢٠، و٧/ ٢- ٣، ١٥- ١٦).

وبمناسبة الحديث عن أبناء الله نحب أن ننبه القارئ أن الكتاب المقدس لا يكتفى بهؤلاء الأبناء المذكورين هنا، بل يذكر له سبحانه أبناءً آخرين كآدم وإبراهيم وإسرائيل وداود وبنى إسرائيل جميعا. وفى هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ (المائدة/١٨)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجمعة/ ٦- ٨).

وطبعًا يستطيع أي عاقل لم يتلوث فكره أو ضميره أو تأخذه العصبية عن رؤية الحق والشهادة به أن يدرك الفرق الرهيب بين النظرة الإسلامية الإنسانية التى تسوِّى بين البشر جميعًا فى صلتهم بالله، وبين هذه الرؤية الأنانية المتعصبة المجنونة التى تزعم أن الله يفرّق بين عباده: فيقرِّب بعضهم ويُقْصِى بعضهم لا على أساس من إيمانهم وعملهم، بل محاباةً عمياءَ هوجاءَ لا تليق بأى إنسان حكيم، بَلْهَ إلهًا عظيمًا رحيمًا عادلاً كريمًا يعلو فوق العصبيات القبلية والوطنية والقومية والعرقية واللونية؛ ببساطة لأنه خالق الكلّ، ويرحم الكلّ، ويرزق الكلّ، ويريد الخير والهداية للكلّ، ولا مقياس عنده للتفاضل غير النية الطيبة والإيمان المستقيم والعمل الصالح والطاعة والإخبات! ومرة أخرى لا يكتفي الكتاب المقدس بهذا، بل يجعل له سبحانه زوجة. ولم لا؟، والأولاد لايأتون ، كما نعرف، من أكمام الحاوى، بل لا بد من زوج وزوجة! جاء فى «المزامير» على لسان داود مخاطبًا الله تعالى: «وقفتْ زوجتُك عن يمينك، وعِقَاصُها من ذهب. أيتها الابنة، اسمعى وميلى بأذنيك، وأبصرى وانْسَىْ عشيرتك وبيت أبيك فيهواك الملك، وهو الربّ والله، فاسجدي له طوعًا». كان هذا فى النسخة التى في يد ابن حزم - رحمه الله -، ثم غيَّر مترجمو البروتستانت فى العصر الحديث ذلك فحذفوا كلمة «زوجتك» ووضعوا مكانها لفظة «المَلِكة»، كما استبدلوا بعبارة «وهو الرب والإله» قولهم: «لأنه هو سيدك»! (انظر المزمور ٤٥/ ٩- ١١، وقارن بالترجمة القديمة الموجودة فى «الفِصَل فى الملل والأهواء والنِّحَل» لابن حزم/ تحقيق د. محمد إبراهيم نصر ود. عبد الرحمن عميرة/ مكتبات عكاظ/ ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م/ ١/ ٢٠٧- ٢٠٨).

ولعل هنا المكان المناسب لنعرِّف القارئ الطيب القلب بطبيعة العلاقة بين الله سبحانه وتعالى وزوجته كما يصورها مؤلفو الكتاب المقدس. إنه زوج مسكين (أستغفره سبحانه وأبرأ إليه من هذا الرجس، ولكن ماذا نفعل؟ ما باليد حيلة، فإن الأحقاد تأكل قلوب القوم فلا يرتاحون إلا بالتطاول على سيد المرسلين، وهم لن يرتاحوا أبدا، فما كان الحقد يومًا بمريح صاحبه، فيضطروننا من ثم إلى الرد عليهم من واقع كتبهم التي يرفعونها فى وجه نبينا الكريم متصورين أنهم يمكن أن يُجْلِبوا على القارئ الطيب الذى ليس عنده فكرة عما يقولون فيظن، لسلامة طويته، أنهم لا يكذبون)، نعم إنهم يصورونه، تباركت أسماؤه، بصورة الزوج المسكين الذى تمرِّغ زوجته كل يوم شرفه فى الرَّغام فيهدد ويتوعد ويملأ الدنيا بصراخه وشتائمه، ثم لا يفعل شيئا سوى العودة إليها صاغرًا راغمًا وتجرُّع كأس المذلة من جديد!: «٢يَا ابْنَ آدَمَ، عَرِّفْ أُورُشَلِيمَ بِرَجَاسَاتِهَا ٣وَقُلْ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لأُورُشَلِيمَ: مَخْرَجُكِ وَمَوْلِدُكِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. أَبُوكِ أَمُورِيٌّ وَأُمُّكِ حِثِّيَّةٌ. ٤أَمَّا مِيلاَدُكِ يَوْمَ وُلِدْتِ فَلَمْ تُقْطَعْ سُرَّتُكِ، وَلَمْ تُغْسَلِي بِالْمَاءِ لِلتَّنَظُّفِ، وَلَمْ تُمَلَّحِي تَمْلِيحاً، وَلَمْ تُقَمَّطِي تَقْمِيطاً. ٥لَمْ تُشْفِقْ عَلَيْكِ عَيْنٌ لِتَصْنَعَ لَكِ وَاحِدَةً مِنْ هذِهِ لِتَرِقَّ لَكِ. بَلْ طُرِحْتِ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ بِكَرَاهَةِ نَفْسِكِ يَوْمَ وُلِدْتِ. ٦فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ، فَقُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِي. قُلْتُ لَكِ بِدَمِكِ عِيشِي. ٧جَعَلْتُكِ رَبْوَةً كَنَبَاتِ الْحَقْلِ، فَرَبَوْتِ وَكَبِرْتِ وَبَلَغْتِ زِينَةَ الأَزْيَانِ. نَهَدَ ثَدْيَاكِ وَنَبَتَ شَعْرُكِ وَقَدْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. ٨فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ، وَإِذَا زَمَنُكِ زَمَنُ الْحُبِّ. فَبَسَطْتُ ذَيْلِي عَلَيْكِ وَسَتَرْتُ عَوْرَتَكِ، وَحَلَفْتُ لَكِ وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِي عَهْدٍ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِي. ٩فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ وَغَسَلْتُ عَنْكِ دِمَاءَكِ وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيْتِ، ١٠وَأَلْبَسْتُكِ مُطَرَّزَةً، وَنَعَلْتُكِ بِالتُّخَسِ، وَأَزَّرْتُكِ بِالْكَتَّانِ وَكَسَوْتُكِ بَزّاً، ١١وَحَلَّيْتُكِ بِالْحُلِيِّ، فَوَضَعْتُ أَسْوِرَةً فِي يَدَيْكِ وَطَوْقاً فِي عُنُقِكِ. ١٢وَوَضَعْتُ خِزَامَةً فِي أَنْفِكِ وَأَقْرَاطاً فِي أُذُنَيْكِ وَتَاجَ جَمَالٍ عَلَى رَأْسِكِ. ١٣فَتَحَلَّيْتِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلِبَاسُكِ الْكَتَّانُ وَالْبَزُّ وَالْمُطَرَّزُ. وَأَكَلْتِ السَّمِيذَ وَالْعَسَلَ وَالزَّيْتَ، وَجَمُلْتِ جِدّاً جِدّاً فَصَلُحْتِ لِمَمْلَكَةٍ. ١٤وَخَرَجَ لَكِ اسْمٌ فِي الأُمَمِ لِجَمَالِكِ، لأَنَّهُ كَانَ كَامِلاً بِبَهَائِي الَّذِي جَعَلْتُهُ عَلَيْكِ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. ١٥فَاتَّكَلْتِ عَلَى جَمَالِكِ وَزَنَيْتِ عَلَى اسْمِكِ، وَسَكَبْتِ زِنَاكِ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ فَكَانَ لَهُ. ١٦وَأَخَذْتِ مِنْ ثِيَابِكِ وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَاتٍ مُوَشَّاةٍ وَزَنَيْتِ عَلَيْهَا. أَمْرٌ لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يَكُنْ. ١٧وَأَخَذْتِ أَمْتِعَةَ زِينَتِكِ مِنْ ذَهَبِي وَمِنْ فِضَّتِي الَّتِي أَعْطَيْتُكِ، وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ صُوَرَ ذُكُورٍ وَزَنَيْتِ بِهَا. ١٨وَأَخَذْتِ ثِيَابَكِ الْمُطَرَّزَةَ وَغَطَّيْتِهَا بِهَا وَوَضَعْتِ أَمَامَهَا زَيْتِي وَبَخُورِي. ١٩وَخُبْزِي الَّذِي أَعْطَيْتُكِ، السَّمِيذَ وَالزَّيْتَ وَالْعَسَلَ الَّذِي أَطْعَمْتُكِ، وَضَعْتِهَا أَمَامَهَا رَائِحَةَ سُرُورٍ. وَهكَذَا كَانَ يَقُولُ السَّيِّدُ

الرَّبُّ. ٢٠أَخَذْتِ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ الَّذِينَ وَلَدْتِهِمْ لِي وَذَبَحْتِهِمْ لَهَا طَعَاماً. أَهُوَ قَلِيلٌ مِنْ زِنَاكِ
٢١أَنَّكِ ذَبَحْتِ بَنِيَّ وَجَعَلْتِهِمْ يَجُوزُونَ فِي النَّارِ لَهَا؟ ٢٢وَفِي كُلِّ رَجَاسَاتِكِ وَزِنَاكِ لَمْ تَذْكُرِي
أَيَّامَ صِبَاكِ، إِذْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً وَكُنْتِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ. ٢٣وَكَانَ بَعْدَ كُلِّ شَرِّكِ. وَيْلٌ وَيْلٌ
لَكِ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، ٢٤أَنَّكِ بَنَيْتِ لِنَفْسِكِ قُبَّةً وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَةً فِي كُلِّ شَارِعٍ.
٢٥فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيْتِ مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيْكِ لِكُلِّ عَابِرٍ وَأَكْثَرْتِ
زِنَاكِ. ٢٦وَزَنَيْتِ مَعَ جِيرَانِكِ بَنِي مِصْرَ الْغِلاَظِ اللَّحْمِ، وَزِدْتِ فِي زِنَاكِ لإِغَاظَتِي.
٢٧فَهَئَنَذَا قَدْ مَدَدْتُ يَدِي عَلَيْكِ، وَمَنَعْتُ عَنْكِ فَرِيضَتَكِ، وَأَسْلَمْتُكِ لِمَرَامِ مُبْغِضَاتِكِ بَنَاتِ
الْفِلِسْطِينِيِّينَ اللَّوَاتِي يَخْجَلْنَ مِنْ طَرِيقِكِ الرَّذِيلَةِ. ٢٨وَزَنَيْتِ مَعَ بَنِي أَشُّورَ إِذْ كُنْتِ لَمْ
تَشْبَعِي فَزَنَيْتِ بِهِمْ، وَلَمْ تَشْبَعِي أَيْضاً. ٢٩وَكَثَّرْتِ زِنَاكِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَرْضِ
الْكَلْدَانِيِّينَ، وَبِهذَا أَيْضاً لَمْ تَشْبَعِي. ٣٠مَا أَمْرَضَ قَلْبَكِ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتِ كُلَّ
هذَا فِعْلَ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ سَلِيطَةٍ! ٣١بِبِنَائِكِ قُبَّتَكِ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ، وَصُنْعِكِ مُرْتَفَعَتَكِ فِي
كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِي كَزَانِيَةٍ، بَلْ مُحْتَقِرَةً الأُجْرَةَ. ٣٢أَيَّتُهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ، تَأْخُذُ
أَجْنَبِيِّينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. ٣٣لِكُلِّ الزَّوَانِي يُعْطُونَ هَدِيَّةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيْتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ
هَدَايَاكِ، وَرَشَيْتِهِمْ لِيَأْتُوكِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزِّنَا بِكِ. ٣٤وَصَارَ فِيكِ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِي
زِنَاكِ، إِذْ لَمْ يُزْنَ وَرَاءَكِ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلاَ أُجْرَةَ تُعْطَى لَكِ، فَصِرْتِ بِالْعَكْسِ!
٣٥فَلِذلِكَ يَا زَانِيَةُ اسْمَعِي كَلاَمَ الرَّبِّ. ٣٦هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أُنْفِقَ
نُحَاسُكِ وَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُكِ بِزِنَاكِ بِمُحِبِّيكِ وَبِكُلِّ أَصْنَامِ رَجَاسَاتِكِ، وَلِدِمَاءِ بَنِيكِ الَّذِينَ
بَذَلْتِهِمْ لَهَا، ٣٧لِذلِكَ هَئَنَذَا أَجْمَعُ جَمِيعَ مُحِبِّيكِ الَّذِينَ لَذَذْتِ لَهُمْ، وَكُلَّ الَّذِينَ أَحْبَبْتِهِمْ مَعَ
كُلِّ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، فَأَجْمَعُهُمْ عَلَيْكِ مِنْ حَوْلِكِ، وَأَكْشِفُ عَوْرَتَكِ لَهُمْ لِيَنْظُرُوا كُلَّ عَوْرَتِكِ.
٣٨وَأَحْكُمُ عَلَيْكِ أَحْكَامَ الْفَاسِقَاتِ السَّافِكَاتِ الدَّمِ، وَأَجْعَلُكِ دَمَ السُّخْطِ وَالْغَيْرَةِ.
٣٩وَأُسَلِّمُكِ لِيَدِهِمْ فَيَهْدِمُونَ قُبَّتَكِ وَيُهَدِّمُونَ مُرْتَفَعَاتِكِ وَيَنْزِعُونَ عَنْكِ ثِيَابَكِ وَيَأْخُذُونَ
أَدَوَاتِ زِينَتِكِ، وَيَتْرُكُونَكِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. ٤٠وَيُصْعِدُونَ عَلَيْكِ جَمَاعَةً وَيَرْجُمُونَكِ
بِالْحِجَارَةِ وَيَقْطَعُونَكِ بِسُيُوفِهِمْ، ٤١وَيُحْرِقُونَ بُيُوتَكِ بِالنَّارِ وَيُجْرُونَ عَلَيْكِ أَحْكَاماً قُدَّامَ
عُيُونِ نِسَاءٍ كَثِيرَةٍ. وَأَكُفُّكِ عَنِ الزِّنَا، وَأَيْضاً لاَ تُعْطِينَ أُجْرَةً بَعْدُ. ٤٢وَأُحِلُّ غَضَبِي بِكِ
فَتَنْصَرِفُ غَيْرَتِي عَنْكِ فَأَسْكُنُ وَلاَ أَغْضَبُ بَعْدُ. ٤٣مِنْ أَجْلِ أَنَّكِ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَاكِ
بَلْ أَسْخَطْتِنِي فِي كُلِّ هذِهِ، فَهَئَنَذَا أَيْضاً أَجْلِبُ طَرِيقَكِ عَلَى رَأْسِكِ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ.
فَلاَ تَفْعَلِينَ هذِهِ الرَّذِيلَةَ فَوْقَ رَجَاسَاتِكِ كُلِّهَا» (حزقيال/ ١٦).

«٢حَاكِمُوا أُمَّكُمْ حَاكِمُوا لأَنَّهَا لَيْسَتِ امْرَأَتِي وَأَنَا لَسْتُ رَجُلَهَا لِتَعْزِلَ زِنَاهَا عَنْ
وَجْهِهَا وَفِسْقَهَا مِنْ بَيْنِ ثَدْيَيْهَا ٣لِئَلاَّ أُجَرِّدَهَا عُرْيَانَةً وَأَوْقِفَهَا كَيَوْمِ وِلاَدَتِهَا وَأَجْعَلَهَا كَقَفْرٍ

وَأُصَيِّرَهَا كَأَرْضٍ يَابِسَةٍ وَأُمِيتَهَا بِـ/لْعَطَشِ. ٤وَلاَ أَرْحَمُ أَوْلاَدَهَا لأَنَّهُمْ أَوْلاَدُ زِنًى. ٥ «لأَنَّ أُمَّهُمْ قَدْ زَنَتِ. الَّتِي حَبِلَتْ بِهِمْ صَنَعَتْ خِزْياً. لأَنَّهَا قَالَتْ: أَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّيَّ الَّذِينَ يُعْطُونَ خُبْزِي وَمَائِي صُوفِي وَكَتَّانِي زَيْتِي وَأَشْرِبَتِي. ٦لِذَلِكَ هَئَنَذَا أُسَيِّجُ طَرِيقَكِ بِـ/لشَّوْكِ وَأَبْنِي حَائِطَهَا حَتَّى لاَ تَجِدَ مَسَالِكَهَا. ٧فَتَتْبَعُ مُحِبِّيهَا وَلاَ تُدْرِكُهُمْ وَتُفَتِّشُ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَجِدُهُمْ. فَتَقُولُ: أَذْهَبُ وَأَرْجِعُ إِلَى رَجُلِي الأَوَّلِ لأَنَّهُ حِينَئِذٍ كَانَ خَيْرٌ لِي مِنَ الآنَ. ٨» وَهِيَ لَمْ تَعْرِفْ أَنِّي أَنَا أَعْطَيْتُهَا الْقَمْحَ وَالْمِسْطَارَ وَالزَّيْتَ وَكَثَّرْتُ لَهَا فِضَّةً وَذَهَباً جَعَلُوهُ لِبَعْلٍ. ٩لِذَلِكَ أَرْجِعُ وَآخُذُ قَمْحِي فِي حِينِهِ وَمِسْطَارِي فِي وَقْتِهِ وَأَنْزِعُ صُوفِي وَكَتَّانِي اللَّذَيْنِ لِسَتْرِ عَوْرَتِهَا. ١٠وَالآنَ أَكْشِفُ عَوْرَتَهَا أَمَامَ عُيُونِ مُحِبِّيهَا وَلاَ يُنْقِذُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي. ١١وَأُبَطِّلُ كُلَّ أَفْرَاحِهَا: أَعْيَادَهَا وَرُؤُوسَ شُهُورِهَا وَسُبُوتَهَا وَجَمِيعَ مَوَاسِمِهَا. ١٢وَأُخَرِّبُ كَرْمَهَا وَتِينَهَا اللَّذَيْنِ قَالَتْ: هُمَا أُجْرَتِي الَّتِي أَعْطَانِيهَا مُحِبِّيَّ وَأَجْعَلُهُمَا وَعْراً فَيَأْكُلُهُمَا حَيَوَانُ الْبَرِّيَّةِ. ١٣وَأُعَاقِبُهَا عَلَى أَيَّامِ بَعْلِيمَ الَّتِي فِيهَا كَانَتْ تُبَخِّرُ لَهُمْ وَتَتَزَيَّنُ بِخَزَائِمِهَا وَحُلِيِّهَا وَتَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّيهَا وَتَنْسَانِي أَنَا يَقُولُ الرَّبُّ. ١٤لِكِنْ هَئَنَذَا أَتَمَلَّقُهَا وَأَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَأُلاَطِفُهَا ١٥وَأُعْطِيهَا كُرُومَهَا مِنْ هُنَاكَ وَوَادِي عَخُورَ بَاباً لِلرَّجَاءِ. وَهِيَ تُغَنِّي هُنَاكَ كَأَيَّامِ صِبَاهَا وَكَيَوْمِ صُعُودِهَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ١٦وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَقُولُ الرَّبُّ أَنَّكِ تَدْعِينَنِي «رَجُلِي» وَلاَ تَدْعِينَنِي بَعْدُ «بَعْلِي»(هوشع/ ٢)...

ونكتفي بهذين النصين، وهناك نصوص أخرى غيرهما لمن يفتح الكتاب المقدس ويقرأ ولا يكتفى بثقافة الأذن كأذناب الغرب من بيننا الذين يحلو لهم، بسبب غبائهم وسلاطة ألسنتهم، أن يعيبوا «الإسلام» بأنه «ثقافة البعير». وفاتهم، لحماقتهم وسفالتهم، أن المشكلة ليست فى «ثقافة البعير»، بل فيما رُكِّب فى رؤوسهم من «عقول الحمير»!

أما فى النص التالى فإن كاتبه يرتكب التزييف بغباء ليس بعده من غباء، فقد رزق الله خليله إبراهيم بإسماعيل، ثم مكث عليه السلام بعد ذلك عدة أعوام قبل أن يرزقه أيضًا بإسحاق، ومع هذا نقرأ فى الكتاب المسمى بـ«المقدس» أمْرَ الله له بأن يأخذ ابنه «وحيده» ليقدمه له ضحية. ويقول المنطق والعقل ونصوص الكتاب المقدس ذاتها إن الكلام لا يمكن أن يكون إلا عن إسماعيل؛ لأنه هو الذى يمكن أن يطلَق عليه: «وحيد إبراهيم»، إذ مكث، كما قلنا، عدة أعوام قبل أن يلحق به إسحاق، أما إسحاق فلم يكن وحيد أبيه يومًا! لكنْ مهلاً أيها القارئ، فأنت مع «الكتاب المقدس» ذى التفانين والتعاجيب، وعلى هذا فلا تستغرب أن يصادم مؤلفُ هذا السِّفْر المنطقَ والعقلَ والكلامَ الذى كتبه هو قبل ذلك بيده التى سيأكلها الدود فى القبر وتحرقها النار يوم القيامة، فيقول على لسان الله سبحانه: «خذ ابنك وحيدك الذى تحبه: إسحاق...» (تكوين/ ٢٢/

١- ١٣). فماذا كان إسماعيل إذن يا ترى؟ ألعلّه كان ابن الجيران؟ أم ترى نَسِيَ اللهُ عزّ وجلّ أنه كان قد وهب إبراهيمَ قبل عدة أعوام ابنًا اسمه إسماعيل؟ ثم يأتى فى آخر الزمان صُوَيْحِبُنا هذا ويجد فى نفسه الجرأة ليكذّب رسولنا بهذه الطريقة السفيهة!

وإذا قرأنا قصة ولادة موسى، وما فعلته أمه بعد أن لم تستطع الاستمرار فى إخفائه عن عيون رجال فرعون الموكَّلين بقتل الرُّضَّع من بنى إسرائيل نجد كاتب القصة يقول إنها أخذت سَفَطًا من البردي وطَلَتْه بالحُمَر والزفت، وأرقدت فيه الطفل، ثم وضعته بين الحلفاء على حافة النهر حيث التقطته ابنة فرعون. وواضح أن التابوت، حسب هذه الرواية، لم يُلْقَ فى الماء. وإننا لنتساءل: فلم إذن طلتْه أم موسى بالحُمَر والزفت، وهما المادتان اللتان تُطْلَى بهما القوارب لمنع دخول الماء فيها حتى لا تغرق؟ فإذا مضينا فى القراءة فوجئنا بأن ابنة فرعون تسمى الطفل: «موسي» قائلة: «إنى انتشلتُه من الماء» (خروج/ ٢/ ٢- ٤، ١٠). وهكذا يتبين لنا مما يقوله كاتب السفر نفسه أن السَّفَط كان قد أُلْقِيَ فى النهر ولم يوضع على الحلفاء فوق الشطّ. ومعنى هذا بكل بساطة ووضوح أن القصة تتناقض مع نفسها، أما القرآن فقد قال قولا واحدا إن الله سبحانه قد ألهم أم الرضيع أن تلقى به فى تابوت ثم تقذف به فى اليَمّ (طه/ ٣٨- ٣٩، والقصص/ ٧).

وفى سفر «الخروج» (٣٣/ ٢٠) نقرأ قول الرب لموسى: «لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش»، وإن قيل عقب ذلك إن من الممكن أن ينظر موسى وراء الله بعد أن يجتاز، وكأن لله خلفًا وقدامًا، وظَهْرًا ووجهًا بالمعنى المادى المألوف. ونسي كاتب السفر أنه قال فى موضع آخرَ إن الله كان يكلم موسى «وجهًا لوجهٍ كما يكلم الرجلُ صاحبَه» (خروج/ ٣٣/ ١١)، وهو ما أكده سفر «العدد»، إذ جاء فيه (١٢/ ٧- ٨): «وأما عبدي موسى فليس هكذا، بل هو أمين فى كل بيتى. فمًا إلى فمٍ وعيانًا أتكلم معه لا بالألغاز»، وقاله موسى نفسه حسبما جاء فى سفر «التثنية» (٥/ ٤): «وجهًا لوجهٍ تكلم الرب معنا من وسط النار». ليس ذلك فحسب، بل رأى اللهَ، مع موسى، هارونُ ونادابُ وأبيهو وسبعون من شيوخ بني إسرائيل كما مرّ من قبل.

كذلك يجد القارئ الطيب فى الكتاب المقدس، لو أراد، قصصًا عن الأنبياء تشيب لهولها الولْدان (والبنات أيضًا، أليس لهن نفس؟): فهذا لوط تنام فى أحضانه ابنتاه بعد أن سقتاه خمرًا وتمارسان الفحشاء معه بالدور، كل واحدة فى ليلة خاصة بها، حتى تحبلا ويكون لهما ذرية! وهذا إبراهيم يقدّم زوجته للملك مقابل بعض الماشية، وكاد الملك أن يرتكب معها الفاحشة لولا رؤيا رآها فى المنام عرف منها أن المرأة ليست

أختًا لإبراهيم، بل زوجته! وهذا داود يرى من فوق سطح قصره امرأة قائده العسكرى يوريا الحيثى، وهى تستحم فى فناء بيتها عارية كما ولدتها أمها، فتقع طبعًا فى نفسه ويرسل فيحضرها ويزني بها، ثم لا يكتفي بهذا، بل يدبر بكل نذالةٍ مؤامرةً للتخلص من زوجها القائد العسكرى المخلص، ويتم له المراد فيُلْحِق المرأة بحريمه بعد أن تنتهي من مدة الحداد (والله فيه البركة!). وهذه المرأة هى أم سليمان عليه السلام حسبما يقول مزيفو الكتاب المقدس، أما سليمان ذاته فينظم نشيدا فى الغزل الشهوانى لا يستطيع نزار قبانى ولا ستون واحدا كنزار قبانى أن ينظمه، وكلّه فى الأعكان اللدنة والسُّرَر المدوَّرة والأثداء الممتلئة والأفخاذ الملفوفة والتنهدات الحارة والأحضان الملتهبة واللقاءات الليلية الدنسة! ولم لا؟ أليس ابنَ بَتْشَبَع، التى لم يكن فى قصر زوجها (يا حبّة عينى!) مكان تتوارى فيه عن الأنظار وهى تستحم، فكانت تغتسل فى الفناء على طريقة راقصات الإستربتيز؟ وهذا... وهذا... وهذا... وأستغفر الله على نقل هذا الكلام، ولكنْ ما العمل؟، وما باليد حيلةٌ إزاء السفالات التى يغادينا ويماسينا بها القوم بكل وقاحة، وكأنهم يمسكون على سيدنا رسول الله زلّة فإذا جئت تكلمهم وتقول لهم إن أنبياءكم، حسب شهادتكم أنتم لا غيركم، فعلوا كذا وكذا كان ردُّهم: «إنهم بشر، والله قد غفر لهم»! طيب يا أولاد الأفاعى (كما قال فيكم السيد المسيح - عليه السلام - حسب روايات الأناجيل)، لم لا تنظرون بنفس العين إلى ما تدَّعونه على سيد البشر كذبًا، وهو لا يبلغ واحدًا على الألف مما تقولون أنتم بعظمة لسانكم إن أنبياءكم قد ارتكبوه؟ أم تراكم تقولون إن عفو الله حين بلغ محمدًا قد نَفِد وانتهى، ولم يعد من الممكن التعاقد على «طلبيّة» أخرى منه لأن خطوط الإنتاج فى «مصانع العفو والمغفرة» قد أُغْلِقَت، وبيعت المصانع نفسها «خُرْدَة» لمقاول من مقاولي القطاع الخاص إياهم؟ غني عن البيان أن القرآن لا يعترف بمثل هذه الحكايات المجرمة الكافرة، فالأنبياء فيه رجالٌ بلغوا الذروة فى الإيمان القويم والخلق الكريم؛ لأن الله قد اصطفاهم من خيرة خلقه وصَنَعهم على عينه، ولم يَلُمَّهم من شُذَّاذ الحواري ومتشرِّدي الأزقة!

إن الكتاب المقدس مملوء بالعِبَر، ومن يقلّب صفحاته يجد العجب، ولو تركتُ لنفسي حبلها على غاربها فلن تتوقف، ولن يخذلها أيضا الكتاب المقدس المملوء بالخرافات والروايات التى تُضحِك الثَّكْلَى إضحاكا. لكنى أستسمح القارئ أن أحكي له هذه الطُّرْفة وأَعِدُه أنها ستكون آخر طرفة فى هذا السياق: ففى سفر «أخبار الأيام الثانى» نجد أن يهورام الملك حين ارتقى سدة الحكم كان عمره اثنتين وثلاثين سنة، وظل يحكم ثمانى سنوات، ثم مات. فماذا كان عمره حينذاك؟ أربعين سنة طبعًا. لكننا

نفاجأ بكاتب السفر بعد ثلاثة أسطر يقول لنا إن ابنه أخزيا، الذى تولى الحكم بعده مباشرة، كان عمره اثنتين وأربعين سنة (٢١/ ٢٠، و٢٢/ ١- ٢). وليس لهذا من معنى إلا أن الولد كان يكبر أباه بسنتين!!! انتهت النكتة!!!

إن صاحبنا يريد أن يوهم القارئ بأن المشكلة إنما تكمن فى الرسول، فهو لم يكن مطلعاً على التوراة، بل كانت معرفته بها شذرات من طريق العوام من هنا وهنا؛ ومن ثم كانت معلوماته عنها خاطئة، ولم يكن يطيق أن يصحح اليهود له أخطاءه، فكان ينقم عليهم ويشعر بالحقد تجاههم. عظيم! خلّنا وراء الكذاب لحد باب الدار! فماذا يكون جوابه إذًا لو بيّنّا للقارئ أن ما قاله القرآن والرسول في حَقّ اليهود (كَسّر حُقّهم!) أخفّ كثيرًا جدًا مما يقوله العهد القديم وأنبياؤهم هم أنفسهم فيهم؟.

ولنبدأ بالمسيح، الذى كان إسرائيليًا مثلهم، وتربى فى وسطهم، وتعلم كتابهم، وسمع أحبارهم، وتردد على معبدهم، والذى كثيرًا ما صبّ لعناته فوق رؤوسهم النجسة، ودعا عليهم بالويل والثبور ووسمهم بـ«المرائين»، و«قتلة الأنبياء وراجمى المرسلين»، و«أولاد الأفاعي»، و«خراف بني إسرائيل الضالة»، و«فاعلي الإثم»، و«الشعب الصُّلْب الرقبة»، و«الجيل الشرير»، و«لصوص المغارة»... وهلمّ جرًا مما لا يُعَدّ ما وصفهم القرآن به شيئا يُذْكَر! أم تراه سيعترض بأنهم لا يعترفون به عليه السلام نبيًا؟ فلننتقل إذن إلى غيره، ولنأخذ زكريا وإرميا وعزرا وموسى على سبيل المثال، وسنختار النصوص التالية مجرَّد عيِّنة ليس إلا: « ١فِي الشَّهْرِ الثَّامِنِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِدَارِيُوسَ كَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَى زَكَرِيَّا بْنِ بَرَخِيَّا بْنِ عِدُّو النَّبِيِّ: ٢قَدْ غَضِبَ الرَّبُّ غَضَباً عَلَى آبَائِكُمْ. ٣فَقُلْ لَهُمْ: [هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: ارْجِعُوا إِلَيَّ يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ فَأَرْجِعَ إِلَيْكُمْ يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ. ٤لاَ تَكُونُوا كَآبَائِكُمُ الَّذِينَ نَادَاهُمُ الأَنْبِيَاءُ الأَوَّلُونَ: هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: ارْجِعُوا عَنْ طُرُقِكُمُ الشِّرِّيرَةِ وَعَنْ أَعْمَالِكُمُ الشِّرِّيرَةِ. فَلَمْ يَسْمَعُوا وَلَمْ يُصْغُوا إِلَيَّ» (نبوءة زكريا/ ١)، «٨وَكَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى زَكَرِيَّا: ٩هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: اقْضُوا قَضَاءَ الْحَقِّ وَاعْمَلُوا إِحْسَاناً وَرَحْمَةً كُلُّ إِنْسَانٍ مَعَ أَخِيهِ. ١٠وَلاَ تَظْلِمُوا الأَرْمَلَةَ وَلاَ الْيَتِيمَ وَلاَ الْغَرِيبَ وَلاَ الْفَقِيرَ وَلاَ يُفَكِّرْ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَرّاً عَلَى أَخِيهِ فِي قَلْبِهِ. ١١فَأَبَوْا أَنْ يُصْغُوا وَأَعْطُوا كَتِفاً مُعَانِدَةً وَثَقَّلُوا آذَانَهُمْ عَنِ السَّمْعِ. ١٢بَلْ جَعَلُوا قَلْبَهُمْ مَاساً لِئَلاَّ يَسْمَعُوا الشَّرِيعَةَ وَالْكَلاَمَ الَّذِي أَرْسَلَهُ رَبُّ الْجُنُودِ بِرُوحِهِ عَنْ يَدِ الأَنْبِيَاءِ الأَوَّلِينَ. فَجَاءَ غَضَبٌ عَظِيمٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْجُنُودِ. ١٣فَكَانَ كَمَا نَادَى هُوَ فَلَمْ يَسْمَعُوا كَذلِكَ يُنَادُونَ هُمْ فَلاَ أَسْمَعُ قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ. ١٤وَأَعْصِفُهُمْ إِلَى كُلِّ الأُمَمِ الَّذِينَ لَمْ يَعْرِفُوهُمْ. فَخَرِبَتِ الأَرْضُ وَرَاءَهُمْ لاَ ذَاهِبَ وَلاَ آئِبَ. فَجَعَلُوا الأَرْضَ الْبَهِجَةَ خَرَاباً] (نبوءة زكريا/ ٧).

«١كَيْفَ جَلَسَتْ وَحْدَهَا الْمَدِينَةُ الْكَثِيرَةُ الشَّعْبِ؟ كَيْفَ صَارَتْ كَأَرْمَلَةٍ الْعَظِيمَةُ فِي الأُمَمِ؟ السَّيِّدَةُ فِي الْبُلْدَانِ صَارَتْ تَحْتَ الْجِزْيَةِ! ٢تَبْكِي فِي اللَّيْلِ بُكَاءً وَدُمُوعُهَا عَلَى خَدَّيْهَا. لَيْسَ لَهَا مُعَزٍّ مِن كُلِّ مُحِبِّيهَا. كُلُّ أَصْحَابِهَا غَدَرُوا بِهَا. صَارُوا لَهَا أَعْدَاءً. ٣قَدْ سُبِيَتْ يَهُوذَا مِنَ الْمَذَلَّةِ وَمِنْ كَثْرَةِ الْعُبُودِيَّةِ. هِيَ تَسْكُنُ بَيْنَ الأُمَمِ. لاَ تَجِدُ رَاحَةً. قَدْ أَدْرَكَهَا كُلُّ طَارِدِيهَا بَيْنَ الضِّيقَاتِ. ٤طُرُقُ صِهْيَوْنَ نَائِحَةٌ لِعَدَمِ الآتِينَ إِلَى الْعِيدِ. كُلُّ أَبْوَابِهَا خَرِبَةٌ. كَهَنَتُهَا يَتَنَهَّدُونَ. عَذَارَاهَا مُذَلَّلَةٌ وَهِيَ فِي مَرَارَةٍ. ٥صَارَ مُضَايِقُوهَا رَأْساً. نَجَحَ أَعْدَاؤُهَا لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَذَلَّهَا لأَجْلِ كَثْرَةِ ذُنُوبِهَا. ذَهَبَ أَوْلاَدُهَا إِلَى السَّبْيِ قُدَّامَ الْعَدُوِّ. ٦وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بِنْتِ صِهْيَوْنَ كُلُّ بَهَائِهَا. صَارَتْ رُؤَسَاؤُهَا كَأَيَائِلَ لاَ تَجِدُ مَرْعًى فَيَسِيرُونَ بِلاَ قُوَّةٍ أَمَامَ الطَّارِدِ. ٧قَدْ ذَكَرَتْ أُورُشَلِيمُ فِي أَيَّامِ مَذَلَّتِهَا وَتَطَوُّحِهَا كُلَّ مُشْتَهَيَاتِهَا الَّتِي كَانَتْ فِي أَيَّامِ الْقِدَمِ. عِنْدَ سُقُوطِ شَعْبِهَا بِيَدِ الْعَدُوِّ وَلَيْسَ مَنْ يُسَاعِدُهَا. رَأَتْهَا الأَعْدَاءُ. ضَحِكُوا عَلَى هَلاَكِهَا. ٨قَدْ أَخْطَأَتْ أُورُشَلِيمُ خَطِيَّةً مِنْ أَجْلِ ذلِكَ صَارَتْ رَجِسَةً. كُلُّ مُكَرِّمِيهَا يَحْتَقِرُونَهَا لأَنَّهُمْ رَأَوْا عَوْرَتَهَا وَهِيَ أَيْضاً تَتَنَهَّدُ وَتَرْجِعُ إِلَى الْوَرَاءِ. ٩نَجَاسَتُهَا فِي أَذْيَالِهَا. لَمْ تَذْكُرْ آخِرَتَهَا وَقَدِ انْحَطَّتِ انْحِطَاطاً عَجِيباً. لَيْسَ لَهَا مُعَزٍّ». (مراثى إرميا/ ١/ ٨- ٩).

«١وَلَمَّا كَمُلَتْ هذِهِ تَقَدَّمَ إِلَيَّ الرُّؤَسَاءُ قَائِلِينَ: [لَمْ يَنْفَصِلْ شَعْبُ إِسْرَائِيلَ وَالْكَهَنَةُ وَاللاَّوِيُّونَ مِنْ شُعُوبِ الأَرَاضِي حَسَبَ رَجَاسَاتِهِمْ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ وَالْعَمُّونِيِّينَ وَالْمُوآبِيِّينَ وَالْمِصْرِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ. ٢لأَنَّهُمُ اتَّخَذُوا مِنْ بَنَاتِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ وَلِبَنِيهِمْ وَاخْتَلَطَ الزَّرْعُ الْمُقَدَّسُ بِشُعُوبِ الأَرَاضِي. وَكَانَتْ يَدُ الرُّؤَسَاءِ وَالْوُلاَةِ فِي هذِهِ الْخِيَانَةِ أَوَّلاً3 .[فَلَمَّا سَمِعْتُ بِهذَا الأَمْرِ مَزَّقْتُ ثِيَابِي وَرِدَائِي وَنَتَفْتُ شَعْرَ رَأْسِي وَذَقْنِي وَجَلَسْتُ مُتَحَيِّراً. ٤فَاجْتَمَعَ إِلَيَّ كُلُّ مَنِ ارْتَعَدَ مِنْ كَلاَمِ إِلهِ إِسْرَائِيلَ مِنْ أَجْلِ خِيَانَةِ الْمَسْبِيِّينَ وَأَنَا جَلَسْتُ مُتَحَيِّراً إِلَى تَقْدِمَةِ الْمَسَاءِ. ٥وَعِنْدَ تَقْدِمَةِ الْمَسَاءِ قُمْتُ مِنْ تَذَلُّلِي وَفِي ثِيَابِي وَرِدَائِي الْمُمَزَّقَةِ جَثَوْتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ وَبَسَطْتُ يَدَيَّ إِلَى الرَّبِّ إِلهِي ٦وَقُلْتُ: [اللّهُمَّ إِنِّي أَخْجَلُ وَأَخْزَى مِنْ أَنْ أَرْفَعَ يَا إِلهِي وَجْهِي نَحْوَكَ لأَنَّ ذُنُوبَنَا قَدْ كَثُرَتْ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَآثَامَنَا تَعَاظَمَتْ إِلَى السَّمَاءِ. ٧مُنْذُ أَيَّامِ آبَائِنَا نَحْنُ فِي إِثْمٍ عَظِيمٍ إِلَى هذَا الْيَوْمِ. وَلأَجْلِ ذُنُوبِنَا قَدْ دُفِعْنَا نَحْنُ وَمُلُوكُنَا وَكَهَنَتُنَا لِيَدِ مُلُوكِ الأَرَاضِي لِلسَّيْفِ وَالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ وَخِزْيِ الْوُجُوهِ كَهذَا الْيَوْمِ. ٨وَالآنَ كَلُحَيْظَةٍ كَانَتْ رَأْفَةٌ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ إِلهِنَا لِيُبْقِيَ لَنَا نَجَاةً وَيُعْطِيَنَا وَتَداً فِي مَكَانِ قُدْسِهِ لِيُنِيرَ إِلهُنَا أَعْيُنَنَا وَيُعْطِيَنَا حَيَاةً قَلِيلَةً فِي عُبُودِيَّتِنَا. ٩لأَنَّنَا عَبِيدٌ نَحْنُ وَفِي عُبُودِيَّتِنَا لَمْ يَتْرُكْنَا إِلهُنَا بَلْ بَسَطَ عَلَيْنَا رَحْمَةً أَمَامَ مُلُوكِ فَارِسَ لِيُعْطِيَنَا حَيَاةً لِنَرْفَعَ بَيْتَ إِلهِنَا وَنُقِيمَ خَرَائِبَهُ وَلِيُعْطِيَنَا حَائِطاً فِي يَهُوذَا وَفِي أُورُشَلِيمَ. ١٠وَالآنَ

فَمَاذَا نَقُولُ يَا إِلَهَنَا بَعْدَ هذَا لأَنَّنَا قَدْ تَرَكْنَا وَصَايَاكَ ١١الَّتِي أَوْصَيْتَ بِهَا عَنْ يَدِ عَبِيدِكَ الأَنْبِيَاءِ قَائِلاً: إِنَّ الأَرْضَ الَّتِي تَدْخُلُونَ لِتَمْتَلِكُوهَا هِيَ أَرْضٌ مُتَنَجِّسَةٌ بِنَجَاسَةِ شُعُوبِ الأَرَاضِي بِرَجَاسَاتِهِم الَّتِي مَلأُوهَا بِهَا مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ بِنَجَاسَتِهِمْ. ١٢وَالآنَ فَلاَ تُعْطُوا بَنَاتِكُمْ لِبَنِيهِمْ وَلاَ تَأْخُذُوا بَنَاتِهِمْ لِبَنِيكُمْ وَلاَ تَطْلُبُوا سَلاَمَتَهُمْ وَخَيْرَهُمْ إِلَى الأَبَدِ لِتَتَشَدَّدُوا وَتَأْكُلُوا خَيْرَ الأَرْضِ وَتُورِثُوا بَنِيكُمْ إِيَّاهَا إِلَى الأَبَدِ. ١٣وَبَعْدَ كُلِّ مَا جَاءَ عَلَيْنَا لأَجْلِ أَعْمَالِنَا الرَّدِيئَةِ وَآثَامِنَا الْعَظِيمَةِ - لأَنَّكَ قَدْ جَازَيْتَنَا يَا إِلَهَنَا أَقَلَّ مِنْ آثَامِنَا وَأَعْطَيْتَنَا نَجَاةً كَهَذِهِ ١٤أَفَنَعُودُ وَنَتَعَدَّى وَصَايَاكَ وَنُصَاهِرُ شُعُوبَ هَذِهِ الرَّجَاسَاتِ؟ أَمَا تَسْخَطُ عَلَيْنَا حَتَّى تُفْنِيَنَا فَلاَ تَكُونُ بَقِيَّةٌ وَلاَ نَجَاةٌ؟ ١٥أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ أَنْتَ بَارٌّ لأَنَّنَا بَقِينَا نَاجِينَ كَهَذَا الْيَوْمِ. هَا نَحْنُ أَمَامَكَ فِي آثَامِنَا لأَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَقِفَ أَمَامَكَ مِنْ أَجْلِ هَذَا]» (عزرا/ ٩).

«١وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: «قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا لأَنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ». ٢فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: «انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأْتُونِي بِهَا». ٣فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتُوا بِهَا إِلَى هَارُونَ. ٤فَأَخَذَ ذَلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكاً. فَقَالُوا: «هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ!» ٥فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونُ بَنَى مَذْبَحاً أَمَامَهُ وَنَادَى هَارُونُ وَقَالَ: «غَداً عِيدٌ لِلرَّبِّ». ٦فَبَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ. وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اذْهَبِ انْزِلْ! لأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ٨زَاغُوا سَرِيعاً عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتُهُمْ بِهِ. صَنَعُوا لَهُمْ عِجْلاً مَسْبُوكاً وَسَجَدُوا لَهُ وَذَبَحُوا لَهُ وَقَالُوا: هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». ٩وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «رَأَيْتُ هَذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ. ١٠فَالآنَ اتْرُكْنِي لِيَحْمَى غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ فَأُصَيِّرَكَ شَعْباً عَظِيماً». ١١فَتَضَرَّعَ مُوسَى أَمَامَ الرَّبِّ إِلَهِهِ وَقَالَ: «لِمَاذَا يَا رَبُّ يَحْمَى غَضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ؟ ١٢لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ الْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ: أَخْرَجَهُمْ بِخُبْثٍ لِيَقْتُلَهُمْ فِي الْجِبَالِ وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ؟ ارْجِعْ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ. ١٣اُذْكُرْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ عَبِيدَكَ الَّذِينَ حَلَفْتَ لَهُمْ بِنَفْسِكَ وَقُلْتَ لَهُمْ: أُكَثِّرُ نَسْلَكُمْ كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَأُعْطِي نَسْلَكُمْ كُلَّ هَذِهِ الأَرْضِ الَّتِي تَكَلَّمْتُ عَنْهَا فَيَمْلِكُونَهَا إِلَى الأَبَدِ». ١٤فَنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ. ١٥فَانْصَرَفَ مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَلَوْحَا الشَّهَادَةِ فِي يَدِهِ: لَوْحَانِ

مَكْتُوبَانِ عَلَى جَانِبَيْهِمَا. مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا كَانَا مَكْتُوبَيْنِ. ١٦وَاللَّوْحَانِ هُمَا صَنْعَةُ اللهِ وَالْكِتَابَةُ كِتَابَةُ اللهِ مَنْقُوشَةٌ عَلَى اللَّوْحَيْنِ. ١٧وَسَمِعَ يَشُوعُ صَوْتَ الشَّعْبِ فِي هُتَافِهِ فَقَالَ لِمُوسَى: «صَوْتُ قِتَالٍ فِي الْمَحَلَّةِ». ١٨فَقَالَ: «لَيْسَ صَوْتَ صِيَاحِ النُّصْرَةِ وَلاَ صَوْتَ صِيَاحِ الْكَسْرَةِ. بَلْ صَوْتَ غِنَاءٍ أَنَا سَامِعٌ». ١٩وَكَانَ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ إِلَى الْمَحَلَّةِ أَنَّهُ أَبْصَرَ الْعِجْلَ وَالرَّقْصَ. فَحَمِيَ غَضَبُ مُوسَى وَطَرَحَ اللَّوْحَيْنِ مِنْ يَدَيْهِ وَكَسَّرَهُمَا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ ٢٠ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوا وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِماً وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَسَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٢١وَقَالَ مُوسَى لِهَارُونَ: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ هَذَا الشَّعْبُ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ خَطِيَّةً عَظِيمَةً؟» ٢٢فَقَالَ هَارُونُ: «لاَ يَحْمَ غَضَبُ سَيِّدِي! أَنْتَ تَعْرِفُ الشَّعْبَ أَنَّهُ شِرِّيرٌ. ٢٣فَقَالُوا لِيَ: اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا. لأَنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ. ٢٤فَقُلْتُ لَهُمْ: مَنْ لَهُ ذَهَبٌ فَلْيَنْزِعْهُ وَيُعْطِنِي. فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ فَخَرَجَ هَذَا الْعِجْلُ». ٢٥وَلَمَّا رَأَى مُوسَى الشَّعْبَ أَنَّهُ مُعَرًّى (لأَنَّ هَارُونَ كَانَ قَدْ عَرَّاهُ لِلْهُزْءِ بَيْنَ مُقَاوِمِيهِ) ٢٦وَقَفَ مُوسَى فِي بَابِ الْمَحَلَّةِ وَقَالَ: «مَنْ لِلرَّبِّ فَإِلَيَّ!» فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمِيعُ بَنِي لاَوِي. ٢٧فَقَالَ لَهُمْ: «هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: ضَعُوا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ عَلَى فَخْذِهِ وَمُرُّوا وَارْجِعُوا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ فِي الْمَحَلَّةِ وَاقْتُلُوا كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ». ٢٨فَفَعَلَ بَنُو لاَوِي بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَوَقَعَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاَثَةِ آلاَفِ رَجُلٍ. ٢٩وَقَالَ مُوسَى: «امْلأُوا أَيْدِيَكُمُ الْيَوْمَ لِلرَّبِّ حَتَّى كُلُّ وَاحِدٍ بِابْنِهِ وَبِأَخِيهِ فَيُعْطِيَكُمُ الْيَوْمَ بَرَكَةً». ٣٠وَكَانَ فِي الْغَدِ أَنَّ مُوسَى قَالَ لِلشَّعْبِ: «أَنْتُمْ قَدْ أَخْطَأْتُمْ خَطِيَّةً عَظِيمَةً. فَأَصْعَدُ الآنَ إِلَى الرَّبِّ لَعَلِّي أُكَفِّرُ خَطِيَّتَكُمْ». ٣١فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «آهِ قَدْ أَخْطَأَ هَذَا الشَّعْبُ خَطِيَّةً عَظِيمَةً وَصَنَعُوا لأَنْفُسِهِمْ آلِهَةً مِنْ ذَهَبٍ. ٣٢وَالآنَ إِنْ غَفَرْتَ خَطِيَّتَهُمْ - وَإِلاَّ فَامْحُنِي مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي كَتَبْتَ». ٣٣فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مَنْ أَخْطَأَ إِلَيَّ أَمْحُوهُ مِنْ كِتَابِي. ٣٤وَالآنَ اذْهَبِ اهْدِ الشَّعْبَ إِلَى حَيْثُ كَلَّمْتُكَ. هُوَذَا مَلاَكِي يَسِيرُ أَمَامَكَ. وَلَكِنْ فِي يَوْمِ افْتِقَادِي أَفْتَقِدُ فِيهِمْ خَطِيَّتَهُمْ». ٣٥فَضَرَبَ الرَّبُّ الشَّعْبَ لأَنَّهُمْ صَنَعُوا الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعَهُ هَارُونُ» (خروج/ ٣٢).

١٤وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هُوَ ذَا أَيَّامُكَ قَدْ قَرُبَتْ لِتَمُوتَ. ادْعُ يَشُوعَ وَقِفَا فِي خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ لِكَيْ أُوصِيَهُ». فَانْطَلَقَ مُوسَى وَيَشُوعُ وَوَقَفَا فِي خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ ١٥فَتَرَاءَى الرَّبُّ فِي الْخَيْمَةِ فِي عَمُودِ سَحَابٍ وَوَقَفَ عَمُودُ السَّحَابِ عَلَى بَابِ الْخَيْمَةِ. ١٦وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هَا أَنْتَ تَرْقُدُ مَعَ آبَائِكَ فَيَقُومُ هَذَا الشَّعْبُ وَيَفْجُرُ وَرَاءَ آلِهَةِ الأَجْنَبِيِّينَ فِي الأَرْضِ الَّتِي هُوَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا فِي مَا بَيْنَهُمْ وَيَتْرُكُنِي وَيَنْكُثُ عَهْدِي الَّذِي قَطَعْتُهُ مَعَهُ.

١٧فَيَشْتَعِلُ غَضَبِي عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ وَأَتْرُكُهُ وَأَحْجُبُ وَجْهِي عَنْهُ فَيَكُونُ مَأْكَلَةً وَتُصِيبُهُ
شُرُورٌ كَثِيرَةٌ وَشَدَائِدُ حَتَّى يَقُولَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ: أَمَا لأَنَّ إِلهِي لَيْسَ فِي وَسَطِي أَصَابَتْنِي
هَذِهِ الشُّرُورُ! ١٨وَأَنَا أَحْجُبُ وَجْهِي فِي ذَلِكَ اليَوْمِ لأَجْلِ جَمِيعِ الشَّرِّ الذِي عَمِلَهُ إِذِ
التَفَتَ إِلى آلِهَةٍ أُخْرَى. ١٩فَالآنَ اكْتُبُوا لأَنْفُسِكُمْ هَذَا النَّشِيدَ وَعَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِيَّاهُ.
ضَعْهُ فِي أَفْوَاهِهِمْ لِيَكُونَ لِي هَذَا النَّشِيدُ شَاهِداً عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٢٠لأَنِّي أُدْخِلُهُمُ
الأَرْضَ التِي أَقْسَمْتُ لآبَائِهِمِ الفَائِضَةَ لَبَناً وَعَسَلاً فَيَأْكُلُونَ وَيَشْبَعُونَ وَيَسْمَنُونَ ثُمَّ يَلْتَفِتُونَ
إِلى آلِهَةٍ أُخْرَى وَيَعْبُدُونَهَا وَيَزْدَرُونَ بِي وَيَنْكُثُونَ عَهْدِي. ٢١فَمَتَى أَصَابَتْهُ شُرُورٌ كَثِيرَةٌ
وَشَدَائِدُ يُجَاوِبُ هَذَا النَّشِيدُ أَمَامَهُ شَاهِداً لأَنَّهُ لا يُنْسَى مِنْ أَفْوَاهِ نَسْلِهِ. إِنِّي عَرَفْتُ فِكْرَهُ
الذِي يُفَكِّرُ بِهِ اليَوْمَ قَبْلَ أَنْ أُدْخِلَهُ إِلى الأَرْضِ كَمَا أَقْسَمْتُ». ٢٢فَكَتَبَ مُوسَى هَذَا النَّشِيدَ
فِي ذَلِكَ اليَوْمِ وَعَلَّمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِيَّاهُ. ٢٣وَأَوْصَى يَشُوعَ بْنَ نُونٍ وَقَالَ: «تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ
لأَنَّكَ أَنْتَ تُدْخِلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الأَرْضَ التِي أَقْسَمْتُ لَهُمْ عَنْهَا وَأَنَا أَكُونُ مَعَكَ». ٢٤فَعِنْدَمَا
كَمَّلَ مُوسَى كِتَابَةَ كَلِمَاتِ هَذِهِ التَّوْرَاةِ فِي كِتَابٍ إِلى تَمَامِهَا ٢٥أَمَرَ مُوسَى اللاوِيِّينَ حَامِلِي
تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ: ٢٦«خُذُوا كِتَابَ التَّوْرَاةِ هَذَا وَضَعُوهُ بِجَانِبِ تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ إِلهِكُمْ
لِيَكُونَ هُنَاكَ شَاهِداً عَلَيْكُمْ. ٢٧لأَنِّي أَنَا عَارِفٌ تَمَرُّدَكُمْ وَرِقَابَكُمُ الصُّلْبَةَ. هُوَذَا وَأَنَا بَعْدُ
حَيٌّ مَعَكُمُ اليَوْمَ قَدْ صِرْتُمْ تُقَاوِمُونَ الرَّبَّ فَكَمْ بِالحَرِيِّ بَعْدَ مَوْتِي! ٢٨اِجْمَعُوا إِلَيَّ كُلَّ
شُيُوخِ أَسْبَاطِكُمْ وَعُرَفَاءَكُمْ لأَنْطِقَ فِي مَسَامِعِهِمْ بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ وَأُشْهِدَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ
وَالأَرْضَ. ٢٩لأَنِّي عَارِفٌ أَنَّكُمْ بَعْدَ مَوْتِي تَفْسُدُونَ وَتَزِيغُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الذِي أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ
وَيُصِيبُكُمُ الشَّرُّ فِي آخِرِ الأَيَّامِ لأَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ الشَّرَّ أَمَامَ الرَّبِّ حَتَّى تُغِيظُوهُ بِأَعْمَالِ
أَيْدِيكُمْ» (تثنية/ ٣١).

والآن، وبَعْد ذلك كله، أيستكثر الكاتب أن يقول القرآن عن اليهود إنهم «كالحمار يحمل أسفارا»؟ على أن صاحبنا يكذب هنا أيضًا؛ إذ يزعم أن اليهود كانوا إذا أظهروا للنبى خطأه بذكر ما قالته التوراة مما يتعارض مع ما يقوله هو عنها وعنهم حَنِقَ عليهم وشتمهم قائلاً إنهم «كالحمار يحمل أسفارًا». ووجه الكذب فى هذا الكلام أنه لم يحدث قطّ أنْ حاكَمَ اليهودُ الرسولَ - عليه الصلاة والسلام - إلى التوراة، بل هو الذى كان يحاكمهم إليها ويتحداهم أن يأتوا بها ويتلوا ما فيها مما يختلفون معهم حوله، حتى يتبين مَنْ منهما على الحق، ومن على الباطل. وقد ذكر القرآن الكريم شيئا من ذلك حين اختلف الطرفان حول الحكم الإلهى فى بعض الأطعمة، إذ قال الرسول إن لحوم الإبل وألبانها حلال، بينما قال اليهود إنها حرام عندهم فى التوراة، فنزل قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ

قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران/ ٩٣- ٩٥).

فهذه حادثة تدل على أن الذى طلب مراجعة التوراة هو النبى عليه السلام لا اليهود. وثمة حادثة أخرى تدل على الأمر نفسه، وهى مأخوذة من تفسير الطبرى للآية الرابعة والأربعين من سورة «المائدة»: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: زَنَى رَجُل مِنَ الْيَهُود بِامْرَأَة، فَقَالَ بَعْضهمْ لِبَعْض: اذْهَبُوا بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيّ، فَإِنَّهُ نَبِيّ بُعِث بِتَخْفِيف، فَإِنْ أَفْتَانَا بِفُتْيَا دُون الرَّجْم قَبِلْنَاهَا وَاحْتَجَجْنَا بِهَا عِنْد اللَّه وَقُلْنَا: فُتْيَا نَبِيّ مِنْ أَنْبِيَائِك! قَالَ: فَأَتَوُا النَّبِيّ - ﷺ - وَهُوَ جَالِس فِي الْمَسْجِد فِي أَصْحَابه، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِم، مَا تَقُول فِي رَجُل وَامْرَأَة مِنْهُمْ زَنَيَا؟ فَلَمْ يُكَلِّمهُمْ كَلِمَة حَتَّى أَتَى بَيْت الْمِدْرَاس، فَقَامَ عَلَى الْبَاب، فَقَالَ: «أَنْشُدكُمْ بِاَللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاة عَلَى مُوسَى، مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاة عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ؟» قَالُوا: يُحَمَّم وَيُجَبَّه وَيُجْلَد (وَالتَّجْبِيه: أَنْ يُحْمَل الزَّانِيَان عَلَى حِمَار تُقَابَل أَقْفِيَتهمَا، وَيُطَاف بِهِمَا). وَسَكَتَ شَابّ، فَلَمَّا رَآهُ سَكَتَ أَلَظَّ بِهِ النِّشْدَة، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِذْ نَشَدْتنَا، فَإِنَّا نَجِد فِي التَّوْرَاة الرَّجْم. فَقَالَ النَّبِيّ - ﷺ -: «فَمَا أَوَّل مَا ارْتَخَصَ أَمْر اللَّه؟» قَالَ: زَنَى رَجُلٌ ذُو قَرَابَة مِنْ مَلِك مِنْ مُلُوكنَا فَأَخَّرَ عَنْهُ الرَّجْم، ثُمَّ زَنَى رَجُل فِي أُسْرَة مِنَ النَّاس، فَأَرَادَ رَجْمه، فَحَالَ قَوْمه دُونه وَقَالُوا: لا تَرْجُم صَاحِبنَا حَتَّى تَجِيء بِصَاحِبك فَتَرْجُمه، فَاصْطَلَحُوا عَلَى هَذِهِ الْعُقُوبَة بَيْنهمْ. قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «فَإِنِّي أَحْكُم بِمَا فِي التَّوْرَاة». فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا». وهذا معنى قوله تعالى:«وكيف يُحكّمونك، وعندهم التوراة فيها حكم الله، ثم يتولّون من بعد ذلك؟ وما أولئك بالمؤمنين». وفى سنن أبي داود مثلا أن اليهود حين أحضروا التوراة بناءً على طلب الرسول ليقرأوا ما فيها من عقوبة الزاني جَعَل أحدُهم يضع يده على النص كما يفعل الأولاد الصغار، ظنًا منه أنه بهذا يستطيع أن يخفي الكلام الذى يفضح كذبهم. وهذا هو الحديث المقصود: «حدثنا عبد الله بن مسلمة قال: قرأت على مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر أنه قال: إن اليهود جاءوا إلى النبي - ﷺ -، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله - ﷺ -: ما تجدون في التوراة في شأن الزنا؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام: كذبتم! إن فيها الرجم. فأتَوا بالتوراة فنشروها، فجعل أحدهم يده على آية الرجم، ثم جعل يقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يديك. فرفعها، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله - ﷺ - فرُجما».

ومثل ذلك رَدُّ القرآن عليهم هم والنصارى حين ادَّعى كل منهما أن إبراهيم عليه السلام كان على دينه، فنزل قوله سبحانه يسخِّف عقل الفريقين جميعًا ويحيلهم مرة أخرى إلى التوراة والإنجيل، متهمًا إياهم فى أصل وجههم بأنهم إنما يخوضون فيما ليس لهم به علم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٥) هَأَنتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًا وَلاَ نَصْرَانِيًا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران/ ٦٥- ٦٧). ومثله أيضًا هاتان الآيتان اللتان تقرّعان اليهود على أنهم، فى الوقت الذى يتشددون فى التمسك بحكم التوراة الخاص بمفاداة أمثالهم من اليهود إذا وقعوا فى الأَسْر، فإنهم لا يتحرّجون فى معاونة الآخرين من حلفائهم غير اليهود عليهم وإخراجهم من ديارهم رغم أن ذلك مما تحرّمه شريعتهم نفسها، ومن ثم تحيلهم الآيتان إلى التوراة لتذكيرهم بما يتجاهلونه من أحكامها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة/ ٨٤- ٨٥). فمن إذًا الذى يخالف ما تقول به التوراة؟ ومن ذا الذي يحيل إليها ويستشهد بما جاء فيها ويتحدى الطرف الآخر به؟

أم ترى كان اليهود أوفياء لتوراتهم ويعرفونها أفضل من محمد ويتحاكمون إليها عندما جاءهم وثنيّو قريش يسألونهم أىّ الدينين هو الدين الحق: وثنيتهم أم الإسلام الذى جاء به محمد؟ فكان جوابهم أن الوثنية القرشية هى الدين الصحيح؟ يقول - جل شأنه -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (النساء/ ٥١- ٥٢). إن الكاتب يعمّى على حقائق التاريخ ويلتوي بها كعادة اليهود، لكن الحق أبلج، والباطل لجلج، والفضيحة له بالمرصاد مهما كذب ودلّس وأطلق الاتهامات الباطلة ضد سيدنا رسول الله - ﷺ - ! أليس من الحق الذي لا يستطيع أن يجادل فيه من كان عنده ذرة من عقل وضمير أن الذين يجيبون هذا الجواب هم «كالحمار يحمل أسفارًا»؟ هل يمكن أن يصل الحقد والحمق إلى هذا المدى عند بعض الناس فينْصُروا الوثنيةَ وعبدةَ الأصنام على الإسلام فى الوقت الذي يزعمون

فيه أنهم القوّام على التوحيد فى العالم وأنهم شعب الله المختار؟ لكن ماذا تقول فى اليهود، وهذه أسفار العهد القديم تدمدم بالغضب الإلهي عليهم وتفيض باللعنات المنصبة فوق رؤوسهم لكثرة ما نبذوا التوحيد وارتكسوا فى عبادة الأصنام والأوثان؟ بل إن تشتيت الله لهم فى الأرض وتسليطه الأمم الأخرى عليهم تسومهم الخسف والهوان والخزى هو، حسبما يقول الكتاب المقدس، نتيجة هذا الشرك الوثني الذي لم تبرأ منه قلوبهم يومًا، فكانوا يرتدّون إليه كلما سنحت سانحة منذ العجل الذهبى الذي صنعوه، ولمّا تكن أقدامهم قد استراحت من عبور البحر بعد أن نجاهم الله منه وأغرق فيه فرعون وجنوده! إنها نفسيتهم وشخصيتهم الملتوية طوال العصور. ولقد شوهوا سيرة نبى الله هارون، إذ زعموا أنه هو الذى صنع العجل من حليّ المصريين كي يعبده بنو إسرائيل أثناء غياب موسى فوق الجبل لتلقّي الألواح، كما لطخوا بنفس الطريقة صورة نبي الله سليمان، الذى ادَّعَوْا عليه أنه تزوج من مئات النسوة الوثنيات، وبنى لهنّ المذابح الوثنية فى بيته ليعبدنها على راحتهن دون أن يتجشمن مشقة الانتقال إليها، وعبدها هو أيضًا مثلهن! لا عجب إذًا أن يفعلوا ما فعلوه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. لقد فعلوا ما كانوا يفعلونه فى كل البلاد وبين كل الشعوب، حتى لقد أصبحوا يمثلون مشكلة في أي مكان يحلّون فيه وأى مجتمع يعيشون بين ظهرانَيْه، وصار هناك موضوع دائم مُلِحّ يطرقه المفكرون الذين يَخْبُرونهم اسمه: «المسألة اليهودية»!

أما الغزوات التي غزاها - ﷺ - فيهم فلم تكن بسبب الحقد عليهم والطمع فى أموالهم كما قال الكاتب زورًا وبهتانًا، بل كانت بسبب غدرهم وانتقاضهم على ما كان بينهم وبينه عليه السلام من معاهدة على التعاون ضد من يريد أيًا من الفريقين بشر: وكان أوّلَ من بدرت منه الخيانة بنو قينقاع، إذ ما إن انتصر المسلمون على المشركين فى بدر حتى دبت عقارب البغضاء في قلوبهم فشرعوا يثيرون المشاكل ويلمزون الرسول والمسلمين ويحقّرون من شأن انتصارهم على الكفار ويتحدَّوْنهم قائلين إن القرشيين لا علم لهم بفن القتال، وإنه متى ما يشتبك المسلمون معهم فسوف يعلمون كيف تكون الحرب، ثم قَفَّوْا على ذلك بالتحرش بنساء المسلمين، إذ وفدت عليهم إحداهن فى سوقهم ببضاعةٍ تبيعها وجلست إلى صائغ منهم، فأرادوها على كشف وجهها لكنها أبت، فما كان منهم إلا أن عمدوا إلى حيلةٍ مجرمةٍ غادرةٍ مثلهم كشفوا بها لا وجهها بل سوأتها نفسها، وأخذوا يضحكون ويقهقهون عليهم لعنات الله، وهي تشعر بالهوان والعار شأن كل حرة عفيفة ليست من فاجرات يهود، فلم يتمالك أحد المسلمين الذين تصادف وجودُهم آنذاك فى السوق نفسَه من غليان دم الكرامة والحميّة فى عروقه، وضرب

اليهودي في ثورة غضبه فقتله، فقتله اليهود بدورهم. أي أنهم، بدلا من أن يكونوا إلبًا مع الرسول ضد الكفار حسبما تقضي بنود الصحيفة، انقلبوا عليه وعلى المسلمين وأخذوا يثيرون لهم المشاكل، ويعتدون منهم على من يوقعهم سوء حظهم تحت رحمتهم، ويتآمرون ويحرّضون ويكشفون عن مخططاتهم الخيانية. ومع ذلك لم يأخذهم الرسول بغتة، بل نبذ إليهم أولاً العهد الذي كان بينه وبينهم في الصحيفة رغم أن غدرهم كان كافيًا وأكثر من كافٍ لأخذهم مباغتة، وطلب منهم الخروج من المدينة تاركًا لهم أموالهم وأثقالهم وأسلحتهم الخفيفة يحملونها معهم. أولو كان طامعًا فى أموالهم كما يدّعي المدّعون الكذّابون، أكان يتركهم يخرجون بهذه الأموال بتلك السهولة؟

ونأتي لبني النضير، وقد كانوا مُلْزَمين - بنص المعاهدة التى كانت بينهم وبين المسلمين - أن يتعاونوا معهم فى الحرب والديات وما إلى ذلك، ومن ثم كان يجب عليهم أن يشتركوا فى القتال جنبًا إلى جنب معهم فى أُحُد ضد مشركي مكة الذين أَتَوْا لمهاجمة يثرب، لكنهم تعللوا نفاقًا وجبناً وكذبًا وغدرًا بالسبت، وهى نفس الحجة التي طالما تعللوا بها عند المسيح كى يَنْكِلوا عن أداء الواجب، وتهكّم بسببها عليهم وعلى نفاقهم الذى يريدون أن يُلْبسوه كسوة الإيمان الصارم (متى/ ١٢/١، ولوقا /٦ /٢، و١٤/ ٣)، اللهم إلا واحدا منهم يسمَّى مُخَيْرِيق أبت عليه رجولته أن يخنس فى عهده مع الرسول، فاشترك فى الحرب معه عليه السلام حيث مات كريمًا شريفًا. ثم حدث بعد ذلك أيضًا أن ذهب النبي إليهم بعد أُحُد في دية بعض القتلى يطلب منهم المساهمة في دفعها، فأجلسوه بجوار حائط لهم وأوهموه أنهم سيُحْضِرون له المال المطلوب حالاً. ثم كلَّفوا أحدهم أن يصعد إلى أعلى الجدار، ويلقي برَحًى ثقيلة على رأسه - ﷺ - فتهشّمه، لكن المؤامرة انكشفت فقام النبى من مكانه مغادرًا فى الحال، ثم أرسل إليهم أن اخرجوا من المدينة. بَيْدَ أن المنافقين نفثوا فى رُوعهم أن يَبْقَوْا حيث هم وأكدوا لهم أنهم سوف يقفون بجانبهم ولن يتركوهم يخرجون، وإلا فلسوف يخرجون هم أيضًا تضامنًا معهم. فانخدع اليهود بكلام المنافقين الجبان وبَقُوا فى حصونهم، مما اضطر المسلمين لمحاصرتهم حتى نزلوا على ما كانوا رفضوه من قبل بسبب التحريض النفاقي. وكان من يهود بني النَّضِير زعيمٌ شاعرٌ دَأَب على نظم القصائد فى التشبيب بنساء المسلمات، فضلاً عن ذهابه هو وأمثاله من القادة النَّضِيريِّين إلى المشركين فى مكة وتحريضهم على مهاجمة يثرب...وما إلى ذلك، وهو ابن أبي الحُقَيْق، الذى لم يجد من أبناء قبيلته من يفكر فى كفّه عن هذه المؤامرات المدمّرة، ويذكّره بالعهد الذى كان بينهم وبين المسلمين، ويقول له: «إن هذا لا يصح»، بل وجد بدلا من ذلك من يعمل على

تشجيعه ويتعاون معه فى التآمر والخيانة والوقاحة، ومعالنة الرسول والمسلمين بالعداء، والتحالف مع مشركي مكة فى حربهم السافرة ضد الدولة التى يعيشون فى كنفها وتبسط عليهم جناح حمايتها، فكان مصيره هو المصير الذى يستحقه أمثاله، كما أصبحت مجاورة النَّضِيريين للمسلمين فى المدينة أمرًا غير معقول ولا محتمل، فكان الإجلاء مثلما حدث من قبل لبني قينقاع. ومرة أخرى نرى الرسول - ﷺ - يصبر عليهم لآخر المدى، ويرأف بهم رغم تكرر الغدر والسفالة والتآمر منهم، كما تركهم يخرجون بأموالهم ومتاعهم لم يصادره منهم، مع أنهم لو كانوا ظفروا بالمسلمين لكان انتقامهم مروِّعا حسبما تقضى شريعة العهد القديم وطبيعتهم الحاقدة على البشرية والرغبة فى إيذاء الآخرين المتأصلة فى نفوسهم حبًا فى الإيذاء! ويشكك الكاتب فى موضوع مؤامرة الرَّحَى قائلا إن محمدًا إنما لجأ إلى القول بأن الوحى هو الذى كشف له أمرها كي يوجد لنفسه العذر فى الغدر بهم طمعًا فى أموالهم رغم أنه لم تكن هناك مؤامرة ولا يحزنون حسبما يقول! وهذا، والحق يقال، كلام العهرة، فقد ترك الرسول بني النضير أيضًا يخرجون بأموالهم ومتاعهم، حتى لقد خلعوا أبواب دورهم وحملوها معهم على الإبل. بل إنه لم يَمَسّهم بأذى رغم كل ما فعلوه، ولو كان قد جَزَرَ رقاب طائفة من هؤلاء الخنازير ما لامه أحد، فالأمر أمر مصير دولة وأمة، وليس شروة طماطم. وكان عليه الصلاة والسلام قد سمح لهم، قبل أن يشمسوا بتحريض من المنافقين، بأن يأخذوا معهم كل ما يريدون وأن يحتفظوا كذلك ببساتينهم مع إقامة وكلاء عنهم فيها، إلا أن تماديهم فى العصيان والتحدى، وعدم انتهاز الفرصة المواتية ورفض تلك الشروط اللينة المتسامحة قد جعلته - ﷺ - يتشدد فى شروط خروجهم عند استسلامهم الجبان الذليل فى آخر المطاف فيصادر منهم بساتينهم. ثم إنهم لم يكونوا لِيَسْكُتوا لو كان الرسول هو الذى اخترع هذه المؤامرة من عند نفسه، إلا أنهم قد خنسوا تمامًا فلم يفتحوا أفواههم النجسة ببنت شفة اعتراضًا أو توضيحًا! أو تظلمًا أو حتى لتشويه صورة النبي الكريم الذي كانوا يكرهونه كراهية العمى والموت.

ونبلغ غزوة بني قُرَيْظَة، الذين لم يتعظوا مما وقع لبني قينقاع ولا لبني النضير. ويبدو أن اللين الذي عامل به النبى هاتين القبيلتين من قبل قد أغرى القُرَظِيِّين بأن يجربوا هم أيضًا حظهم من الخيانة والغدر، وبخاصة أنهم قد اتخذوا من الإجراءات والتخطيطات ما جعلهم يعتقدون أنهم يستطيعون توجيه ضربة قاتلة لمحمد ولدينه هذه المرة، إذ ذهب وفد من زعمائهم إلى مكة فحرضوا القرشيين على غزو المدينة والقضاء على المسلمين ودخلوا معهم في حلف أقسموا عليه عند أوثان الكعبة، ثم لم

يكتفوا بذلك، بل شفعوه بالذهاب إلى قبائل عربية أخرى وثنية أيضًا وحرضوها بنفس الطريقة، ومنَّوْها بثروات المدينة، وتحالفوا معهم كذلك على هذا. ثم إنهم حين بلغ النبىَّ ما فعلوه وما انْتَوَوْه وأراد التثبت منه فأرسل إليهم من يفاتحهم فى المسألة ليعلم حقيقة أمرهم، كان ردهم في غاية الوقاحة والسوء، وأعلنوا موقفهم بصراحة لا تحتمل أي لبس، وهددوا وتوعّدوا وأنكروا أن يكون بينهم وبينه أية معاهدة، أي أن عليه أن يبلّ الصحيفة ويشرب ماءها كما نقول في لغتنا العامية! ولم يكتف الخونة بهذا، بل بدأوا بالتحرك والاتصالات بالغزاة منذ اللحظة الأولى وظهرت منهم علائم الخيانة والغدر فى وقت كانت ظروف المسلمين فى منتهى الحرج والصعوبة والضيق! ولولا أن الأقدار هيأت للإسلام فى ذلك الوقت العصيب نعيم بن مسعود الغطفاني، الذي أسلم سرًا، وأتى رسولَ الله وعرض عليه خطته فى إيقاع الشكوك بين الأحزاب وبين بني قُرَيْظَة ووُفِّق فى تنفيذها لكان المسلمون قد ذهبوا أدراج الرياح إلى الأبد، ولما كان هناك إسلام ولا يحزنون. ثم هبت الريح العاصفة التي أرسلها الله على خيام الأحزاب فأطارتها وأوقعت الرعب فى قلوبهم، فهبّوا إلى إبلهم فارّين لا يلوون على شىء. وعندئذ كان لا بد من العقاب لهؤلاء الأوغاد الخونة الذين لا يتعلمون الدرس أبدًا ولا يتعظون ولا يقدرون على النظر أبعد من أنوفهم، فإذا شامُوا شيئًا من القوة فى أنفسهم، وهىَ فى العادة قوة مستعارة من الآخرين، فَجَرُوا وانتفشوا كما يفعلون هذه الأيام مع العرب والمسلمين اغترارًا بقوة أمريكا والغرب، غافلين عن أن الأمريكان والأوربيين إذا كانوا أقوياء اليوم، وكان العرب ضعفاء أذلاء بُلَداء، فإن الأمور لا يمكن أن تستقيم على هذه الحال إلى الأبد! المهم أن الرسول قد غزاهم وحاصرهم حتى استسلموا كالنعاج، فحوكموا على يد رجل من حلفائهم فى الجاهلية هو سعد بن معاذ، فحكم عليهم بقَتْل محاربيهم الغَدَرة الفَجَرة الكَفَرة، وسَبْى نسائهم وذرياتهم. وهنا يولول الكاتب ويصرخ متهمًا الرسول والمسلمين بالقسوة، وكأن الرحمة تقتضي صاحبها أن يكون، كالمسلمين فى هذه الأيام النَّحِسَات، أبلهَ غبيًا لا يعرف أمور الحياة، فيُلْدَغ من الجحر الواحد مرات ومرات! أيّ رحمة يتكلم عنها الكاتب، وهو يعلم تمام العلم أن أسلافه الخائنين لو كانوا ظفروا بما خططوا له لما تركوا على ظهرها من بَشَرٍ أو دابّةٍ ولأبادوا محمدًا وأتباعه وحيواناتهم تمام الإبادة على ما تأمرهم به شريعتهم التي تقول فى مثل هذا الموقف: «١٠ حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِتُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا لِلصُّلْحِ ١١فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لكَ فَكُلُّ الشَّعْبِ المَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لكَ. ١٢وَإِنْ لمْ تُسَالِمْكَ بَل عَمِلتْ مَعَكَ حَرْباً فَحَاصِرْهَا. ١٣وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا

بحَدِّ السَّيْف. ١٤وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي المَدِينَةِ كُلُّ غَنِيمَتِهَا فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ التِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. ١٥هَكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ المُدُنِ البَعِيدَةِ مِنْكَ جِدّاً التِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هَؤُلاءِ الأُمَمِ هُنَا. ١٦وَأَمَّا مُدُنُ هَؤُلاءِ الشُّعُوبِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيباً فَلا تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَا ١٧بَل تُحَرِّمُهَا تَحْرِيماً... كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ» (تثنية/ ٢/ ١٠- ١٦)، «١٥فالآن اذهب و اضرب عماليق و حرّموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلا و امراة، طفلا ورضيعًا، بقرا و غنمًا، جملا و حمارًا» (صموئيل الأول/ ٣).

فضلاً عن أن ما اجترحه اليهود إنما هو الخيانة العظمى بلحمها وشحمها، وليس شيئًا أقل من ذلك. ثم من الذى كان يتطلع إلى أموال الآخر؟ إنهم ليسوا المسلمين بحال، بل اليهود الذين رأيناهم يمنّون المشركين بثروات المدينة قبل قليل! وتبقى غزوة خَيْبَر، هذه الواحة التى كانت قد أضحت معقلا للتآمر اليهودى بعد سقوط بنى قُرَيْظَة، كما كان زعماؤها ضمن اليهود الذين ذهبوا لتحزيب الأحزاب للهجوم على يثرب والقضاء النهائى على المسلمين ودينهم، فكان لا بد من كسر شوكتهم، وهو ما حدث. وقد أجلى الرسول الكريم الخطرين منهم، وأقرّ الباقين في ديارهم وأملاكهم على أن يدفعوا له نصف غلة أرضيهم وبساتينهم. ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام ذات المعاملة الكريمة التي لا يستحقها الخونة الأوغاد الذين لو قُدِّر لهم الظَّفَر بالمسلمين لما رَعَوْا فيهم إلاً ولا ذمّة!

والغريب أن يصدّع الكاتب، كعامّة المستشرقين والمبشرين، أدمغتنا بالكلام عن القسوة التى عامل النبى الكريم بها اليهود، ناسيًا أن كتابهم يذكر عنهم وعن قوادهم، بفخرٍ مجلجل، ما يدل على ما كانوا يعاملون به الآخرين من قسوة مفرطة ليس فيها أدنى مراعاة لضميرٍ أو قانونٍ، فضلاً عن أنه يَعْزوه إلى بركة الله ورضاه عن بنى إسرائيل: من ذلك مثلاً ما جاء فى الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر «التكوين» على النحو التالى: «١وَخَرَجَتْ دِينَةُ ابْنَةُ لَيْئَةَ الَّتِي وَلَدَتْهَا لِيَعْقُوبَ لِتَنْظُرَ بَنَاتِ الأَرْضِ ٢فَرَآهَا شَكِيمُ ابْنُ حَمُورَ الْحِوِّيِّ رَئِيسِ الأَرْضِ وَأَخَذَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَأَذَلَّهَا. ٣وَتَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِدِينَةَ ابْنَةِ يَعْقُوبَ وَأَحَبَّ الْفَتَاةَ وَلاطَفَهَا. ٤فَقَالَ شَكِيمُ لِحَمُورَ أَبِيهِ: «خُذْ لِي هَذِهِ الصَّبِيَّةَ زَوْجَةً». ٥وَسَمِعَ يَعْقُوبُ أَنَّهُ نَجَّسَ دِينَةَ ابْنَتَهُ. وَأَمَّا بَنُوهُ فَكَانُوا مَعَ مَوَاشِيهِ فِي الْحَقْلِ فَسَكَتَ يَعْقُوبُ حَتَّى جَاءُوا. ٦فَخَرَجَ حَمُورُ أَبُو شَكِيمَ إِلَى يَعْقُوبَ لِيَتَكَلَّمَ مَعَهُ. ٧وَأَتَى بَنُو يَعْقُوبَ مِنَ الْحَقْلِ حِينَ سَمِعُوا. وَغَضِبَ الرِّجَالُ وَاغْتَاظُوا جِدّاً لأَنَّهُ صَنَعَ قَبَاحَةً فِي إِسْرَائِيلَ بِمُضَاجَعَةِ ابْنَةِ يَعْقُوبَ. وَ«هَكَذَا لاَ يُصْنَعُ». ٨وَقَالَ لَهُمْ حَمُورُ: «شَكِيمُ ابْنِي قَدْ

تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِابْنَتِكُمْ. أَعْطُوهُ إِيَّاهَا زَوْجَةً ٩وَصَاهِرُونَا. تُعْطُونَنَا بَنَاتِكُمْ وَتَأْخُذُونَ لَكُمْ بَنَاتِنَا ١٠وَتَسْكُنُونَ مَعَنَا وَتَكُونُ الأَرْضُ قُدَّامَكُمْ. اسْكُنُوا وَاتَّجِرُوا فِيهَا وَتَمَلَّكُوا بِهَا». ١١ثُمَّ قَالَ شَكِيمُ لأَبِيهَا وَلإِخْوَتِهَا: «دَعُونِي أَجِدْ نِعْمَةً فِي أَعْيُنِكُمْ. فَالَّذِي تَقُولُونَ لِي أُعْطِي. ١٢كَثِّرُوا عَلَيَّ جِدّاً مَهْراً وَعَطِيَّةً فَأُعْطِيَ كَمَا تَقُولُونَ لِي. وَأَعْطُونِي الْفَتَاةَ زَوْجَةً». ١٣فَأَجَابَ بَنُو يَعْقُوبَ شَكِيمَ وَحَمُورَ أَبَاهُ بِمَكْرٍ لأَنَّهُ كَانَ قَدْ نَجَّسَ دِينَةَ أُخْتَهُمْ: ١٤«لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ هَذَا الأَمْرَ أَنْ نُعْطِيَ أُخْتَنَا لِرَجُلٍ أَغْلَفَ لأَنَّهُ عَارٌ لَنَا. ١٥غَيْرَ أَنَّنَا بِهَذَا نُوَاتِيكُمْ: إِنْ صِرْتُمْ مِثْلَنَا بِخَتْنِكُمْ كُلَّ ذَكَرٍ. ١٦نُعْطِيكُمْ بَنَاتِنَا وَنَأْخُذُ لَنَا بَنَاتِكُمْ وَنَسْكُنُ مَعَكُمْ وَنَصِيرُ شَعْباً وَاحِداً. ١٧وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لَنَا أَنْ تَخْتَتِنُوا نَأْخُذُ ابْنَتَنَا وَنَمْضِي». ١٨فَحَسُنَ كَلاَمُهُمْ فِي عَيْنَيْ حَمُورَ وَفِي عَيْنَيْ شَكِيمَ بْنِ حَمُورَ. ١٩وَلَمْ يَتَأَخَّرِ الْغُلاَمُ أَنْ يَفْعَلَ الأَمْرَ لأَنَّهُ كَانَ مَسْرُوراً بِابْنَةِ يَعْقُوبَ. وَكَانَ أَكْرَمَ جَمِيعِ بَيْتِ أَبِيهِ. ٢٠فَأَتَى حَمُورُ وَشَكِيمُ ابْنُهُ إِلَى بَابِ مَدِينَتِهِمَا وَقَالاَ لأَهْلِ مَدِينَتِهِمَا: ٢١«هَؤُلاَءِ الْقَوْمُ مُسَالِمُونَ لَنَا. فَلْيَسْكُنُوا فِي الأَرْضِ وَيَتَّجِرُوا فِيهَا. وَهُوَذَا الأَرْضُ وَاسِعَةُ الطَّرَفَيْنِ أَمَامَهُمْ. نَأْخُذُ لَنَا بَنَاتِهِمْ زَوْجَاتٍ وَنُعْطِيهِمْ بَنَاتِنَا. ٢٢غَيْرَ أَنَّهُ بِهَذَا فَقَطْ يُوَاتِينَا الْقَوْمُ عَلَى السَّكَنِ مَعَنَا لِنَصِيرَ شَعْباً وَاحِداً: بِخَتْنِنَا كُلَّ ذَكَرٍ كَمَا هُمْ مَخْتُونُونَ. ٢٣أَلاَ تَكُونُ مَوَاشِيهِمْ وَمُقْتَنَاهُمْ وَكُلُّ بَهَائِمِهِمْ لَنَا؟ نُوَاتِيهِمْ فَقَطْ فَيَسْكُنُونَ مَعَنَا». ٢٤فَسَمِعَ لِحَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنِهِ جَمِيعُ الْخَارِجِينَ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ. وَاخْتَتَنَ كُلُّ ذَكَرٍ - كُلُّ الْخَارِجِينَ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ. ٢٥فَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ إِذْ كَانُوا مُتَوَجِّعِينَ أَنَّ ابْنَيْ يَعْقُوبَ شِمْعُونَ وَلاَوِيَ أَخَوَيْ دِينَةَ أَخَذَا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ وَأَتَيَا عَلَى الْمَدِينَةِ بِأَمْنٍ وَقَتَلاَ كُلَّ ذَكَرٍ. ٢٦وَقَتَلاَ حَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنَهُ بِحَدِّ السَّيْفِ وَأَخَذَا دِينَةَ مِنْ بَيْتِ شَكِيمَ وَخَرَجَا. ٢٧ثُمَّ أَتَى بَنُو يَعْقُوبَ عَلَى الْقَتْلَى وَنَهَبُوا الْمَدِينَةَ لأَنَّهُمْ نَجَّسُوا أُخْتَهُمْ. ٢٨غَنَمَهُمْ وَبَقَرَهُمْ وَحَمِيرَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ وَمَا فِي الْحَقْلِ أَخَذُوهُ. ٢٩وَسَبَوْا وَنَهَبُوا كُلَّ ثَرْوَتِهِمْ وَكُلَّ أَطْفَالِهِمْ وَنِسَاءَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْبُيُوتِ. ٣٠فَقَالَ يَعْقُوبُ لِشِمْعُونَ وَلاَوِي: «كَدَّرْتُمَانِي بِتَكْرِيهِكُمَا إِيَّايَ عِنْدَ سُكَّانِ الأَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَأَنَا نَفَرٌ قَلِيلٌ. فَيَجْتَمِعُونَ عَلَيَّ وَيَضْرِبُونَنِي فَأَبِيدُ أَنَا وَبَيْتِي». ٣١فَقَالاَ: «أَنَظِيرَ زَانِيَةٍ يَفْعَلُ بِأُخْتِنَا؟».

ومثله ما فعله كل من بني بنيامين وبني إسرائيل بالطرف الآخر رغم القرابة اللصيقة التى تربط بينهم، إذ أفنى كل منهم من خصمه عشرات الألوف، وأعمل السيف في جميع سكان المدن التي دخلها، وكل ذلك بسبب اعتداء بضعة أشخاص من بني بنيامين على سُرِّيَّة رجل من بني إسرائيل (قضاة/ ١٩- ٢٠). ولنقرأ فقط هذه الفقرة التي يختم بها المؤلف الرواية: «٤٨ وَرَجَعَ رِجَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى بَنِي بَنْيَامِينَ وَضَرَبُوهُمْ

بحَدِّ السَّيْفِ مِنَ الْمَدِينَةِ بِأَسْرِهَا حَتَّى الْبَهَائِمَ حَتَّى كُلَّ مَا وُجِدَ وَأَيْضاً جَمِيعُ الْمُدُنِ الَّتِي وُجِدَتْ أَحْرَقُوهَا بِالنَّارِ». ومن ذلك الوادى ما فعله النبى إيليا حين ذبح كلّ كهان البعل بالسيف، وعددهم أربعمائة وخمسون (كما جاء فى الفقرة ٢٢ من الإصحاح التالى)، لم يُبْقِ منهم على أحد: «٣١ثُمَّ أَخَذَ إِيلِيَّا اثْنَيْ عَشَرَ حَجَراً، بِعَدَدِ أَسْبَاطِ بَنِي يَعْقُوبَ (الَّذِي كَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَيْهِ: [إِسْرَائِيلَ يَكُونُ اسْمُكَ]) ٣٢وَبَنَى الْحِجَارَةَ مَذْبَحاً بِاسْمِ الرَّبِّ، وَعَمِلَ قَنَاةً حَوْلَ الْمَذْبَحِ تَسَعُ كَيْلَتَيْنِ مِنَ الْبِزْرِ. ٣٣ثُمَّ رَتَّبَ الْحَطَبَ وَقَطَّعَ الثَّوْرَ وَوَضَعَهُ عَلَى الْحَطَبِ وَقَالَ: [امْلأُوا أَرْبَعَ جَرَّاتٍ مَاءً وَصُبُّوا عَلَى الْمُحْرَقَةِ وَعَلَى الْحَطَبِ] ٣٤ثُمَّ قَالَ: [ثَنُّوا] فَثَنَّوْا. وَقَالَ: [ثَلِّثُوا] فَثَلَّثُوا. ٣٥فَجَرَى الْمَاءُ حَوْلَ الْمَذْبَحِ وَامْتَلأَتِ الْقَنَاةُ أَيْضاً مَاءً. ٣٦وَكَانَ عِنْدَ إِصْعَادِ التَّقْدِمَةِ أَنَّ إِيلِيَّا النَّبِيَّ تَقَدَّمَ وَقَالَ: [أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ، لِيُعْلَمِ الْيَوْمَ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ فِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنِّي أَنَا عَبْدُكَ، وَبِأَمْرِكَ قَدْ فَعَلْتُ كُلَّ هَذِهِ الأُمُورِ. ٣٧اسْتَجِبْنِي يَا رَبُّ اسْتَجِبْنِي، لِيَعْلَمَ هَذَا الشَّعْبُ أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ الإِلَهُ، وَأَنَّكَ أَنْتَ حَوَّلْتَ قُلُوبَهُمْ رُجُوعاً] .٣٨فَسَقَطَتْ نَارُ الرَّبِّ وَأَكَلَتِ الْمُحْرَقَةَ وَالْحَطَبَ وَالْحِجَارَةَ وَالتُّرَابَ، وَلَحَسَتِ الْمِيَاهَ الَّتِي فِي الْقَنَاةِ. ٣٩فَلَمَّا رَأَى جَمِيعُ الشَّعْبِ ذَلِكَ سَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَقَالُوا: «الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ! الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ!»40 .فَقَالَ لَهُمْ إِيلِيَّا: «أَمْسِكُوا أَنْبِيَاءَ الْبَعْلِ وَلاَ يُفْلِتْ مِنْهُمْ رَجُلٌ». فَأَمْسَكُوهُمْ، فَنَزَلَ بِهِمْ إِيلِيَّا إِلَى نَهْرِ قِيشُونَ وَذَبَحَهُمْ هُنَاكَ» (الملوك الأول/ ١٨). ومثلما صنع إيليا صنع أيضًا ياهو بن شافاط، الذى أقامه النبى أليشاع ملكا على بنى إسرائيل وحرّضه عى استئصال بيت أخآب على بكرة أبيه، فقام بالواجب، ثم زاد فأباد جميع عبّاد البعل وكهنته بعد أن خدعهم وجمعهم فى المعبد الوثني متظاهرًا أنه هو أيضًا من عبّاده ثم قتلهم لم يُفلت منهم رجلا (الملوك الثاني/ ٩). ومنه ما فعله بنو إسرائيل ببني يهوذا إخوتهم فى النص التالي من الإصحاح الثامن والعشرين من سفر «الأيام الثاني»: «١كَانَ آحَازُ ابْنَ عِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ وَمَلَكَ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً فِي أُورُشَلِيمَ وَلَمْ يَفْعَلِ الْمُسْتَقِيمَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ كَدَاوُدَ أَبِيهِ ٢بَلْ سَارَ فِي طُرُقِ مُلُوكِ إِسْرَائِيلَ وَعَمِلَ أَيْضاً تَمَاثِيلَ مَسْبُوكَةً لِلْبَعْلِيمِ. ٣وَهُوَ أَوْقَدَ فِي وَادِي ابْنِ هِنُّومَ وَأَحْرَقَ بَنِيهِ بِالنَّارِ حَسَبَ رَجَاسَاتِ الأُمَمِ الَّذِينَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ أَمَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٤وَذَبَحَ وَأَوْقَدَ عَلَى الْمُرْتَفَعَاتِ وَعَلَى التِّلاَلِ وَتَحْتَ كُلِّ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ. ٥فَدَفَعَهُ الرَّبُّ إِلَهُهُ لِيَدِ مَلِكِ أَرَامَ فَضَرَبُوهُ وَسَبُوا مِنْهُ سَبْياً عَظِيماً وَأَتَوْا بِهِمْ إِلَى دِمَشْقَ. وَدُفِعَ أَيْضاً لِيَدِ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً عَظِيمَةً. ٦وَقَتَلَ فَقْحُ بْنُ رَمَلْيَا فِي يَهُوذَا مِئَةً وَعِشْرِينَ أَلْفاً فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ - الْجَمِيعُ بَنُو بَأْسٍ - لأَنَّهُمْ تَرَكُوا الرَّبَّ إِلَهَ آبَائِهِمْ. ٧وَقَتَلَ زِكْرِي جَبَّارُ أَفْرَايِمَ مَعَسِيَّا ابْنَ الْمَلِكِ وَعَزْرِيقَامَ رَئِيسَ الْبَيْتِ وَأَلْقَانَةَ ثَانِيَ الْمَلِكِ. ٨وَسَبَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ

إخْوَتِهِمْ مِئَتَيْ أَلْفٍ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ وَنَهَبُوا أَيْضاً مِنْهُمْ غَنِيمَةً وَافِرَةً وَأَتَوا بِالْغَنِيمَةِ إِلَى السَّامِرَةِ». ومنه كذلك ما فعلته يهوديت الأرملة اليهودية الجميلة التى ذهبت إلى معسكر الأشوريين وعملت على إغراء قائدهم الحربى بما تغرى به الأنثى الرجال وسقته خمرا حتى فقد وعيه، ثم احتزَّت رأسه وهربت من المعسكر إلى قومها ...إلخ. وبسببها انتصر بنو إسرائيل بعد أن كانوا قد أزمعوا الاستسلام لأولئك الأعداء كعادتهم فى كثير من الأحوال! (انظر سفر «يهوديت» فى النسخة الكاثوليكية من الكتاب المقدس). أذْكُر هذا على علاّته بغض النظر عن تاريخية القصة أو خياليتها، فإن دارسى الكتاب المقدس يشكّون فى صحة هذه الواقعة ويَرَوْنها حكايةً مصنوعة (انظر مقدمة سفر «يهوديت» فى الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس).

على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فهناك الأمنيات التى يتمنَّى بنو إسرائيل وقوعها بالأمم الأخرى، وهى أمنياتٌ بشعةٌ تكشف ما فى قلوبهم من أحقاد لا ينطفئ لها لظًى. ولنأخذ فقط بعض ما ينوبنا نحن المصريين من هذا الحب، ولنقرأ ما جاء فى نبوءة أَشَعْيَا فى الإصحاح التاسع عشر: «١وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ: «هُوَذَا الرَّبُّ رَاكِبٌ عَلَى سَحَابَةٍ سَرِيعَةٍ وَقَادِمٌ إِلَى مِصْرَ فَتَرْتَجِفُ أَوْثَانُ مِصْرَ مِنْ وَجْهِهِ وَيَذُوبُ قَلْبُ مِصْرَ دَاخِلَهَا. ٢وَأُهَيِّجُ مِصْرِيِّينَ عَلَى مِصْرِيِّينَ فَيُحَارِبُونَ كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ: مَدِينَةٌ مَدِينَةً وَمَمْلَكَةٌ مَمْلَكَةً. ٣وَتُهْرَاقُ رُوحُ مِصْرَ دَاخِلَهَا. وَأُفْنِي مَشُورَتَهَا فَيَسْأَلُونَ الأَوْثَانَ وَالْعَازِفِينَ وَأَصْحَابَ التَّوَابِعِ وَالْعَرَّافِينَ. ٤وَأُغْلِقُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ فِي يَدِ مَوْلًى قَاسٍ فَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِمْ مَلِكٌ عَزِيزٌ يَقُولُ السَّيِّدُ رَبُّ الْجُنُودِ. ٥«وَتُنَشَّفُ الْمِيَاهُ مِنَ الْبَحْرِ وَيَجِفُّ النَّهْرُ وَيَيْبَسُ. ٦وَتُنْتِنُ الأَنْهَارُ وَتَضْعُفُ وَتَجِفُّ سَوَاقِي مِصْرَ وَيَتْلَفُ الْقَصَبُ وَالأَسَلُ. ٧وَالرِّيَاضُ عَلَى حَافَةِ النِّيلِ وَكُلُّ مَزْرَعَةٍ عَلَى النِّيلِ تَيْبَسُ وَتَتَبَدَّدُ وَلاَ تَكُونُ. ٨وَالصَّيَّادُونَ يَئِنُّونَ وَكُلُّ الَّذِينَ يُلْقُونَ شِصّاً فِي النِّيلِ يَنُوحُونَ. وَالَّذِينَ يَبْسُطُونَ شَبَكَةً عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ يَحْزَنُونَ ٩وَيَخْزَى الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْكَتَّانَ الْمُمَشَّطَ وَالَّذِينَ يَحِيكُونَ الأَنْسِجَةَ الْبَيْضَاءَ. ١٠وَتَكُونُ عُمُدُهَا مَسْحُوقَةً وَكُلُّ الْعَامِلِينَ بِالأُجْرَةِ مُكْتَئِبِي النَّفْسِ. ١١«إِنَّ رُؤَسَاءَ صُوعَنَ أَغْبِيَاءُ! حُكَمَاءُ مُشِيرِي فِرْعَوْنَ مَشُورَتُهُمْ بَهِيمِيَّةٌ. كَيْفَ تَقُولُونَ لِفِرْعَوْنَ: أَنَا ابْنُ حُكَمَاءَ ابْنُ مُلُوكٍ قُدَمَاءَ. ١٢فَأَيْنَ هُمْ حُكَمَاؤُكَ؟ فَلْيُخْبِرُوكَ. لِيَعْرِفُوا مَاذَا قَضَى بِهِ رَبُّ الْجُنُودِ عَلَى مِصْرَ. ١٣رُؤَسَاءُ صُوعَنَ صَارُوا أَغْبِيَاءَ. رُؤَسَاءُ نُوفَ انْخَدَعُوا. وَأَضَلَّ مِصْرَ وُجُوهُ أَسْبَاطِهَا. ١٤مَزَجَ الرَّبُّ فِي وَسَطِهَا رُوحَ غَيٍّ فَأَضَلُّوا مِصْرَ فِي كُلِّ عَمَلِهَا كَتَرَنُّحِ السَّكْرَانِ فِي قَيْئِهِ. ١٥فَلاَ يَكُونُ لِمِصْرَ عَمَلٌ يَعْمَلُهُ رَأْسٌ أَوْ ذَنَبٌ نَخْلَةٌ أَوْ أَسَلَةٌ. ١٦فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَكُونُ مِصْرُ كَالنِّسَاءِ فَتَرْتَعِدُ وَتَرْجُفُ مِنْ هَزَّةِ يَدِ رَبِّ الْجُنُودِ الَّتِي يَهُزُّهَا عَلَيْهَا.

١٧«وَتَكُونُ أَرْضُ يَهُوذَا رُعْباً لِمِصْرَ. كُلُّ مَنْ تَذَكَّرَهَا يَرْتَعِبُ مِنْ أَمَامِ قَضَاءِ رَبِّ الْجُنُودِ الَّذِي يَقْضِي بِهِ عَلَيْهَا». ١٨«فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ خَمْسُ مُدُنٍ تَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ كَنْعَانَ وَتَحْلِفُ لِرَبِّ الْجُنُودِ يُقَالُ لإِحْدَاهَا «مَدِينَةُ الشَّمْسِ». ١٩فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ مَذْبَحٌ لِلرَّبِّ فِي وَسَطِ أَرْضِ مِصْرَ وَعَمُودٌ لِلرَّبِّ عِنْدَ تُخْمِهَا. ٢٠فَيَكُونُ عَلاَمَةً وَشَهَادَةً لِرَبِّ الْجُنُودِ فِي أَرْضِ مِصْرَ. لأَنَّهُمْ يَصْرُخُونَ إِلَى الرَّبِّ بِسَبَبِ الْمُضَايِقِينَ فَيُرْسِلُ لَهُمْ مُخَلِّصاً وَمُحَامِياً وَيُنْقِذُهُمْ. ٢١فَيُعْرَفُ الرَّبُّ فِي مِصْرَ وَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ الرَّبَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَيُقَدِّمُونَ ذَبِيحَةً وَتَقْدِمَةً وَيَنْذُرُونَ لِلرَّبِّ نَذْراً وَيُوفُونَ بِهِ. ٢٢وَيَضْرِبُ الرَّبُّ مِصْرَ ضَارِباً فَشَافِياً فَيَرْجِعُونَ إِلَى الرَّبِّ فَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَيَشْفِيهِمْ». ٢٣«فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَكُونُ سِكَّةٌ مِنْ مِصْرَ إِلَى أَشُّورَ فَيَجِيءُ الأَشُّورِيُّونَ إِلَى مِصْرَ وَالْمِصْرِيُّونَ إِلَى أَشُّورَ وَيَعْبُدُ الْمِصْرِيُّونَ مَعَ الأَشُّورِيِّينَ. ٢٤فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ إِسْرَائِيلُ ثُلْثاً لِمِصْرَ وَلأَشُّورَ بَرَكَةً فِي الأَرْضِ ٢٥بِهَا يُبَارِكُ رَبُّ الْجُنُودِ قَائِلاً: مُبَارَكٌ شَعْبِي مِصْرُ وَعَمَلُ يَدَيَّ أَشُّورُ وَمِيرَاثِي إِسْرَائِيلُ».

(ملاحظة: هذه المادة اشترك فى كتابتها ثلاثة أشخاص، لكني جريت على ما يجري عليه الكلام فى مثل هذه الظروف عادة، إذ قلت: «الكاتب»، وليس «الكتّاب» على أساس أن كلا منهم استقلّ بجزء من المادة، فمناقشتي لأي شيء فيها إذن هو مناقشة للكاتب الفرد الذي كتبه فقط لا لجميع من اشتركوا فى كتابة المادة كلها).

كتاب أخبار نيل مصر لابن العماد الأقفهسي (٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) قراءة نقدية

أ. أحمد عبد الباسط حامد(*)

«مصر هبة النيل» مقولةٌ قالها أبو التاريخ هيرودوت، وانتصر لها أقوامٌ رأوا أن الفضلَ فيما وصل إليه المصريون يرجع إلى تلك البيئة الجغرافية المتميزة؛ فمصر هبة النيل، وحضارتها من ثمار البيئة الطبيعية، ولولا هذا الوطن الصالح ما قامت لمصر حضارة، ولا كان للمصريين ذكرٌ في التاريخ.

بينما يرى آخرون أن «مصر هبة المصريين»؛ فالنيل شأنه شأن أيِّ قوة طبيعية أخرى، يمكنه أن يخلق كما يمكنه أن يدمر، والإنسان وحده هو الذي يستطيع تحويل قوى التدمير إلى شيءٍ صالح له ولبيئته. وقد استطاع المصريون الأوائل أن يسيطروا على تلك القوة الطبيعية (النيل)، ونجحوا في أنْ يحوّلوا تلك الأحراش والمستنقعات إلى حقولٍ وجداول وسدود، ومضوا به نحو مجتمع مدنيٍّ.

وهناك فريقٌ ثالث يرى رأيًا وسطًا؛ حيث يتقبل القولين معًا: «مصر هبة النيل» و«مصر هبة المصريين» دون تعارض بينهما.

ففي مصر وُجدت البيئة الطبيعية المناسبة، كما وُجِد مَن استطاع استغلال هذه البيئة أحسن استغلال وتوجيهها الوجهة النافعة؛ فالبيئة المصرية والإنسان المصري قد استطاعا معًا في تمازج تام أن ينهضا بهذا الوطن الذي نعيش فيه(١).

وقِدَمًا ارتبطت حياة المصريين بالنيل ارتباطًا وثيقًا، فجعلوه محطَّ أنظارهم وعنايتهم وتقديرهم، بل بلغ من حُبِّهم إيّاه وإعزازهم له أن قدّسوه وألّهوه، ونشأ لديهم اعتقاد بأن النيل ينبع من النهر السَّماوي المحيط بالعالم عند انعطافه ناحية الجنوب، وأطلقوا عليه اسم «حابي».

ولم يكن المصريون في العصر الإسلامي أقلَّ اهتمامًا بالنيل من ذي قبل؛ فلقد أدركوا جيدًا أن النيل مصدرُ الخير والبركة والحياة لهم ولبلدهم الطيب، فأعطوه كل اهتمامٍ وعُنوا به عنايةً كبيرة بدراسته ووصفه، ورصد أوقات فيضانه، وأقاموا المقاييس لتتبع مقادير زيادته ونقصانه؛ بل وأقاموا النظم لربط السنة الهجرية بالسنة الشمسية

(*) باحث بمركز تحقيق التراث، بدار الكتب والوثائق المصرية.

(١) حول هذا الموضوع انظر: محمد حمدي المناوي: نهر النيل في المكتبة العربية. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م. ص ٧ - ٩.

التي تسير بدورها مع مواعيد فيضان النيل.

لذا لم يكن من الغريب أن نجد عددًا كبيرًا من الجغرافيين[١]، والمؤرخين[٢]، والرحالة[٣] يؤلفون الكتب والفصول للتأريخ لنهر النيل، أو لوصف ودراسة فروعه وترعه وخلجانه وجسوره وقنواته وقناطره ومقاييسه.

* * *

وقد ظهر في الفترة المماليكية في مصر (٦٤٨ـ ٩٢٣هـ) عددٌ غير قليل من المؤلفات التي جعلت من نهر النيل موضوعها الأساسي، تحدث فيها أصحابها عن نقاط معينة، مثل: فضل نهر النيل، ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية، والمكان الذي ينبع منه، ورحلته من منبعه حتى مصبه، ومقاييسه، وخراجه، وما كان يقام عند وفائه من أعياد ... إلى غير ذلك من موضوعات شديدة الصلة به.

ومن تلك المؤلفات رسالة «نيل مصر وأهرامها» لشهاب الدين أبي العباس أحمد ابن عماد بن يوسف بن عبد النبي، المعروف بابن العماد الأقفهسي (٧٥٠ ـ ٨٠٨هـ / ١٣٤٩ ـ ١٤٠٦م)، وهي رسالة طريفة في موضوعها، فرغ من تأليفها سنة ٧٨٠هـ[٤]، وقد قامت بتحقيقها مؤخرًا الباحثتان: الدكتورة/ لبيبة إبراهيم مصطفى، والأستاذة/ نعمات عباس محمد، في طبعةٍ فاخرة بمركز تحقيق التراث، بدار الكتب المصرية ـ تحت عنوان «كتاب أخبار نيل مصر». وقد اعتمدتا في تحقيقها علي نسختين خطيتين بدار الكتب المصرية، وهما:

---

(١) مثل: محمد بن موسى الخوارزمي، وكتابه «صورة الأرض»؛ وأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي، وكتابه «البلدان»؛ وأبي علي أحمد بن عمر، المعروف بابن رسته، وكتابه «الأعلاق النفيسة»؛ ويحيى بن سيرابيون، المعروف بسهراب، وكتابه «عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة»؛ وأبي القاسم محمد بن حوقل، وكتابه «صورة الأرض»؛ وشهاب الدين أحمد بن يحيى، المعروف بابن فضل الله العمري، وكتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار».

(٢) مثل: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، والمعروف بابن عبد الحكم، وكتابه «فتوح مصر وأخبارها»؛ وأبي الحسن علي بن الحسين، المعروف بالمسعودي، وكتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر»؛ والحسن بن إبراهيم بن الحسن، المعروف بابن زولاق، وكتابه «فضائل مصر وأخبارها»؛ وتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، وكتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»؛ وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، وكتابه «كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة».

(٣) مثل: رحلة أبي الحسين محمد بن أحمد الكناني، المعروف بابن جبير؛ وموفق الدين أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف، المعروف بعبد اللطيف البغدادي، ورحلته «الإفادة والاعتبار»؛ وشمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبدالله اللواتي، المعروف بابن بطوطة، ورحلته المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

(٤) ذكر ذلك ابن العماد في رسالته تلك أثناء حديثه عن حائط المجوز، ص ٦٦: «وأثر هذا الحائط موجود إلى هذا الوقت، وهو سنة ثمانين وسبعمائة، ويعرف بحائط المجوز». كما جزم به يوسف إليان سركيس في كتابه «معجم المطبوعات العربية والمعربة»، ج١/ ٤٦٢.

١ - نسخة رقم ٤٧١ الزكية، نسخت سنة ٨٩٩هـ، ولم يرد بها ذكر للناسخ، واتُّخِذت أصلاً.

٢ - نسخة رقم ٩ جغرافيا حليم، قام بنسخها مصطفى بن عبد الله سنة ١٠٧٧هـ، واتُّخِذت نسخة مساعدة.

وقد قُدِّم التحقيق بـ «دراسة وتقديم» من إعداد الدكتورة/ لبيبة إبراهيم مصطفى، تناولت فيها الحديث عن محاولات المصريين القدماء ثم اليونان ثم العرب لاستكشاف نهر النيل، معتمدة في جلِّ ذلك على كتاب «نهر النيل» لمؤلفه محمد عوض محمد.

ثم تحدثت بعد ذلك عمَّا شاع من حكايات تشوبها الخرافات والأساطير حول النيل، في كتب الجغرافيين والمؤرخين في العصر المماليكي، وعمَّا ذُكِر بها من قصص ديني أو حديث نبوي أو أثر صحابي مما يعطي للنيل قداسة وأهمية.

ثم تحدثت أخيرًا عن فيضان نهر النيل وبلوغه الزيادة، أو نقصان مائه عن حد الوفاء، وعن مقاييس النيل الموجودة بمصر، وبيان سبب خضرة مياهه.

تأتي بعد ذلك مباشرة مقدمة التحقيق من إعداد الباحثة نفسها، حيث بدأت بالترجمة لابن العماد الأقفهسي وذكر بعض مؤلفاته، تلا ذلك الحديث عن الرسالة وأهميتها، ووصف النسختين الخطيتين اللتين اعتُمِد عليهما في التحقيق، ثم الحديث عن مصادر المخطوطة ومنهج المؤلف فيها، ثم يأتي - أخيرًا - منهج التحقيق، ويتلخص فيما يلي:

١- اعتماد نسخة الزكية «ز» أصلا، ونسخة حليم «ح» نسخة مساعدة.

٢- المقابلة بين النسختين، وإثبات الفروق في هوامش الصفحات.

٣- تصويب الأخطاء، وإثبات الساقط من المتن بين حاصرتين.

٤- مراجعة النص على معظم المصادر التي نقل عنها المؤلف، والتي ذكرها صريحة في مواضعها، وإثبات الفروق في الهوامش.

٥- الترجمة للأعلام الواردة في المتن.

٦- التعريف بالأماكن والبلدان والمواقع والمصطلحات.

٧- تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

٨- تزويد الكتاب بملحق في نهاية المتن يضم عددًا من الخرائط المثبت عليها

المعالم الجغرافية والأماكن التي أوردها المؤلف في الرسالة.

وتُختم مقدمة التحقيق بنماذج مصورة من النسختين الخطيتين.

* * *

يأتي بعد ذلك متن الرسالة، وهي تشتمل على مقدمةٍ وفصلين: أما المقدمة فقد بيَّن فيها ابن العماد الدافع له على التأليف؛ حيث يقول:

«ولما كان إقليم مصر مشتملاً على فوائد وأمور عجيبة - استخرتُ الله تعالى في أن أجمع فيه من نفيس الغرائب ما لا ينبغي لذوي العلم إهمالها، ولا لساكن مصر إغفالها وكيف وكلُّهم - أو أكثرهم - لو سُئل عن نهر النيل: من أين يخرج من الأرض؟ وفي أي مكان يذهب؟ ولو سُئل عن طوله، وعن سبب تكدّره وخضرته في وقت الزيادة، ومن أين تمده الزيادة؟ وفي أي مكان تذهب زيادته إذا نقص؟ - لما أجاب عن ذلك. وأنا إن شاءَ اللهُ مبيِّن لجميع ذلك، قاصدًا فيه الاختصار ....»

ثم ينتقل إلى موضوعه مباشرةً، فيتحدث في الفصل الأول عن فضائل نهر النيل ومصر من خلال الروايات المختلفة في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ومَنْ نزل مصر من الأنبياء والمرسلين، وغيرهم من عظماء الرجال، وما فيها من مواضع مقدّسة، وما في النيل من أعاجيب من أنواع الحيوان والسمك.

ثم يأتي الفصل الثاني من الكتاب، والذي ينقسم بدوره إلى فصول أخرى متفاوتة الحجم، وهي:

١- فصل في بيان المكان الذي يخرج أصل النيل منه.

٢- فصل في كُورَةِ أسيوط وجبل أبي فائدة الذي على النيل.

٣- فصل في الأهرام.

٤- فصل في الحائط الممتدة بالجانب الشرقي عن النيل (حائط العجوز).

٥- فصل في المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل ونقصانه منه.

٦- فصل في زيادة النيل.

٧- فصل في المكان الذي يذهب فيه ماءُ النيل.

٨- فصل في الكلام على الأنهار الثلاثة: جيحون، وسيحون، والفرات.

٩- فصل في الفرق بين النهر والبحر.

١٠- فصل في الماء الذي ينبع من الأرض.

ثم يختم ابن العماد رسالته ببحث فقهي في الماء الذي يجوز التطهّر به وما لا يجوز.

تلك نظرة عامة على محتوى الرسالة، وما تضمنته من مواضيع وأفكار.

وقد قامت المحققتان بعمل كشافات تحليلية في نهاية الرسالة، مرتبة على هذا النحو:

١- كشاف الأعلام.

٢- كشاف الأمم والشعوب والقبائل والفرق والجماعات.

٣- كشاف الأماكن والبلدان.

٤- كشاف الألفاظ الاصطلاحية.

٥- كشاف بأسماء الكتب الواردة في النص.

٦- كشاف الآيات القرآنية.

٧- كشاف الأحاديث النبوية.

وأخيرًا ينتهي التحقيق بـ :

١- مصادر ومراجع التحقيق (المخطوطات ـ المصادر العربية المطبوعة ـ المراجع العربية).

٢- فهرس الموضوعات.

إلى هنا أراني قد وفّيْتُ في التعريف بالرسالة، ومنهج التحقيق الذي اتبعته المحققتان الفضليان، في محاولةٍ منهما لإخراج المتن في أقرب صورةٍ أرادها مؤلفه له.

* * *

والآن حان لي أن أذكرَ ما وقع فيه التحقيق من عثرات وزلات، عسى أن يتمَّ استدراكها فيما بعد:

١- جاء عنوان الرسالة على الغلاف «**كتاب أخبار نيل مصر**»، وهو عنوانٌ اجتهادي من المحققتين، جِيء به معبّرًا عن مضمون الرسالة فقط.

فقد جاء العنوان على النسختين الخطيتين اللتين اعتُمد عليها في التحقيق هكذا:

«كتاب يذكر فيه نيل مصر، من أين يخرج من الأرض، وفي أي مكانٍ يذهب، وسبب تكدّره وخضرته في وقت الزيادة، ومن أين تمده الزيادة، وفي أيٍّ مكان تذهب زيادته إذا نقص»؛ ومن ثم فقد اجتهدت المحققتان في أن يكون العنوان مختصرًا من هذا كلّه، ومعبّرًا في الوقت نفسه عن مضمون الرسالة.

لكن الواقع يخالف ذلك؛ فإن أقدم نسخة موجودة للرسالة - كما سيأتي - والتي تم الفراغ منها في رمضان سنة ٧٨١هـ - جاء عنوانها «نيل مصر وأهرامها».

ولما كانت هذه النسخة أقدم النسخ الموجودة، وقد كُتِبت في حياة المؤلِّف، بل وبعد تأليفه لهذه الرسالة بعام واحد - فيمكن اعتبارها المخطوط الأصلي؛ ومن ثم يكون العنوان الصحيح الذي وضعه ابن العماد لمؤلَّفه هو «نيل مصر وأهرامها» وليس «كتاب أخبار نيل مصر».

٢- جاء في مقدمة التحقيق، ص١٥، ما نصه[1]:

«أما عن مؤلفاته فهي عديدة، منها: التعقبات على المهمات، وشروح المنهاج، وأحكام المساجد، وأحكام النكاح، وآداب الطعام، والإبريز فيما يقدم على موت التجهيز، القول التام في أحكام المأموم والإمام، وموقف المأموم والإمام، وشرح العمدة، والأربعين النووية، والبردة، والتبيان فيما يحل ويحرم من الحيوان، والتبيان في آداب حملة القرآن، والاقتصاد في كفاية العقاد، وكشف الأسرار، والدرة الفاخرة، والآخرة، وقصيدة نظم الدرر في هجرة خير البشر، وآداب دخول الحمام، ونظم التذكرة لابن الملقن في علوم الحديث وشرحها، وأخبار نيل مصر، والبيان التقريري في تخطئة الكمال الدميري، والمواطن التي تباح فيه الغيبة، والدماء المجبورة، والأماكن التي تؤخر فيها الصلاة عن أول وقت، والدر النفيس في النجاسات العفو عنها».

يلاحظ مما سبق ما يلي:

أ- لم يُتَّبع في ترتيب تلك المؤلَّفات أيّ منهج علمي؛ فلم تُرتّب حسب الترتيب الهجائي، أو حسب التصنيف الموضوعي، أو حسب تأريخ التأليف ... أوغير ذلك من أنواع الترتيب.

(١) آثرتُ الإتيان بالنص كاملاً كما ذُكِر في مقدمة التحقيق: مشاركة من القارئ فيما سأورده من ملاحظات.

ب- جاءت بعض هذه العناوين مبهمة وبها أخطاء، بل وغير صحيحة؛ وإنما ذلك راجعٌ إلى أن المحققتين لم تعتمدا على المراجع التي من شأنها توثيق العنوان ونسبته إلى مؤلفه، فقط اعتمدتا على ما ذكره ابن حجر في «المجمع المؤسس»، والسخاوي في «الضوء اللامع»، مثال ذلك:

- شروح المنهاج: كذا ذُكر، وإنما الصواب أن لابن العماد شرحين فقط على كتاب منهاج الطالبين للنووي: كبير، ويسمّى «البحر العجاج في شرح المنهاج»، وصغير يسمّى «التوضيح في شرح منهاج الطالبين».
- أحكام المساجد: كذا ذُكر، و إنما اسمه «تسهيل المقاصد لزوار المساجد». وهو مطبوع(١).
- أحكام النكاح: كذا ذُكر، وإنما اسمه «توقيف الحكام على غوامض الأحكام». وهو مطبوع(٢).
- الإبريز فيما يقدم على موت التجهيز: كذا ذُكر، اعتمادًا على ما ذكر - خطأً - في «الضوء اللامع»، وإنما الصواب «الإبريز فيما يقدم على مؤنة التجهيز».
- التبيان في آداب حملة القرآن: كذا ذُكر، ومعلوم أن هذا الكتاب من تأليف يحيى ابن شرف النووي، وإنما نظمه ابن العماد وسماه «تحفة الإخوان في نظم التبيان في آداب حملة القرآن».
- الاقتصاد في كفاية العقاد: كذا ذُكر، اعتمادًا على ما ذُكر - خطأً - في «الضوء اللامع»، وإنما الصواب «الاقتصاد في كفاية الاعتقاد».
- آداب دخول الحمام: كذا ذُكر، وإنما اسمه «القول التمام في آداب دخول الحمام».

ج - لم تُشر المحققتان إلى ما طبع من هذه المؤلفات، وما الذي لا يزال مخطوطًا، وما المفقود منها. وكان الأَوْلى بهما أن توضحا ذلك.

د - أغفلت المحققتان كثيرًا من مؤلفات ابن العماد، لا سيما التي عُرف بها واشتهر، وكان الأَوْلى بهما أن تحصرا جميع ما ألّفه ابن العماد الأقفهسي؛ مما يُعرِّف القارئ بمكانة ابن العماد العلمية، وبموسوعيته، ومن تلك الكتب:

---

(١) طبع بتحقيق أحمد فريد المزيدي، في ١٧٦ ص.

(٢) طبع بتحقيق نصير خضر سليمان الشافعي عن دار الكتب العلمية، في ٤٩٦ ص.

- إكرام مَنْ يعيش بتحريم الخمر والحشيش: طبع عن دار الصحابة (طنطا) في ٦٨ ص، سنة ١٩٩١م، ثم طبع في ذيل «رفع الإلباس عن وهم الوسواس» عن دار الكتب العلمية (بيروت) عام ١٩٩٥م، بتحقيق محمد فارس، ومسعد السعدني.
- رفع الإلباس عن وهم الوسواس: طبع عن دار الكتب العربية (بيروت)، عام ١٩٩٥م، ويليه «إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش» في ٣١١ص، بتحقيق محمد فارس ومسعد السعدني.
- السر المستبان مما أودعه الله من الخواص في أجزاء الحيوان: وهو الكتاب الأم الذي اختصره ابن العماد في كتابه «التبيان فيما يحل ويحرم من الحيوان»(١). وقد طبع الكتاب عن دار العربي للنشر والتوزيع (القاهرة)، عام ١٩٩٥م، في ٣٣٩ص، بتحقيق صابر إدريس.
- القول النبيل بذكر التطفيل: طبع عن مكتبة ابن سينا (القاهرة)، عام ١٩٨٩م، في ١٩٢ ص، بتحقيق مصطفى عاشور.
- كشف الأسرار عما خفي عن الأفكار: طبع طبعة قديمة بمطبعة يني لاجوداكس (الإسكندرية)، عام ١٨٩٧م، في ٢١٥ ص.

٣- جاء في الحديث عن الرسالة وأهميتها، ص ١٦ ما يلي:

> «أما مخطوطة أخبار نيل مصر، فترجع أهميتها إلى أن المعلومات التي وردت بها توضّح بجلاء أن العلماء المسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي في ميدان الاستكشاف والتفسير، سواء ما كان متعلّقًا بنهر النيل، أو ببعض الظواهر الطبيعية، أو بالآثار القديمة، بل إنهم بذلوا كلّ ما لديهم من جهد، واجتهدوا في ضوء ما لديهم من معلومات وإمكانات، ولم يكتفوا بالنقل ممن سبقوهم، بل حاولوا تفسير كل شيء على قدر استطاعتهم، وهذا يوضح المنهج العلمي للعلماء المسلمين».

قد يكون هذا صحيحًا في غير هذا المؤلَّف، لكن ابن العماد في هذه الرسالة لم يكن أكثر مِنْ ناقل؛ ففي الفصل الأول نجده عالةً على ما كتبه ابن الكندي، وابن عبد الحكم، وابن زولاق. وفي الفصل الثاني أخذ ينقل بالنص عن «مروج الذهب» للمسعودي. بل إننا نراه قد أخفق - كما سنرى - في اجتهاداته التي تعدُّ على أصابع اليد الواحدة، والتي ذكرها في هذه الرسالة.

---

(١) طبع هذا المختصر عن دار الكتب العلمية - بيروت، عام ١٩٩٦م، في ١٩٢ ص، بتحقيق محمد حسن إسماعيل.

يقول محمد حمدي المناوي في كتابه القيم «نهر النيل في المكتبة العربية»[١]:

«وكان من المنتظر وقد ألّف الأقفهسي كتابه عن النيل خاصة، أن يأتي بمعلومات جديدة أو يعالج الموضوع بتوسع مثلما عالجه المقريزي مثلاً وهو معاصر له، ولكن كل ما أورده المؤلف من معلومات نقلها عن الكتب السابقة، ففي الفصل الأول الخاص بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية اعتمد المؤلِّف على ابن عبد الحكم، والكندي، وابن زولاق، وفي الفصل الثاني لم يكن أكثر من ناقلٍ عن «مروج الذهب» للمسعودي.

ولم يتعرض الأقفهسي لوصف النيل في مصر، وخلجانه، وترعه، وما كان يقام عند وفائه من أعياد، أو يبين أثر النيل في مصر من الناحية الاقتصادية، والخراج، ونظم الزراعة والملاحة، وهي موضوعات اهتم بها مؤلِّفون سابقون له كابن مَمَّاتي، والقلقشندي أو معاصرون له كالمقريزي».

وإنني لأُرْجِعُ السبب في هذا إلى أن ابن العماد الأقفهسي عُرِف فقيهًا وإمامًا من أئمة الشافعية، ولم يُعْرف جغرافيًا أو مؤرِّخًا. كذلك لم يكن في خاطره وهو يؤلِّف رسالته تلك أنّه سيقومُ مقامَ المستكشفِ لمنابع النيل، أو المفسِّر والباحث وراء بعض الظواهر الطبيعية. بل إنّه ألَّف رسالته تلك لغرضٍ بسيط أوضحه في المقدمة، وهو مجرد تعريف المصريين عن أشياء لا تقع تحت أبصارهم، مثل: منابع النيل وفيضانه وسبب خضرته، والتعريف ببعض الأماكن كالأهرام ونحوها.

لذلك كلّه كان مِنَ الأَوْلى بالمحققتين أن تكتفيا في الحديث عن أهمية الرسالة بأنّ مؤلِّفها جمعَ نصوصَ الجغرافيين والمؤرخين السابقين عن نهر النيل في مكان واحد وهو هذه الرسالة.

٤- جاء في مقدمة التحقيق، ص ١٦، وفي معرض الحديث عن الرسالة وأهميتها ـ أيضًا ـ:

> «وقد ذكر ابن العماد ذلك صراحة في عنوان المخطوطة وقال: «جمعه الشيخ شهاب الدين بن العماد الأقفهسي».

من البديهي أن هذا القول من وضع الناسخ، وليس من وضع ابن العماد الأقفهسي؛ ومما يؤكد صحة ما ذهبتُ إليه أن تكملة الجملة هي: «جمعنا الله وإياه في الجنة بمنه وكرمه، والمسلمين أجمعين. آمين آمين آمين».

(١) انظر: نهر النيل في المكتبة العربية، ص ٢٢٦.

ومن ثمَّ فلا يجوز الاستشهاد بها على ذلك.

٥- عدم استيفاء النسخ الخطية المختلفة للرسالة؛ الأمر الذي من شأنه إخراج النصِّ سليمًا من الأخطاء والتصحيفات، وفي أقرب صورة أرادها المؤلف له، دون الاحتياج إلى تأويلٍ لبعض الجمل والعبارات، أو إثبات ما لم يُرده المؤلف، كما وقع في هذا العمل.

فقد اعتمدت المحققتان في إخراج هذه الرسالة على نسختين خطيتين فقط بدار الكتب المصرية، هما:

١- نسخة رقم ٤٧١ الزكية.

٢- نسخة رقم ٩ جغرافيا حليم.

وقد جاءت عبارتهما لتوحي بالجزم والتأكيد على أنه لا توجد غير هاتين النسختين فقط: «توجد نسختان هما .....»[١]. هذا ما قيل، لكن الواقع يخالف ذلك أيضًا؛ ففي مصر وحدها[٢] توجد ستُّ نسخ خطية للرسالة، فضلاً عن النسختين الخطيتين اللتين اعتُمد عليها في التحقيق. وهذه النسخ هي[٣]:

١- **نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية، تحت رقم ١٦٥٧ب**: جاء عنوانها: «نيل مصر وأهرامها»، وهي أقدم النسخ على الإطلاق، تقع ضمن مجموع في ١٥ ورقة، وبها نظام التعقيبة. قال ناسخها في نهاية المخطوط: «ووافق الفراغ من تعليقه في العشر الأول من شهر رمضان المعظم من سنة أحد وثمانين وسبعمائة».

٢- **نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية (نسخة ثانية)، تحت رقم ٧٥٦د**: جاء عنوانها: «كتاب يُذكر فيه خبر النيل من أين يخرج من الأرض وفي أي مكان يذهب وسبب تكدره وخضرته في أيام زيادته وفي أي مكان تذهب زيادته إذا نقص»، وقد فُرِغ من كتابتها «يوم الأربعاء ثالث عشر رجب الفرد من شهور سنة ثمان وثلاثين بعد الألف من الهجرة النبوية»، وهي ضمن مجموع في ١٦ ورقة، وبها نظام التعقيبة.

٣- **نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية (نسخة ثالثة)، تحت رقم ٤٩٣٩د**: جاء عنوانها: «القول المفيد في النيل السعيد»، وهي أحدث النسخ، فُرغ من كتابتها سنة ١٢٦٦هـ، وتقع في ٢٨ ورقة.

---

(١) «أخبار نيل مصر» (مقدمة التحقيق)، ص ١٧.

(٢) وفي خارج مصر توجد: نسخة بمكتبة الدولة ببرلين، ذكرها بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي»، القسم السادس، ص ٢٧٥؛ وثانية بمكتبة الحرم المكي أشار إليها الزركلي في «الأعلام»، ج١/١٨٤؛ وثالثة بمكتبة سليم أفندي شلهوب، ذكره يوسف إليان سركيس، في «معجم المطبوعات العربية والمعربة»، ج١/٤٦٢.

(٣) أرفقت فى نهاية المقال نماذج مصورة من هذه المخطوطات.

٤- نسخة بمكتبة الأزهر، تحت رقم ٤٨٨١٥ جغرافيا: جاء عنوانها: «كتاب في ذكر بحر النيل وما يتعلق به»، وهي نسخة مدقّقة، كتبت برسم مصطفى جودجي القاطن بثغر دمياط سنة ١١٠٩هـ، وتقع في ٢٠ ورقة.

٥- نسخة بمكتبة الأزهر (نسخة ثانية)، تحت رقم ٩٧٩٠٢ معارف عامة: جاء عنوانها: «كتابٌ فيه فضائل النيل ومن أين منبعه»، وهي نسخة غير مؤرّخة، تنتهي بالفصل قبل الأخير «فصل: وأما الماء الذي نبع من الأرض، فهو شبيه ماء الآبار»، وتقع في ٢٤ ورقة.

٦- نسخة بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٥ جغرافيا حليم: وهي النسخة الثالثة للرسالة بدار الكتب المصرية. جاء عنوانها: «هذا كتاب النيل السعيد المبارك»، وهي غير مؤرخة إلا أنها كاملة وليس بها أية خروم، كما أنَّ بها نظام التعقيبة، وتقع في ٢٠ ورقة.

٦- جاء وصف النسختين الخطيتين المعتمد عليهما في التحقيق ناقصًا، بل وغير صحيح في موضعٍ واحد:

أ- فقد ذُكِر أن عدد أوراق النسخة رقم ٤٧١ الزكية هو سبعون ورقة، وهو خطأ محض؛ لأن عدد الأوراق خمس وثلاثون ورقة، أي: سبعون صفحة. وشتان ما بين السبعين ورقة والسبعين صفحة.

ب - لم يُشَر إلى ما أصاب النسخة رقم ٤٧١ الزكية من خرمٍ، مقداره صفحتان كاملتان.

ج - لم يُشَر - كذلك - في وصف النسخة رقم ٩ جغرافيا حليم إلى ما أصابها من خرمٍ، مقداره ورقتان كاملتان.

وللأمانة فقد أشارت المحققتان إلى هذا الخرم في موضعه من المتن، إلا أنه كان من الأَوْلى بهما أن تشيرا إلى ذلك عند وصف النسختين في مقدمة التحقيق؛ حتى لا يظن بهما ظنًا سيئًا.

٧- جاء في معرض الحديث عن مصادر المخطوطة، ص١٨، ما نصه:

«كما رجع [أي: ابن العماد] إلى المعاجم اللغوية، مثل: «الخصائص» لابن جني، «الصحاح» للجوهري، «شرح مشكلات الوسيط والوجيز للغزالي» لأبي الفتوح العجلي»

وإني لأتساءل: هل يُعدُّ كتاب «الخصائص» الذي صنعه أبو الفتح عثمان بن جني معجمًا لغويًا مثله مثل «الصحاح» للجوهري؟!، وهل يُعدُّ كتابيّ «الوسيط» و «الوجيز» في الفقه الشافعي لمؤلفهما حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وشرحهما لأبي الفتوح أسعد ابن محمود العجلي ـ معجمًا لغويًا؟!. لا جرم أن هذا هو الخطأ الكبير.

٨- جاء ـ أيضًا ـ في معرض الحديث عن مصادر المخطوطة، ص١٨: ما نصه:

«ويبدو أنه [أي: ابن العماد] رجع إلى كتب أخرى للكندي غير موجودة بين أيدينا الآن».

قد يكون هذا محتملاً، لكنَّ الأمرَ المؤكّد هو أن ابن العماد حينما يذكر الكندي في هذه الرسالة فإنما يعني ابنه: عمر بن محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي، وكتابه «فضائل مصر المحروسة».

وقد تتبعتُ ما ذكره ابن العماد في هذه الرسالة منسوبًا للكندي، فوجدتُه مذكورًا بالنص في «فضائل مصر المحروسة» لابن الكندي.

فقط كان هذا يتطلب من المحققتين نظرةً سريعة على ما ذكره ابن العماد، ومقارنته بما ذُكِر في «فضائل مصر المحروسة» لابن الكندي، لتتأكدا من هذا.

٩- أغفلت المحققتان توثيق كثير من النصوص المصدرية التي ذكرها المؤلِّف صراحة ونصَّ عليها، بل وذَكَرَ ـ أيضًا ـ الموضع الذي نقل منه، لاسيما وهي مطبوعة، وبين أيدينا الآن، مثال ذلك:

أ- جاء في ص٣٧ (وهي بداية الفصل الأول)، س٦:

«قال البغوي في تفسير هذه الأنهار الأربعة: تخرج من نهر الكوثر ....».

لم ترجع المحققتان إلى تفسير البغوي، المسمى «معالم التنزيل»؛ لتوثيق هذا القول، وهو مطبوع غير مرة.

ب- جاء في ص٥٥، س٥:

«ونقل النووي تحريمها عن الأصحاب في «شرح المهذب» في كتاب الحج....»

لم ترجع المحققتان إلى كتاب النووي، المسمى «المجموع شرح المهذب» لتوثيق هذا الكلام، وهو مطبوع غير مرة.

ج- جاء في ص٥٥، س٨ ـ ٩:

«كما لا يجوز أكل بيض التمساح وبيض الغراب والحدأة .... كذا جزم به .... والنووي في «شرح المهذب» في باب البيع ... »

لم ترجع المحققتان ـ كذلك ـ إلى كتاب «المجموع شرح المهذب» لتوثيق هذا الكلام.

د- جاء في ص٥٧، س٦:

«وذكره أيضًا المسعودي، وصاحب الأقاليم السبعة، قال: وإنه يخرج أصله من جبل القمر....».

لم ترجع المحققتان إلى كتاب «عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة»(١)، لمؤلفه يحيى بن سيرابيون، المعروف بسهراب. والمعلومات المنقولة منه موجودةً تحت عنوان «معرفة نيل مصر وما يتفرع منه» بالكتاب.

هـ - جاء في ص٧٠، س٨:

«وهذا قد أشار إليه الزمخشري في قوله تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) ...»
لم ترجع المحققتان إلى تفسير الزمخشري المسمى «الكشاف عن حقائق التنزيل» وكلامه موجود في تفسير سورة الطارق.

و- جاء في ص٧١، س٣:

«قال ابن الجني [الصواب: ابن جني]: قياس ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾: ولاقح: لأن الريح تلقح السحاب ....»

لم ترجع المحققتان إلى كتاب «الخصائص» لابن جني، وقد ورد النصُّ به في «باب في نقض العادة».

ز- جاء في ص٨٩، س١:

«ونقل البغوي في سورة التكوير عن عبد الله بن عمرو ....»

لم ترجع المحققتان ـ كذلك ـ إلى «معالم التنزيل» للبغوي.

١٠- رجعت المحققتان في توثيق كثير من النصوص إلى مصادر فرعية، وليست المصادر الرئيسة التي اعتمدها ابن العماد وذكرها صراحة في رسالته تلك، مثال ذلك:

---

(١) قام بنشره المستشرق الألماني هانس فون مزيك في مدينة فينا سنة ١٩٢٩م.

أ- جاء في ص٣٨، س٥:

«قال النووي في شرح صحيح مسلم: قال مقاتل: الباطنان هما السلسبيل والكوثر.....».

تمَّ توثيق الخبر من مسند الإمام أحمد بن حنبل، وكان الأَوْلى بالمحققتين توثيقه من شرح النووي على صحيح مسلم.

ب- جاء في ص٣٩، س١:

«فقد ذكر البغوي في سورة «والنجم»: أن سدرة المنتهى هي شجرة طوبى»

تمَّ التوثيق من «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير، ولم يتم الرجوع إلى تفسير «معالم التنزيل» للبغوي.

ج- جاء في ص٣٩، س٢:

«وذكر [أي: البغوي] في سورة الرعد في قوله تعالى ﴿طوبى لهم وحسن مآب﴾ أن شجرة طوبى ......».

لم يتم ـ كذلك ـ الرجوع إلى «معالم التنزيل» للبغوي، بل تم التوثيق من «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير.

د- جاء في ص٥٣، س١٥:

«وكذا ذكره ابن الجوزي، قال: فإذا أكل وبقي الطعام بين أسنانه تربى في فمه .....»

لم يتم الرجوع إلى كتاب «المدهش» لأبي الفرج ابن الجوزي، وقد ورد هذا الكلام في الفصل الثمانين منه، بل تمَّ التوثيق من كتابي «نهاية الأرب» للنويري، و «مروج الذهب» للمسعودي.

هـ - جاء في ص٨١، س٣:

«قال الأزهري في «التهذيب»: سُمِّي البحر بحرًا لاستبحاره، وهو انبساطه...».

تمَّ توثيق قول الأزهري من «لسان العرب» لابن منظور، ولم يتم الرجوع إلى كتاب الأزهري نفسه، المسمى «تهذيب اللغة»، وهو مطبوعٌ.

و- جاء في ص٨٢، س٥:

« ... ثم لا يعودون إليه أبدًا. ذكره الواحدي في تفسيره»

لم يُرجع فيها إلى تفسير الواحدي، المسمى «الوسيط في تفسير القرآن المجيد». وقد اعتمدت المحققتان عليه بالفعل في مواضع شتى، بل تمَّ التوثيق من «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير.

١١- أهملت المحققتان التعريف ببعض الأعلام والمؤلفين والكتب الواردة في المتن، الأمر الذي قد يؤدّي إلى حدوث بعض اللبس عند القارئ، مثال ذلك:

أ- في ص٥٤، س١٠: لم يتم التعريف بالحموي، ولا بكتابه «التمويه فيما يرد على التنبيه»، مما يؤدي إلى الظن بأن الحموي المذكور هو ياقوت بن عبد الله الرومي، المعروف بالحموي، صاحب كتاب «معجم البلدان» وغيره. وليس الأمر كذلك، بل هو أبو القاسم حمزة بن يوسف بن سعيد التنوخي الحموي الشافعي (ت٦٧٠هـ)، وكتابه هذا هو «إزالة التمويه في مشكل التنبيه عن كلِّ فاضل نبيه».

ب- في ص٥٥، س٥: لم يتم التعريف بالرافعي وكتابه.

ج- في ص٥٥، س٥: لم يتم التعريف بكتاب «الروضة»، ولا بمؤلفه.

د- في ص٥٥، س٨: لم يتم التعريف بالقمولي، ولا بكتابه «الجواهر».

هـ- في ص٥٧، س٦: لم يتم التعريف بكتاب «الأقاليم السبعة»، ولا بمؤلفه.

و- في ص٨٧، س١٥: لم يتم التعريف بكتاب «الكفاية»، ولا بمؤلفه.

ز- في ص٨٨، س١٢: لم يتم التعريف بكتاب «الملتقطات من الحنفية»، ولا بمؤلفه.

ح- في ص٨٩، س٢: لم يتم التعريف بالدارمي، ولا بكتابه «الاستذكار»؛ مما يؤدي إلى الظن بأن الدارمي المذكور هو عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام، صاحب «سنن الدارمي»، وليس الأمر كذلك، فهو أبو الفرج محمد بن عبد الواحد بن عمر بن الميمون البغدادي (ت٤٤٨هـ)، وكتابه هذا في الفقه الشافعي.

ط- في ص٨٠، س٣: لم يتم التعريف بالحازمي، هل هو زين الدين محمد بن موسى بن عثمان الحازمي (ت٥٨٤هـ)، صاحب كتاب «المؤتلف والمختلف في أسماء الأماكن والبلدان» أم غيره؟.

١٢- وقع ابن العماد الأفقهسي ـ رحمه الله ـ في أخطاء لم تقف منها المحققتان

موقف المعلّق والناقد، بل مرَّت دون أن تعلقا عليها ولو ببنت شفة، ونضرب على ذلك بمثالين:

المثال الأول: جاء في ص٥١، س١ ـ ٣:

«وبمصر مواضع شريفة منها: ... وبها النخلة التي أُمرت مريم عليها السلام بأن تضع تحتها عيسى عليه السلام. فلم يثمر غيرها، وهي بالجيزة».

معلومٌ أنَّ هذه النخلة كانت بالقرب من بيتِ المقدس، وعليها بُنيت كنيسة بيت لحم الموجودة حالياً، ولم يقل أحدٌ من جمهور العلماء والمفسرين والمؤرِّخين بأن النخلة التي وضعت تحتها السيدة مريم ـ عليها السلام ـ ابنها عيسى ـ عليه السلام ـ بمصر.

المثال الثاني: جاء في ص٨٦، س٦ ـ ٨ في المواضع التي يكره استعمال مياهها في الطهارة:

«رابعها: ماء ديار ثمود لكثرة [الصواب: يكره] استعمالها، إلا بئر الناقة؛ لأن النبي ـ ﷺ ـ نهى عنه .... قال تعالى:﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ [أَفَلا تَعْقِلُونَ]﴾.

أخطأ المصنف ـ رحمه الله ـ في استشهاده وهو يتحدث عن ماء ديار ثمود بهاتين الآيتين؛ لأنهما إنما كانتا في شأن قوم لوط وما حدث لهما، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾[1].

١٣- أقحمت المحققتان على النصِّ ما لم يُورده ابن العماد نفسه، مثال ذلك:

أ- جاء في ص٣٩، س٢:

«وذكر في سورة الرعد ... أن ﷺشجرة رضي الله عنه طوبى شجرة أصلها في بيت النبي ﷺ».

ذكرت المحققتان في الهامش أنَّ «ما بين الحاصرتين ساقط مِن الأصل، ومثبت من نسخة ح»، إلاَّ أنَّ المعنى بدونها يستقيم أكثر.

ب- جاء في ص٨٦، س٧-٨:

«قال تعالى:﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ [أَفَلا تَعْقِلُونَ]﴾».

(١) سورة الصافات، الآيات ١٣٣. ١٣٨.

ذكرت المحققتان في الهامش أنَّ «ما بين الحاصرتين ساقط مِن نسختي المخطوطة. والمثبت من السورة الكريمة». لكنَّ ابن العماد كان يقصد جيدًا أن يستشهدَ ببعض الآية، وليسَ كلّها. ولا غروَ أنْ يستشهدَ المؤلِّفُ ببعضِ الآية لمعنىً أراده وقصده.

يؤكّدُ ما قلتُ أنَّ بقية الآية التي أضافتها المحققتان ليست موجودة في جميع نسخ المخطوطة.

ج- جاء في ص٨٧، س٧-٨:

«ولكن قال أبو الفتوح العجلي في [شرح مشكلات الوسيط والوجيز للغزالي]...».

ذكرت المحققتان في الهامش أنَّ الموجود في نسختي المخطوطة «نكث (كذا بالثاء) الوسيط والوجيز»، وأنَّ المثبت بين الحاصرتين من طبقات الشافعية.

والحقيقة أنَّ الموجودَ في نسختي المخطوطة وبقية النسخ هو «نكت (بالتاء) الوسيط والوجيز»، وهذا ما أراده ابن العماد؛ فلم يكن في خلده وهو يكتب أنْ يذكرَ العنوان الموثّق للكتاب. وإني لأتساءل: هل ذكر ابن العماد قبل ذلك العنوان الموثّق لكتاب الحموي، المسمّى «إزالة التمويه في مشكل التنبيه عن كلِّ فاضل نبيه»[١]، وهل ذكر العنوان الموثّق لكتاب النووي، المسمّى «المجموع شرح المهذّب»[٢]، وهل ذكر العنوان الموثّق لكتاب سهراب،المسمّى «عجائب الأقاليم السبعة حتى نهاية العمارة»[٣]، وهل ذكر العنوان الموثّق لكتاب ابن الأثير، المسمّى «النهاية في غريب الحديث والأثر»[٤]، وهل ذكر العنوان الموثّق لكتاب ابن الرفعة ، المسمّى «كفاية النبيه في شرح التنبيه»[٥] ؟!

تلك عادة المؤلِّف في هذه الرسالة ، وكان ينبغي بالمحققتين أن تلتزما بالعنوان الذي ذكره ابن العماد في المتن، مع التنويه في الهامش على العنوان الموثّق.

١٤- قامت المحققتان في ص٤١، س١٥ بتخريج بيت أبي العذافر ورد بن سعد التيمي، القائل:

بصريّة تزوَّجت بصريّا يُطعمها المالحَ والطريّا

(١) ذكره ابن العماد ، ص٥٤ باسم: التمويه فيما يرد على التنبيه.

(٢) ذكره ابن العماد ، ص٥٥ باسم: شرح المهذب .

(٣) ذكره ابن العماد ، ص٥٧و٥٨ باسم: الأقاليم السبعة.

(٤) ذكره ابن العماد ، ص٨٠ باسم: نهاية الغريب.

(٥) ذكره ابن العماد ، ص٨٧ باسم: الكفاية.

لكنهما لم تقوما بتخريج البيت، ص٤٢، س٢:

ولو تفلت في البحرِ والبحرُ مالحٌ لأصبحَ ماءُ البحرِ من رِيقها عذبا

ولا التعريف بقائله، وهو لمجنون ليلى.

كذلك لم تقوما بتخريج البيت، ص٤٢، س١٧:

وبأمرِه البحرانِ يلتقيانِ لا ينبغي عذبٌ مرور أجاج

ولا التعريف بقائله، وهو لجمال الدين يحيى بن يوسف، المعروف بالصرصري الحنبلي، من قصيدةٍ يسبّح الله فيها ويمدح رسوله صلى الله عليه وسلم.

١٥- جاءت الرسالة مليئة بالتصحيفات والتحريفات، وهي راجعة إلى أسباب يمكن حصرها في:

أ- القراءة الخاطئة للمخطوط.

ب - اتفاق النسختين الخطيتين اللتين اعتُمد عليهما في التحقيق في نفس الخطأ.

ج- عدم الإلمام بقواعد العربية.

د- أخطاء مطبعية لم يتمّ استدراكها من قبل المحققتين.

وهذه الأخطاء هي:

١- ص٣٥، س١٤: «وفي أيٍّ مكان يذهب ومادته إذ نقص». الصواب: تذهب زيادته.

٢- ص٣٨، س٥: «قال مقابل». الصواب: مقاتل.

٣- ص٣٨، س٦: «القاضي عَياض». الصواب: عِياض.

٤- ص٤٢، س٦: «حاجز قدَّره». الصواب: حاجز قُدْرةٍ.

٥- ص٤٤، س١١: «عن عقبة بن مسلم برفعه أنَّ الله». الصواب: يرفعه.

٦- ص٤٦، س١: «جبل القُمَر». الصواب: القَمَر.

٧- ص٤٨، س١(هامش): «بداية سقط صفحة كاملة من نسخة ز». الصواب: صفحتين كاملتين.

٨- ص٤٩، س١(هامش): «في نسختي المخطوطة». الصواب: في نسخة ح؛ فالورقة كاملةً ساقطة من نسخة ز.

٩- ص٥٨، س٧: «إلى بحرتين». الصواب: بحيرتين.

١٠- ص٦٠، س٥ (هامش): «بمقدار ورقتان». الصواب: ورقتين.

١١- ص٦١، س٦: «ويسائره من جوانبه، الغربي جبل أبيض». الصواب: ويسايره من جانبه الغربي.

١٢- ص٦٥، س٢: «إلى إلى بلاد النوبة». الصواب: إلى بلاد النوبة.

١٣- ص٦٨، س٦: «اثني عشر دراعًا». الصواب: ذراعًا.

١٤- ص٧١، س٣: «قال ابن الجني». الصواب: ابن جني.

١٥- ص٧١، س٣: « ﴿فأرسلنا الرياح لواقح﴾». الصواب: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾.

١٦- ص٧٧، س٧: «قال: أي والله». الصواب: إي والله. أي: نعم، والله.

١٧- ص٧٧، س١٢: «كم أنت لك؟». الصواب: كم أتت لك؟ أي: كم أتت لك من السنين.

١٨- ص٨١، س١٠: «فلا يكون ماؤه إلا ملحًا زجاجًا». الصواب: أجاجًا.

١٩- ص٨٤، س٧: «فإنّ فيه [خلاف](١) . الصواب: فإن فيه خلافًا.

٢٠- ص٨٦، س٢: «لا كراهة في استعمال شيء من الماء عند تنافي الطهارة وغيرها». الصواب: عندنا في الطهارة وغيرها. أي: عند الشافعية؛ فالمؤلِّف كان شافعي المذهب.

٢١- ص٨٦، س٥: «رابعها: ماء ديار ثمود لكثرة استعمالها، إلا بئر الناقة». الصواب: يُكره استعمالها.

٢٢- ص١٢٩، س٩: «دعا نوح عليه السلام لمصر بين بيصر بن حام». الصواب: بن.

١٦- قامت المحققتان بعمل كشافات تحليلية للرسالة، والتي من شأنها إتاحة العثور على أدق المعلومات الموجودة بالرسالة في سهولةٍ ويسرٍ، إلا أنّه قد اعتورها بعض القصور، وهو يتمثل في:

أ-جعلت المحققتان كشافي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في المرتبة الأخيرة، وكان الأَوْلى بالمحققتين أن تجعلاهما في البداية؛ لما لهما من تنزيه وقداسة وتوقير،

(١) قالت المحققتان في الهامش: «خلافًا» في نسخة ز، والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ح. فقد أثبتنا في المتن ما هو خطأ، ظنًا منهما أنه الصواب.

لا سيما وقد اعتمد المؤلِّف عليهما، واتخذهما مادته الأساسية في الفصل الأول من الرسالة.

ب- نسبت المحققتان في كشاف الكتب الواردة في المتن كتاب «الكفاية» للماوردي، اعتمادًا على ما فُهِم - خطأً - من قول ابن العماد، ص٨٧، س١٥: «فنقل في الكفاية عن الماوردي»، والحقيقة أن هذه العبارة لا تعني على الإطلاق أن كتاب «الكفاية» للماوردي؛ فالكتاب هو «كفاية النبيه في شرح التنبيه في الفروع، لأبي إسحاق الشيرازي»، لمؤلِّفه نجم الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن علي، المعروف بابن الرفعة الشافعي (ت٧١٠هـ)، وقد نقل كثيرًا في كتابه هذا عن أبي الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي (ت ٤٥٠هـ)، وكتابيه: «الحاوي الكبير في الفروع»، و«الإقناع في الفروع».

ج- أغفلت المحققتان آيتين كريمتين لم تذكرا في كشاف الآيات القرآنية، وهما:

الأولى: قوله تعالى، ص٣٧، س٤: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾[1].

الثانية: قوله تعالى، ص٨١، س١٢: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[2].

وأعتقد أن المحققتين لم تتنبها إلى وجود هذه الآية الكريمة في المتن، فلم تضعاها بين قوسين عزيزين، ولم تقوما بتخريجها كعادتهما في سائر الآيات القرآنية.

د- قامت المحققتان بتكشيف ما أُثِر عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - من دعاء نوح - عليه السلام - لمصر بن بيصر بن حام بن نوح - والوارد بالمتن ص ٤٩، س١٢-١٣ - في موضعين مختلفين بكشاف الأحاديث الشريفة، ص١٢٩. مرة بأوله: «دعا نوح عليه السلام لمصر...»، ومرة ثانية بأوّل الجملة الدعائية: «اللهم بارك فيه وفي ذريته»، وهذه مما لا شكَّ فيه تكرارٌ وتضليل للقارىء.

١٧- ذكرت المحققتان في نهاية التحقيق المصادر التي اعتمدتا عليها في التحقيق، وقد قُسِّمت إلى: مصادر مخطوطة، ومصادر عربية مطبوعة، ومراجع عربية.

أ- أما في المصادر المخطوطة فقد ذكرتا:

● كتاب «كوكب الروضة» للسيوطي، والكتاب مطبوع بدار الآفاق العربية بالقاهرة، سنة٢٠٠٢ م، بتحقيق محمد الششتاوي، وعنوانه كاملاً هو «كوكب الروضة في تاريخ

---

(١) سورة محمد، من الآية ١٥.

(٢) سورة الروم، من الآية ٤١.

النيل وجزيرة الروضة».

● رسالة «مبدأ النيل على التحرير» للمحلي، والرسالة مطبوعة قديمًا بالمطبعة الوهبية بالقاهرة، بعنوان «مقدمة النيل السعيد، وشرح أحواله وذكر عجائبه وغرائبه»، بتصحيح مصطفى وهبي.

● رسالة «الفيض المديد في أخبار النيل السعيد» للمنوفي، والرسالة مطبوعة بمعهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت، سنة ١٩٩٢م، بتحقيق Jean Joseph Léandre.

ب- وفي مصادر التحقيق المطبوعة يُلاحظ بوضوح قلة المصادر الحديثية المعتمد عليها في التحقيق؛ الأمر الذي ألجأ المحققتين في الوقوف على بعض الأحاديث الواردة بالرسالة دون تخريج لها من كتب الحديث أو الحكم عليها، مثال ذلك:

● السكوت على تخريج حديث «عليكم بالحيزوم، فإنه يرعى من حشيش الجنّة»، ص٣٩.

● السكوت على تخريج ما رواه عقبة بن مسلم «أنَّ الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة لساكني مصر: ألم أسكنكم مصر وكنتم تشبعون من مائها»، ص٤٤.

● السكوت على تخريج حديث «اللهم بارك في لبنها وفي عسلها»، ص٤٩.

ج- وفي المراجع العربية، أغفلت المحققتان «المعجم الوسيط» ضمن المراجع، على الرغم من استشهادهما به في موضعين من الرسالة، في ص٤٤، وص٥٨.

كما أغفلتا «أطلس تاريخ الإسلام»، و«أطلس الشيخ محمد فخر الدين» الذين نقلتا عنهما في ملحق الخرائط .

وختامًا فإن هذه القراءة النقدية لا تجحد الجهد الذي قام ببذله المحققتان في ظهور هذه الرسالة إلى الوجود، ولا تنكر نيتهما الصادقة في محاولة إخراجها في أقرب صورة أرادها المؤلف لها.

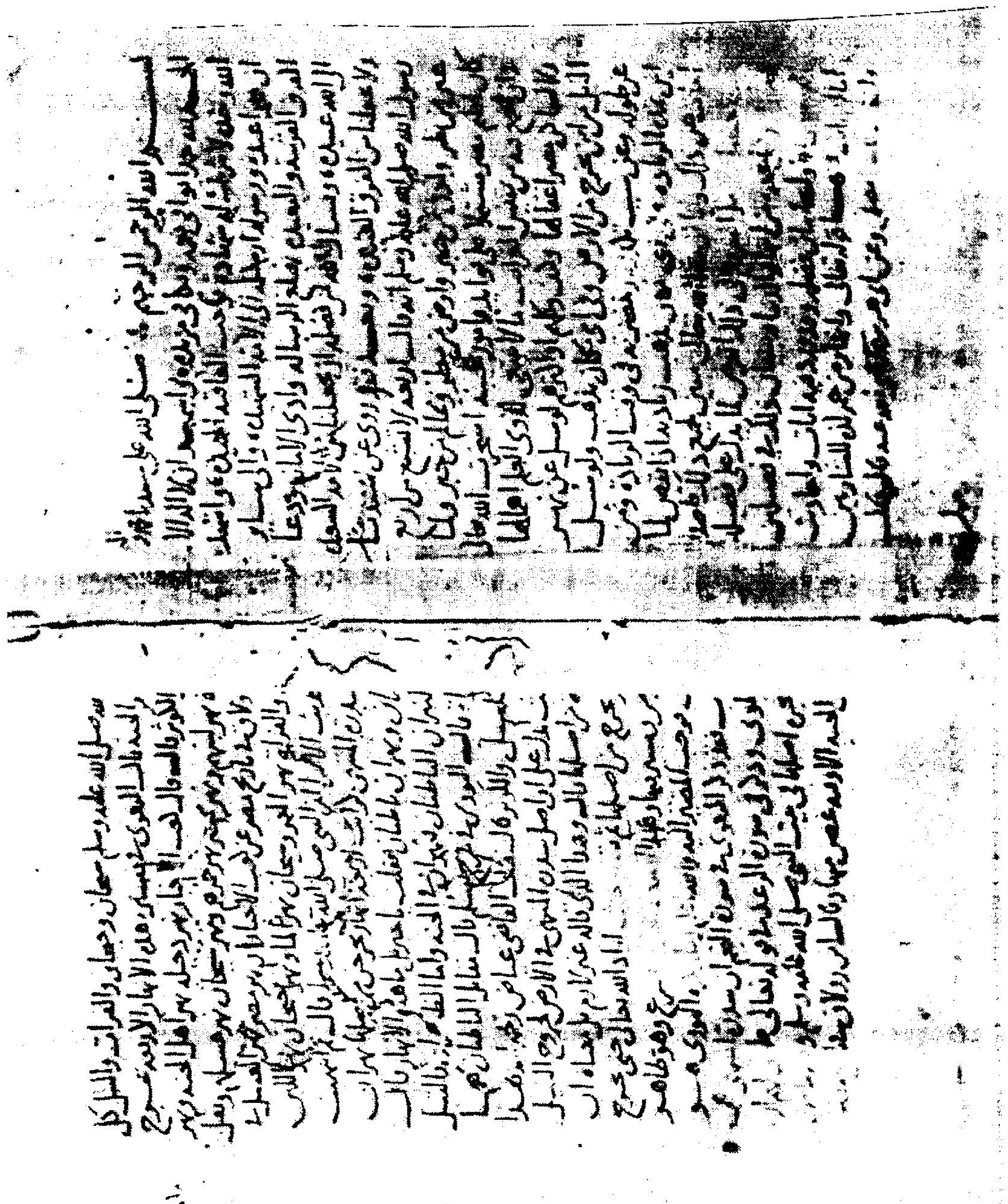

الورقة الأولى من النسخة رقم ١٦٥٧ب (مكتبة بلدية الإسكندرية)

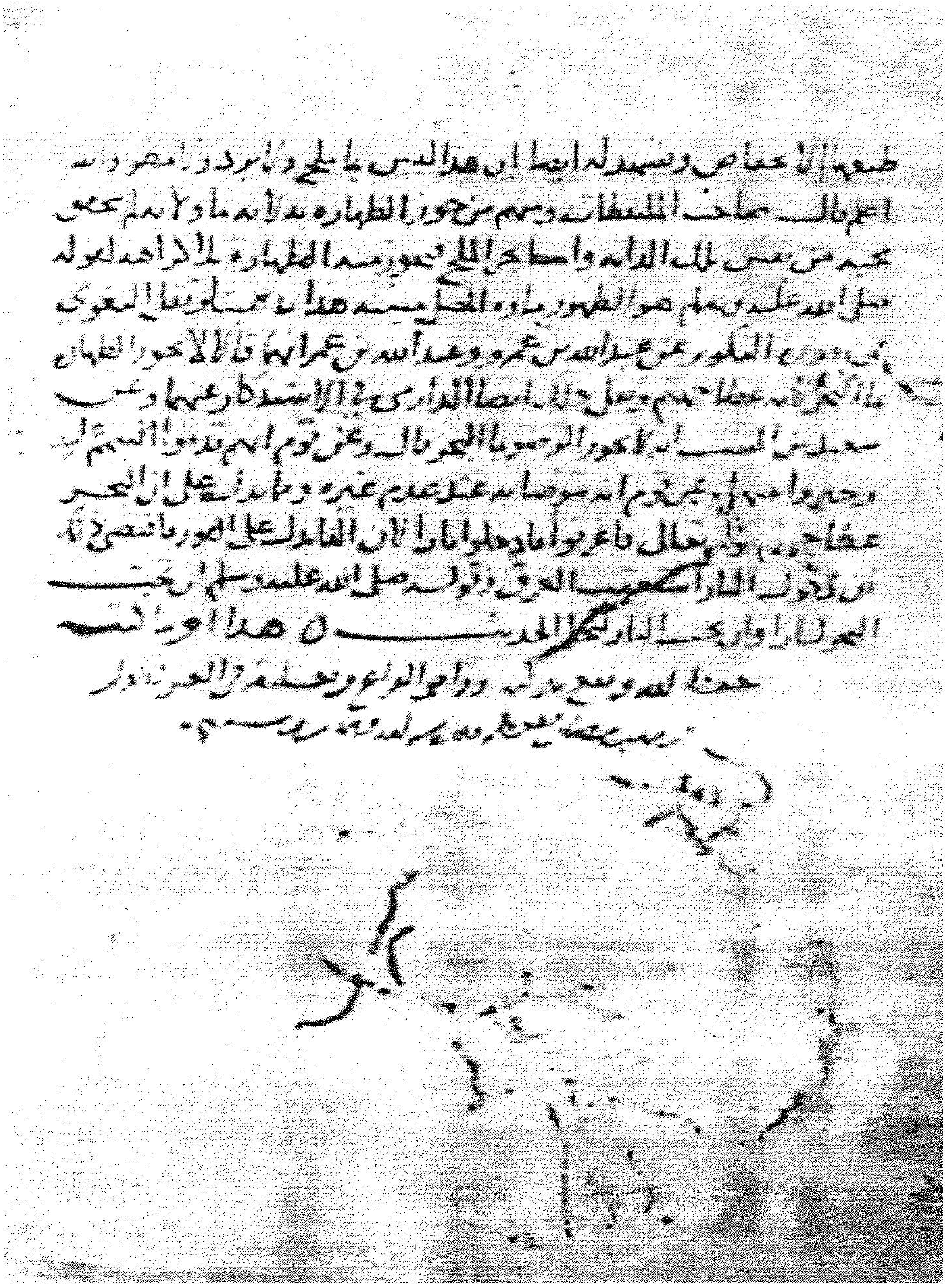

الصفحة الأخيرة من النسخة رقم ١٦٥٧ب (مكتبة بلدية الإسكندرية)

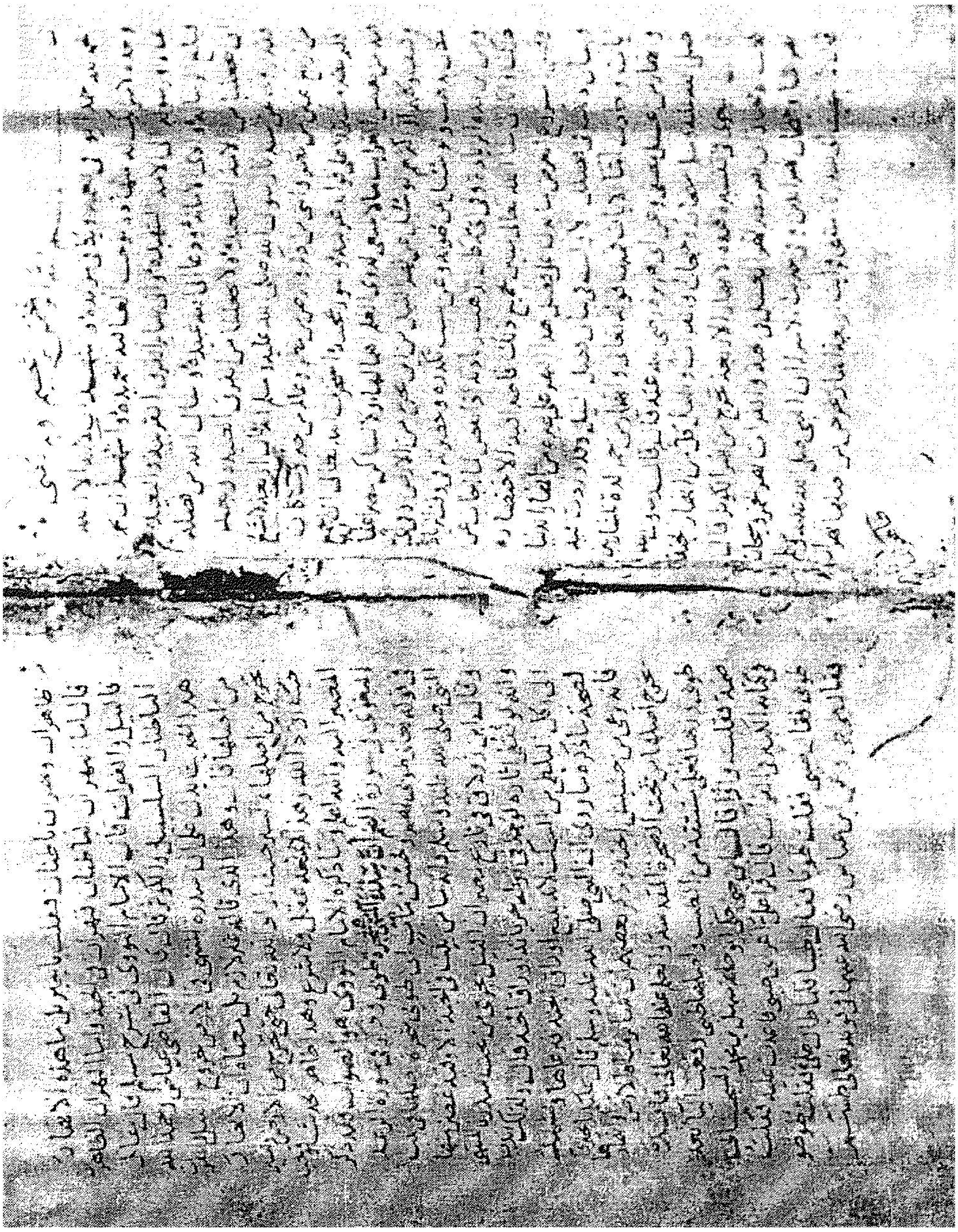

الورقة الأولى من النسخة رقم ٧٥٦د (مكتبة بلدية الإسكندرية)

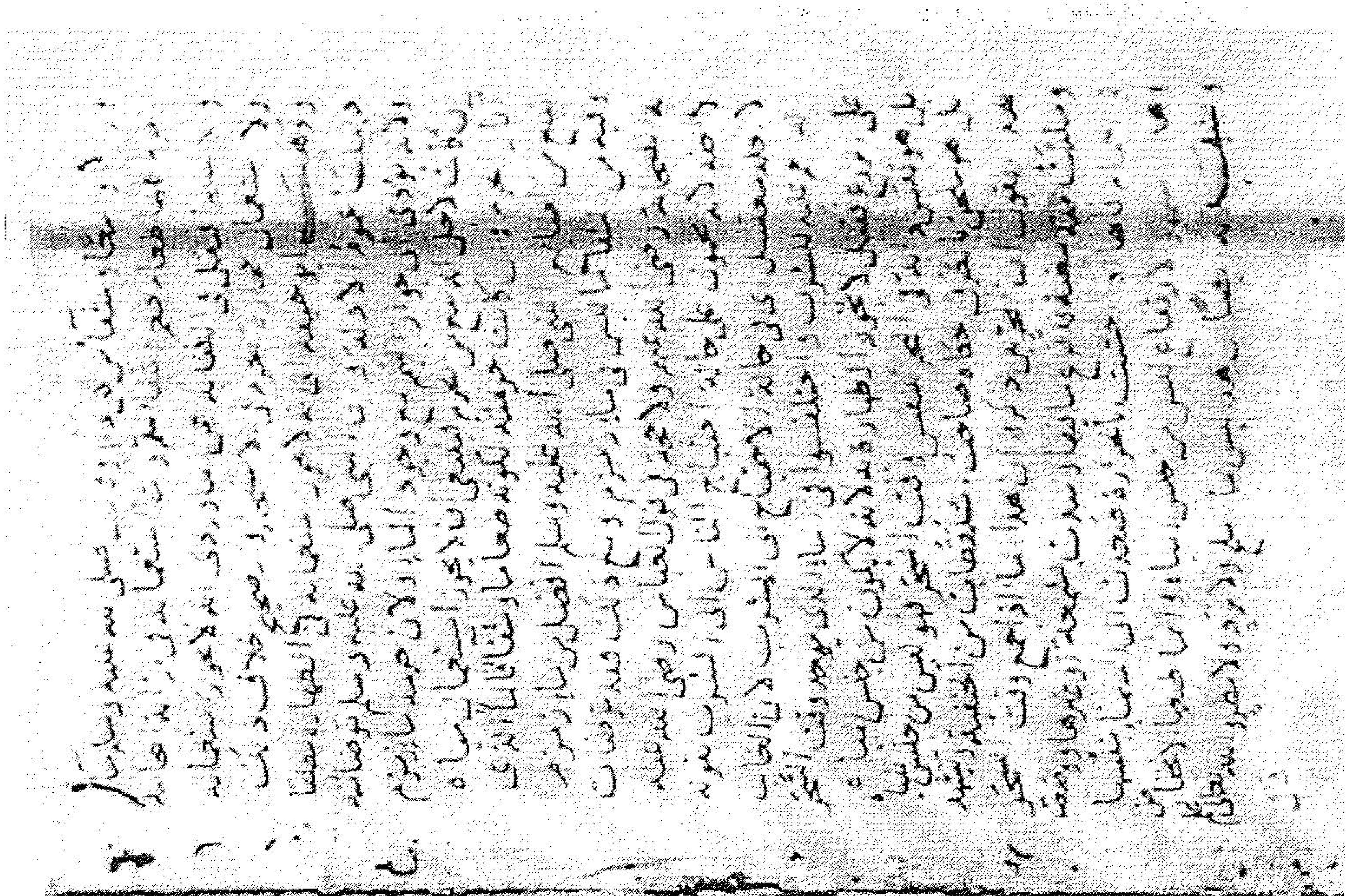

الورقة الأخيرة من النسخة رقم ٧٥٦د (مكتبة بلدية الإسكندرية)

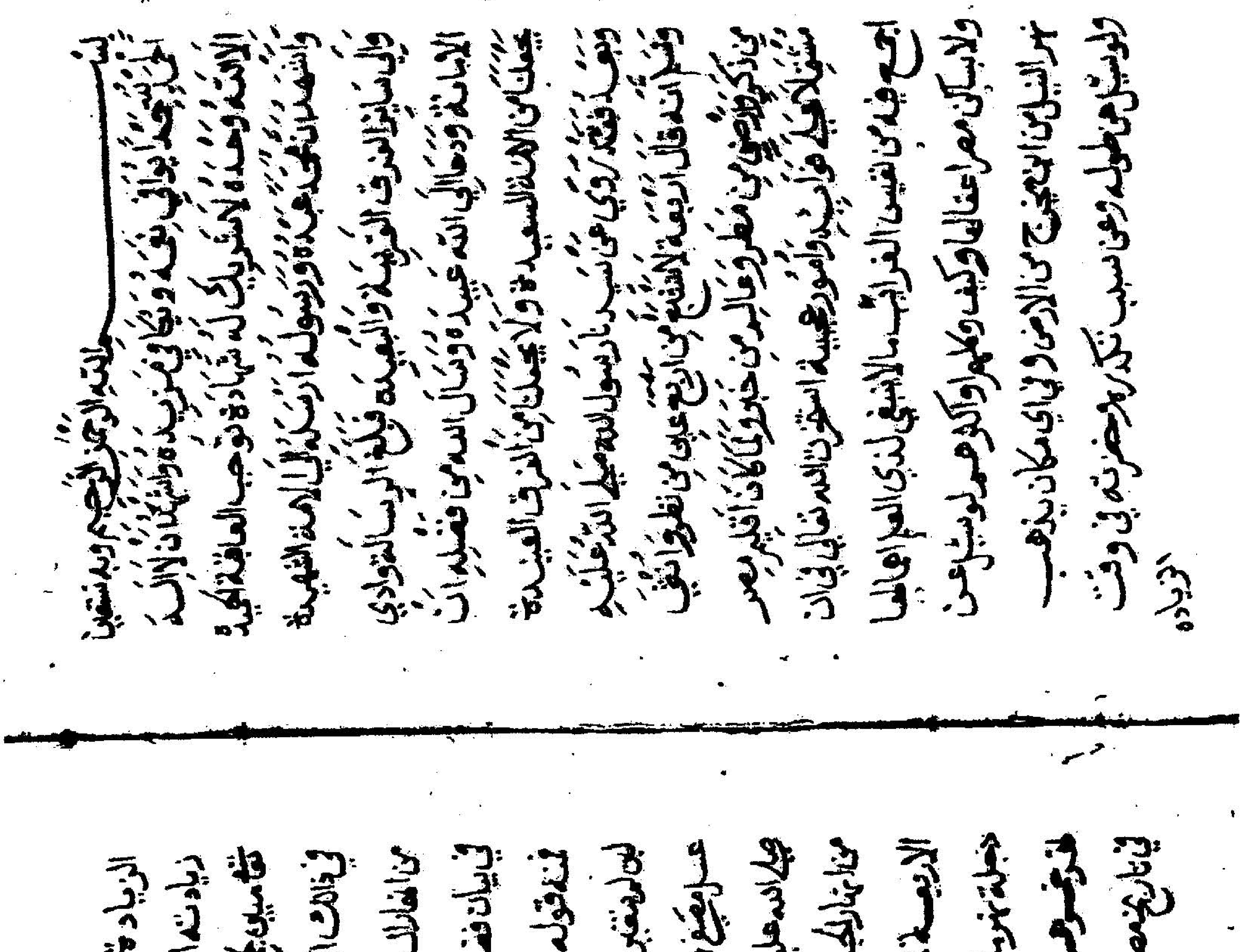

الورقة الأولى من النسخة رقم ٤٩٣٩د (مكتبة بلدية الإسكندرية)

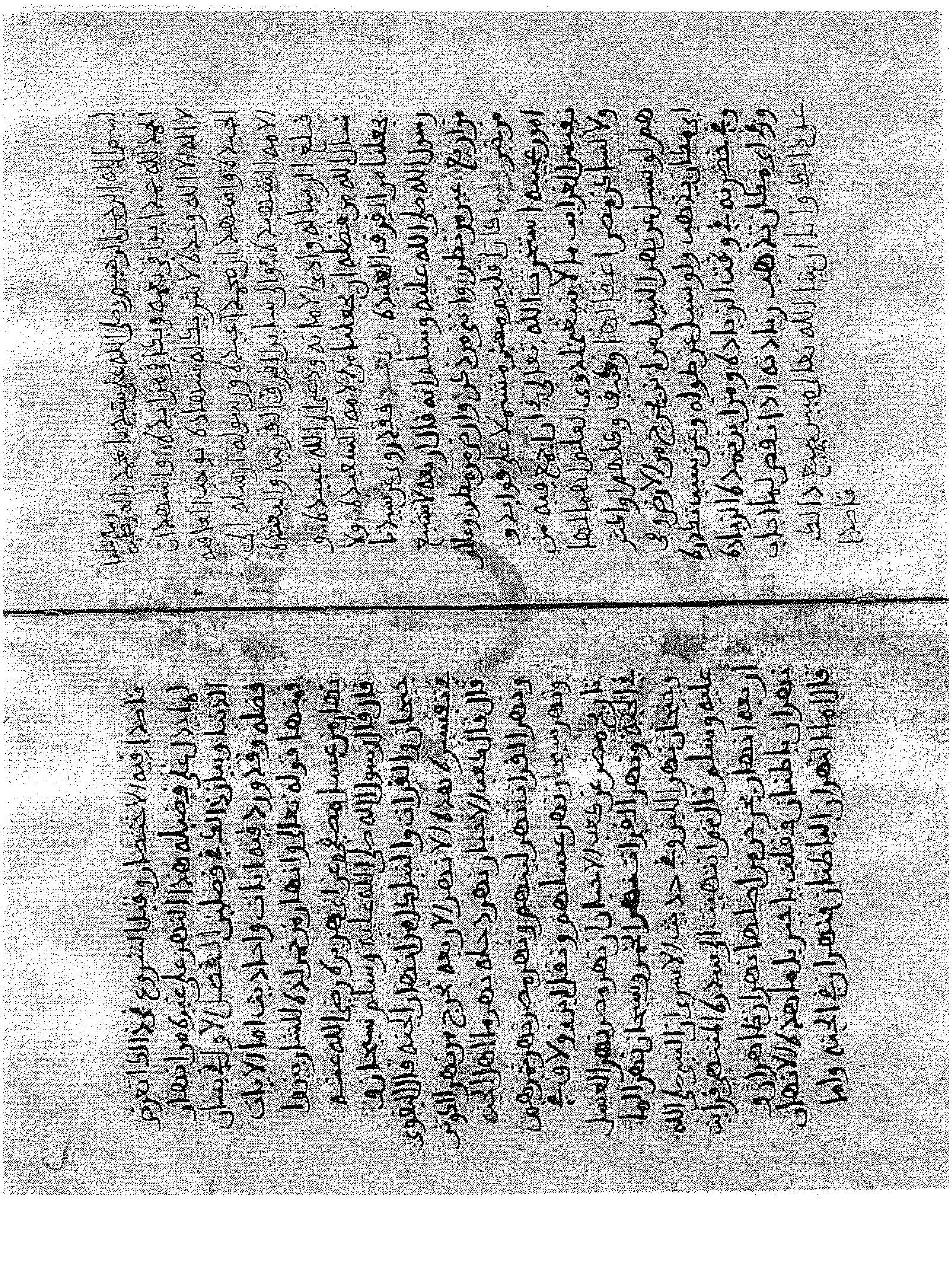

الورقة الأولى من النسخة رقم ٤٨٨١٥ جغرافيا (مكتبة الأزهر)

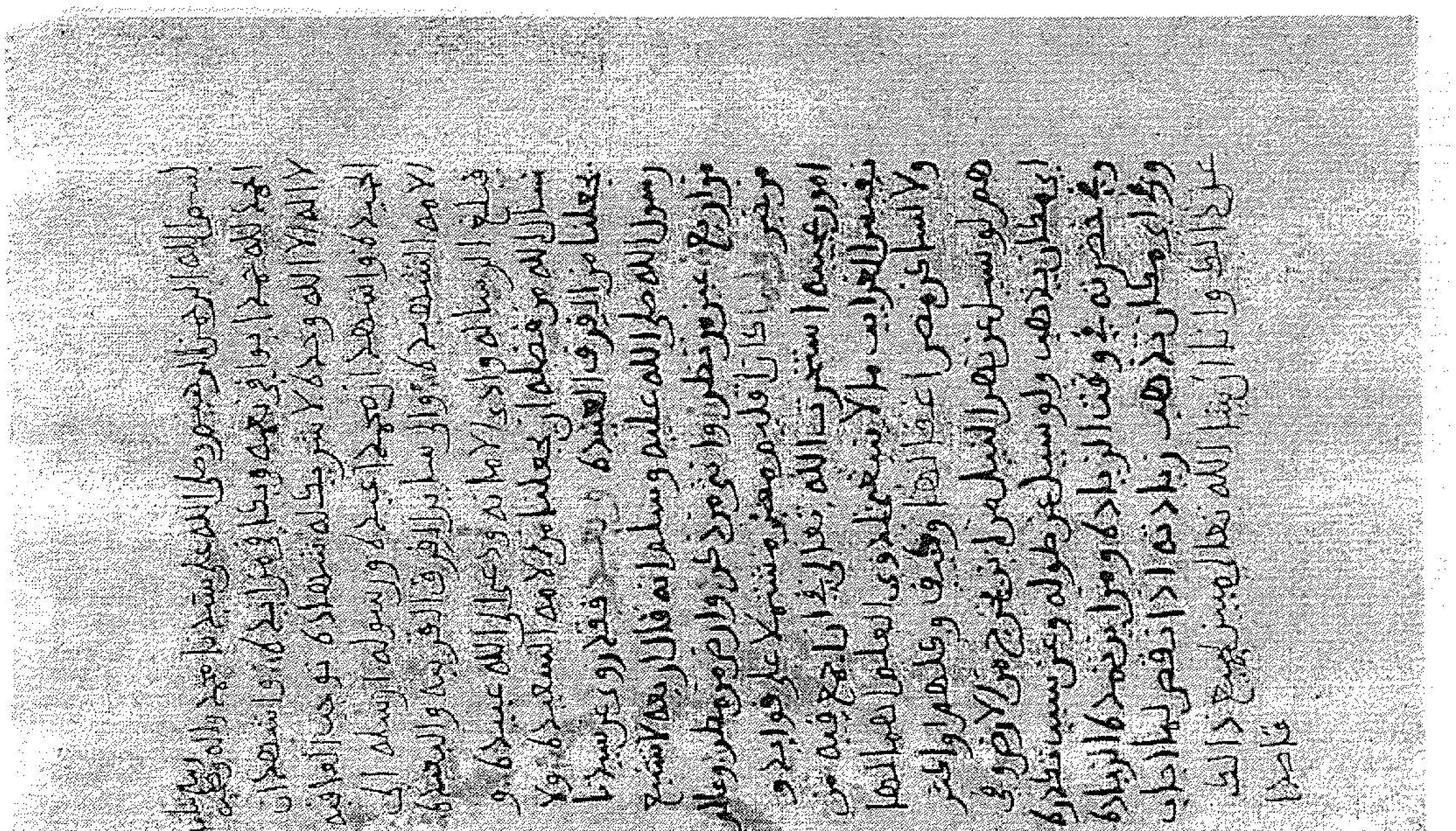

الورقة الأولى من النسخة رقم ٩٧٩٠٢ معارف عامة (مكتبة الأزهر)

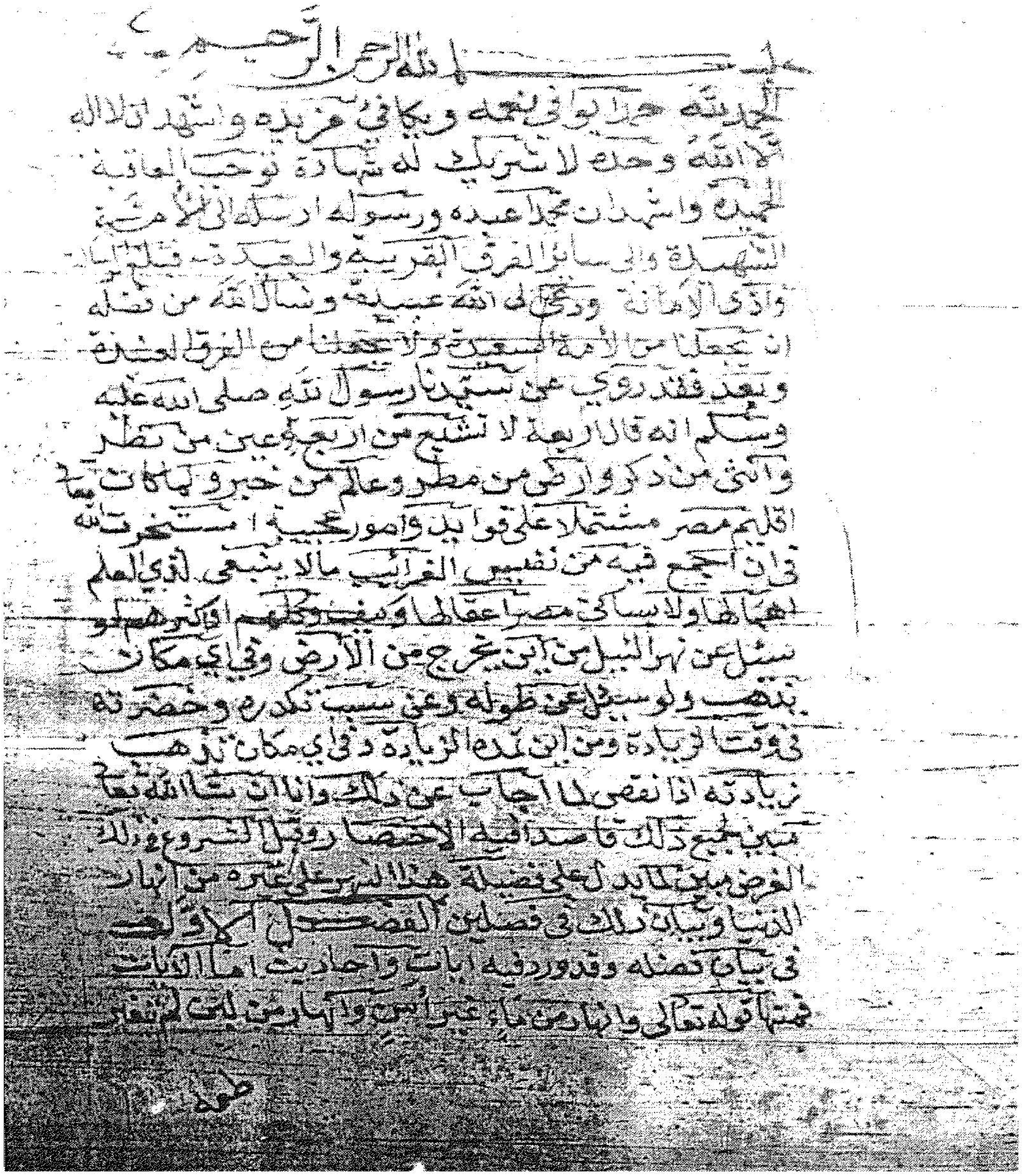

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده واشهد ان لا اله
الا الله وحده لا شريك له شهادة توجب العاقبة
الحميدة واشهد ان محمدا عبده ورسوله ارسله الى الامة
الشهيدة والى سائر الفرق القريبة والبعيدة فبلغ الرسالة
وادى الامانة ونحن ان شاء الله عبيده ونسال الله من فضله
ان يجعلنا من الامة السعيدة ولا يجعلنا من الفرق البعيدة
وبعد فقد روي عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم انه قال اربعة لا تشبع من اربعة عين من نظر
وانثى من ذكر وارض من مطر وعالم من خبر ولما كانت
اقليم مصر مشتملا على فوايد وامور عجيبة استخرت الله
في ان اجمع فيه من نفايس الغرايب ما لا ينبغي لذي العلم
اهمالها ولا سيما في مصر اعقالها وفيه وكثير منهم او اكثرهم لو
سئل عن نهر النيل من اين يخرج من الارض وفي اي مكان
يذهب ولو سئل عن طوله وعن سبب تكدره وخضرته
في وقت الزيادة ومن اين تمد الزيادة وفي اي مكان تذهب
زيادته اذا نقص لما اجاب عن ذلك وانا ان شاء الله تعالى
ابين جميع ذلك قاصدا فيه الاختصار وقبل الشروع في ذلك
الغرض ابين ما يدل على فضيلة هذا النهر على غيره من انهار
الدنيا وبيان ذلك في فصلين الفصل الاول
في بيان فضله وقد ورد فيه ايات واحاديث اما الايات
فمنها قوله تعالى وانهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير
طعمه

الصفحة الأولى من النسخة رقم ٥ جغرافيا حليم (دار الكتب المصرية)

تائية أبي الحسن الأنباري
(ت بعد ٣٨٠هـ/ ١٠٠٠م)
في رثاء الوزير محمد بن محمد بن بقية
تخريج وتعليق

أ. د. محمد يونس عبد العال(*)

هي مرثية يعرفها دارسو الأدب العربي، تناقلتها مصادر أدبية وتاريخية كثيرة، وتألفت من واحد وعشرين بيتًا، رثى بها ناظمها وزيرًا من وزراء بني بويه في القرن الرابع الهجرى عاقبه أحد حكامهم بأن سمل عينيه، ثم قضى عليه آخر بالموت تحت أرجل الفيلة، ثم مثّل به فصلبه، وقيل إنه ظل مصلوبًا إلى أن توفي ذلك الحاكم.

لذا يتجه الحديث عن هذه القصيدة إلى النقاط التالية:

١- الشاعر الراثي.

٢- الوزير المرثي.

٣- مصادر روت القصيدة أو أبياتًا منها.

٤- القصيدة وتخريجها.

٥- تعليق.

* * *

١- الشاعر الراثي:

أبو الحسن محمد بن عمر بن يعقوب الأنبارى، شاعر مقلّ[1]، وصوفي واعظ، وأحد العدول ببغداد[2].

وأورد الزركلي - نقلا عن بعض مؤلفات ابن قاضي شهبة المخطوطة - أنه توفي سنة نيف وثلاثمائة وتسعين[3].

شهرته قصيدته التائية فى رثاء ابن بقية، وله أشعار أخرى قليلة، منها قوله فى وصف الشموع[4]:

(*) أستاذ بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

(١) ترجمته فى: «تاريخ بغداد» ٣/ ٣٥، «وخلاصة الذهب المسبوك» ص١٥١.

(٢) «خلاصة الذهب» ص١٥١، وانظر: «وفيات الأعيان» ٥/ ١١٨، و«الوافى بالوفيات» ١/ ١٠١، و«نكت الهميان» ص٢٧٢ و«النجوم الزاهرة» ٤/ ١٣٠.

(٣) «الأعلام»، حاشية ٦/ ٣١٢ وفى «خلاصة الذهب» أنه توفى سنة ٣٨٠هـ.

(٤) أنشدهما لعضد الدولة، وكان عنده شموع تزهر، فقال له: هل يحضرك شيء فى الشموع؟ - وفيات ٥/ ١٢٢، و«الوافى» ١/ ١٠٢، و«نكت الهميان» ص ٢٧٣ و«شذرات الذهب» ٣/ ٦٤.

كــأن الشــمــوع وقــد أظهــرت   مــن النــار فــى كـل رأس سـنــانــا
أصــابع أعــدائك الـخــائفــين   تـضــــرّع تطلب منك الأمـــانـا

وقوله فى وصف الباقِلاء الأخضر(١):

فــصــوص زمــرّد فى غلف درّ   بـأقــمـــاع حكت تقليم ظفـــر
وقــد خلع الـربيع لهـــا ثيــابًا   لهـــا لونان من بيض وخـضـــر

* * *

٢- الوزير المرثي:

محمد بن محمد بن بقية بن على، وكنيته أبو الطاهر(٢)، كان أحد أربعة إخوة من أهل أوانا(٣)، كلهم يسمى محمدًا، وأبوهم أحد المزارعين.

تولى أمر المطبخ لمعز الدولة أحمد بن بُوَيْه، وكان فى ابن بقية توصّل وسعة صدر فتنقل إلى أعمال مختلفة، ولما توفي معز الدولة سنة ٣٥٦هـ وأفضى الأمر إلى ابنه عز الدولة بختيار حسنت حاله عنده ورعى خدمته لأبيه، إلى أن استوزره فى ذى الحجة سنة ٣٦٢هـ(٤) بعد أبى الفضل الشيرازي، وكناه الخليفةُ المطيع ولقبه بـ «الناصح» وخلع عليه، ثم لقبه الخليفة الطائع بـ «نصير الدولة» سنة ٣٦٤هـ مضافًا إلى لقبه الأول، فكان أول وزير لقّب بلقبين.

---

(١) رواه الخطيب البغدادى، وسنده: «أنشدنا القاضى أبو القاسم التوخى، قال: أنشدنا أبو الحسن محمد بن عمر الأنبارى لنفسه...» البيتين - «تاريخ بغداد» ٣/ ٣٥ وانظر: «وفيات» ٥/ ١٢٤

والزمرد، وبالذال المعجمة أيضا: حجر كريم شفاف أخضر اللون شديد الخضرة - «لسان العرب» (زمرد) ٤/ ١٧٧ و(زمرد) ٥/ ٢٧.

(٢) ترجمته فى: وفيات ٥/ ١١٨-١٢٤، و«سير أعلام النبلاء» ١٦/ ٢٢٠-٢٢١، والوافى ١/ ١٠٠-١٠٤، و«نكت الهميان» ص٢٧١-٢٧٣.

وأخباره بدءا من ٣٦٠هـ إلى ٣٦٧هـ فى «تجارب الأمم» لمسكويه (نشر: هـ. ف. آمدروز، ط التمدن الصناعية، ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م) ٢/ ٢٨٤-٢٨٦، ٣١٠، ٢٤٤-٢٤٧، ٢٥٤-٢٥٩، ٢٧٣-٢٧٥، ٢٧٧.

وانظر أخبار ٣٦٧هـ فى المصادر التاريخية، مثل: «الكامل فى التاريخ»، و«المختصر فى أخبار البشر»، و«تاريخ ابن الوردى»، و«مرآة الجنان»، و«البداية والنهاية»، و«النجوم الزاهرة»، و«شذرات الذهب»...

ولأبى إسحاق الصابى رسائل ديوانية كتبها عنه، وأخرى ديوانية عن نفسه إليه فى التهاني والتعازي والاستعطاف والشكوى... - انظر مصادر هذه الرسائل فى: «المختار من رسائل أبى إسحاق الصابى، تحقيق ودراسة»، وهى رسالة دكتوراه مخطوطة، أعدها: محمد يونس عبد العال، ونوقشت فى كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٨م، ص ٢٠٩، ٢٣٦، ٢٢٨، ٢٥٦، ٢٦٦.

(٣) أوانا: بليدة نزهة كثيرة البساتين والشجر، من نواحى دجيل بغداد - «معجم البلدان»: لياقوت الحموى.

(٤) ومن الطرائف التى رواها ابن خلكان (نقلا من كتاب «عيون السير»: لابن الهمداني) أنه لما استوزر عز الدولة ابن بقية بعد أن كان يتولى أمر المطبخ، قال الناس: «من الغضارة إلى الوزارة» - وفيات ٥/ ١١٩، والوافى ١/ ١٠٠.

والغضارة: الصحفة المتخذة من الغضارة، وهو الطين - «لسان العرب» (غضر) ٦/ ٣٢٧.

وكان عضد الدولة أبو شجاع فناخسره بن ركن الدولة (وهو أقوى البويهيين بأسًا وجسارة وطمعًا فى الملك) يناوئ ابن عمه عز الدولة، ويتوق إلى حكم بغداد، فدخلها فى جمادى الأولى سنة ٣٦٤هـ وقلّد ابن بقية أعمال واسط وتكريت وعكبرا وأوانا تقديرًا لما أظهره من مساعدة وخدمة، فذهب إلى واسط، على دَخل وغلّ قد أضمرهما، وسرعان ما خلع الطاعة، وجاهر بالخلاف، وأظهر أنه امتعض لأميره عز الدولة، ثم جرت الأحداث على غير ما يشتهي عضد الدولة، فانصرف عن العراق، وعاد ابن بقية من واسط إلى خدمة عز الدولة، وجعل همّه أن يتقرب إليه وأن يمكن الوحشة ويؤكد العداوة بينه وبين عضد الدولة.

ويروى أنه: «كان فى مدة وزارته يبلغ عضد الدولة ابن بويه عنه أمور يسوءه سماعها، منه أنه كان يسميه أبا بكر الغددي تشبيهًا له برجل أشقر أزرق أنمش يسمى أبا بكر، كان يبيع الغدد للسنانير ببغداد، وكان عضد الدولة بهذه الحلية»(١).

وانهزم عز الدولة فَقَبَض على ابن بقية وسمل - أى: فقأ - عينيه بواسط سنة ٣٦٦هـ لأسباب يطول شرحها، حاصلها - كما يقول ابن خلكان - أنه نسب هزيمته إلى رأيه ومشورته.

ولما ملك عضد الدولة بغداد وقتل عز الدولة أمر بإلقاء ابن بقية تحت أرجل الفيلة، وصلبه عند باب داره بباب الطاق فى شوال سنة ٣٦٧هـ، وعمره نيف وخمسون سنة(٢).

وكان أبو الحسن محمد بن عمر الأنباري صديقه(٣)، فرثاه بالقصيدة التائية، ومما رواه ابن عساكر أنه «كتبها ورمى بها فى شوارع بغداد، فتداولها الأدباء، إلى أن اتصل الخبر بعضد الدولة، فلما أُنشدت بين يديه تمنى أن يكون هو المصلوب دونه، وقال: عليّ بهذا الرجل. فطُلب سنة كاملة، واتصل الخبر بالصاحب إسماعيل بن عباد بالريّ، فكتب له بالأمان، فلما سمع بذكر الأمان قصد حضرته، فقال له: أنت القائل هذه الأبيات؟ قال: نعم. قال: أنشدنيها: فلما أنشده:

ولم أر قبل جذعك قطّ جذعا ... تمكن من عناق المكرمات

---

(١) «وفيات» ٥/ ١١٩، وانظر: «الوافى» ١/ ١٠٠ و«نكت الهميان» ص٢٧٢.

(٢) «وفيات» ٥/ ١١٩-١٢٠ وانظر: «نهاية الأرب» ٢٦/ ٢١٦، وشذرات ٣/ ٦٤.

باب الطاق: محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقى، يعرف بطاق أسماء بين الرصافة ونهر المعلّى، وكان طاقا عظيما، وعنده كان مجلس الشعراء فى أيام هارون الرشيد - «معجم البلدان» لياقوت الحموى (ط صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ١/ ٣٠٨، وأيضًا ٤/ ٥.

(٣) «تاريخ مدينة دمشق» ٧٢/ ١٧٣، والنجوم ٤/ ١٣٠.

قام الصاحب فعانقه وقبّل فاه، وأنفذه إلى حضرة عضد الدولة. فلما مثل بين يديه قال له: ما الذى حملك على مرثيّة عدوّى؟ فقال: «حقوق سلفت وأيادٍ مضت، فجاش الحزن فى قلبى فرثيت»(١).

وقيل إن ابن بقية ظل مصلوبًا إلى أن توفي عضد الدولة(٢)، فأنزل ودفن فى موضعه. فقال فيه أبو الحسن الأنباري أيضًا(٣):

لم يلحقوا بك عارًا إذ صُلبت بلى ... باءوا بإثمك ثم استرجعوا ندما
وأيقنوا أنهم في فعلهم غلطوا ... وأنهم نصبوا من سؤدد علما
فاسترجعوك وواروا منك طود علا ... بدفنه دفنوا الإفضال والكرما
لئن بليتَ فما يبلى نداك ولا ... يُنسى، وكم هالك ينسى إذا عُدما
تقاسم الناس حسن الذكر فيك كما ... ما زال مالُكَ بين الناس منقسما

وعلى الرغم من هذه الصورة الباهتة التى أظهرتها الأخبار المتناثرة عن شخصيته فى المصادر التاريخية والأدبية، فقد وصفه بعض من تحدثوا عنه بأنه «من جلة الرؤساء، وأكابر الوزراء، وأعيان الكرماء»(٤)، وبأنه «الوزير الكبير... له أخبار فى الإفضال والتنعّم»(٥)، ويبدو أن خصومه هم الذين شوّهوا صورته وحاكوا حوله الدسائس، وأوقعوا به ما يؤذيه. قال الصفدي: «والظاهر أن أعداءه كانوا يفعلون ذلك به ويفتعلونه»(٦). ورأى آخرون أن كرمه ستر عيوبه. قال أبو إسحاق الصابي: «رأيته وهو يشرب فى بعض الليالي، وكلما لبس خلعة خلعها على أحد الحاضرين، فزادت على مائتى خلعة»(٧). وثمة إشارات إلى ثرائه الفاحش، منها ما روى من أن راتبه فى الشمع

---

(١) «تاريخ مدينة دمشق» ٧٢/ ١٧٣-١٧٤، ومنه نقل ابن خلكان فى «وفيات الأعيان» ٥/ ١٢١-١٢٢ وانظر «نكت الهميان»، ص٢٧٣، ونقله الزركلى من رحلة خالد بن عيسى البلوي (ت بعد ٧٦٧هـ) فى كتابه «تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق» - الأعلام، هامش ٦/ ٣١٢.

(٢) كانت وفاته سنة ٣٧٢هـ، ومن طرائف ما رواه أبو حيان التوحيدى عظةً واعتبارًا أن بعضهم رأى الجذع عليه ابن بقية، فقال: «لا إله إلا الله! ما أعجب أمور الدنيا! وما أقلّ المفكر فى عِبَرها وغِيَرها! عضد الدولة تحت الأرض وعدوه فوقها!» - «الإمتاع والمؤانسة» (تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٣م) ١/ ٤١، ٤٢.

(٣) «وفيات» ٥/ ١٢١، الوافى ١/ ١٠٣، «مرآة الجنان» (أخبار ٣٦٧هـ) ص٢٧٢.

(٤) «وفيات» ٥/ ١١٨، الوافى ١/ ١٠٠، و«نكت الهميان» ص٢٧١، و«مرآة الجنان» (أخبار ٣٦٧هـ) ص٢٧٢.

(٥) «سير أعلام» ١٦/ ٢٢٠.

(٦) «نكت الهميان» ص٢٧٢.

(٧) وتتمة الخبر: «فقالت له مغنيته: يا سيدى الوزير، فى هذه الثياب زنابير، ما تدعها تثبت على جسمك. فضحك، وأمر لها بحقّة حليّ» - «وفيات» ٥/ ١١٩، «والوافى» ١/ ١٠١، و«نكت الهميان» ص٢٧١، وانظر: «سير أعلام» ١٦/ ٢٢٠.

كان ألف مَنّ[١] فى كل شهر، وعلق بعضهم على هذا بقوله: «وإذا كان هذا راتب الشمع، خاصة مع قلة الحاجة إليه فكم يكون غيره مما تشتد الحاجة إليه؟!»[٢].

* * *

٣- مصادر روت القصيدة أو أبياتاً منها:

- رواها الثعالبى فى الباب السادس من اليتيمة (وعنوانه: فى نفر من شعراء العراق سوى بغداد) من القسم الثانى (وعنوانه: فى ملوك آل بويه وشعرائهم) وقال: «وقد أثبتُّها كما هي».

ولكنها منسوبة خطأ إلى «أبى بكر محمد بن أبى محمد القاسم المعروف بالأنباري»[٣] - يتيمة الدهر ٢/ ٢٧٣-٢٧٥.

والصواب - كما فى المصادر الأخرى جميعها - أنه: «أبو الحسن محمد بن عمر ابن يعقوب الأنباري».

- ورويت القصيدة فى «وفيات الأعيان» ٥/ ١٢٠-١٢١ و«حياة الحيوان الكبرى» ١/ ٨١-٨٢ بالترتيب نفسه الذى وردت به فى «يتيمة الدهر».
- الأبيات ١-١٠، ١٢، ١٣، ١٧-٢١ فى أحسن ما سمعت، ص١٥٣-١٥٤.
- ١-٦، ١١ فى «ديوان المعانى» ٢/ ١٧٩-١٨٠.
- ١-٣ فى «حماسة الظرفاء» ١/ ١١٤.
- الأول رواه الخطيب البغدادى بعد إشارته إلى أن أبا الحسن الأنباري له قصيدة فى رثاء ابن بقية، ثم ذكر سندها، قال: «أنشدناها القاضي أبو عبد الله الحسين ابن على الصميري، وأبو الحسن أحمد بن عمر بن على القاضى بأذربيجان عن أبى الحسن الأنباري، وقال لى الصميري: أنشدناها بمحضر من أبى القاسم الطبري» - «تاريخ بغداد» ٢/ ٣٥.

---

(١) المن والمنا: الذى يوزن به، وهو رطلان - لسان العرب (منّ) ١٧/ ٣٠٦، و (منا) ٢٠/ ١٦٧.

(٢) وفيات ٥/ ١١٨، الوافى ١/ ١٠٠، نكت الهميان ص٢٧١.

(٣) هو نحوى كوفى، توفى سنة ٣٢٨هـ قبل وفاة الوزير ابن بقية، من مصنفاته: «الأضداد»، و «الزاهر»، و«شرح المفضليات»، و«شرح المعلقات» - انظر ترجمته في: «تاريخ العلماء النحويين» للمفضل محمد بن مسعر، (تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو، ط٢، هجر، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) ص١٧٨، ١٧٩ - «تاريخ الأدب العربى» لكارل بروكلمان (أشرف على ترجمته: د. محمود فهمى حجازى، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م) القسم الأول، ص٥٤٢-٥٤٤.

- وورد الأول أيضًا فى «نهاية الأرب» ٢٦/ ٢١٦ وبدون نسبة فى «سير أعلام النبلاء» ١٦/ ٢٢١.
- ١-١٠، ١٢، ١٧-٢١ فى «أسرار البلاغة»، ص٣١٥-٣١٦.
- ١-٧ فى «محاضرات الأدباء»، ٢/ ٢٣٨.
- ١-٨، ١١-١٤، ٩، ١٠، ١٥-٢١ فى «تاريخ مدينة دمشق» (ترجمة: «جعفر بن ميسر بن يغنم، أبو محمد»، أنشدها بصيدا) ٧٢/ ١٧٢-١٧٣.
- ١، ٢، ٥، ٦، فى «المرقصات والمطربات» ص١٦٠.
- ١-٨، ١٢، ١٣، ١١، ١٥، ١٧-٢١ فى «الدر الفريد» ٤/ ٨٦.
- ١، ٢، ٤، ٨، ٧، ٥، ٦، ١١، ١٢، ١٧-١٩، ٢١ فى «خلاصة الذهب المسبوك»، ص١٥١.
- ١، ٢، ٤-٨ فى «المختصر فى أخبار البشر» ٢/ ١١٩، وفى «تاريخ ابن الوردي» ١/ ٢٩٢.
- ١-٨، ١١، ٩ فى «الكامل لابن الأثير» ٧/ ٢٧٧-٢٧٨، وفى «نهاية الأرب» ٥/ ٢٢١.
- ١-٣، ٥، ٦ بدون نسبة فى «جوهر الكنز»، ص٥٥٥.
- ١-٩، ١١-١٨، ٢٠-٢١ فى «الوافى بالوفيات» ١/ ١٠١، و«نكت الهميان فى نكت العميان»، ص٢٧٢-٢٧٣.
- ١-٤، ٨ فى «الغيث المسجم فى شرح لامية العجم» ٢/ ١٨١.
- ١-٤ فى «البداية والنهاية» ٦/ ٣٧١.
- ١-٤، ٨، ٩، ١١، ١٠، ١٢-٢٠، ٥، ٦، ٢١ فى «النجوم الزاهرة» ٤/ ١٣٠-١٣١.
- ٢، ٣ فى «معاهد التنصيص» ١/ ١٥٠.
- ١-١٢ فى «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» ٣/ ٦٣.

* * *

٤- القصيدة وتخريجها:

١- عُلُوٌّ في الحياةِ وفي المماتِ لَحَقٌّ أنتَ إحدى المعجزاتِ(١)

٢- كأنَّ الناسَ حولَك حين قاموا وُفُودُ نَداك أيام الصِّلاتِ(٢)

٣- كأنك قائمٌ فيهمْ خطيبًا وكلُّهمُ قيامٌ للصَّلاةِ(٣)

٤- مَدَدْتَ يديْك نحْوهمُ احتفاءً كمَدِّهما إليهمْ بالهبَاتِ(٤)

٥- ولمَّا ضاقَ بطنُ الأرض عن أنْ يَضُمَّ عُلاك منْ بعدِ المَماتِ(٥)

٦- أصَاروا الجوَّ قَبْرَك واستنابُوا عن الأكفان ثوبَ السافياتِ(٦)

٧- لعُظْمِكَ في النفوس تَبيتُ تُرْعَى بحُرَّاسٍ وحُفَّاظٍ ثقَاتِ(٧)

٨- وتُشْعَلُ عندك النيرانُ ليلاً كذلك كنتَ أيامَ الحياةِ(٨)

---

(١) «الدر الفريد»: علوا ... - «حماسة الظرفاء»: لعمرى أنت ... - «ديوان المعانى»، «أسرار البلاغة»، و«تاريخ دمشق»، و«الدر الفريد»، «خلاصة الذهب المسبوك»، و«تاريخ ابن الوردى»، و«الوافى بالوفيات»، و«نكت الهميان»، و«البداية والنهاية»: بحق... - محاضرات الأدباء: فحق... - «المرقصات والمطربات»: لحقا ... - «تاريخ بغداد»: لحق تلك....

(٢) «حماسة الظرفاء»: كأن القوم حولك حين جاءوا ... - «ديوان المعانى»: الناس بعدك... - «حياة الحيوان»: حولك إذ أقاموا ... - «المرقصات والمطربات»، و«معاهد التنصيص»: وفود يديك... - «المرقصات والمطربات»: أمام الصلاة - جوهر الكنز: أيم للصلات.

وفى «يتيمة الدهر»، و«ديوان المعانى»، و«معاهد التنصيص» أن هذا البيت مأخوذ من قول عبد الله بن المعتز فى عبد الله بن سليمان حين توفي:

وصلوا عليه خاشعين كأنهم وفود وقوف للسلام عليه

والبيت فى ديوان ابن المعتز (تحقيق: محمد بديع شريف، ط دار المعارف بمصر، د.ت) ٢/ ٣٧٥.

(٣) «حماسة الظرفاء»: كأنك قائمًا فيهم خطيب وقد حضروا جميعا للصلاة - «البداية»: كأنك واقف... وكلهم وقوف... - «ديوان المعانى»، و«الدر الفريد»: للصلات.

(٤) «يتيمة الدهر»، و«وفيات الأعيان»، و«نكت الهميان»، و«الغيث المسجم»: نحوهم احتفالا ... - «ديوان المعانى»، و«نهاية الأرب»: نحوهم جميعا ... - «محاضرات الأدباء»: نحوهم اتقاء ... - «تاريخ دمشق»، و«الكامل»، و«الدر الفريد»، و«المختصر فى أخبار البشر»، و«تاريخ ابن الوردى»: نحوهم اقتفاء ... - «ديوان المعانى»، و«محاضرات الأدباء»، و«خلاصة الذهب»، و«نهاية الأرب»، و«الوافى»، و«نكت الهميان»، و«شذرات الذهب»: كمدكها ... - «تاريخ ابن الوردى»: لمدهما ... وفيه وفى «الكامل» و«المختصر فى أخبار البشر»: فى الهبات.

(٥) «شذرات الذهب»: فلما ... - «جوهر الكنز»: ظهر الأرض... علاك أيام الممات.

(٦) «أحسن ما سمعت»: وصاروا ... - «خلاصة الذهب»، و«حياة الحيوان»: واستعاضوا ... - «محاضرات الأدباء»، و«الدر الفريد»: واستعاضوا من...

السافيات: الريح التى تحمل التراب..

(٧) «نهاية الأرب»: بقيت ترعى... - «تاريخ دمشق»، و«وفيات»، و«الدر الفريد»، و«خلاصة الذهب»، و«الوافى»، و«شذرات»: بحفاظ وحراس... - «نكت الهميان»: بحفاظ وحراث... .

(٨) «أحسن ما سمعت»: أتشعل... - «حياة الحيوان»: وتوقد حولك... - «تاريخ دمشق»، و«خلاصة الذهب»، و«الغيث المسجم»: وتشعل حولك... - «حياة الحيوان»: النيران قدما...

والمراد بالنيران نيران الضيافة التي كان الكرماء يوقدونها ليلا ليهتدي بها الضيفان.

٩- رَكِبْتَ مطيَّـةً من قَبْلُ زَيْدٌ — عَلاهَا في السنين الماضياتِ[١]
١٠- وتلك قضيـةٌ فيـهـا تَأَسٍّ — تُبـاعِدُ عنكَ تعيـيـرَ العُداةِ[٢]
١١- ولم أرَ قبلَ جذعِك قطُّ جذعًا — تمكَّنَ من عِناقِ المكرُمـاتِ[٣]
١٢- أسأتَ إلى النوائبِ فاستثارتْ — فـأنت قـتـيلُ ثأرِ النائبـاتِ[٤]
١٣- وكنتَ تُجيرُ مِن صَرْفِ الليالي — فـعـادَ مُطالبًا لك بالتِّـراتِ[٥]
١٤- وصَيَّرَ دَهْرُكَ الإحسانَ فيه — إلينا من عظيمِ السـيـئـاتِ
١٥- وكنت لمعْشَرٍ سعدًا فلما — مضيتَ تفرَّقُوا بالمَنْحساتِ[٦]
١٦- غليلٌ باطِنٌ لك في فُؤادي — خَفِـيقٌ بالدمـوعِ الجـارياتِ[٧]
١٧- ولو أني قَدَرْتُ على قيامي — بفرضِكَ والحقوقِ الواجباتِ[٨]
١٨- ملأتُ الأرض من نظمِ القوافي — ونُحْتُ بهـا خلافَ النائحـاتِ[٩]
١٩- ولكنى أُصَبِّرُ عنك نفسى — مخـافـةَ أنْ أُعَـدَّ من الجُناةِ
٢٠- وما لك تُرْبَةٌ فأقول تُسقَى — لأنكَ نُصْبُ هَطْلِ الهاطلاتِ[١٠]
٢١- عليك تحيةُ الرحمنِ تَتْرَى — برحْـمـاتٍ غَـوادٍ رائحـاتِ[١١]

* * *

(١) «تاريخ دمشق»، و«الكامل»، و«نهاية الأرب»، و«نكت الهميان»: السنين الذاهبات.
وفى البيت إشارة إلى زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، وكان قتل وصلب فى أثناء خلافة هشام بن عبد الملك
(٢) «أسرار البلاغة»، و«تاريخ دمشق»، و«وفيات»، و«شذرات»: وتلك فضيلة... - «تاريخ دمشق»: عنك أسباب الدنات وليس بشيء.
(٣) «خلاصة الذهب»، شذرات: فلم... - الدر الفريد: مثل جذعك... .
(٤) «أسرار البلاغة»: إلى الحوادث... .
(٥) «حياة الحيوان»: وكنت تجيرنا من صرف دهر... - «النجوم»: جور الليالى... - الترات: جمع ترة وهى الثأر.
(٦) «نكت الهميان»: وكنت لمعسر... - «تاريخ دمشق»: تمزقوا بالمنحسات - «الدر الفريد»: فى المنحسات.
(٧) «تاريخ دمشق»: غليلى...، وفيه وفى وفيات والوافى ونكت الهميان والنجوم: يخفف بالدموع...
وفى «يتيمة الدهر» أن هذا البيت أخذه من قول ابن الرومي:

لم يظلم الدهر أن توالت — فيكم مصيباته دراكا
كنتم تجيرون من يعادي — منه فعاداكم لذاكا

والبيتان فى ديوانه (تحقيق: د. حسين نصار، ط٣، ط دار الكتب بمصر، ٢٠٠٢م) ٥/ ١٨٤١.
(٨) «أحسن ما سمعت»، «وفيات، و«الوافى»، و«نكت الهميان»، و«حياة الحيوان»، و«النجوم»: على قيام... - «خلاصة الذهب»: على قضائى لفضلك... - وفيات، والنجوم: لفرضك... .
(٩) «خلاصة الذهب»: غرر القوافى... - «تاريخ دمشق». نظم المراثى... - «الدر الفريد»: خلال النائحات.
(١٠) «الدر الفريد». عين الهاطلات.
(١١) «تاريخ دمشق»: برحمات روائح غاديات.

٥- تعليق:

من الملحوظ أن بعض الشعراء قديمًا أشاروا إلى المصلوبين ووصفوهم، مثل ذي الرُّمة (ت نحو ١١٧هـ) الذى أراد أن يصور الحرباء، فقال[١]:

كـأن حـرباءهـا فـى كل هـاجـرة ذو شيبة من رجال الهند مصلوب

وقال مسلم بن الوليد (ت ٢٠٨هـ) من قصيدة فى مدح داود بن يزيد[٢]:

وضـعـتـه حـيـث ترتاب الـرياح به وتحسد الطير فيه أضبُع البيد

تغدو الضوارى فترميه بأعينها تستنشق الجوّ أنفاسًا بتصعيد

ومن هؤلاء الوصافين: أبو تمام (ت ٢٣١هـ)[٣]، وابن الرومى (ت ٢٨٣هـ)[٤] والبحترى (ت ٢٨٤هـ)[٥] والسرىّ الرفاء (ت نحو ٣٦٢هـ)[٦].

وقد وجد هذا الغرض الشعرى قبولا لدى كثير من الناس فى الأزمنة السابقة وموافقة لأذواقهم، واهتمت بعض المصنفات برواية ما شبهت به الشعراء المصلوبين، فأوردت نماذج لهؤلاء الذين سبق ذكرهم، ونماذج أخرى لغيرهم، مثل أبي بكر الأخيطل، وإبراهيم بن المهدي، وابن المعتز، ودعبل، والعقيلى، وابن حمديس ، وعمارة اليمنى. من هذه المصنفات: «التشبيهات»: لابن أبي عون (ت ٣٢٢هـ)[٧] . و«كتاب الصناعتين»: لأبي هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ)[٨]، و«زهر الآداب وثمر الألباب»: للحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ)[٩] و«أسرار البلاغة»: لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)[١٠]، «ومحاضرات الأدباء»: للراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ)[١١]، و«المثل السائر»: لضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)[١٢]، و«وفيات الأعيان»: لابن خلكان

---

(١) ديوانه (نشر: كارليل هنرى هيس مكارتنى، ط كمبريج، ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٩م) ص٣٧.

(٢) ديوانه (تحقيق: سامى الدهان، ط٢، دار المعارف بمصر) ص١٦٥.

(٣) له أشعار مشهورة مدح بها المعتصم لمّا صلب الأفشين خيذر بن كاوس وبابك ومازيار - ديوانه (تحقيق: محمد عبده عزام، ط٢، دار المعارف بمصر) ٢/ ٢٠٧-٢٠٨ وأيضًا ٣/ ١٤٤.

(٤) ديوانه (تحقيق: د. حسين نصار، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤-٢٠٠٢م) ٢/ ٦٠٩، وأيضًا ٥/ ١٨٩٤.

(٥) ديوانه (تحقيق: حسن كامل الصيرفى، ط٢. دار المعارف بمصر) ١/ ١٠.

(٦) ديوانه (تحقيق: د. حبيب حسين الحسينى، ط الطليعة، العراق، ١٩٨١م) ص٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٧، ٦٠٠، ٦٩٥-٦٩٦.

(٧) تصحيح: محمد عبد المعيد خان، ط كمبريدج، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، ص٢٢-٢٥.

(٨) تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، ط١، الحلبي، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، ص٢٥٤.

(٩) ط٥، دار الجيل، لبنان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص١٠٩٢-١٠٩٣.

(١٠) ص١٧٥-١٧٦.

(١١) ٢/ ٨٦.

(١٢) تحقيق: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، ط١، نهضة مصر، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، ٢/ ٧-٩.

(ت ٦٨١هـ)[١] ، و«والوافي بالوفيات»: للصفدي (ت ٧٦٤هـ)[٢] ، و«معاهد التنصيص»: للعباسي (ت ٩٦٣هـ)[٣].

ولكن لم تنل مرثية فى مصلوب من الثناء مثلما نالت مرثية أبى الحسن الأنباري، فوصفها الثعالبى بأنها فريدة تدل على أن صاحبها من أفراد الشعراء[٤] وقال الخطيب: «وهى مستحسنة معروفة»[٥]، وقال ابن خلكان: «اتفق العلماء على أنه لم يعمل فى بابها مثلها»[٦]، وقال الصفدى: «لم أر فى مصلوب أحسن منها»[٧]، وقال أيضًا: «ما لأحد مثلها، ولو لو يكن إلا أولها لكفى بها حسنًا... وهى مشهورة فلا فائدة من إثباتها»[٨]، وقال ابن تغري بردي: «لم أذكر هذه المرثية بتمامها هنا إلا لغرابتها وحسن نظمها»[٩].

وكان عبد القاهر الجرجانى قد أقرّ بما يثيره منظر المصلوب من البشاعة والشناعة، قال: «... وقد عُلم أنه ليس فى الدنيا مُثْلَة أخزى وأشنع، ونَكال أبلغ وأفظع، ومنظر أحق بأن يملأ النفوس إنكارًا، وتنزعج القلوب استفظاعًا له واستنكارًا، ويُغري الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ودرك الشقاء من أن يُصلب المقتول ويُشبح (أى: يُمدّ) فى الجذع»، ولكن عبد القاهر حاول أن يعلل لما وجده من إعجاب الناس وافتتانهم بقصيدة أبي الحسن الأنباري، فقال: «ثم قد ترى مرثية أبى الحسن لابن بقية حين صُلب، وما صنع فيها من السحر حتى قلب جملة ما يُستنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها، وتأوّل فيها تأويلات أراك فيها وبها ما يقضى (أى يفنى وينفذ) منه العجب»[١٠].

---

(١) ٥/ ١٢٣-١٢٤.

(٢) ١/ ١٠٣-١٠٤.

(٣) ١/ ١٥٠.

(٤) «يتيمة الدهر» ٢/ ٣٧٣ وانظر: «سير أعلام» ٢٦/ ٢٢١.

(٥) «تاريخ بغداد» ٣/ ٣٥.

(٦) «وفيات» ٥/ ١٢٣.

(٧) «الوافي» ١/ ١٠١ وانظر: «نكت الهميان»، ص٢٧٢ و«حياة الحيوان» ١/ ١٣٢.

(٨) «الغيث المسجم» ٢/ ١٨١.

(٩) النجوم ٤/ ١٣١.

ومن المختارات الأدبية الحديثة التى روت القصيدة، كتاب «نفح الأزهار فى منتخبات الأشعار» وفيه أنها «من القصائد الطنانة، بلغت من الشهرة والاستحسان أعظم مبلغ»، جمع الكتاب: شاكر البتانوني، وضبطه وصححه: الشيخ إبراهيم اليازجي (ط٦، العمومية، بيروت، ١٨٩٩م) ص٩٧، ٩٨ وكتاب: «جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء اللغة» للسيد أحمد الهاشمي (ط٢٧، التجارية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) ٢/ ٢٩٠-٢٩١.

(١٠) «أسرار البلاغة»، ص٢١٥، ٢١٦.

وبعد،

فيبقى القول بأنه على الرغم مما لاقته هذه القصيدة قديمًا من ذيوع وشهرة واستحسان، وما ذهب إليه عبد القاهر من أنها حافلة بالتأويلات الساحرة العجيبة المتناهية فى إثارة الدهشة - فالذي لاشك فيه أن مثل هذه الأشعار فى وصف المصلوبين لا تستطيع أن تجد لدينا فى العصر الحديث قبولا مهما قيل عن حسن نظمها واشتمالها على كل جميل من التشبيهات والاستعارات والمجازات والمعانى المبتدعة المخترعة التى لم يكن للسابقين عهد بها من قبل.

والذي يبقى من القصيدة أن لها دلالاتها وأبعادها التاريخية والسياسية والثقافية والاجتماعية، بل واللغوية الفنية أيضًا.

وربما تدفع إلى شيء من التأمل، فثمة تناقض واضح بين صورة المرثيّ وقد جعل منه المؤرخون دسّاسا يحيك المكايد، ويصل بدهائه إلى أن يصير وزيرا بعد أن كان فى بداية أمره يتولى شئون المطابخ لرؤسائه، وصورته فى القصيدة، وقد حلق بها الشاعر فى فضاء الخيالات وتجاوز الواقع الأرضي ونسي أو تناسى أن ممدوحه قد مات، فوصفه بأنه معجزة من المعجزات، عال على خشبته مثلما كان عاليًا فى حياته، يمد يديه محتفيًا مثلما كان يمدهما بالعطايا، والناس يتحلقون حوله، وكأنه واقف يخطب فيهم وهم أمامه قائمون للصلاة، الفضاء الواسع قبره لا الأرض الضيقة، والنيران حوله إنما هى النيران المشعلة للمعتفين المجتدين... إلخ، ولكن هل يمكن أن نلمس فى هذه القصيدة نبرة الاعتراض وصرخة الاحتجاج؟ قالوا بأن الشاعر كتبها ورمى بها فى شوارع بغداد، فتداولها الأدباء، ثم اتصل الخبر بالحاكم، فاستتر الشاعر سنة كاملة؛ لأن فى مدحه لذلك البائس المصلوب وإعلاء شأنه إهانةً للحاكم الصالب ورفضًا لمشيئته، يقول الشاعر قبيل اختتامه للقصيدة:

ولو أني قَدَرْتُ على قيامى ... بفرضك والحقوق الواجباتِ
ملأتُ الأرض من نظم القوافي ... ونُحْتُ بها خلافَ النائحاتِ
ولكنى أُصَبِّرُ عنك نفسى ... مخافَةَ أنْ أُعَدَّ من الجُناةِ

المصادر

- «أحسن ما سمعت»، الثعالبى (أبو منصور عبد الملك لن محمد - ٤٢٩هـ)،

نشر: محمد صادق عنبر، ط٢، المحمودية، القاهرة، د. ت.

- «أسرار البلاغة فى علم البيان»، عبد القاهر الجرجانى بن عبد الرحمن (٤٧١هـ)،

نشر: محمد عبد العزيز النجار، ط صبيح، القاهرة ١٩٧٧م.

- «الأعلام»، الزركلى، (خير الدين بن محمود بن محمد - ١٩٧٦م)،

ط ١٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٨م.

- «البداية والنهاية»، ابن كثير (إسماعيل بن عمر - ٧٧٤هـ)،

ط دار الغد العربى، القاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- «تاريخ بغداد»، الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي - ٤٦٣هـ)،

ط السعادة، مصر، ١٣٤٩هـ/١٩٣١م.

- «تاريخ مدينة دمشق»، ابن عساكر (على بن الحسن بن هبة الله - ٥٧١هـ)،

تحقيق: محب الدين أبي سعد عمر بن غرامة العمروي، ط دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

- «تاريخ ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفر - ٧٤٩هـ)،

ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- «جوهر الكنز»، أو: «تلخيص كنز البراعة فى أدوات ذوى اليراعة»، ابن الأثير الحلبي (نجم الدين أحمد بن إسماعيل - ٧٣٧هـ)

تحقيق: د. محمد زغلول سلام، ط منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.

- «حماسة الظرفاء»، العبدلكاني الزوزني (عبد الله بن محمد - ٤٣١هـ)،

تحقيق: محمد جبار المعيبد، منشورات وزارة الإعلام، العراق، ١٩٧٣م.

- «حياة الحيوان الكبرى»، الدميري (محمد بن موسى - ٨٠٨هـ)،

ط الشرفية، القاهرة، ١٣١٣هـ.

- «خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك»، عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربلي - ٧١٧هـ)،

نشر: مكي السيد جاسم، ط المثنى، بغداد، ١٩٤٤م.

- «الدر الفريد وبيت القصيد»، محمد بن أيدمر - ٧١٠هـ،

منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، إصدار: فؤاد سزكين، ١٤٠٨-١٤١٠هـ/١٩٨٨-١٩٨٩م.

- «ديوان المعاني»، أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله - نحو ٣٩٥هـ)،
ط القدسي، القاهرة، ١٣٥٢هـ.
- «سير أعلام النبلاء»، الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان - ٧٤٨هـ)،
ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب»، ابن العماد الحنبلي (عبد الحى بن أحمد بن محمد - ١٠٨٩هـ)،
ط القدسي، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- «الغيث المسجم فى شرح لامية العجم»، الصفدي (خليل بن أيبك بن عبد الله - ٧٦٤هـ)،
ط الأزهرية المصرية، ١٣٠٥هـ.
- «الكامل»، ابن الأثير عز الدين (على بن محمد - ٦٣٠هـ)،
ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- «لسان العرب»، ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم - ٧١١هـ)،
ط بولاق، القاهرة، ١٣٠٠هـ.
- «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء»، الراغب الأصفهانى (أبو القاسم حسين بن محمد - ٥٠٢هـ)، ط الشرفية، مصر، ١٣٢٦هـ.
- «المختصر فى أخبار البشر»، أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل - ٧٣٢هـ)،
ط١، الحسينية، القاهرة، د.ت.
- «مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان»، اليافعي (عبد الله بن أسعد بن علي -٧٦٨هـ)، ط حيدر آباد، ١٣٣٧هـ.
- «المرقصات والمطربات»، ابن سعيد (على بن موسى - ٦٧٣هـ)، ط دار محب، بيروت، ١٩٧٣م.
- «معاهد التنصيص»، العباسي (عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد - ٩٦٣هـ)، ط البهية، مصر، ١٣١٦هـ.
- «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، ابن تغري بردى (أبو المحاسن يوسف الأتابكى - ٨٧٤هـ)، ط١، دار الكتب المصرية، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.
- «نكت الهميان فى نكت العميان»، الصفدى، ط الجمالية، مصر، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.
- «نهاية الأرب فى فنون الأدب»، النويري (أحمد بن عبد الوهاب - ٧٣٣هـ)، الجزء الخامس، ط دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م.

الجزء السادس والعشرون، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- «**الوافي بالوفيات**»، **الصفدي**، اعتناء: هلموت ريتر، ط جمعية المستشرقين الألمانية، فيسبادن، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

- «**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**»، **ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر - ٦٨١هـ)**، تحقيق: إحسان عباس، ط دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

- «**يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**»، **الثعالبي**، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، ط حجازى، مصر، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

مخطوط التحقيق الباهر شرح الأشباه والنظائر للعلامة: محمد هبة الله محمد بن يحيى التاجي الحنفي المتوفى سنة ١٢٢٤هـ

د. إبراهيم رشاد محمد(*)

هذا المخطوط هو شرح لأهم كتب القواعد الفقهية(١) في المذهب الحنفي، وهو كتاب «الأشباه والنظائر(٢)» للعلامة ابن نجيم المصري المتوفى سنة ٩٧٠هـ.

وهو يشتمل على نقول كثيرة من الكتب، وهذه الكتب منها المطبوع، ومنها

(*) أستاذ الدراسات الإسلامية ورئيس قسم الدراسات الإسلامية ـ كلية الآداب ـ جامعة جنوب الوادي.

(١) القاعدة الفقهية: «هي حكم كلي ينطبق على جزئياته ليتعرف أحكامها منه».

انظر: «التلويح على التوضيح»: للتفتازاني - ١/٢٠.

وقيل: «حكم أكثري لا كلي ينطبق على أكثر جزئياته لتعرف أحكامها».

«غمز عيون البصائر شرح الأشباه والنظائر»: للحموي - ١/٢٢

والقواعد الفقهية تنقسم باعتبار أهميتها في الفقه وشمولها لمسائله إلى:

١) القواعد الفقهية التي تقوم بمثابة أركان الفقه الإسلامي. وهي القواعد الخمس المشهورة.

١- الأمور بمقاصدها ٢- المشقة تجلب التيسير ٣- الضرر يزال

٤- العادة محكمة ٥- اليقين لا يزول بالشك.

٢) القواعد الفقهية المسلم بها في المذاهب الفقهية، لكنها أقل اتساعًا للفروع من القواعد السابقة مثل:

١- تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة.

٢- من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

٣) قواعد مذهبية: تتفق مع مذهب دون الآخر.

مثل قاعدة: الأجر والضمان لا يجتمعان. فإنها في مصادر الفقه الحنفي، وهي لا تتمشى مع مذهب جمهور الفقهاء.

٤) القواعد المختلف فيها: وهي التي لم يتفق أصحاب مذهب ما على الاعتداد بها.

(٢) كلمة شِبْه أو شَبَه تُجمع على الأشباه، وهي المِثْل في اللغة. انظر: لسان العرب - لابن منظور - ط بيروت - دار صادر - ١٣ / ٥٠٣. ولقد تعارف أهل اللغة على استعمال هذه الكلمة في صفات ذاتية معنوية، فالذاتية: نحو هذا الدرهم كهذا الدرهم .. والمعنوية: زيد كالأسد. المصباح المنير - للفيومي - ١/٣٥٨.

وكذا النظير: المثل المساوي وهذا نظير هذا، أي مساويه. فكأنك إذا نظرت إلى أحدهما فقد نظرت إلى الآخر. المصدر السابق نفسه ٢ / ٣٧٩.

وانطلاقاً من ذلك المفهوم اللغوي، درج العلماء على استعمال تلك الكلمات على معناها اللغوي، فجعلوا الشبيه والنظير بمعنى واحد.

أما المعنى الاصطلاحي للأشباه والنظائر: فقد عرفه تاج الدين السبكي بقوله: «إن قياس الأشباه: هو أن يجتذب الفرع أصلان، ويتنازعه مأخذان، فينظر إلى أولاهما وأكثرهما شبهًا فيلحق به». الأشباه والنظائر - ١ / ١١٧.

وعرفه الحموي بقوله: «المراد بها: المسائل التي يشبه بعضها بعضًا مع اختلاف في الحكم، لأمور خفية أدركها الفقهاء بدقة أنظارهم. وقد صنعوا لبيانها كتباً كفروق المحبوسي والكرابيسي». انظر: «غمز عيون البصائر شرح العيون والنظائر» ١/١٨

المخطوط، ومنها المفقود، وبذلك يعد سجلاً مهمًا لكثير من الكتب، كما أنه يكشف النقاب عن عالم جليل من علماء الفقه الحنفي .

وكتاب ابن نجيم السابق من أشهر المؤلفات في القواعد الفقهية تحت عنوان «الأشباه والنظائر»، وهو قرين لكتاب العلامة السيوطي «الأشباه والنظائر[١]» في اسمه وصيته وخصائصه، ويحتل مكانًا رفيعًا بين مؤلفات هذا الفن، وقد جاء خطوة جديدة بعد أن توقف سير التأليف في هذا الموضوع على مدى الأيام في الفقه الحنفي .

وضعه المؤلف على غرار الأشباه والنظائر ، للعلامة تاج الدين السبكي[٢]. كما صرح بذلك في مقدمة الكتاب المذكور[٣]. وهذا ما نجده عند الموازنة بين الكتابين . فابن نجيم التزم السير على منهج الإمام السبكي ، مع اختلاف يسير في ترتيب المباحث وتنسيق القواعد ، إلا أن للقواعد الأصولية نصيبًا وافرًا عند السبكي ، خلاف ما نشاهده عند ابن نجيم ، فإنه لم يتعرض للقواعد الأصولية[٤] إلا نادرًا ، فقد خص الفن الأول للقواعد الكلية الفقهية[٥]، وبسط فيها القول ، ووضع الفنون الأخرى للكتاب

---

(١) الكتاب المذكور من أروع المؤلفات في القواعد الفقهية . تداولته أيدي العلماء في كل مكان ، وحظي بحسن القبول والرواج ، أتى فيه السيوطي بخلاصة مركزة مستخلصة من كتب السابقين في هذا المجال ، فجمع فيه معظم ما تفرق وتناثر من القواعد في كتب هذا الفن لتاج الدين السبكي ، والعلائي ، والزركشي؛ وأضحى بذلك مصدرًا لدراسة القواعد الفقهية خاصة في المذهب الشافعي . وقد طبعته دار الكتب العلمية - بيروت بدون تحقيق ، ثم طبعته دار السلام مصر بتحقيق : محمد محمد تامر ، وحافظ عاشور حافظ .

(٢) الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكي - طبع دار الكتب العلمية بيروت ، بتحقيق : عادل أحمد الموجود ، وعلي محمد عوض .

(٣) ذكر ابن نجيم في مقدمته سبب تأليفه، وهو أنه لم ير لعلماء الأحناف كتابًا يحاكي كتاب «الأشباه والنظائر» لتاج الدين بن السبكي الشافعي المشتمل على فنون الفقه، فأراد أن يضع كتابًا على النمط السابق مشتملا على سبعة فنون، فكان «الأشباه والنظائر». ويعود سبب تسميته إلى اسم بعض فنونه، وهو الفن السادس .

(٤) يرى الإمام ابن تيمية الفرق بين القاعدة الأصولية والقاعدة الفقهية باعتبار أن أصول الفقه هي الأدلة العامة ، خلافًا لقواعد الفقه فإنها عبارة عن الأحكام العامة . انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦٧/٢٩

كما أن أصول الفقه بالنسبة للفقه ميزان وضابط للاستنباط الصحيح ، فهي التي يستنبط بها الحكم من الدليل التفصيلي وموضوعها دائمًا الدليل والحكم ، كقولك : الأمر للوجوب ، والنهي للتحريم . أما القاعدة الفقهية فهي قضية كلية أو أكثرية ، جزئياتها بعض مسائل الفقه، وموضوعها دائماً هو فعل المكلف .

(٥) قواعد فقهية كلية تدور معظم مسائل الفقه حولها ، وهي ست قواعد :

١ - لا ثواب إلا بالنية .

٢ - الأمور بمقاصدها .

٣ - اليقين لا يزول بالشك .

٤ - المشقة تجلب التيسير .

٥ - الضرر يزال .

٦ - العادة محكمة .

في مباحث أخرى ذات مساس بالفقه لكنها أقل اتساعًا وشمولاً للفروع مما سبق(١).

وبما أن الكتاب احتوى ذخيرة ثمينة ، ومادة دسمة من فروع المذهب، فقد أكب عليه علماء المذهب درسًا وتدريسًا . وتتابعت في فترات مختلفة تعليقات وشروح تخدم هذا الكتاب أربى عددها على خمس وعشرين، ما بين شرح للكتاب واستدراك عليه ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - «تنوير البصائر على الأشباه والنظائر»(٢) : لشرف الدين الغزي(٣) (ت ١٠٠٥ هـ).

٢ - «غمز عيون البصائر شرح الأشباه والنظائر»: للحموي(٤) (ت ١٠٩٨ هـ) . وهذا الشرح متداول ، لما فيه من الدقة والتحقيق ، وقد ذكر الحموي في المقدمة أن الأشباه والنظائر لما اشتمل عليه من الإيجاز ، التحقت مسائله بالألغاز ، فلذا لم يبرز إلى الآن بعض مقاصده ...... فطالما حداني أن أقيد مطلقاته ، وأضبط مرسلاته ، وأفصل مجملاته ، وأصحح معتلاته(٥).

٣ - نزهة النواظر على الأشباه والنظائر(٦) لابن عابدين (ت ١٢٥٢ هـ)

---

(١) وهي قواعد فقهية أقل شمولاً واتساعًا من القواعد السابقة ، وقد ذكر منها تسع عشرة قاعدة منها :

١ - الاجتهاد لا ينقض الاجتهاد .

٢ - إذا اجتمع الحلال والحرام غلب الحرام .

٣ - هل يكره الإيثار بالقرب .

٤ - تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة .

٥ - الحدود تدرأ بالشبهات .

٦ - لا ينسب إلى ساكت قول .

٧ - من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه .

٨ - لا عبرة بالظن البين خطؤه .

انظر : «الأشباه والنظائر»: لابن نجيم - تحقيق محمد مطيع حافظ - دار الفكر بيروت .

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٧٠ فقه حنفي ، رقم الميكروفيلم ٣٦٨٨٦ .

(٣) شرف الدين بن عبد القادر بن بركات بن إبراهيم ، المعروف بابن حبيب الغزي الحنفي ، فقيه حنفي عارف بالتفسير والعربية ، من أهل غزة بفلسطين ، من تصانيفه : محاسن الفضائل بجمع الرسائل .
انظر : خلاصة الأثر ٢/٢٢٣ ، الأعلام ٣/١٦١ .

(٤) هو أحمد بن محمد الحموي ، الحنفي ، الفقيه الأصولي ، درس بالقاهرة ودرس بها ، علا شأنه واشتهر ذكره لمشاركته في علوم كثيرة ، وتخرج به العلماء الكثيرون . له مؤلفات في الأصول والفقه وعلوم اللغة، منها : «حاشية الدر»، و«الفرر» في الفقه ، و«درر العبارات وغرر الإشارات» في البلاغة . انظر : الأعلام ٣/٢٣٩ ، معجم المؤلفين ٢/٩٣.

(٥) «غمز عيون البصائر» : ١/٦ .

(٦) مطبوع بحاشية الأشباه والنظائر: لابن نجيم - دار الفكر بيروت .

وهي حاشية كتبها ابن عابدين على نسخة الأشباه، فجمعها الشيخ البيطار[١] من نسخة المؤلف وبخطه .

٤ - «التحقيق الباهر شرح الأشباه والنظائر» لمحمد هبة الله التاجي[٢] (ت ١٢٢٤هـ) وهذا المخطوط هو مدار حديثنا في السطور التالية .

توثيق نسبة المخطوط إلى مؤلفه :

من الأمور التي تدل على نسبة المخطوط إلى مؤلفه ما يلي :

١- معظم المصادر التي ترجمت لهبة الله التاجي ذكرت هذا المخطوط[٣].

٢- ورد في مقدمة المخطوط نسبته إلى هبة الله التاجي، حيث يقول : «وبعد فيقول .. محمد هبة الله بن محمد بن يحيى التاجي ... وقد اشتهر في الآفاق تأليف العلامة ... زين بن نجيم ... وقد كنت ... كتبته حين أقرأنيه، فجاء - بحمد الله - شرحًا لم يسبق بمثاله، ولم ينسج على منواله، فبعد أن فضضت عنه مسك الختام، وأزلت عنه لثام التمام، سميته بـ «التحقيق الباهر شرح الأشباه والنظائر» .

التحقُّق من اسم المخطوط :

ذكر إسماعيل البغدادي في كتابيه: «إيضاح المكنون»، و«هدية العارفين» أن اسم المخطوط هو «التحقيق الباهر في شرح الأشباه والنظائر»[٤]، وكذلك عمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين» [٥].

---

(١) البيطار: هو محمد بن حسن بن إبراهيم، الشهير بالبيطار الحنفي[ت ١٣١٢هـ]، تولى أمانة الفتوى بدمشق، وانفرد في الفقه وأصوله. انظر: «حلية البشر» ٣/١٤٢.

(٢) ولد هبة الله بدمشق في تاسع عشر ذي القعدة سنة ١١٥١هـ، ونشأ في أسرة محبة للعلم، وقد رحل إلى مصر رغبة في تلقي العلم من شيوخها، وتولى قضاء بغداد، وصار مفتيًا ببعلبك. وتوفي يوم عشرين من ذي القعدة سنة ١٢٢٤هـ، ودفن بتربة أسكداد بالأستانة . انظر: حلية البشر ٣/١٥٧٧، أعيان دمشق ص٢٩١، والأعلام ٨/٧٥ .

(٣) فقد ذكر ذلك إسماعيل البغدادي في كتابيه : إيضاح المكنون ١/٢٦٤، و«هدية العارفين ٢/٣٥٦، وكذلك عمر رضا كحاله في : معجم المؤلفين ١١/٢١٠، وقال الشطي في : «أعيان دمشق» ص ٢٩٠: «لهبة الله التاجي مؤلفات كثيرة منها: حاشية على الأشباه والنظائر، لابن نجيم .

(٤) انظر : «إيضاح المكنون» ١/٢٦٤، «وهدية العارفين» ٢/٣٥٦ .

(٥) انظر : «معجم المؤلفين» ١١/٢١٠ .

تاريخ تأليفه :

ذكر هبة الله التاجي في آخر القواعد أنه فرغ من الكتاب سنة ١١٩٥هـ، حيث يقول: «قال شارحه: نجز هذا الكتاب على يد مؤلفه الفقير محمد هبة الله بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن التاجي في غرة محرم سنة ١١٩٥هـ»(١).

مصادره :

لم يُشِر هبة الله التاجي في مقدمة المخطوط إلى المصادر التي اعتمد عليها في شرح «الأشباه والنظائر» - كما فعل ابن نجيم - ولكنه كان يذكر مصادره في آخر كل قول ينقله، وهذه المصادر هي :

١- المصادر التي ذكرها ابن نجيم في مقدمة «الأشباه والنظائر»، كشروح الهداية، وشروح الكنز، وشروح القدُوري، وشروح المجمع، والفتاوى البزّازية، والخانية، والخلاصة .

٢- بعض شروح «الأشباه والنظائر» وحواشيه، كالحاشية الحموية، وحاشية ابن بيري .

٣- ما نقله هبة الله التاجي عن شيخه صالح الجينيني، وذلك بقوله : «شيخنا» .

٤- مصادر أخرى: فقد اعتمد هبة الله التاجي على مصادر غير التي ذكرناها ، وهي تنقسم إلى مصادر أصولية، ومصادر فقهية :

● المصادر الأصولية : منها «فتح الغفار بشرح المنار»: لابن نجيم، و«التلويح في كشف حقائق التنقيح»: للتفتازاني، و«التحرير»: لابن الهمام، و«التقرير والتحبير»: لابن أمير الحاج الحلبي، و«البرهان:» للجويني، و«كشف الأسرار»: لعلاء الدين عبد العزيز البخاري، و «المنثور في القواعد»: للزركشي .

● المصادر الفقهية : كثيرة منها: «البحر الرائق» لابن نجيم، و «النهر الفائق» لعمر ابن نجيم، و «الإسعاف» لبرهان الدين الطرابلسي، و «روضة الفقهاء» للناطفي، و «أنفع الوسائل» لبرهان الدين الطرسوسي، و «المجموع شرح المهذب» للنووي، وفتاوى السبكي، وفتاوى التمرتاشي، والفتاوى التاجية، وفتاوى السيوطي .

وبالجملة فقد اعتمد هبة الله التاجي في كتابه على معظم كتب المذهب الحنفي

(١) انظر : «مخطوط التحقيق الباهر شرح الأشباه والنظائر» بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨٩ فقه حنفي طلعت، رقم الميكروفيلم ٨٥٣٤، و ٢١٠ .

مع بعض الكتب التي صُنفت في المذاهب الأخرى، فكان - بحق - موسوعة لكتب الأحناف .

مزايا المخطوط :

تميز مخطوط «التحقيق الباهر» بمزايا عديدة منها :

أولاً - غزارة مادته العلمية، وتنوع مصادره وتعددها بحيث لا تكاد تخلو صفحة واحدة منه في كثير من الأقوال .

ثانيًا - التزام هبة الله التاجي في كتابه - غالبًا - بعزو الأقوال إلى أصحابها .

ثالثًا - استفاد من الشروح والحواشي التي ألفت لتخدم كتاب «الأشباه والنظائر» لابن نجيم، فنجده كثيرًا ما ينقل عن حاشية الحموي، وحاشية ابن بيري .

رابعًا - كان هبة الله التاجي يستعمل عبارات مثل (تأمل، فتدبر، فيه نظر، هذا سبق قلم) وهذا من أدبه مع العلماء في عدم قبوله لبعض أحكامهم ونقولهم.

خامسًا - وقف على القواعد التي مر عليها ابن نجيم مرورًا عابرًا، فأعطاها حقها من الشرح والتحليل .

سادسًا - كان هبة الله التاجي يحيل إلى ما سيأتي في الكتاب، أو ما مضى، وهذا أسهم في ترابط موضوعات الكتاب .

وفي الجملة كان كتاب «التحقيق الباهر في شرح الأشباه والنظائر» من أفضل الشروح ، حيث شرح هبة الله التاجي كتاب «الأشباه والنظائر » لابن نجيم شرحًا كاملا، واستفاد من نقاط القوة التي في الشروح السابقة، وعالج كثيرًا من النقاط التي أغفلتها أيضًا (١).

النسخ الموجودة من المخطوط :

تم العثور على ست نسخ من مخطوط «التحقيق الباهر» وتم تصفحها والاطلاع على خصائص كل نسخة، لبيان درجتها وأهميتها، وهي كالتالي:

النسخة الأولى :

نسخة مصورة من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٦٤) فقه

(١) لذلك كان خروج هذا الكتاب من دائرة المخطوطات إلى دائرة الكتب المطبوعة عملاً جيدًا، للاستفادة القيمة منه، سواء في شرحه أو الاضطلاع على مصادره العديدة أو غير ذلك من فوائده الأخرى .

حنفي ق، ورقم الميكروفيلم (٥٨٩٨٧) وقد كتب بأولها : «يا من تنزهت عن الأشباه ذاته، وتقدست عن النظائر صفاته». وجاء في آخرها : «نقلت هذه النسخة من خط شارحه محمد هبة الله بن يحيى بن عبد الرحمن التاجي» .

- المسطرة : ٣١ سطرًا، ما عدا الصفحة الأولى ٢٧ سطرًا .
- المقاس : ١٦,٥ × ٨ سم .
- عدد الأوراق : ٨٣٢ ورقة .
- الخط : نسخ جيد .
- اسم الناسخ : إسحق بن محمد من قضاة الديار المصرية .
- تاريخ النسخ : لا يوجد بها تاريخ النسخ .

النسخة الثانية :

نسخة مصورة من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٨٩) فقه حنفي طلعت، ورقم الميكروفيلم (٨٥٣٤) وقد كتب بأولها : «يا من تنزهت عن الأشباه ذاته، وتقدست عن النظائر صفاته». وجاء في آخرها : «ويتلوه: أي: النوع الأول، الفن الثاني من الفنون السبعة، وهو فن الفوائد والله سبحانه الميسر، وهو حسبي ونعم الوكيل، قال شارحه: نجز هذا الكتاب على يد مؤلفه الفقير محمد هبة الله بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن التاجي في غرة محرم الحرام سنة ١١٩٥هـ، رحمه الله تعالى» .

- المسطرة : ٣٣ سطرًا .
- المقاس : ١٧,٥ × ١٠ سم .
- عدد الأوراق : ٢٠٩ ورقة .
- الخط : نسخ .

وهذه النسخة تحتوي الفن الأول، هو فن القواعد، وهي ناقصة من الآخر، وخطها واضح، وعليها حواشٍ وتعليقات، وهي لا تحمل تاريخًا للنسخ، ولا اسمًا للناسخ.

النسخة الثالثة :

وهي نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الأزهر الشريف تحت رقم (٣٢٦) فقه حنفي أباظة، والرقم العام (٦٤٢٠)، وقد كتب بأولها : «يا من تنزهت الأشباه عن ذاته، وتقدست النظائر عن صفاته»، وجاء في آخرها : «إن هذه الحكاية متعلقة بالموت، وهو آخر الحياة، فيتناسب ما تقدم ذكره هنا» .

- المسطرة : ٣٣ سطرًا .
- المقاس : ٣٢ × ٢١ سم .
- عدد الأوراق : ٩٦٣ ورقة .
- الخط : نسخ .
- التملكات: لخليل بن إبراهيم بن مصطفى الرشيدي الحنفي ١٢٦٦هـ
- التوفيقات: من ورثة سليمان أباظة على الجامع الأزهر سنة ١٣١٦هـ

وهذه النسخة كاملة، وخطها نسخ واضح .

النسخة الرابعة :

وهي نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الأزهر الشريف تحت رقم (٢٨٠٦) فقه حنفي بخيت، والرقم العام (٤٤١٥١)، وأول المخطوط وآخره كالسابقة .

- المسطرة : ٢٥ سطرًا .
- المقاس : ١٧ × ٢٤ سم .
- عدد الأوراق : ١٦٣٩ ورقة .
- الخط : نسخ وكتبت بالمداد الأحمر والأسود .
- اسم الناسخ : معوض سلامة المالكي .
- تاريخ النسخ : ١٢٩٠ هـ .
- التملكات: لمحمود العلاف السكندري سنة ١٢٩٠هـ

النسخة الخامسة :

وهذه النسخة كاملة، وتحتوي حواشي .

وهي نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الأزهر الشريف تحت رقم (١٩١٤) فقه حنفي رافعي، والرقم العام (٢٦٧٥٣)، وقد كتب بأولها كالسابقة ، وجاء في آخرها : «ويناسب ما تقدم ذكره هنا، ولذا قال: إن ما ذكر من الحكاية أو الوصاية، أو الفن السابع آخر ما أوردناه من كتاب «الأشباه والنظائر» في الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان .

- المسطرة : ٢١ سطرًا .
- المقاس : ١٧ × ٢٣ سم .

ـ عدد الأوراق : ٢١٢٥ ورقة .

ـ الخط : نسخ ، وكتبت بالمداد الأحمر والأسود .

ـ اسم الناسخ: محمد بن محمد بن حسين الكردي الحنفي .

ـ تاريخ النسخ: ١٢٨٦ هـ .

وهذه النسخة كاملة، وخطها نسخ واضح .

النسخة السادسة :

وهي نسخة مصورة عن النسخة المحفوظة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية، والمخطوطة بمكتبة روضة خيري رقم (٦٢) فقه حنفي، وكتب بأولها : «القاعدة الرابعة من القواعد الكلية المشقة، أي: الصعوبة»، وجاء في آخرها كالسابقة .

ـ المسطرة : ٢٣ سطرًا .

ـ المقاس : ٢٤ × ١٧ سم .

ـ عدد الأوراق : ١٣٣٨ ورقة .

ـ الخط : نسخ .

ـ اسم الناسخ: محمود العلاف السكندري الحنفي .

ـ تاريخ النسخ: لا تحمل هذه النسخة تاريخًا للنسخ .

وهذه النسخة ناقصة من أولها، وعليها حواشٍ وتعليقات كثيرة، وهي نسخة مقابلة على نسخة كتبها أحمد محمد سنة ١٢٣٧هـ .

وقد تم تقسيم هذه المخطوطة على مجموعة من الباحثين، طلبة الماجستير بكلية الآداب – جامعة جنوب الوادي، تم مناقشة ثلاثة منهم، وحصلوا على درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية – بتقدير «ممتاز» وهم :

١– الباحث/ أبو القاسم محمد أبو شامة – آداب سوهاج .

إشراف : أ.د. عفت محمد أحمد الشرقاوي، أستاذ الدراسات الإسلامية بآداب عين شمس .

د. محمد أحمد حسن الخولي، أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد بآداب قنا .

٢– الباحث/ هاشم رضوان .

إشراف : د. غريب محمد علي، أستاذ اللغة العربية المساعد بآداب قنا .

د. إبراهيم محمد رشاد ، أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد بآداب قنا .

٣- الباحثة/ أمل رمضان حسين .

إشراف : د. عطية أبو زيد، أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد بآداب سوهاج .

د. إبراهيم محمد رشاد، أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد بآداب قنا .

ونأمل أن يتم الانتهاء من هذه المخطوطة لتخرج إلى النور ويتم طبعها، حتى يستفيد منها القراء والباحثون، وخاصة المهتمين بالقواعد الفقهية عامة، والفقه الحنفي خاصة .

نصوص تراثية في أعمال المستشرقين

الدين والدولة عند أبي الحسن العامري

بقلم فرتاز روزنتال(١)

الترجمة والتعليق د. عفت الشرقاوي(*)

تحظى مشكلة العلاقة بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية فى الإسلام بأهمية خاصة ، بحيث لا نكاد نعثر على مناقشة للموضوع بقلم مؤلف من مؤلفى المسلمين فى العصر الوسيط من غير أن نتوقع أن نجد فيها شيئًا ذا بال(٢) ولعل أملنا فى العثور على فائدة محققة فيما نقرأ يزداد أكثر ما يزداد إذا كان المؤلف الذى نحن بصدده حريًا - نظرا لظروف عصره وملابسات بيئته الثقافية - أن يكون ذا نزعة فكرية مستقلة فيما يعرض له من موضوعات.

---

(١) نشر هذا المقال فى العدد الثالث من المجلة الدورية التى يصدرها المركز الإسلامى فى لندن باسم Islamic Quarterly ، سنة ١٩٥٦ فى الصفحات من ٤٢ إلى ٥٢ بعنوان State and Religion According to Abu Al-Hassen Al-Amiri ، والمؤلف مستشرق ألمانى له مؤلفات واسعة فى اللغة العربية والدراسات الإسلامية ؛ وقد عاش : (١٩١٤-٢٠٠٣) (المترجم).

(*) أستاذ الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس.

(٢) فى عبارة المؤلف مايوحى بوجود صراع بين السلطة الزمنية والقيادة الروحية فى الإسلام ، وهذا غير صحيح ، سواء على الصعيد التاريخي والواقعي لتطور الدولة الإسلامية ، أو على الصعيد النظرى والفلسفى ، أعني فيما يتعلق بأصل النظرية الإسلامية في السياسة، وما ألف حولها من كتب تتناول نظام الدولة الإسلامية بالدراسة . ذلك أنه لايوجد فى الإسلام سلطة كهنوتية تعطي نفسها مكانة مقدسة باسم الله؛ لأن أصحابها يشغلون مركزًا خاصًا بوصفهم وزراء لله تعالى . ومثل هذه النظرية غريبة على الدولة الإسلامية من حيث الفلسفة السياسية والواقع التاريخى ، وليس لها من أصداء فى الثقافة الإسلامية إلا فيما نعثر عليه عند بعض فلاسفة الشيعة حول نظرية الإمامة فى الحكم . ويبدو أن المؤلف قد وقع في هذا التعميم الجارف تحت تأثير تصوره الخاص للطابع المميز لعلاقة رجال الدين بسلطة الدولة فى تاريخ أوروبا ، انظر فى ذاك مثلا كتاب سعيد عبد الفتاح عاشور ، «تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى»، الفصل الخاص بالإمبراطورية والبابوية ص ٣٠٧ ، وانظر أيضًا كتاب Henry S. Lucas وعنوانه : النهضة والإصلاح The Renaissance and the Reformation الصادر فى نيويورك سنة ١٩٦٠.

ويميل المؤلفون المسلمون ، على عكس ما يتصور روزنتال ، إلى تفسير العلاقة بين الإمام أو الحاكم من ناحية، والرعية من ناحية أخرى على ضوء نظرية شبيهة بنظرية العقد الاجتماعي من حيث التزام كل من الطرفين بحقوق الآخر . فالأمر لايعدو أن يكون عقدًا عرفيًا ينظم العلاقة بين الحاكم ورعاياه فى ظل مجموعة من الحقوق والواجبات ، فالإمامة كما يقول الماوردي: «عقد لايتم إلا بعاقد ، كالقضاء إذا لم يكن من يصلح له إلا واحد لم يصر قاضيًا حتى يولاه» ، «الأحكام السلطانية» ص ٨ ، المكتبة التوفيقية، وانظر كتاب «الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة» ، مقال أ.ح. قريشي بعنوان : أسس الثقافة الباكستانية ص ٤٤٠ ، النهضة ، ١٩٥٥، وانظر أيضا كتاب «روح الدين الإسلامي»، عبد الفتاح طبارة ص ٢٥٧ ، كذلك راجع كتاب سعيد عبد الفتاح عاشور بعنوان «بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى» ، ص ٣٨٥. (المترجم)

وليس هناك من شك فى أن ابا الحسن محمد بن يوسف العامرى كان باحثًا من هذا الطراز .

نشأ العامري فى خراسان وإذا صح ما روى من أنه كان تلميذًا لأبى زيد البلخى، فإن من المرجح أنه ولد فى أوائل القرن الرابع الهجري (أي ما يقابل العقد الثاني من القرن العاشر الميلادي). ولقد عاش العامري وتعلم فى المدينة التي ولد فيها (نيسابور) ليصبح بعد ذلك باحثًا متمكنًا فى الفلسفة القديمة (اليونانية) ، وليغادر مدينته بعد ذلك رجلاً مثقفًا نضيج الرأى. وكانت بغداد فى ذلك الوقت لاتزال تحظى بكل ما كانت جديرة به من الشهرة الذائعة بوصفها أهم مراكز الثقافة والعلم فى العالم الإسلامى، وهي المكانة التي اكتسبتها منذ حكم العباسيين الأوائل. على أن هذه المدينة العظيمة كانت قد وصلت آنذاك إلى حال لم تعد فيه قادرة على أن تمد يديها بالتشجيع والعون المطلق لكل من كان يستحق ذلك من العلماء والفنانين الذين كانوا يتوافدون عليها لهذا الغرض . ولذلك سرعان ما وجد العامري أن ظروف الحياة فى هذه المدينة لم تعد تلائمه وسط علمائها الذين لم يفسحوا له مجالاً بينهم[1] ، فلم يلبث أن عاد أدراجه، ولكنه آثر فى طريق العودة أن يبقى مدة من الزمان في بلاط ابن العميد . وقد تمت هذه الزيارة التي قام بها العامري لبغداد قرب منتصف القرن الرابع الهجري (أى ما يقابل سنة ٩٦٥ ميلادية تقريبًا) . فأما ما ذكر في بعض المصادر من أنها كانت سنة ٣٦٤ هجرية (أى سنة ٩٧٤ ميلادية تقريبًا) فإنه أقرب إلى أن يكون نتيجة لوهم بعض المؤلفين من أن يكون إشارة إلى زيارة أخرى له[2] . وحوالى سنة ٣٧٠ هجرية (٩٨٠ - ٩٨١ ميلادية) نصادف العامرى بالقرب من نيسابور يوضح لبعض الصوفية المتسائلين

---

(١) هذا ما تصرح به عبارة المؤلف فى إيجاز . ولكن بعض النصوص العربية تعطى تفصيلاً دقيقًا عن سبب خروج العامري من بغداد ، بعد أن ضاق بها وباخلاق علمائها أشد الضيق . فقد جاء فى «صوان الحكمة» (بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي - طهران ١٩٧٤ ، ص ٣١٠) أن أبا الحسن العامرى كان «قريح القلب من اخلاق العراقيين فإنهم سلخوه وفسخوه (كشفوا ما فى علمه من ضعف وفساد) وهجروا معه الإنصاف ، فضلاً عن الإسعاف . وقد قيل له لما عاد من بغداد كيف رايت الناس بها؟ فقال: «رأيت عندهم طرفًا ظاهرة ، وشارة معجبة (الشارة والشوار: اللباس والهيئة) ومرآة معشوقة، لكنى رأيت من وراء ذلك سخفًا بالغًا ، وودًا فاسدًا ، واستحقارًا لأهل خراسان وجميع البلدان . وأصلح ما يتفق للإنسان أن تكون طينته مشرقية ، وصورته عراقية ، فإنه بهذا يصير جامعًا بين متانة خراسان وطرف العراق ، مفارقًا لبلادة خراسان ورعونة العراق» . ومثل هذه الصيغ فى ذم بعض المدن ومدحها ليس نادرًا فى أدب العصر العباسي. (المترجم)

(٢) هذا من استنتاج المؤلف . وهو قول مرجوح فى أغلب الظن ، وقد أثبتت دراسة الدكتور أحمد عبد الحميد غراب عن حياة العامري زيارتين لبغداد: الأولى سنة ٣٦٠ هـ تقريبًا ، والثانية سنة ٣٦٤ هـ ، انظر مقدمة تحقيق كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام»: لأبى الحسن محمد بن يوسف العامرى - تحقيق ودراسة ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ . ص ٨. وقد ذهب أ.ك. روسن E.K. Rowson إلى ما يشبه ذلك فى مقدمة تحقيقه لكتاب العامري : «الأمد على الأبد» ، دار الكندي بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١١

=

عن حقيقة قد تبدو غريبة فى ظاهر الأمر ، وهى أن الزهاد وأهل التقوى يحق لهم أن يكشفوا عن اهتمامهم بما يجري من أحداث السياسة فى عصرهم[(١)]. وقد مات العامرى بعد ذلك بأعوام قليلة فى نيسابور على ما يبدو فى ٢٧ شوال سنة ٣٨١ هجرية المقابل للسادس من يناير سنة ٩٩٢م.

وقد تنقل العامري بين مجالس التوحيدي وابن مسكويه[(٢)]، وكان ابن هندو من

= ومهما يكن من أمر فإن الإشارة إلى الزيارة الأولى تعتمد على نص ورد في «تجارب الأمم»: لابن مسكويه الذى يروى أن العامرى قد قصد ابن العميد بعد أن «ورد من خراسان ، وقصد بغداد ، وعاذ وعنده أنه فيلسوف تام ، وقد شرح كتب أرسطو طاليس، وشاخ فيها ، فلما اطلع على علوم الأستاذ الرئيس (ابن العميد) برك بين يديه ، واستأنف القراءة عليه . وكان يعد نفسه فى منزلة من يصلح أن يتعلم منه فقرأ عليه عدة كتب مستغلقة ، ففتحها عليه ، ودرسه إياها» تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٢٢٧.

وأما الزيارة الثانية فهي تعتمد على ما جاء فى «المقابسات»، وفيها يذكر أبو حيان التوحيدي العام الذى ورد فيه العامري بغداد وهو عام ٣٦٤ هجرية فى صحبة أبى الفتح ذى الكفايتين الذى تولى الوزارة بعد وفاة والده ابن العميد سنة ٣٦٠ هجرية : «فلقى من أصحابنا البغداديين عنتًا شديدًا ومناكدة؛ وذلك لأن طباع أصحابنا معروفة بالحدة والتوقد على فاضل يرى من غير بلدهم، وذلك كله جالب للتنافس ، مانع من التناصف ، وهو خلق تابع لهواهم ، وتراهم قد احتاجوا من أجل ذلك إلى علاج شديد، ومقاومة طويلة ، وقل من يتخلص إلى غاية هذا الباب لغلبة الطباع ، وسوء العادة ، وشرارة النفس» ، المقابسات ص ٢٠٧ بتحقيق السندوبى . ويشكك روزنتال - كما رأينا - فيما أثبتته هذه الرواية من تاريخ للزيارة التي حملت بعض الباحثين على الظن بأنهما زيارتان ، ولكن باحثين آخرين يأخذون بظاهر النصوص لإثبات الزيارتين كما فعل غراب وروسن .

(١) هذه ترجمة لعبارة المؤلف ، وهى تحتاج إلى إيضاح لما توهم من لبس اشتغال الصوفية بأمور السياسة في ذلك الوقت . والأرجح أنه يعتمد على نص ورد فى كتاب «الإمتاع والمؤانسة»: لأبي حيان التوحيدي . وفيه يروى قصة جماعة من المتصوفة فى عصره ، وجدوا أنفسهم فجأة يخوضون فى أمور السياسة ، بعد أن اشتعلت خراسان بالفتنة : «وغلا السعر ، وأخيفت السبل، وكثر الإرجاف ، وساءت الظنون ، وضجت العامة ، والتبس الرأى ، وانقطع الأمل .... وكان البلد يتقد نارا بالسؤال والتعرف، والإرجاف بالصدق والكذب ، وما يقال بالهوى والعصبية». غير أن هؤلاء المتصوفة ما لبثوا أن لاموا أنفسهم على ما كان من انشغالهم بأمور السياسة ، فلما قصدوا أصحابا لهم من الزهاد والمتصوفة واحدًا بعد واحد ، وجدوهم جميعا يتساءلون - كما كانوا يتساءلون - عن شئون السياسة ، فعجبوا لأمرهم ، حتى إذا صادفوا فى طريقهم أبا الحسن العامرى برر لهم انشغالهم بما يبدو لهم أنه من أمور الدنيا ، مع أنهم من المتصوفة الزاهدين فيها ، قائلا : «فى طى هذه الحال الطارئة غيب لا تقفون عليه ، وسر لاتهتدون إليه . وإنما غركم ظنكم بالزهاد . وقلتم لا ينبغى أن يكون الخبر عنهم كالخبر عن العامة ، لأنهم الخاصة، ومن الخاصة خاصة الخاصة ... أما العامة فإنها تلهج بحديث كبرائها وساستها ، لما ترجو من رخاء العيش ، وطيب الحياة ، وسعة المال ، ودرور المنافع ، واتصال الجلب ، ونفاق السوق ، وتضاعف الربح ، فأما هذه الطائفة العارفة بالله ، العاملة لله ، فإنها مولعة أيضًا بحديث الأمراء ، والجبابرة العظماء ، لتقف على قدرة الله فيهم ، وجريان أحكامه عليهم ، ونفوذ مشيئته فى محابهم ومكارههم فى حالي النعمة عليهم، والانتقام منهم .... وبين الخاصة والعامة فى هذه الحال وفى غيرها فرق يتضح لمن رفع الله طرفه إليه وفتح باب السر فيه عليه» . الإمتاع والمؤانسة ، ج ٣ ، ص ٩٢ - ٩٦. وهذا النص يؤكد أن اهتمام متصوفة العصر بأحداث السياسة ، على لسان العامري، لم يكن اهتمامًا سياسيًا أو تاريخًا ، كما توهم عبارة روزنتال ، وإنما كان اهتمامًا صوفيًا فى جوهره ينبع من مقام التقوى ويدور حول معانى العظة والاعتبار بالمعنى الصوفي المحض (المترجم).

(٢) ومع ذلك فقد عاب أبو حيان التوحيدي- على ابن مسكويه أنه لم يغتنم الفرصة فيفيد من اتصاله بالعامرى كما ينبغي، وفى ذلك يقول: «ولقد قطن العامري الري خمس سنين جمعة (مجموعة) ، ودرس وأملى ، وصنف وروى، فما أخذ عنه ابن مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سد. ولقد تجرع على هذا التوانى الصاب والعلقم، ومضع بنفسه حنظل الندامة فى نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله» «الإمتاع والمؤانسة» ، ج ١ ، ص ٣٦. (المترجم).

تلامذته على مايدو[١]. كذلك يقال إنه كان على اتصال علمى بابن سينا، وهو أمر بعيد الاحتمال[٢]، فقد كان عمر ابن سينا أحد عشر عاما فحسب وقت وفاة العامرى. ويشيد العلماء الذين عرفوه بمواهبه العقلية - وإن كانوا أقل إعجابًا بصفاته الشخصية - كما يكثرون من الاستشهاد بنصوص من مؤلفاته وملاحظاته العلمية. وقد ألف العامري كثيرًا من الكتب، وهو يذكر منها ما لايقل عن تسعة عشر مؤلفا فى كتابه: «الأمد على الأبد»[٣].

غير أن ذوي النزعة المحافظة من علماء أهل السنة لم يرتضوا منهج العامري فى البحث. وقد رددوا فى ابتهاج صريح - بمناسبة وفاته - قصة عالم من العلماء مات فى نفس اليوم الذى مات فيه العامري، فرآه أحدهم فيما يرى النائم، وهو يؤكد له أنه قد فاز بدخول الجنة، بعد أن سيق العامري إلى النار. كذلك اتهمه التوحيدى فى لحظة من لحظات إنابته بأنه صنف كتبًا في الدفاع عن الإسلام، ليكتسب بذلك رضا العامة[٤].

(١) هو أبو الفرج على بن الحسين الكاتب، وكان أديبًا شاعرًا وطبيبًا، ولد فى الري، وتلقى ثقافته فى الفلسفة اليونانية فى نيسابور، له عدد من الكتب طبع منها: «الكلم الروحانية من الحكم اليونانية»، وقد طبع فى دمشق سنة ١٩٠٠. وقد عمل ابن هندو فى بلاط البويهيين حتى وفاته سنة ٤٢٠هـ.

(٢) ولد ابن سينا عام ٣٧١ هـ أو عام ٣٧٤ هـ فى رواية أخرى. وقد مات العامري سنة ٣٨١ هـ، ولذلك يصح لروزنتال أن يستبعد ما تردد على ألسنة كثير من الباحثين من الاتصال العلمي بينهما. وقد يكون السبب فى ذلك أن ابن سينا عنى بالإجابة عن مسائل معينة كان قد أثارها العامرى من قبل. ولايعني ذلك فى تاريخ العلوم اتصالاً علميًا مباشرًا بين الرجلين، كما فهم الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين فى تحقيقهما لكتاب «الإمتاع والمؤانسة»، هامش ج١ ص ٣٦، وكما فهم من بعدهما إبراهيم الكيلاني فى تحقيقه لكتاب: «البصائر والذخائر»، ج١، ص ٥١٥، الهامش، بناء على أن من جملة كتب ابن سينا كتاباً عن الأجوبة لسؤالات العامرى (المترجم).

(٣) وهذه الكتب كما جاءت فى ذلك الكتاب هي: «الإبانة عن علل الديانة»، و«الإعلام بمناقب الإسلام»، و«الإرشاد لتصحيح الاعتقاد»، و«النسك العقلي والتصوف الملي»، و«الإتمام لفضائل الأنام»، و«التقرير لأوجه التقدير»، و«إنقاذ البشر من الجبر والقدر»، و«الفصول البرهانية للمباحث النفسانية»، و«فصول التأدب وأصول التحبب»، و«الإبشار والإشجار»، «الإفصاح والإيضاح»، و«العناية والدراية»، و«الأبحاث عن الأحداث»، و«استفتاح النظر»، و«الإبصار والمبصر»، و«تحصيل السلامة عن الحصر»، و«الأسر»، و«التبصير لأوجه التعبير»، انظر كتاب «الأمد على الأبد»، ص ٥٦. (المترجم).

(٤) لايعني ذلك ضرورة شيئا يثير الشك فى عقيدة العامري من جهة التوحيدي، وإنما كان ذلك أثرًا من آثار الصراع الفكري بين علماء السنة وفلاسفة الإسلام، ابتداء من الكندي حتى ابن سينا وابن رشد فيما بعد، فقد اتهم كثيرون ممن حاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة والتقريب بينهما بصورة ما، باتخاذ هذه الدعوة ستارًا للكيد للإسلام كما روى التوحيدي عن بعض خصوم الفلاسفة فى هذا المقام. كذلك رمى الغزالي بعد ذلك ابن سينا وغيره من الفلاسفة بالكفر في عدد من المسائل، كما نرى فى كتابه: «تهافت الفلاسفة». ويبدو أن العامري قد عانى ما عاناه غيره من الفلاسفة من قبل ومن بعد: «فما زال مطرودًا من صقع إلى صقع، ينذر دمه، ويرتصد قتله، فمرة يتحصن بفناء ابن العميد، ومرة يلجأ إلى صاحب الجيش بنيسابور، ومرة يتقرب إلى العامة بكتب يصنفها فى نصرة الإسلام، وهو على ذلك يتهم ويقذف بالإلحاد، وبقدم العالم، والكلام فى الهيولى والصورة، والزمان والمكان، وما أشبه ذلك من ضروب الهذيان التى ما أنزل الله بها كتابه، ولا دعا إليها رسوله، ولا أفاضت فيها أمته. ومع ذلك يناغي صاحب كل ذي بدعة، ويجلس إليه كل منهم، ويلقي كلامه إلى كل من ادعى باطنًا للظاهر وظاهرًا للباطن. وما عندى أن الأئمة الذين يأخذ عنهم ويقتبس منهم كأرسطو طاليس وسقراط، وأفلاطون - رهط الكفر - ذكروا في كتبهم حديث الظاهر والباطن، وإنما هذا من نسج القداحين فى الإسلام، الساترين على أنفسهم ما هم فيه من التهم». «الإمتاع والمؤانسة»، ج٢، ص ١٦. (المترجم)

بينما كان يضمر فى حقيقة الأمر أفكارا فلسفية إلحادية[١].

من أجل ذلك سرعان ما غطى النسيان على شهرة العامري بعد وفاته، فلا نكاد نجد من آثاره إلا إشارات عابرة لدى علماء العصور المتأخرة. فأما فى الدراسات الحديثة فإن العامري لايظفر بنصيب أفضل من اهتمام الدارسين ، فحيث تسوق المناسبة ذكر اسمه، لايكاد يحقق الباحثون - عادة - فكرة واضحة عن صاحبه، وفى ملحق كتاب «تاريخ الأدب العربي» الذي وضعه كارل بروكلمان يرد ذكر العامري فى ثلاثة مواضع[٢]. ولقد كان بول كراوس أول من التفت إلى مكانة العامري، كما كان أول باحث يهتم بأحد أعماله اهتماما خاصًا[٣]. وعندما كتبت إلى كراوس أسأله أن يمدني مما يعلم بتفصيل أوسع عن هذا العمل، كتب إلى من سوريا بتاريخ ٢٩ يوليو (تموز) سنة ١٩٣٩ ما نصه - مترجمًا عن الألمانية: «في نيتي أن أتمكن من دراسة كتاب «الإبصار» للعامرى ، وعدد من كتبه الأخرى في وقت ما في المستقبل». وكتاب «الإبصار» دراسة هامة فى نقض علم الكلام، تتعرض في الوقت نفسه لمشكلات الإبصار من وجهة النظر الفلسفية[٤].

ومن حسن الحظ أن الزمان قد حفظ لنا قدرًا كبيرًا من آثار العامري العلمية، فلدينا كثير من أقواله وتعليقاته الفلسفية، إذ أن جانبًا من النصوص المقتبسة من كتبه يستطيع القارئ أن يلتمسها فى كتاب : «صوان الحكمة»[٥] لأبي سليمان السجستاني[٦] ،

---

(١) لم أجد فى نصوص التوحيدى ما يؤيد ما ذكره المؤلف من اتهام التوحيدى للعامرى بإضمار الأفكار الفلسفية ذات الطابع الإلحادى مع التظاهر بالتأليف فى الدفاع عن الإسلام اكتسابًا لرضا العامة . وربما كان روزنتال يعتمد فيما ذهب إليه على النص الذي أشرنا إليه فى الحاشية السابقة. غير أن هذا النص يأتى فى الحقيقة على لسان الحريرى فى مناظرة الليلة السابعة عشرة من ليالي «الامتاع والمؤانسة» ج٢ ، ص ١٥. وهو لا يعبر بالضرورة عن رأى أبى حيان الذى يقول فى وصف كتاب العامرى : «إنقاذ البشر من الجبر والقدر»: «وهو كتاب نفيس ، وطريقة الرجل قوية» نفسه ج ١ ص ٢٢٣ ، ويقول عنه فى موضع آخر : «كان الرجل لكزازته، وغلظ طباعه ، وجفاء خلقه، ينفر من نفسه، ويفرى الناس بعرضه، فإذا طلب منه الفن الذى قد خص به، وطولب بتحقيقه وجد على غاية الفضل» ج ٢ ، ص ٨٤. (المترجم).

(٢) الجزء الأول ص ٧٤٤، وص ٩٥٨ ، وص ٩٦١، قارن ذلك أيضًا بما ورد فى الطبعة الثانية لكتاب «تاريخ الأدب العربي»، الجزء الأول ص ٢٣٦ .

(٣) انظر عرض كراوس لكتاب «تاريخ الأدب العربى» فى مجلة «أورينتاليا» Orientalia، السلسلة الجديدة (سنة ١٩٣٧ ص ٢٨٨).

(٤) اسم الكتاب كاملا هو «الإبصار والمبصر». والإبصار مسألة كلامية أيضًا من حيث تعلقه بما أثير حول رؤية الله يوم القيامة، فقد قال بها بعض أهل السنة ، ونفاها المعتزلة لما يقتضيه ذلك من التحيز والمكانية، وغير ذلك من أعراض الممكنات مما يستحيل على الواجب المنزه عن الأعراض. (المترجم)

(٥) حققه مع ثلاث رسائل من تاليف أبى سليمان السجستانى الدكتور عبد الرحمن بدوى ، طهران، ١٩٧٤. (المترجم)

(٦) بالإضافة إلى الفصل الخاص بالعامري فى هذا الكتاب انظر ايضًا تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى لكتاب «مسكويه جاويدان خرد»، ص ٣٤٧ فما يلي طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢. ويشير صوان الحكمة إلى العامري فى مواضع أخرى غير الفصل السابق. وانظر أيضا ما كتبه «ر. والزر» R. Walzer فى دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية فى مقاله عن أفلاطون.

كما يجدها فى كتابي أبى حيان التوحيدى : «الإمتاع والمؤانسة»، و «المقابسات». ولدينا بالإضافة إلى ذلك دراسات أربع من تأليف العامرى ، أولها تلك المخطوطة التي عثر عليها كراوس فى دار الكتب المصرية، ومخطوطتان أخريان في مكتبة جامعة برنستون تحملان رقم ٢١٦٣ (٣٩٣ ب)[١] وأخيرًا كتاب : «الإعلام بمناقب الإسلام» الذى توجد منه نسخة خطية ضمن مخطوطة إستانبول المعروفة بمكتبة راغب رقم ١٤٦٣ فى الورقات ، ١ - ١٢٨أ. على أن هذا الكتاب لم يجد من يهتم بتحقيقه والتعريف به تعريفًا علميًا موثقًا[٢]، وأغلب ظني أن بول كراوس كان على علم بوجود هذا الكتاب فقد رجع إلى أجزاء أخرى من نفس المخطوطة عند تحقيقه لبعض أعمال الرازي الفلسفية[٣].

ولقد تسنى لي دراسة كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام» على عجل أثناء إقامتى بإستانبول سنة ١٩٥٢ ميلادية ، ثم تفضل المسؤولون في تلك المكتبة التركية - بما عهد فيهم من استعداد ورغبة صادقة فى العون - بتصوير هذا الكتاب بالإضافة إلى بقية أجزاء المخطوطة (راغب ١٤٦٣) .

ويقدم كتاب «الإعلام» - كما يدل على ذلك عنوانه نفسه - دفاعًا عن الإسلام ضد الفلاسفة وفرق الباطنية. وفى هذه الدراسة يبدو موقف المؤلف من تعاليم الإسلام السنية موقف التأييد التام ، ذلك أن غايته التي يطمح إلى بيانها فى هذه الدراسة هى أن يقيم البرهان على أن الإسلام يفوق جميع الأديان الأخرى فى موقفه من المشكلات الجوهرية التى تواجه البشرية ، وذلك مثل مشكلة التنظيم السياسى ، ومسألة التفرقة العنصرية ، وقضايا العلم والمعرفة . ولعل من الجوانب التى تستحق التقدير بصفة خاصة ما يتصل بآراء العامري فى السياسة ، كما تبدو واضحة فى هذا الكتاب؛ ولذلك كان اختيارنا لترجمتها فى هذا المقال.

يبدأ الفصل الخاص بفضل الإسلام فيما يتصل بسلطة المُلْك - شأنه فى ذلك شأن بقية فصول الكتاب - باقتباس عدد من الأقوال المنثورة التي لا تربط بينها رابطة واضحة فى ظاهر الأمر ، ولكنها تتضمن فى الحقيقة خلاصة ما يدور فى عقل المؤلف حول الموضوع الذي يعرض له فى هذا الفصل . ووفقا لهذه النصوص فإن سلطة المُلْك

---

(١) يشير إليهما بروكلمان فى كتابه «تاريخ الأدب العربي» على أنهما عمل واحد.

(٢) كان ذلك صحيحا حين كتب روزنتال هذا المقال، ولكن باحثًا مصريًا حديثًا هو الدكتور أحمد عبد الحميد غراب قد قام بعد ذلك بنشر هذا الكتاب نشرًا علميًا محققًا ، كما قام بالتقديم له، والتعريف بمؤلفه تعريفا كافيا ، والكتاب من منشورات دار الكاتب العربى سنة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ ، كما سبقت الإشارة . (المترجم)

(٣) مثل: «رسائل فلسفية» لمحمد بن زكريا الرازي (ج١ ، ١٩٣٩) منشورات الجامعة المصرية - كلية الآداب ، انظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين ص ٣٢٧ ، بيروت، دار العلم للملايين. (المترجم)

- التي يمكن أن نستخدم هنا مصطلحًا حديثًا للتعبير عنها هو «الدولة» - يتوقف قيامها على موقف الفرد نفسه؛ ذلك أن أخلاق الحاكم هى التى تقيم الدولة أو تهدمها، فهو باستمساكه المطلق بأسس العدل فيما يفعل ، وركونه إلى حياة حافلة بالعمل ، شأن جميع الأحرار - أى بكونه قادرًا على حمل أمانة المسؤولية - يهيئ لأفراد رعيته مجال القدرة على الازدهار الفكري والخلقي ، والإفادة من ملكاتهم الكامنة .

تلك هي الفكرة الأساسية التي تتخلل سطور العامرى كلها فى هذا الفصل .

وأما الوسيلتان اللتان يتمكن بهما الحاكم ذو المحامد الرفيعة من التصرف في أمور الدولة فهما : المال، والإخوان؛ ذلك أن قدرًا كافيًا من المال ، بالإضافة إلى نفوذ الحاكم في الإخوان الذين يعتمد عليهم يمثلان الطريق إلى سلطة الدولة وقوتها.

على أن القوة في ذاتها ليست شرًا خالصًا أو خيرًا خالصًا ، شأنها فى ذلك شأن جميع الوسائل المادية والفكرية التي تخضع لإرادة الإنسان، وإنما تتعين قيمتها الأخلاقية ، وأثرها العام بتعين الغاية التي تستخدم من أجلها . فالقوة إذا أسيء استخدامها تؤدي إلى الطغيان (أو الاستبداد ، أي الدكتاتورية بالمصطلح الحديث). وعلى عكس ذلك ، فإن القوة إذا أحسن استعمالها صارت إلى الحكومة الرشيدة التي يُسميها المؤلف الإمامة (الخلافة) . ومن سوء استخدام القوة أن يسعى إليها من يطلبها لذاتها ، ذلك أن الاستخدام الصالح للقوة فى رأيه هو ذلك الاستخدام الذي يحرص على تحقيق الفضيلة وتحصيل السعادة الأبدية للحاكم من جهة ، والرعية من جهة أخرى ، على الرغم من أن نص العامري لا يشير إليها فى وضوح تام .

ومثل هذه النظرية السياسية فى الدولة التى تقوم على تحقق الحاكم بمكارم الأخلاق تكل إلى الدين ذلك الدور الهام فيما يحتاج إليه من الإرشاد والتوجيه الخلقي.

وقبل أن يعرض العامري لرسالة الدين الخاصة فى هذا الصدد يبدأ بتقرير ثلاث حقائق يراها بديهية لا يرقى إليها الشك ، أولها : أن هذا العالم لايستغني عن كل من قوة الدين الروحية ، وقوة الدولة السياسية ، وثانيها : أن وجود هاتين القوتين من لطف الله بالإنسان ، وأما ثالثها : فهو أن قوة الدين هى الأصل. وتتحقق رسالة الدين الخاصة التي تتصل بذلك الإرشاد الروحي اللازم خير ما تتحقق فى دين واحد، هو الإسلام الذي تتفق تعاليمه تمامًا مع فكرة المؤلف عن الدولة الفاضلة . فالإسلام - بخلاف كثير من الأديان الأخرى - يبدي اهتمامًا خاصًا بالقوة المادية فى المجتمع الإنسانى الذي لا يكف عن الحركة. وعلى نقيض ما تذهب إليه اليهودية والمسيحية (اللتان

يستشهد العامري كثيرًا بنصوصهما المقدسة فى الفصول التالية من كتابه) يحرص الإسلام على أن يشق طريقًا وسطًا بين كل من الغرور (المادي) والزهد (الروحي) كأساس أخلاقي لبناء الشخصية الإنسانية. وأكثر ما يعنى الإسلام بتأكيده هو كرامة الفرد وحاجته الدائمة إلى السعي إلى التحقق بمعانى الفضل، وهو بهذا يتميز عن الزرادشتية تميزا واضحا[١]. فالزرادشتيون (أي الفرس قبل الإسلام)، كانوا يقيسون مكانة الفرد الاجتماعية، بحسب ما ثبتت عليه بصفة نهائية، وفقا لمكانة الأسرة التي ينتمي إليها. أما الإسلام فإنه يعترف بحق الفرد فى التقدم والترقى بحالته الاجتماعية من مرتبة إلى مرتبة. وفى كل هذا ما يجعل الإسلام الدين الأمثل للدولة الفاضلة.

وهناك بالإضافة إلى ذلك ما يقدمه الإسلام فى شخصية محمد - ﷺ - من خصوصية الجمع المتفرد بين القوة الروحية والزمانية كمثل أعلى يقتدى المسلمون بسنته. وتحظى مسألة لجوء النبي إلى استخدام القوة فى غزواته، باهتمام خاص من جانب العامري الذى قد تعزى حساسيته الشديدة فى هذه المسألة إلى نقد أعداء الإسلام لحياة مؤسسه الأول.

وفى هذا الصدد يتساءل العامري حول ما يبدو لنا من أعماله - ﷺ - كأنه لون من النشاط الحربى: هل وسم مثل هذا النشاط الدولة التى أقامها الرسول بصبغة الاستبداد السياسي؟ هنا يدلل العامرى فى إسهاب مفصل على أن لجوء النبى إلى القوة

(١) يشير العامري فى ص ١٨١ من النسخة المطبوعة لكتاب الإعلام إلى الأفستا والزند والبازند قائلا: «وللمجوس كتاب يعرف بأبستا، وقد فسر بكتابين آخرين يعرفان بزند وبازند، وهى متضمنة ذكر مصالح عيشهم. إلا أن العادة بتفريع السائل الحادثة معدومة فيهم، فإن أديانهم محمولة على التقليد المحض، وأبواب النظر محظورة عليهم، وليس لهم أن يتجاوزوا المنصوص فى الاستنباط». غير أن من المحتمل أن العامري لم يتسنّ له اطلاع مباشر على هذه الكتب، كما يقول روزنتال. وفى صفحة ١٨٢ يحاول العامري أن يقيم البرهان على أن الإسلام هو أكثر الأديان سماحة فى تقبل الثقافات الجديدة» ... ثم وجدنا الألباء من أهل الإسلام قد سعوا مع ذلك (اى بالإضافة إلى العلوم الإسلامية، مثل: التفسير، والحديث، وعلم الكلام، والفقه) بحسن توفيق الله تعالى لنقل الكتب المنسوبة إلى ذوي الشهرة من حكماء الروم، وحكماء الفرس، وحكماء الهند، وحكماء يونان، واستقصوا تأمل معانيها، وحلوا مواقع الشبهة منها، وتولوا شرحها وإذاعتها، وتأدبوا فى أبوابها بكمال تاديب الله تعالى جده بقوله جل اسمه: ﴿فبشر عباد. الذين يستمعون القول، فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب﴾ (١٨ - الزمر)، واستعملوا فى معانيها قول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «العلم كثير فخذوا من كل شئ أحسنه».

وفى هذا السياق يتناول العامري الإسلام كمفهوم حضارى بحيث يجوز عنده أن ينتسب إليه غير المسلمين من العلماء: «وليس لقائل أن يقول: إن الأكثرين من المترجمين كانوا يتدينون بالنصرانية وبالصباوة- فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لما شاهدوا من قوة الإسلام وشرفه، وما كان قصدهم إلا التقرب إلى الخلفاء الضابطين لعرى الإسلام وقواعده». «الإعلام» ص ١٨٣، وبهذه الصفة فإن أعمال هؤلاء العلماء عندنا تنتسب إلى الإسلام والثقافة الإسلامية باعتبار حق المواطنة فى الدولة الإسلامية (المترجم).

لم يكن فى الحقيقة إلا لخير هؤلاء الذين أخذوا بها ، ومن ثم كان ذلك صوابا من وجهة النظر الأخلاقية ، بل هو فى حقيقة الأمر يستوجب التقدير والثناء.

وهناك بعد ذلك قضية يطرحها العامري ، على غير توقع فى هذه المناسبة، تتمثل في الفكرة الشائعة التي تقول بأن الانتماء إلى العنصر العربى دليل الفضل الديني. وتحشد ملاحظات العامري فى هذا الصدد تفصيلات دقيقة ليس لها مكان على الحقيقة في مثل هذا العرض العام الذى يقرر الأصول الأولية للموضوع. وفى هذه الملاحظات لا يبدو العامري مؤيدًا لدعوى العلويين فى إمامة المسلمين ، وإنما يهدف إلى إعلاء شأن العرب على حساب غيرهم . ولايجد الباحث حتى الآن ما يمكن أن يوضح المغزى الحقيقى لاهتمام لعامري فى هذا المقام ببيان فضل العرب على غيرهم، وهذا نفسه ما ينطبق على ملاحظاته الختامية فى نهاية الفصل الذى نقدم له هنا حيث يلمح العامري إلى قوم يظنون أنفسهم - لاختلافات مذهبية - ذوى مكانة تفوق مكانة قوم آخرين من أصل عربي. ومثل هذه الفكرة تبدو خارجة على سياق الكلام فى الفصل كله ، وخصوصًا ذا تذكرنا أنها ترد على لسان رجل فارسي المولد[1] على الرغم من أنه قد يكون من أصل عربي [2].

هذه الملاحظات العامة ليست إلا محاولة لتتبع سطور العامرى وأفكاره القيمة حول موضوع الدين والدولة. ويبدو أثر الفلسفة اليونانية ونظرياتها الخاصة واضحا فيما كتبه العامرى[3]. كذلك توحي مناقشته للموضوع إيحاء خفيًا باهتمامه بعلم

(١) فى عبارة روزنتال مايوحى بتعجبه لتحيز العامري للعرب على الرغم من أصله الفارسي. والحق أن الإسلام يسوي بين المسلمين ، ويفسح مجالا للقوميات على اختلافها للتعايش والتعاون كي يفيد بعضها من بعض. ولا يستطيع منصف أن يغض من شأن روح المساواة والإخاء التي شاعت بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وألسنتهم خلال عصور التاريخ الإسلامي. غير أن نزعة الشعوبية التي جرى على التمسك بها بعض الفرس لأسباب سياسية ، اقتضت أن يرد عليها بعض العرب دفاعًا عن مكانتهم في الإسلام، ويمكن أن نفهم عبارة العامري على ضوء هذا السياق الدفاعى على الرغم من فارسيته. (المترجم) .

(٢) تنسب بعض العبارات التى تشيد بفضل العرب إلى بعض المشهورين من أنصار الفرس أحيانًا، ولكن الحال هنا يختلف عن ذلك.

(٣) فيما يتعلق بالفكر السياسي اليوناني فى الثقافة الإسلامية انظر بصفة خاصة ما كتبه روزنتال وأشار إليه فى مقاله عن «مكانة السياسة في فلسفة ابن رشد» فى مجلة : «معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن» ، ج ١٥ ، ١٩٥٣م ، ص ٢٢٧ ، وما يليها، وانظر أيضا مجموعة النصوص التي نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوي فى كتابه: «الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام - القاهرة - ١٩٥٤. وكثيرًا ما يتحدث الباحثون عن إسهام الفرس فى علوم السياسة عند المسلمين، ولكن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث واسع وجهد دراسي عميق ، حتى يتسنى لنا فهم هذا الإسهام الفارسى وتقدير مداه. وفيما يتصل بالعامرى فإن هناك دراسة في علوم السياسة من القرن العاشر قد تكشف إلى حد كبير عن جوانب جديدة فى الموضوع ، وقد تناول أ.ج. أربرى هذه الدراسة بالعرض وكشف عن مغزاها الحقيقي في براعة تامة فى مقاله المنشور بالمجلة الفصلية : (Islamic Quarter-ly)، الجزء الثانى سنة ١٩٥٥ ، فى الصفحات ٩ - ٢٢.

السياسة الفارسي (الذي قد لايكون على كل حال سوى معبر لنقل النظرية السياسية اليونانية للمسلمين من حيث جانبها النظري الخالص على أقل تقدير). ودولة العامري التى تقوم على هذا الأساس العلمانى تؤيدها تعاليم الإسلام - كما يفهمها هو نفسه - خير تأييد ، وهي التعاليم التي تعلي من شأن الفرد ، وتكشف عن فهم أكثر عمقًا لواقع الحياة السياسية من تعاليم أى دين آخر .

ويبدو أن ذلك المركب الثقافى الذكى للأفكار السياسية المختلفة الذي نجده في كتاب «الإعلام» هو من إضافة العامري الشخصية فى الموضوع. وإذا تيسر لنا أن نتتبع كثيرًا مما يقوله العامري هنا وهنالك فى بعض المصادر الأخرى فإننا لا نستطيع فى بعض الأحيان أن نعثر فيها على نظير لبعض ما يردده فى كتابه. على أن إلماما أوسع بتفكير معاصريه سوف يكشف عن موافقة كثير منهم له فى موقفه من قضية العلاقة بين السلطة الروحية وسلطة الدولة فى الإسلام. ومهما يكن من أمر فإننا لا نملك - فى حدود ما وصلت إليه معرفتنا بالعصر - إلا أن نعد بحث العامري فى الموضوع عميقًا وأصيلاً ، فهو - على الرغم مما قد يبدو فيه من بعض الثغرات أحيانًا - بحث على قدر كبير من الجودة . ومع ذلك فهو يمثل إحدى الحالات النادرة التي يبدو فيها الإيجاز الشديد فى العرض، كأنه العيب الوحيد فى الموضوع ، بل إن هذا المفكر الذي عاش في القرن العاشر قد يجد قبولا لدى المهتمين بالعلوم السياسية فى العصر الحديث، بتأكيده على تداخل العلاقة بين الدين والدولة وتخارجها في الوقت نفسه ، وبوقوفه ثابتًا على أرض الواقع من غير تضحية بما يليق بكل تأمل فلسفي من سمو ورفعة .

النص[١]

«القول في فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى المُلْك»

من رضي لنفسه أن يكون فى بعض شيمه حرًا ، وفى بعضها عبدًا فليس هو بذي نفس أبية.

ومن حاد عن الأفعال الجيدة لفرط الشغل تعجلا إلى الراحة ، فليس هو بذى همة عليّة.

ورغبة الملوك فى الأدب تحيي الأدب ، وعند استقامة طرائقهم يقوي الذّب، وعند اجتبائهم أهل الفضل تظهر الفضيلة. ولن يفرح العاقل بالنعمة التي لا يستحقها ، والمنزلة التي ينالها باسم غيره، والفلج (النصر والغلبة) الذي يكون من جور الحكم ، والظفر الذي يتفق مع ارتكاب الخطار .

ولن يبلغ ألف رجل من إصلاح رجل واحد بحسن القول دون حسن العمل ما يبلغ رجل واحد فى إصلاح ألف رجل فى تصديق القول بالفعل .

وكما أن الأعمى لا يمكنه أن يهدي ، والفقير لا يمكنه أن يغني[٢] كذلك أيضًا لايستصلح أحد غيره إلا بعد إصلاح منه لنفسه .

وإذ تقرر هذا فمن الواجب أن نصرف السعى إلى ما هو غرضنا من القول ، فنقول: إن أعم المعانى الضرورية التي (تتم بها الرياسة) شيئان :

أحدهما : النبوة الصادقة .

والآخر : الملك الحقيقي.

---

(١) أورد المؤلف هنا ترجمة للنص نقلاً عن المخطوطة التى أشار إليها (راغب ١٤٦٣) ، وقد رجعت هنا إلى الأصل نقلا عن الكتاب الذي حققه الدكتور أحمد عبد الحميد غراب، الفصل السابع من الكتاب ، ص ١٥١ ، مع إثبات تعليقات المؤلف.

(٢) قارن هذا بما ينسب إلى أرسطو فى كتاب : «مختار الحكم» للمبشر من أنه قال : «اعلم أنك غير مستصلح رعيتك وأنت فاسد ، ولا مرشدهم وأنت غاو ، ولا هاديهم وأنت ضال ، فكيف يقدر الأعمى أن يهدي، والفقير أن يغني ، والذليل أن يعز، والضعيف أن يقوي؟ واعلم أنه ما استصلح المستصلح غيره إلا بصلاح نفسه ، ولا أفسد المفسد سواه إلا بفساد نفسه ، فإن رغبت فى صلاح من وليت أمره ، فابدأ بصلاح نفسك، وإن أردت دفع العيوب من غيرك ، فطهر منها قلبك ، فإنك لا تقدر على تطهير غيرك وقد دنست نفسك ، كبعد المتطبب من إبراء غيره من داء به مثله» إلخ.

ولا رياسة فى العلم والحكمة فوق رياسة النبوة ، ولا رياسة فى الاقتدار والهيبة فوق رياسة الملك. ولن يتفق للإنسان ، ولا واحد منهما إلا بموهبة سماوية. وقد قال الله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٥٤ – النساء) وحكى عن موسى فى مخاطبته قومه : ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾. (٢٠ – المائدة).

فإذ كان هذا غير مشكوك فيه ، فمن الواجب أن نعلم يقيناً أنه ليس أحد أحوج إلى تشريف جوهر مكارم الأخلاق من طبقات الملوك ، فإنهم على الحقيقة أسوة لمن دونهم، وكالمرآة لغيرهم . ومتى لم تكن المرآة أصفى من وجه الناظر إليها لم ترد شارته على التمام. وأيما ملك لم يبالغ فى قهر الدني من أخلاقه لم يستمتع بحسن الثناء عليه، ولم يمكنه دفع العيوب عن رعيته.

وإذ عرف هذا ثم تحققنا أيضًا أن محل الدين من الملك محل الأس من البنيان ، ومحل الملك من الدين محل المتعهد للأركان[1] – فمن الواجب أن نعلم أنه لن يحكم لدين من الأديان بتحصيل الكمال إلا إذا وجد ضامًا فى نفسه مكارم الأخلاق ، ليتصرف به المتدين بين عائدتي الحمد والأجر .

ولن يشك أن حيازة المحامد الرفيعة لن تتأتى للإنسان إلا بالمعاون الخارجة : أعني المال والإخوان . أما المال فلما تعلق به من إظهار الجرأة ومواساة الأقارب ، والأفضال على الأصحاب ، والتفقد للجيران . وأما الإخوان فلما تعلق بهم من الاقتدار على الأعداء ، والدفع عن الحريم ، والأنفة عن الذلة[2] والمعاونة بالجاه.

ومعلوم أن الديانات المحرمة على أهلها اقتناء المال ، والباعثة على اعتزال الناس معدمة لأهلها هذا الصنف من المحامد. ثم لايشك أيضًا أن السياسة فى نفسها مفتتة إلى صنفين ، وأغراضها متنوعة إلى نوعين ، ولوازمها منقسمة قسمين : أما أحد

---

(١) قارن هذا بالملاحظة التى يكثر المؤلفون المسلمون من اقتباسها والتى يظن أنها من أصل ساسانى وهى : «أن الدين والملك أخوان توأمان ، فالدين أس والملك حارس» . وهذه العبارة نفسها يقتبسها ابن مسكويه الذي عاصر العامري فى كتابه : «تهذيب الأخلاق» ، ص ٤٦ ، (طبعة القاهرة – ١٣٢٢). وانظر ايضا أسامة بن منقذ فى كتابه : «لباب الأداب» ، ص ١٨ (طبعة القاهرة ١٣٥٤هـ – ١٩٣٥م) راجع أيضا ج.ا فون جرونباوم فى بحثه: (الإسلام : دراسات فى Isalm,Essays in the Nature and Growth of a Cultural Treadition P. 174 خصائص تراث حضارى وتطوره ، ص ١٧٤) وذلك بمجلة : The American Anthropologist, Vol (vii, no. 2, -part 2, Memoir no. 81, 1955) :).

(٢) فى اصل النص : «الزلة» وهو تصحيف. (المترجم)

صنفي السياسة فالإمامة ، وغرضها تحصيل الفضيلة ، ولازمها نيل السعادة الأبدية. والصنف الآخر من السياسة التغب[1]، وغرضها استعباد الخليقة ، ولازمها الشقاء والخدمة .

وقد علمنا أن كل قنية أمكن أن يستعملها الإنسان[2] استعمالاً حسنًا ، وأن يستعملها استعمالاً رديئًا - فإنها لا محالة تصلح بصلاح الغرض، وتفسد بفساده. ومثاله: أن الفقهاء لما جعلوا غرضهم من صناعتهم الشريفة العائدة بمصالح الدارين الترؤس على العامة ، والحظوة عند السلاطنة ، والتسلط على أملاك الضعفاء ، واستعمال الرخص في إبطال الحقوق - انقلبت الصناعة عن استحقاق الحمد إلى استجلاب المذمة، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾(سورة الماعون ٤-٧).

فمن الواجب إذًا أن نعلم يقينا أن صناعة الملك والسياسة مهما استعملت استعمالا حسنا ، فإن المعتق لها ، والمستقل بأعبائها يصير لا محالة مجتلبا لشرف الإمامة ، ويصير خليفة اله - تعالى جده - فى استصلاح الخليقة . ومهما استعملت استعمالا رديئا فإن صاحبها والمفتخر بحيازتها يبتلى من الضرورة بصفة المتغلبين ، ويعد بقاؤه فضيحة لزمانه . وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : «الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله وإلى رسوله فهجرته إلى الله وإلى رسوله ، ومن كانت هجرته إلى مال يصيبه أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». (متفق عليه).

وإذ تقرر هذا فمن الواجب علينا أن نجيل الفكرة فيما خص الله تعالى به محمدًا - عليه الصلاة والسلام - من سعة الذكر بما جمع له من النبوة والملك وصيرهما من كمال القوة بحيث طبقا واسطة العالم ، واستخلصا لباب العمران ، وحازا أسرة الممالك، فاجتمع لملوك دعوته محاسن الرسوم الشريفة المأخوذة من أحكام الدين الحق ومحاسن المثل السلطانية المأخوذة من أشوس ملوك الأرض: أهو بالإمامة أشبه أم بالتغلب؟ وخصوصًا إذا وجدناه مستعملا للسيف فى موضعه ، كاستعماله الإرشاد فى وقته ، فنقول : لسنا نشك أن الوقائع الحربية بين أصناف الخليقة لن تقع إلا على

(١) يترجم روزنتال هذه الكلمة : tyranny ، ويعلق على ذلك بقوله إن الترجمات العربية عن اليونانية كانت تعبر عن الكلمة اليونانية : Tyranos بكلمة «غلب» (المترجم)

(٢) فى ترجمة العبارة ما يوحى بأن روزنتال قد فهم أن جملة : أمكن أن يستعملها الإنسان «تقع خبرًا» والصحيح انها صفة، والتقديران يختلفان فى توجيه المعنى عند التأمل. (المترجم)

جهات ثلاثة وهي: الجهاد والفتنة والتصعلك. فأما الجهاد : فهو الذي يتولاه عمار البلاد ، وساسة العباد ، من الدفاع عن الدين ، والصيانة للمراتب . وأما الفتنة ، فهو ما يقع بين طبقات الأمم من الهيج والقتال ، لتعصب بلدي ، أو تعصب نسبي(١). وأما التصعلك : فهو ما يقصد به انتهاب المال ، واستلاب الأملاك. فالنوع الأول نتيجة القوة التمييزية، وهو محمود عند ذوى الألباب. وأما النوعان الآخران فأحدهما نتيجة القوة الغضبية ، والآخر نتيجة القوة الشهوية ، وكلاهما مذموم عند ذوى الألباب.

ونحن متى تتبعنا حال محمد - صلى الله عليه وسلم - فى حروبه ووقائعه وجدناه جاعلاً لقصارى غرضه من الثبات القوى فى مصاف القتال كلمة يبذلها خصمه قريبة من الإقرار بوحدانية من له الخلق والأمر، والتصديق بما أرسل إليه من عنده - جل جلاله - ، حتى إذا وجدها منه أغمد عنه سيفه ، وأوجب على نفسه حمايته. ومتى ألفاه مصرا على منابذة الحق صرف ما حواه ذلك الخليع من مال الله تعالى في أبواب البر ، ومكاسب الأجر ، ومعونة من جرد العبودية لخالق البرية ، من غير أن يرتاح للتلذذ به أو يبتهج بالتمتع من زهراته ، فخرج من الدنيا بعد استخلاص ممالك جزيرته لأهل دعوته، على تلك السوية، والوتيرة الصادقة ، صابرًا على بؤسه وضيق حاله ، صارفًا همته إلى عبادة خالقه ، لا يجنح إلى شيء من زخارف الدنيا ، ولايغتر بأطايبها.

وإذ كان هذا دأبه، وعليه ديدنه فى عامة أنحائه وصنوف وقائعه لم يشك أنه - ﷺ - كان متمسكًا فى سيره بصورة عبد قد أخلص الولاية لمولاه ، وعلم أن عباده كلهم قد انتهكوا حرمته، وخلعوا طاعته، واستعانوا بأموالهم على أبواب عصيانه، فحملته سجية الوفاء لمولاه ، وخلق الحفاظ لأياديه على نهيهم وزجرهم، فبالغ فيه القول اللطيف أزمنة طويلة، حتى إذا أيس من ارعوائهم، وأيقن أن الوعظ لاينجع فيهم ذهب فى علاجهم مذهب الطبيب المتحدّب الذي خاف إتيان الداء العضال على نفس العليل، وعلم أن السبيل إلى استبقائه غير موجود إلا بقطع عضو من أعضائه، فأوقع فى مغازيه بعدد من القتلى تدرجًا إلى استنقاذ الجمهور من الهلاك والردى، وذلك لتيقنه بأن المحمولين على شرف الدين فى مبدأ أمرهم كرهًا متى وقفوا على فضائل دعوة الحق أخيرا فإنهم - بعد الاستيضاء برونقها - سيعتدون له بجسيم المنة وجزيل النعمة، ويقبلون على خدمة مولاهم، ليتلافوا به فارطهم (مامضى منهم وقصروا فيه) فتصير أحوالهم فيه شبيهة بحال المأخوذ فى صغره بالتأديب - وهو يبغض مؤدبه - حتى إذا عقل وانتبه أيقن موقع النعمة العظيمة ، فالتزم شكره ، واعتقد إحماده .

(١) المرادف الحديث لكلمة بلدي ونسبي هو : قومي وعنصري ، ويستخدم العامري كلمة «جيل» للدلالة على «الجنس» بصفة خاصة. (المترجم)

وإذا كانت الشريعة الإسلامية مؤسسة منه - ﷺ - على هذه السنة الحميدة، فقد علم أن من خلفه في اعتناق المهم من أمر السياسة والملك، متى حسن غرضه منه، واقتدى في جميع ما يتعاطاه بسنته، فهو لا محالة يصير إمام أهل زمانه، ومفخرًا لكل أعقابه، بل يصير رحمة للعالم ، وحجة للبشر، وأسوة حسنة، وقدوة حميدة .

وإذ كان الوضع الحقيقي[١] للملك الإسلامي بهذا المحل والجلالة - فمن الواجب أن نعلم أن الآفة متى لحقته في زمن من الأزمنة فإن الملة الحقيقية لن تصير معيبة به، والخلفاء الراشدين لن يصيروا معيرين به، كما ليس يعير أنوشروان بسيرة يزدجرد الأثيم[٢].

ثم من الواجب أن نعلم أيضًا أن الناس لما لم يكن لهم بد من الوزعة ، وكان ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن[٣] ، فإنا متى تتبعنا أحوال ملوك الأديان الستة[٤] حكم العقل الصريح بأنه لايجوز أن يوجد منها شيء بالغًا مبلغ الإسلام فى وفور القسط من

---

(١) يعلق روزنتال هنا بقوله : «يعنى بالحقيقى ما سعى إليه الإسلام ليكون وضعًا واقعيًا ، وأما نحن فنقول : بحسب النظرية الأصلية». يريد روزنتال بذلك أن ينفى عن عبارة المؤلف ما يمكن أن توحى به من دلالة واقعية على بعض فترات تاريخ السياسي بصفة عامة. على أن الفرق بين «الحقيقي» و «الواقعي» معروف ، واستخدام العامري لكلمة حقيقي هنا استخدام دقيق لايحتمل اللبس الذى شغل روزنتال حين كان يترجم النص واضطره إلى هذا التعلل . (المترجم).

(٢) فى كلام العامري تعريض ببعض حكام المسلمين بعد عصر الخلفاء الراشدين ، ولعله يقصد تشبيه معاوية وبعض الخلفاء الأمويين من بعده بيزدجرد فى طغيانه وظلمه ، فهو يقول عن معاوية فى مكان آخر من كتابه : «لاندرى أى الرجلين معاوية : أرجل زين له سوء عمله فرآه حسنا ، أم رجل أيس من الآخرة فأراد أن يتمتع بالدنيا» ، (الإعلام ، ص ١٠٦). (المترجم) .

(٣) يقرر المؤلف هنا أن هذه العبارة تنسب إلى عثمان - رضي الله عنه - فى مؤلف من مؤلفات القرن التاسع الهجرى هو : «كتاب الكتاب» لعبد الله البغدادي الذي حققه سوردل فى مجلة الدراسات الشرقية العدد ١٤ ، ص ١٤٢ (دمشق ١٩٢٤). وهو يذكر أن النص قد عرف في بعض المصادر التاريخية بعد ذلك كحديث يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ويشير إلى لسان العرب ، مادة وزع : «من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن».

(٤) يشير روزنتال هنا إلى أنه لم يفهم تمامًا المقصود بالأديان الستة التى تحدث عنها العامري فى هذا الموضع وفى مناسبات أخرى من كتابه ، وخصوصًا فيما يتعلق بالدين السادس ، بعد كل من : الإسلام واليهودية ، والنصرانية ، الزرادشتية ، والشرك. وفى ظنه أن الدين السادس قد يكون المانوية أو الهندوكية. وقد فات روزنتال أن العامري قد عين هذه الأديان الستة تعيينا واضحًا حين قال فى صفحة ١٢٢ من كتاب «الإعلام»: «وقد كان سبق القول منا بأن مدار الدارين يكون متعلقًا بالاعتقادات والعبادات والمعاملات والمزاجر ، فغير بعيد أن يعلم العاقل بأدنى الروية أنه ليس ولا واحد من الأديان الستة التي لها خطط وممالك ، وهى المذكورة بقوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾ (١٧ - الحج) إلا وله اعتقاد بشئ يجرى سعيه إليه ومنهج فى العبودية يتحرى بالتزامه إقامة الطاعة . وتحديد عدد الأديان بستة يثير فى ذهن روزنتال ما سبق أن أشار إليه «أوجرابر» O.Grabar عند حديثه عن نقش فنى يمثل حكام العالم الستة عثر عليه بين نقوش قصير عمره ، انظر مجلة : Ars Orientalis ، الجزء الأول ، ١٩٥٤ ، ص ١٨٥ - ١٨٧ . وقصير عمره هو القصر الذي شيده الوليد بن عبد الملك بين عامى ٧٠٥ و ٧١٥ ميلادية بالقرب من عمان . وهو يشتمل على عدة غرف، وقد زينت جدرانه وسقوفه بالصور الآدمية والحيوانية والزخارف والرموز المختلفة بأيدي فنانين أغلبهم من السوريين.

شروط الإيالة[١] وجزالة الحظ منها :

فإن دين اليهود مؤسس على الانتصار (المادى) المحض، ودين النصارى مؤسس على التذلل (الروحي) المحض. وفضائل الناس لن تتم إلا بامتزاج أحوال الدين والدنيا، واشتباك أسباب الآخرة بالأولى. ودين الإسلام هو المنتظم لها كلها، والوافي بعامة أبوابها. وذلك ظاهر لمن تأمل مواقعها من كتاب الله، فإنه ما من مكرمة إلا وقد جرد ذكرها، وتحرز فى غير موضع من الآيات. ولعمري إن للمجوس كتابًا يعرف بـ«أبستا»، وهو يأمر بمكارم الأخلاق، ويوصي بها، وقد أتى بمجامعها عبد الله بن المقفع فى كتابه المعروف بالأدب الكبير، وعلي بن عبيدة فى كتابه الملقب «بالمصون»[٢]، إلا أنه - مع تقدمه فى ذلك - غير لائق شيء منه بالقرآن. وكيف يظن به ذلك، وقد علم أن الشرف الإنسي عند ملوك العجم كان معلقًا بالأنساب، وكانوا يحرمون على رعاياهم الترقي من مرتبة إلى مرتبة، وفى ذلك مايعوق التراكيب السوية عن كثير من الشيم الرضية، ويقعد الأنفس الأبية عن حيازة الدرجات العلية[٣]. فلو أن دين المجوس كان مؤكدًا للأمر باقتناء مكارم الأخلاق حسب تأكيد الإسلام، لما تجاسرت ملوكها - مع شغفهم بحمايته - على مخالفة وصيته، ولوجد الشرف الإنسى عندهم معلقا بالنفس الناطقة، دون النسب الطبيعى .

وإذ كان هذا الدين من بركة تعميمه للأدنين والأقصين بالدرجة التي ذكرناها، ثم كانت قاعدته كرامة من الله تعالى جده لمحمد ـ ﷺ - فبالحرى أن نعلم أن من كانت وصلته له آكد ، وصحبته له أكثر كان قسطه من الافتخار به أوفر وأغزر. وأعنى بهذا أن لهاشم فيه ماليس لكنانة، ولكنانة فيه ما ليس لمضر، ولمضر فيه ما ليس لربيعة، وللعرب فيه ما ليس للعجم ، على اعتبار الأقرب فالأقرب نسبًا، والأوكد فالأوكد سببًا، إلا ما قطعه الدين ، فإن الذى يقطعه هو فلا واصل له[٤] ، والذى وصله هو فلا قاطع له ، وبقوته يدخل على الأرحام المتماسة فيقطع التوارث عنها.

وإذ قد أتينا على ما وعدنا به من القول فى فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى الملك فمن الواجب أن نصرف السعى إلى تبين فضيلته بحسب الإضافة إلى طبقات الرعايا .

---

(١) الإيالة : السياسة ، وفى لسان العرب : آل عليهم أولا وإيالا وإيالة : ولى وساس ، مادة أول .

(٢) هو علي بن عبيدة الريحاني ، وقد عاش فى عهد المأمون ، انظر مثلا «الفهرست» ص ١١٩ (طبعة فلوجل) ، ص ١٧٣. (طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨هـ) ، وانظر أيضًا الخطيب البغدادي : «تاريخ بغداد» ، ج ١٢ ص ١٨ (القاهرة ١٣٤٩/١٩٣١ ، و«إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» (معجم الأدباء) ج ٥ لياقوت ص ٢٦٨ فما يليها (طبعة مارجليوث) ج ١٤، ص ٥١ فما يليها ، (طبعة القاهرة ١٣٥٥ - ١٣٥٧هـ). وقد مات الريحاني سنة ٢١٩ هـ (٨٣٤م)

(٣) قارن هذا بما ينسب إلى أفلاطون فى «مختار الحكم» للمبشر : «أخرجت كثيرا من الملوك الغيرة على المراتب إلى أن حبسوا المنازل على أهلها ، ومنعوا كل إنسان من الخروج عن طبقته. وهذا خطأ منهم يعود ضرره في ذلك الموضع من العالم بعد مدة وذلك أن القوم إذا تناسلوا فى مرتبة أو صناعة أسروا فيها إلى أن تتلاشى فضائلهم. ويشبهون بأرض ألح عليها صاحبها بزرع شيء واحد من أنواع النبات، فإنه إذا تمادى بها فسد ذلك النوع فيها، وإنما تقوى الصناعات والرئاسات فى استدارة الأحوال، وتنقل المنازل».

(٤) القطع والوصل هنا مما يتصل بالتعبير عن علاقات النسب.

ديوان (ابن الشبل البغدادي)
نظرات.. ونشر ما لم ينشر

د. عبد الرازق حويزي

ابن الشبل البغدادي، أبو علي، محمد بن الحسين شاعر مشهور من شعراء العصر العباسي، ولد ببغداد عام (٤٠١هـ)، وتوفي بها عام (٤٧٣هـ)، تمتع بموهبة شعرية سامية، وطاقة فنية متأججة حدت بقريحته إلى السح بكثير من القصائد الرائعة الذائعة التي لفتت أنظار النقاد إليه، ومكنت له في شتى الأوساط الأدبية، وحفظت له مكانته في مختلف الأندية والمحافل الشعرية، وسجلت اسمه في سجل الشعراء الأفذاذ، وخلدت ذكره على مدى عشرة قرون من الزمان بداية من القرن الخامس الهجري حتى قرننا هذا، وليس ذلك فحسب، بل لقد دفعت موهبته الألاقة الأدباء والنقاد دفعًا إلى جمع أشعاره في ديوان قائم برأسه يكون في متناول أيديهم، يتدارسونه ويقتبسون منه ما يحلو لهم من قصائد ومقطعات.

وقد أتى على ذكر هذا الديوان رهط من المؤرخين والأدباء، أقدمهم «جمال الدين القفطي» (ت٦٤٦هـ) في كتابه «المحمدون من الشعراء وأشعارهم» ص ٣٧٦.

ومما يؤسف له أن يد الإهمال تطرقت إلى هذا الديوان، فعبثت به، وعلى أثر ذلك سقط من يد الدهر، فلم نعثر له على أثر حتى الآن، ومن المؤكد أنه لو وصل إلينا لأرفدنا بحصيلة شعرية شائقة، بما يضم من قيم فنية متباينة، وألوان عاطفية مختلفة، وآراء فلسفية،ونصائح حانية،وحكم شعرية.

وإذا كان الضياع قد وقف عدوًا لدودًا له فإن جودة شعر صاحبه كانت أحد الأسلحة التي فتت في عضد الضياع، إذ جذبت بعضًا من الأدباء والمؤرخين إلى توشية مؤلفاتهم القيمة بكثير من مقطعاته وقصائده.

وأتى «القفطي» في مقدمة هؤلاء الأدباء الذين وشحوا مؤلفاتهم بأشعار «ابن الشبل البغدادي»، فمن يطالع كتابه المشار إليه آنفًا ص ٢٧٥-٤٠٢ يدرك في سهولة ويسر أنه منح شاعرنا عناية عظيمة لم يمنحها لأي شاعر آخر في كتابه هذا، وتكمن هذه العناية في أنه انتقى من ديوان «ابن الشبل» الذي كان بين يديه كثيرًا من المقطعات، ثم قام - كما نقوم به الآن في صناعة الدواوين ذات الأصول الخطية المفقودة - بترتيب قوافي ما اختاره على حروف المعجم، مما يصح لي أن أقول: إن «القفطي» أدرج ديوانًا مصغرًا

لـ« ابن الشبل البغدادي» ضمن كتابه هذا.

والحقيقة التي لا تنكر أن لكتاب «القفطي» هذا فضل كبير في لفت نظري إلى شعر هذا الشاعر، إذ تناولت الكتاب بالقراءة منذ دخوله خزانة كتبي عام ١٩٩٣م؛ لأفيد منه في إعداد أطروحتي للدكتوراه في موضوع «شعر الشكوى في القرنين الثالث والرابع الهجريين: دراسة تحليلية في المضمون والشكل»، ولفت نظري ما وقفت عليه من اهتمام «القفطي» بشعر «ابن الشبل» خاصة، ومنذ ذلك الحين فكرت جيداً في ضم ما احتجنته المصادر الأخرى من شعره إلى ما أورده «القفطي» في كتابه، وإخراج كل ما روته المصادر لهذا الشاعر في ديوان يكون في متناول الباحثين والدارسين بعد ضياع ديوانه، وأرجأت ذلك لحين الانتهاء من إعداد الأطروحة التي فرغت منها عام ١٩٩٨م.

وقد بادر الدكتور «حلمي عبد الفتاح الكيلاني» الأستاذ بجامعة مؤته - الأردن - إلى الاهتمام بشعر «ابن الشبل البغدادي» فحاز بذلك فضل السبق، ونال أحقية الريادة، إذ تجرد لجمع هذا الشعر من بطون المظان المختلفة، ثم عكف على تحقيقه، ودفع به للنشر، وتم نشره على صفحات مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ص ٥٧-١٥٨ في العدد رقم (٥٤) من العام المشار إليه آنفًا، وهو عام ١٩٩٨م، وجاء هذا المجموع الشعري تحت عنوان: « ما وصل إلينا من شعر ابن الشبل البغدادي»، ولم يضمن د. «الكيلاني» هذا المجموع دراسة عن شعر «ابن الشبل»؛ لأنه أفردها ببحث مستقل سنأتي على ذكره بعد.

والحقيقة أن د. «الكيلاني » أحد الأساتذة الذين أثق بنشاطهم، وأعتز بجهودهم العلمية في خدمة التراث العربي، وقد تمخض جهده المشكور عن تدبيج طائفة من البحوث الأدبية القيمة، كما تمثل في جمع وتحقيق طائفة من الدواوين الشعرية التي ضاعت أصولها المخطوطة، وأذكر مما أخرجه د. « الكيلاني» للمكتبة الأدبية خلا شعر «ابن الشبل » ما يلي:

١- شعر «أبي الفضل البغدادي، محمد بن عبد الواحد ت ٤٥٥ هـ »، نشره في مجلة مؤته للبحوث والدراسات - جامعة مؤته - المجلد ٧ / ع١ / ١٩٩٢.

٢- شعر «أبي القاسم الإلبيري، خلف بن فرج، المعروف بالسُّميسر ت ٤٨٥ هـ » نشره أيضًا في مجلة مؤته للبحوث والدراسات - جامعة مؤته م٧ / ع١ / ١٩٩٢ ص ١٠١- ١٥٩[١].

٣- «ابن الشبل البغدادي »: حياته وشعره، نشره في مجلة الدراسات - عمادة البحث العلمي الأردني - عمان - ديسمبر - ١٩٩٥ ص ٣٣١٥- ٣١٤٨، وهو غير مجموع شعر «ابن الشبل» الذي سأتحدث عنه بعد قليل، وقد نظرت في هذا البحث لعلي أعثر فيه على مادة شعرية جديدة لم يتضمنها المجموع الشعري فلم أجد شيئًا.

٤- شعر «ابن جكينا البغدادي، أبو محمد الحسن بن أحمد ت ٥٢٨ هـ »، نشره في مجلة مؤته للبحوث والدراسات - جامعة مؤته- ع٢ / ١٩٩٧ ص ٥٤٣ - ٦٠٧.

٥- «ابن شرف القيرواني»: حياته وأدبه، نشر في مؤسسة البلسم للنشر والتوزيع - الأردن - عمان - ط١ - ١٩٩٨م - في ٢٦١ صفحة.

ويبدو من طبيعة هذه البحوث أن د. «الكيلاني»، يصرف جل جهده إلى دراسة أدب القرن الخامس الهجري، وأدب هذا القرن يفتقر حقًا - من منظوري الخاص - إلى دراسات مكثفة بسبب ضياع كثير من دواوين شعرائه، وأمارة ذلك الدواوين التي تجشم د. «الكيلاني» جمعها وتحقيقها، وهي في معظمها لشعراء من هذا القرن.

ويبدو كذلك من طبيعة البحوث السالفة أنها ذات أهمية كبيرة؛ إذ نفخت الروح في طائفة من الدواوين أتت عليها الأيام، فضاعت فيما ضاع من تراثنا النفيس الذي نستمد منه عظمة ماضي أجدادنا، وعدة حاضر أمتنا، وأمل مستقبلها المشرق الزاهر الزاهي.

وتتمثل أهمية هذه الدواوين بالإضافة إلى ذلك فيما يلي:

١- أنها زوَّدت مكتبة الشعر العربي بحصيلة من القصائد والمقطعات التي لم تكن في متناول الباحثين والدارسين من قبل.

٢- أنها أعطت هؤلاء الشعراء حقهم، ووفرت عليهم حظهم، وبَوَّأتهم المكانة التي تليق بهم في موكب الأدب العربي.

٣- أنها أحيتْ ذكر هؤلاء الشعراء، وأعطتنا تصورًا عامًا عن طبيعة شعر كل شاعر.

٤- أنها توفر جهد الباحثين ووقتهم في تعقب أشعار هؤلاء الشعراء في المصادر النادرة، والمظان التي يصعب عليهم العثور عليها.

وأعود إلى ما كُنت بصدد الحديث عنه، وهو شعر «ابن الشبل البغدادي» فأقول: إن «ابن الشبل» لم يخرج في دائرة اهتمام د. «الكيلاني» عن إطار الشعراء المذكورين آنفًا، فقد عاش في القرن نفسه الذي عاش فيه معظم هؤلاء الشعراء، وهذا ما حدا بي إلى التصريح بأن شعر «ابن الشبل» الماثل بين أيدينا الآن لم يصدر عن باحث اختار

موضوعه دون مسوغات أو حيثيات، ولم يكن موضوعًا خارجًا عن نطاق تخصص د. «الكيلاني»، وهو أدب القرن الخامس الهجري.

ولم يكن د. « الكيلاني » المحقق الوحيد الذي اهتم بشعر «ابن الشبل»، فقد زوَّدني أخي د. «إبراهيم راشد» - حفظه الله ورعاه - عندما لمس اهتمامي بشعر «ابن الشبل» بمعلومة نفيسة، تكمن في أنه وقف على اهتمام بشعر «ابن الشبل البغدادي» من قِبَل د. «حسن عباس» الذي لم أتوان في الاتصال به هاتفيًا، فأخبرني أنه لم ينشر ديوان «ابن الشبل» كاملاً، وإنما نشر مختارات منه في كتابه الجامعي الموسوم بـ: أدب القرن الرابع: دراسات ونصوص»، الذي درسه على طلاب كلية الآداب - جامعة طنطا - مصر- عام ٢٠٠٠م، فعدت إلى الكتاب فألفيت أن د.«عباس» نشر ثلاث قصائد، وثماني مقطعات شعرية تحت عنوان: «من ديوان ابن الشبل البغدادي»، ولم أجد ضمن هذه المختارات ما أخلَّ به عمل د. «الكيلاني»، الذي يظل حتى هذه اللحظة العملَ العلمي الوحيد الذي ضَمَّ أكبر قدر من شعر «ابن الشبل»، ومن ثم يقع عليه جلُّ اهتمام الباحثين والدارسين في الأدب العربي في استنباط الأحكام النقدية، ورصد النتائج والظواهر الأدبية.

وقد نظرت في هذا العمل بمقابلة ما تجمع في جعبتي مما يخص شعر «ابن الشبل» من مادة علمية، بدأت في تحصيلها منذ أن فكرت في جمع هذا الشعر كما سبق أن ألمحت، وبعد الانتهاء من المقابلة خرجت بمجموعة من الملحوظات تكمن في إخلال عمل د. «الكيلاني» بكثير من الأشعار، وافتقاده إلى استقصاء الروايات والتخريجات، والترتيب المحكم لبعض المقطعات، واشتماله على بعض أوهام نسبة بعض المقطعات لـ «ابن الشبل»، وغير ذلك، وقد حدت بي طبيعة المادة العلمية المتوفرة لديَّ إلى أن أوزعها على العناصر التالية، ثم آخذ في معالجة كل عنصر على حدة، وهذه العناصر هي:

أولاً - ما أخل به ديوان «ابن الشبل البغدادي».

ثانيًا - إخراج ما يلزم إخراجه من ديوان «ابن الشبل».

ثالثًا - رصد ما لم يرصد من الروايات.

رابعًا - استقصاء مصادر التخريج.

خامسًا - تصحيح الأوهام العروضية.

سادسًا ـ تصحيح أوهام النقل من المصادر.

سابعًا ـ تقويم المنهج والتنسيق.

ثامنًا ـ تصحيح ديباجة المقطعة رقم (٥٥) ص١١٠.

تاسعًا ـ الأخطاء الطباعية.

وأبدأ أولاً بالعنصر الأول، وهو:

أولاً ـ ما أخلّ به ديوان «ابن الشبل البغدادي»:

جمع د. «الكيلاني» لـ «ابن الشبل» (١١٦) ست عشرة ومائة قصيدة ومقطعة شعرية، ضمت (٤٦٠) ستين وأربعمائة بيت من الشعر، وقد رجع في جمع هذه الحصيلة إلى طائفة من المصادر الأدبية والتاريخية أتى في مقدمة هذه المصادر كتاب «المحمدون من الشعراء وأشعارهم» الذي احتوى (٩٦) ستًا وتسعين مقطعه شعرية مرتبة من حيث النظر إلى قوافيها على حروف المعجم

وهناك مصادر أخرى رجع إليها د.«الكيلاني» إلا أنه أهمل الرجوع إلى طائفة من المصادر، ما كان له أن يهمل الرجوع إليها، حيث إنها كانت مطبوعة ومتداولة قبل أن يتجرد لجمع شعر «ابن الشبل» وتحقيقه، من هذه المصادر: «الأمالي الخميسية لابن الشجري ت ٤٧٩هـ»، و«المدهش. ومثير الغرام الساكن، وذم الهوى»، وهذه المصادر «لابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ» ومنها: « الدر الفريد لابن أيدمر ت ٧١٠ هـ »، و «الازدهار للسيوطي ت ٩١١ هـ»، و «معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسي ت ٩٦٣ هـ ».

ولو رجع د. «الكيلاني» إلى هذه المصادر لأثرى محاولته إثراء عظيمًا، ولما فاته هذا الشعر الكثير الذي ورد في هذا البحث الذي ضم مستدركًا يقرب في عدد أبياته من نصف ما جمعه د. «الكيلاني» لـ «ابن الشبل»، ففيه (٥٨) مقطعة خالصة النسبة لـ«ابن الشبل» ضمت (٢١٦) ستة عشر بيتاً، ومائتي بيت خالصة النسبة إليه، ورتبت ما استدركته حسب رويه الترتيب الألف بائي، فبدأت بروي الألف المقصورة، فالهمزة، وانتهيت بروي الياء، وفي حالة تجمع مقطعات متعددة على روى واحد كنت أحتكم في ترتيبها إلى حركة حرف الروي، فبدأت بالروي الساكن، فالمفتوح، فالمكسور، فالمضموم، فالموصول بحرف وصل، وها هي ذي الأبيات المستدركة التي يلزم ضمها إلى مجموع شعر «ابن الشبل البغدادي»، والاعتماد عليها في دراسة وتحليل هذا الشعر.

[قافية الهمزة]

(١)

قال «ابن الشبل البغدادي»: [من الرمل]

١- مَنْ رَأى البَرْقَ بنَجد إذْ تَراءَى أَسْلَبَ النَّوْمَ وَأَهْدَى البُرحَاءَ
٢- فَاضَ فَيْضًا كَجُفُونِي مَاؤُه وَالتَظَى وَهْنًا كَأنْفَاسِي التِظَاءَ
٣- نامَ سُمَّارُ الدُّجَى عَنْ سَاهرٍ تخِذَ الهَمَّ سَمِيراً والبُكَاءَ
٤- أسْعَدَتْه أَدْمُعٌ تَفْضَحُهُ وَإذَا مَا أَحْسَنَ الدَّمعُ أَسَاءَ
٥- يا خَلِيلَيَّ ولمْ أُشرِكُما بالهَوَى حَتَّى تَبَيَّنْتُ الإخَاءْ
٦- عَلِّلا قَلْبِي بذِكْرَى قَاتِلِي رُبَّ داءٍ قَادَ للنَّفْس دَوَاءَ

الرواية: (٣) ورد البيت الثالث في شعر ابن الشبل برواية: «يجد الهم».

التخريج: مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ٢٥٧، والبيتان ٣، ٤ في تشنيف السمع بانسكاب الدمع ٧٢، وهما فقط في شعر «ابن الشبل» برقم ٦ ص ٧١.

(٢)

وقال في رثاء أخيه «أحمد»: [من الوافر]

١- يُعَلِّلُ بالدَّوَاءِ وَلَيْسَ يَدْرِي بأنَّ الدَّاءَ في شُرْبِ الدَّوَاءِ !
٢- وَمَنَّانِي الطَّبِيبُ مُنىً ،فلمَّا بَدَا يَأْسٌ أَحَالَ عَلَى القَضَاءِ !
٣- سَأدْرِعُ الهُمُومَ عَلَيْكَ دَهْري وَأَقْضِي بالأسَى حَقَّ الإخَاءِ
٤- أُسَوِّدُ بالكآبَةِ وَجْهَ صُبْحِي وأغْسِلُ لَوْنَ لَيْلِي بالبُكَاءِ !
٥- وَيَسْلُبُنِي حَيَائِي فِيكَ وُدٌّ يَرَى تَرْكَ الحَيَاءِ مِنَ الحَيَاءِ
٦- وَتَعْجَبُ مِن بلَى جِسْمِي عُيونٌ وَأَمْرُ اللهِ يَعْجَبُ مِنْ بَقَائِي !
٧- وَقَالُوا: رَاحَةُ المَحْزُونِ يَأسٌ وَيَأسِي مِنْكَ أَعْظَمُ لِلْبَلاءِ !

التخريج:الدر الفريد ٥/٥٠٦، والبيت الثالث له فيه أيضًا ٣٢٧/٢،والبيت الرابع له فيه كذلك ١٣٤/٢

(٣)

وقال في رثائه أيضًا: [من الخفيف]

١- جَسَدٌ طَيِّبُ الصَّعيدِ ورُوحٌ لِسَنَا نُوره أَضَاءَ الفَضَاءُ
٢- أَيُّهَا الفَرْقَدَانِ كَمْ فَرْقَدٍ فِي التُّـ ـرْبِ عَفَّتْ آثارَه البَوْغَاءُ
٣- كَمْ مُلُوكٍ لَمَّا دَهَاها رَدَاها خَفَتَتْ من جُنُودِهَا الضَّوضَاءُ
٤- عَلِقَتْهُم عُلُوقُ صَادِعَةِ الشَّعْـ ـبِ ، فَطَاحُوا كَمَا يَطِيحُ الهَبَاءُ
٥- جَاوَرَتْ قَبْرَك المَلائِكَةُ الغُرْ رُ ، وَأَحْيَتْ عِظَامَكَ الآلاءُ
٦- وَجَلا القَطْرُ فِي مَبَاسِمِهِ الزَّهْـ ـرَ ، وأَبكَى السَّحَائِبَ الأَنْوَاءُ
٧- وَتَلاقَى رُوحِي ورُوحُك إن لم يكُ بَيْنَ الأَحْيَاءِ مِنَّا التِقَاءُ

التخريج: الأبيات في الدر الفريد ١٠٨/٤،متفرقة في ثناياه قصيدة طويلة لابن الشبل، وردت في ديوانه، هي برقم ١ ص ٦٥-٦٦،ولم ترد هذه الأبيات فيها، ومن ثم تضاف إليها،فيوضع البيت الأول بعد البيت ٣١، ويوضع الثاني بعد البيت ٣٦، ويوضع البيتان ٣، ٤ بعد البيت ٣٨، وتوضع بقية الأبيات في نهاية القصيدة، وورد البيت الأول لابن الشبل أيضًا في الدر الفريد ٢٠٠/٣، كما ورد الرابع فيه أيضًا ٨٢/٤.

[قافية الباء]

(٤)

وقال : [من الطويل]

١ - إذا يَسَّرَ اللهُ الأمورَ تيسَّرَتْ وَمَا لَمْ يُقَرِّبْ وَقْتَهُ لَمْ يُقَرَّبِ
٢ - فَلا تَلُمِ الأَسْبَابَ، وَالحَزْمُ كُلُّه ـ إذا عَاقَتِ الأسبَابُ ـ شُكْرَ المُسَبِّبِ

التخريج: الدر الفريد ٩٦/٢، وصدر البيت الأول ورد في ديوان الحسين بن مطير الأسدي ص ٥٨، وعجزه : ولانتْ قُواها واستقادَ عَسِيرُها

(٥)

وقال : [من الوافر]

١- وَضَعْتُ لأَهْلِ هَذَا الدَّهْرِ خَدِّي لأَسْلَمَ مِنهُمْ ، وَأَلَنْتُ جَنْبِي !
٢- فَكَانَ تَقَرُّبِي أَذْكَى لِبُعْدِي وإحساني إلى ذِي الذَّنْبِ ذَنْبِي!

التخريج: الدر الفريد ٢٨٦/٥، والثاني فيه ٢٠٦/٤.

(٦)

وقال: [من البسيط]

١- إنّي أبثّكَ يا قلْبي ضنَى جَسَدي ... طلابُكَ المَجْد أدْنَاهُ مِنَ العَطَبِ
٢- وَقَدْ قَنِعْتُ بقَعْرِ البيتِ مَنْزِلَةً ... فَلِمْ تُحَاوِلُ جَهْلاً أرْفعَ الرُّتَبِ ؟
٣- تَمَّمْ رِضَاكَ، فإنَّ الفِتْيَةُ أشِبًا ... صَعْبَ القِيَادِ فلَيْسَ الحَيْفُ بالأشَبِ

التخريج: الأمالي الخميسية ٢/٢٠٠.

(٧)

وقال: [من البسيط]

١- صَمِّم، وجَرِّدْ، واحوِ،واغْلُ عُلاً ... واعزِمْ،وجِدَّ،ونَلْ،وانهَضْ لهَا،وثِبِ

التخريج: الدر الفريد ٤/٣٣.

(٨)

وقال : [من البسيط]

١- مُشَمِّرين إلى الهَيْجَاءِ قَدْ جَعَلوا ... إلى المَعَالِي العَوَالِي أوْكَدَ السَّبَبِ

التخريج: الدر الفريد ٥/١١٠.

(٩)

وقال : [من البسيط]

١- مِن كُلِّ أرْوعَ لاَ يَرْتَاعُ في مَـلأٍ ... بَلْ يَمْلأُ الرَّوعَ مِن رَوْعٍ وَمِن رُعُبِ

التخريج:الدر الفريد ٥/١٤٣.

(١٠)

وقال : [من البسيط]

١- يا لَلكِفَاحِ،وَلَشَرِّ الصُّرَاحِ،وللصّـ ... ـمِّ الرِّمَاحِ ، وللصَّمْصَامَةِ الذَّرِبِ

التخريج: الدر الفريد ١/٥٠، ومطبوع مقدمته ١/ ١٨٣، والبيت تابع للنتفة رقم ١٥ ص ٧٦.

(١١)

وقال : [من البسيط]

١- سُكْرُ الشَّبَابِ وَسُكْرِ الحُبُّ غَادَرَني فِي الحَيِّ مِنْ طُنُبٍ آوِي إلى طُنُبِ

التخريج: الدر الفريد ٣/٣٦١، ولعل المقطعة الواقعة تحت رقم (٦)،والنتف الواقعة تحت الأرقام (٧) ، (٨) ،(٩) ، (١٠)،(١١) في هذا الاستدراك من قصيدة واحدة ؛ إذ تتحد في الوزن والقافية ، وحركة حرف الروي ،ولعلها بعد ذلك تابعة للمقطعة رقم (١٥) ص ٧٦ .

(١٢)

وقال : [من الطويل]

١- وَلِلْقَلْبِ مِنِّي زَاجِرٌ مِنْ مَرُوءَةٍ يُجَنِّبُهُ طَرقَ الهَوَى فَيُجَابُ

التخريج:ذم الهوى ٦٤٥، ويوضع بعد البيت الثالث من القصيدة رقم (٧) ص ٧١-٧٢.

[قافية الجيم]

(١٣)

وقال: [من البسيط]

١- جَوَاهِرُ العِلْمِ في بَحْرِ الفُؤَادِ فَغُصْ فيهِ عَلَيهَا وَخَلِّصْهَا مِنَ اللُّجَجِ

٢- جُسُومُنا كالمَشَاكِي، والنُّفُوسُ لَهَا مِثْلُ الزُّجَاجِ، وَنُورُ اللهِ كالسُّرُجِ

٣- فَتِّشْ(تَرَى) كُلَّ شَيءٍ فِيكَ مُجْتَمِعًا إنَّ ابنَ آدَمَ أُعْطَى أَرْفَعَ الدَّرَجِ !

التخريج: الدر الفريد ١٦٩/٤، والأول له فيه أيضًا ٢٠٧/٣، وتقتضي القاعدة النحوية جزم الفعل (ترى)بحذف ألفه،لأنه واقع في جواب الأمر، ولكنها لم تحذف لاستقامة الوزن، وبإمكان القارئ أن يقرأها - بُعدًا عن ذلك - هكذا : «فتش تجد».

[قافية الحاء]

(١٤)

وقال : [من مجزوء الكامل]

١- فَلَرُبَّمَا آلَ المَضِيـ قُ إلى انْفِرَاجٍ وانفِتَاحِ

التخريج: الدر الفريد ٢١٣/٤.

[قافية الدال]

(١٥)

وقال في أخيه «أحمد»: [من الرمل]

١- بَيْنَما المَرْءُ شِهَابٌ يَلْتَظِي عَصَفَتْ رِيحٌ عَلَيْهِ فَهَمَدْ

التخريج:الدر الفريد ٩٧/٣.

(١٦)

وقال يمدح ديوان الحكم : [من الطويل]

١- خَلِيلُكَ مَنْ حَامَى حِمَاكَ وَأَسْعَدا وَعَانَدَ مَنْ عَانَدْتَ بِرًّا أَوِ اعْتَدَى
٢- فَلا تُطْلِقَنَّ حَمْدًا وَذَمًّا لِصَاحِبٍ فَمَا يُعْرَفُ الصَّمْصَامُ حَتَّى يُجَرَّدَا
٣- عِدِ العَيْنَ بِالتَّهْوِيمِ يَا عَمْرُو سَاعَةً فَلَمْ أُسْهِرِ الأَجْفَانَ إِلاّ لِتَرْقُدَا
٤- فَإِنِّي رَأَيْتُ العُمْرَ فِي الذُّلِّ مَيْتَةً وَمَوْتَ الفَتَى فِي العِزِّ عُمْراً مُجَدَّدَا
٥- بِقَدْرِ حَيَاءِ المَرْءِ حِفْظُ إِخَائِهِ وَلَن يَتْرُكَ الإِنْسَانُ مَا قَدْ تَعَوَّدَا
٦- فَلا تَخْفِ حِقْداً بِالتَّوَدُّدِ إِنَّهُ إِذَا خَيَّبَ اللهُ العَدُوَّ تَوَدَّدَا
٧- فَإِنَّ لَهِيبَ النَّارِ يَخْبُو إِذَا بَدَتْ وَيَزْدَادُ فِي سِتْرِ الرَّمَادِ تَوَقُّدَا
٨- كَذَلِكَ جَرَّبْتُ اللَّيَالِي وَجَرَّبَتْ خَلائِقُ مِنِّي ،فَاتَ إِحْصَاؤُهَا المَدَى
٩- فَأَفْسَدَنِي مَا كَانَ لِلدَّهْرِ مُصْلِحًا وَأَصْلَحَنِي مَا كَانَ لِلدَّهْرِ مُفْسِدَا
١٠- وَرَغَّبَنِي زُهْدُ الوَرَى فِي خَلِيقَتِي فَأَظْهَرْتُ فِي مَا يَرْغَبُونَ التَّزَهُّدَا
١١- إِذَا عُدَّ أَكْفَاءُ الرِّئَاسَةِ فِي الوَرَى فَأَرْأَسُهُمْ مَنْ كَانَ أَكْرَمَ مَحْتِدَا
١٢- وَمَا مَنْ دَعَاهُ الحَظُّ سَيِّدَ قَوْمِهِ كَمَنْ كَانَ قَبْلَ الحَظِّ بِالفَضْلِ سَيِّدَا
١٣- وَمِثْلُكَ مَنْ بِالحِلْمِ وَقَّرَ مَجْدَهُ وَصَوَّبَ فِي حِفْظِ الأُمُورِ وَصَعَّدَا
١٤- وَلَمْ يَرْتَكِبْ أَمْرًا وَإِنْ كَانَ مُمْكِنًا سِوَى مَا أَرَاهُ الحَزْمُ رَأْيًا مُسَدَّدَا
١٥- فَمِنْ نَارِكُم يَسْتَنْشِقُ الطَّارِقُ القِرَى وَمِنْ نُورِكُم يَسْتَبْصِرُ المُهْتَدِي الهُدَى

الرواية:(٤) ورد البيت الرابع في الدر الفريد ١٦١/٤ برواية: «فإني رأيت العيش».

التخريج: الدر الفريد ٧٤/٣، والثاني له فيه٨/٢، والثالث له فيه ٦٨/٤ ، والرابع له فيه ١٦١/٤، وورد البيتان ٦، ٧ في نهاية مقطعة مكونة من ٤ أبيات في الديوان برقم (٤٠) ص ٩٤.

(١٧)

وقال: [من البسيط]

١- قَالُوا : تَكَامَلَ فِيكَ الفَضْلُ قُلْتُ لَهُمْ : الفَضْلُ قَيَّدَ حَظِّي أَيَّ تَقْيِيدِ!
٢- مَنْ رَامَ بالأَدَبِ الأَرْزَاقَ نَفَّرَهَا وَعَاشَ أَشْبَهَ مَرْحُومٍ بِمَحْسُودِ
٣-كَمْ(يَقْلَقُ) السَّيْفُ في غِمْدِي وَأَكْتُمُهُ بَثِّي فَيَفْهَمُ أَشْجَانِي بِتَسْهِيدِي
٤- حَتَّى غَرِضْتُ فَنَادَتْنِي مَضَارِبُهُ يا طَالِبَ المَجْدِ بِي مَا آنَ تَجْرِيدِي؟
٥- مَنْ لَمْ يَصِلْ بِظُبَى الهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَضْحَى عَلَى النَّاسِ مَوْجُودًا كَمَفْقُودِ

الرواية:(٣) ورد البيت الثالث في الدر الفريد هكذا: «كم مقلق».

التخريج: الدر الفريد ١٤٧/٥، والأول له فيه ٢٩٣/٤،والثاني له فيه أيضًا ١٣٢/٥،ولعل هذه المقطعة تابعة للمقطعة (٤٤) ص ٩٦ من شعر «ابن الشبل».

(١٨)

وقال : [من الطويل]

١- ذَرِينِي أَبَيْتِ الذَّمَّ إِنِّي أَرَى الغِنَى غِنَى النَّفْسِ،لا مَالَ الأَكُفِّ الجَوَامِدِ
٢- وإِنَّ عِنَادِي في الرِّقَابِ صَنَائِعُ وَأَطْوَاقَ نُعْمِي في مَنَاطِ القَلائِدِ
٣- إِلى أَنْ رَأَيْتُ المُعْتَبِينَ تَخَوَّفُوا بِأَنْ يَحْتَوِي عُمْرِي عَدُوِّي وَحَاسِدِي

التخريج: الأمالي الخميسية ١٧١/٢، ولعل هذه المقطعة تابعة للمقطعة(٤٢) ص ٩٥، أو المقطعة رقم (٤٦) ص ٩٧ من شعر «ابن الشبل».

(١٩)

وقال في هجاء «ابن ناقيا البغدادي ت٤٨٥هـ»: [من البسيط]

وَسِتَّةٍ فِيكَ لَمْ يُجمَعْنَ في بَشَرٍ: كِذْبٍ، وكِبْرٍ، وَبُخْلٍ أَنْتَ جَامِعُهُ
مَعَ اللَّجَاجِ، وَشَرِّ الحِقْدِ، والحَسَدِ !
وَسِتَّةٍ فِيَّ لَمْ يُخْلَقْنَ في مَلَكٍ: حِلْمِي، وَعِلْمِي، وإفْضَالِي، وَتَجْرِبَتِي
وحُسْنِ خُلْقِي، وبَسْطِي بالنَّوالِ يدي !

التخريج:الدر الفريد ١٩/١٨، والوافي بالوفيات ١٩/١٨، والأشطار الثلاثة الأخيرة في الديوان ص ٨٥.

(٢٠)

وقال: [من الطويل]

١ فَلا تَغْتَرِرْ بالبِشْرِ مِنْ وَجْهِ حَاسِدٍ فَبَرْدُ ابتِسَامِ الثغرِ غَطَّى لَظَى الحِقْدِ
٢- فَإنَ مَشُوبَ الشَّهْدِ بالسُّمِّ قَاتِلٌ وَإِنْ هُوَ أَخْفَتْ طَعْمَهُ لَذَّةُ الشُّهْدِ

التخريج:مغاني المعاني ٦٦.

(٢١)

وقال: [من البسيط]

١- جَرَى نَوَالُك فاعتَدْنا تَدَفُّقَهُ وَأَنْتَ مِنَّا لِحُسْنِ المَدْحِ مُعْتَادُ
٢- مَا دَامَ بِشْرُك بي يَزْدَادُ رَوْنَقُهُ فالحَمْدُ مِنِّي عَلَى العِلاَّت يَزْدَادُ
٣- مَا قَادَنِي الرِّفْدُ، بَلْ وُدٌّ سَمَحتَ بهِ إنَّ الكَرِيمَ بِحُسْنِ الوُدِّ يَنْقَادُ
٤- لأَشْكُرَنَّك مَا نَاحَتْ مُطَوَّقَةٌ ومَا حَدَا الغَيْثَ إبراقٌ وإرْعَادُ

التخريج: الدر الفريد ٣/١٩٧، والبيت الثاني له فيه ٥/٥٥، والثالث له فيه كذلك ٥/٦٨.

(٢٢)

وقال: [من الطويل]

١- لَعَمْرِي لَوَ انَّ العَقْلَ مُثِّلَ صُورَةً لَكَانَ إلاهًا لِلْبَرِيَّةِ يُعْبَدُ!
٢- وَلَكِنْ إذَا عَقْلٌ وَحَظٌّ تَقَابَلا بأُفْقٍ رَأَيْنَا العَقْلَ لِلْحَظِّ يَسْجُدُ!
٣- تَزَايُدُ حَظِّ المَرْءِ للجَهْلِ مُصْلِحٌ ونُقْصَانُ حَظِّ المَرْءِ للعَقْلِ مُفْسِدُ

التخريج: الدر الفريد ٣/١٣٢.

[قافية الراء]

(٢٣)

وقال: [من الطويل]

١- عَلَى مِثْلِ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ تَقَلَّبَتْ بِنَا هِمَمٌ أَعبَاؤُهَا تَبْهَظُ الدَّهْرا
٢- وما عَبَأَتْ نَفْسُ الكَرِيمِ بِمُعْضِلٍ إذا ادَّعَتْ في كُلِّ حَادِثَةٍ صَبْرا

٣- ثَكِلَتْ حَيَاةٌ في سوى العزِّ عِشْتُها ... وَعُمْرًا جَعَلْنَاه لغَيرِ العُلاَ مَهْرَا
٤- وَثِقْنَا بأنَّ العزَّ مَا في عَمُودِنا ... وَأنَّ بَقَاءَ الدَّهْرِ أنْ تَحمِلَ الذِّكْرَا
٥- وأنَّ ثَنَاءَ المَرْءِ عُمرٌ مُخَلَّدٌ ... وعَيْشُ امرئ بالذُّل مَيتَتُهُ الكُبْرى
٦- وَمَنْ عَزَّ أعْطَتْه العتَاقُ قِيادَها ... وذَلَّتْ مَغَاوِيرُ الأُسود لَهُ صُغْرَى
٧- وَمَا السَّيْفُ ذُو الأرهَافِ إلاَّ بِغِمْدِهِ ... إذا لم يَكُن ذُو السيفِ مِنْ حَدِّهِ أجْرَى
٨- وَمَا النَّدْبُ كُلُّ النَّدْبِ إلاَّ ابنُ هِمَّةٍ ... رَأى الخَيْرَ لا يُنْجيه فاقتَحَمَ الشَّرَّا
٩- جَزَى اللهُ عَنّي أُمَّ دَفْرٍ مَلامَةً ... فكمْ خَدَعَتْ غُمْرًا بأطْمَاعِها (غِرًّا)
١٠- وَقَدْ يُدْرِكُ الحَتْفُ الجَبَانَ مُوَلِّيا ... ويُخْطِئُ في إقْدَامِه البَطَلَ الذِّمرَا
١١- وَمَنْ يَحْلُ تَطْلابَ المَعَالي بصَدْرِهِ ... يَجِدْ حُلْوَ ما يُعْطَاهُ مِنْ غَيْرِها مُرًّا

الـرواية: (٧) ورد البيت السابع في الدر الفريد ٣١٦ برواية: «من حده أمضى».

التخريج: الدر الفريد ١٨٤/٣ ما عدا البيت الرابع، والأول له فيه ٩٦/٤، والخامس له فيـه أيضًا ٢٣٢/٥، والعاشـر له فيـه كذلـك ٢٩٦/٥، والسـابع له فيـه أيضًا ٣١٦/٥، والبيتان الرابع والخامس له في الأمالي الخميسية ١٩١/٢.

(٢٤)

وقال: [من الوافر]

١- فَقُلْ مَا شِئْتَ إنَّ الحِلْمَ دَأبي ... وَشَأني الخَيْرُ إنْ حَاولْتَ شَرًّا
٢- فَـأنْتَ أقَلُّ أن تُلْقَى بِذَمٍّ ... مُـجَـاهَرَةً وَأنْ تُغْـتَـابَ سِـرًّا

التخريج: الوافي بالوفيات ١٩/١٨.

(٢٥)

وقال: [من الكامل]

١- مَـا دَارُ دُنْيَـا لِلْمُـقِـيمِ بِدَارِ ... وَبِهَـا النُّفُـوسُ فَـرِيسَـةُ الأقْدَارِ
٢- مَـا بَينَ لَيلٍ عَـاكِفٍ وَنَهَـارِهِ ... نَفْـسَـانِ مُـرْتَشِـفَـانِ لِلأعْـمَـارِ
٣- طُولُ الحَيَاةِ إذا مَضَى كَقَصِيرِهِ ... واليُـسْـرُ لـلإنْسـانِ كـالإعْـسَـارِ
٤- وَالعَيْشُ يُعْقِبُ بالمَرَارَةِ حُلْوَهُ ... والصَّفْوُ فِيهِ مُحَالِفُ الأكْدارِ
٥- وَكَأنَّما تَقضِي بُنَيَّاتُ الرَّدَى ... لِفَـنَـائِـنَـا وَطَـرًا مِـن الأوْطَـارِ

٦- نَبْغِي الشَّقَاءَ مِنَ الرَّدَى فَكَأَنَّمَا مِنْ نَابِهِ نَلْجَا إِلَى الأَظْفَارِ
٧- وَيَرُوقُنَا زَهْرُ الأَمَانِي ضَلَّةً هَدْمُ الأَمَانِي عَادَةُ المِقْدَارِ
٨- والمَرْءُ كالطَّيفِ المُطِيفِ، وَعُمرُهُ كَالنَّوْمِ بَيْنَ الفَجْرِ والأَسْحَارِ
٩- وَأَذَلُّ أَبْنَاءِ اللَّيَالِي صَرْعَةً مَنْ طَالَبَ الأَقْدَارَ بِالأَوْتَارِ
١٠- خَطْبٌ تَضَاءَلَتِ الخُطُوبُ لِهَوْلِهِ أَخْطَارُه تَعْلُو عَلَى الأَخْطَارِ
١١- نَلْقَى الصَّوَارِمَ وَالرِّمَاحَ لِهَوْلِهِ وَنَلُوذُ مِنْ حَرْبٍ إِلَى استِشْعَارِ
١٢- إِنَّ الَّذِين بَنَوا مَشِيدًا وانْثَنَوا يَسْعَوْن سَعْيَ الفَاتِكِ الجَبَّارِ
١٣- سَلَبُوا النَّضَارَةَ والنَّعِيمَ فَأَصْبَحُوا مُتَوَسِّدِين وسَائِدَ الأَحْجَارِ
١٤- تَرَكُوا دِيارَهُمُ على أَعْدَائِهِمْ وَتَوَسَّدُوا مَدَرًا بِغَيْرِ دِثَارِ
١٥- خَلَطَ الحِمَامَ قَوِيَّهُمْ بِضَعِيفِهِمْ وَغَنِيَّهِمْ سَاوَى بِذِي الإِقْتَارِ
١٦- والدَّهْرُ يُعْجِلُنَا عَلَى آثَارِهِمْ لا بُدَّ من صُبْحِ المُجِدِّ السَّارِي
١٧- وَتَعَاقُبُ المَلَوَين فِينَا نَاثِرٌ بالكَرِّ مَا نَظَمَا مِنَ الأَعْمَارِ
١٨- أَمُسَاهِمِي خِطَطَ الفَضَائِلِ والنُّهَى لَمَّا جَرَى وَجَرَيْتُ في مِضْمَارِ
١٩- إِلاَّ يَكُنْ نَسَبُ الجُدُودِ مُؤَلِّفًا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، أَوْ قَدِيمُ جِوَارِ
٢٠- فَسَمَاءُ مَجْدِكَ أَطْلَعَتْ أَنْوارَنَا سَبَكَتْ نُضَارَكَ في صَفَاءِ نُضَارِي
٢١- وتَوَافُقُ الأَشْرَارِ يَعْقِدُ بَيْنَهُمْ رَحِماً، فَكَيفَ تَوَافُقُ الأَخْيَارِ!

الرواية: (٣) ورد البيت الثالث في المدهش برواية: «كقصيرها».

(٤) ورد البيت الرابع في المدهش برواية: «والصَّفْوُ فيه مُخْلِفُ الأَكْدَارِ».

(٧) وورد البيت السابع في المصدر نفسه برواية: «الأماني نضرة».

(١١) وورد البيت الحادي عشر في المصدر نفسه برواية: «تلقي».

التخريج: وردت الأبيات ٣، ٤، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٨-٢١ لابن الشبل البغدادي في الدر الفريد ٤/٥٣، والبيت السادس له في الدر الفريد ٥/١٦٢، والتاسع فيه كذلك ٥/٢٢٣، والبيت ٢١ له فيه ٥/٢٦٩، ووردت القصيدة بلا نسبة في المدهش ٣٢٨ ما عدا الأبيات ٦، ٧، ٩، ١٨-٢١.

(٢٦)

وقال : [من الكامل]

١- فالعَينُ تَقْرأُ مِنْ لِحَاظِ جَليسِهَا ... مَا خُطَّ مِنْهُ في ضَمِيرِ الخَاطِرِ
٢- وَلَكَمْ قُطوبٍ عَنْ وِدَادٍ خَالِصٍ ... وتَبَسُّمٍ عَنْ غِلٍّ صَدْرٍ وَاغِرِ
٣- طَوِّقْ(بِأنْعُمِكَ) الجَسِيمَةِ في الوَرَى ... نَحْرِي، فَإِنَّ نَدَاكَ أَكْرَمُ فَاخِرِ
٤- وَابسُطْ بِأَسْبَابِ المَعِيشَةِ رَاحَتِي ... لِتَرَى صُرُوفُ الدَّهْرِ أَنَّكَ نَاصِرِي
٥- نِعَمٌ إذا أَوْلَيتَهَا مَحْفُوظَةٌ ... هَلْ تُحْفَظُ النُّعْمَى بِغَيْرِ الشَّاكِرِ
٦- مَا إنْ أُرِيدُ لِصِدْقِ قَوْلِي شَاهِدًا ... حَسْبِي بِسِرِّكَ عَالِمًا بِسَرَائِرِي
٧- وإذا تَعَارَفَتِ القُلُوبُ تَأَلَّفَتْ ... وَيَصُدُّ مِنْهَا نَافِرٌ عَنْ نَافِرِ
٨- فَتَوَقَّ مَنْ يَأْبَاه قَلْبُكَ، إنَّهُ ... سَيَبِينُ بَاطِنُهُ بِأمْرٍ ظَاهِرِ

الرواية:(٣) رسمت الكلمة الثانية في البيت الثالث في الدر الفريد هكذا: «يمينك»، ولم أتمكن من قراءتها، فاقترحت ما بين القوسين .

(٦) ورد البيت السادس في معاهد التنصيص برواية: «بصدق قولي».

(٨) وورد البيت الثامن في الدر الفريد برواية: «بأمر صائر».

التخريج: الدر الفريد ١٣٧/٤، والسادس لابن الشبل فيه ٤٦/٥، والخامس له فيه أيضًا ١٧٧/٥، والسابع له فيه كذلك ٢٠٩/٥، والبيتان ١، ٢، ٦-٨ له في معاهد التنصيص ١٣١/١، ١٣٢.

(٢٧)

وقال في الشكوى: [من البسيط]

١- مَا لِي أُسَالِمُ أَيَّامِي وَقَدْ جَدَحَتْ ... لِيَ المَشَارِبَ من صَفْوٍ بِتَكْدِيرِ!
٢- أَأَحْمِلُ الضَّيْمَ مِنْ دُنيا وأَصْحَبُهَا ... وَأَقْبَلُ العُذْرَ مِنْ دَهْرِي بِتَغْرِيرِ؟
٣- وَالحُرُّ يَأْمَلُ رِفْدَ العَبْدِ بَيْنَهُمَا ... وتَشْرَبُ الأُسْدُ فَضْلاتِ الخَنَازِيرِ!
٤- صُنْ مَاءَ وَجْهِك عَنْ ذُلِّ السُّؤَالِ لهُمْ ... وَصِلْ بِبَرْدِ الدُّجَى حَرَّ التَّهَاجِيرِ
٥- ولا يُعِقْكَ عَنِ الآمَالِ بُعْدُ مَدًى ... مَا كُلُّ مُلْتَمِسٍ عُذْرًا بِمَعْذُورِ

التخريج:الدر الفريد ٥/ ٣٥٠.

(٢٨)

وقال: [من الطويل]

١- وَأَظْرَفُ جُلاَّسِ المُدَامِ خَلائقًا ضَحُوكٌ إلى جُلاَّسِهِ بِوَقَارِ

التخريج: الدر الفريد ٥/ ٢٣٠، والبيت تابع للمقطعة رقم (٥٤) ص ١١٠.

(٢٩)

وقال: [من الطويل]

١- أيا رَبِّ إنْ كُنْتُ الجَدِيرَ بِجَفْوَةٍ فَأَنْتَ بِإحْسَانٍ إليَّ جَدِيرُ

٢- وإنْ تَكُ عَنْ شُكْرِي غَنِيًّا فَإنِّي إلى الغُفْرَانِ مِنْكَ فَقِيرُ

التخريج: الدر الفريد ٣/ ٤٣، ٥/ ٣٢.

[قافية السين]

(٣٠)

وقال : [من البسيط]

١-قَالُوا: تَغَرَّبْتَ بَعْدَ الشَّيْبِ ! قُلْتُ لهم: لو دَامَ في الغَابِ لَيْثُ الغَابِ ما افْتَرَسَا!

٢- كَيْفَ المُقَامُ بأرضٍ والملوكُ بها؟ لَو استَطَاعُوا لبَاعُوا أَهْلَهَا النَّفَسَا!

التخريج: الدر الفريد ٤/ ٢٩٣

[قافية العين]

(٣١)

وقال: [من الكامل]

١ إنَّ الكَرِيمَ إذَا تَمَكَّنَ مِنْ أَذَىً أَنْسَتْهُ قُدْرَتُهُ الحُقُودَ فَأَقْلَعَا

٢- وَتَرَى اللَّئِيمَ إذَا تَمَكَّنَ مِنْ أَذَىً يَطْغَى فَلا يُبْقِي لِصُلْحٍ مَوْضِعَا

التخريج: الدر الفريد ٢/ ٣٤٠.

(٣٢)

وقال يرثي «علي بن عيسى النحوي»: [من الطويل]

١- نُعَلَّلُ بالآمَالِ وَالموْتُ أَسْرَعُ وَنَغْــتَــرُّ بالأَيَّامِ والوَعْظُ أَنفَعُ
٢- أَرَى المَرْءَ مَهْما لمْ يَمُتْ فَهْوَ ذائقٌ فِـرَاقَ الأَخِـلاَّءِ الذي هُوَ أَوْجَعُ
٣- فَيَشْفِي غَلِيلَ النَّفْسِ قَبْلَ فِرَاقِهِ وَمَا النَّفْسُ إلاَّ ظَاعِنٌ (وَمُشَيَّعُ)
٤- وَمَا العُمْرُ إلاَّ هِجْرَةٌ وَتَوَاصُلٌ (ولا إياسٌ) فِي الحيـاةِ وَمَطْمَعُ
٥- وَمَا تَهَبُ الدُّنْيـا لَنَا تَسْتَرِدُّهُ وَتَسْتَرْجِعُ الأَحْدَاثُ مَا المرءُ مُودِعُ
٦- وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ لِلْخَلائقِ وَالِدٌ فَمَا بَالُهُ من لَحْمِهِمْ لَيْسَ يَشْبَعُ؟
٧- يَحِيفُ عَلَى الأَبْنَاءِ وَهْوَ أَبُوهمُ وَيَفْـجَعُ بـالآبَاءِ وَهْوَ المُـفْـجَّعُ!

الـرواية:(٣) ورد البيت الثالث في الأمالي الخميسية برواية:«ومشبع»، والصواب ما أثبت .

(٤) وورد البيت الرابع في المصدر السابق هكذا:«ولا استآس»، والبيت مضطرب على هذه الرواية، ولعل الصواب ما تمَّ إثباته .

التخريج: الأمالي الخميسية ٢/١٧٣، والوزن مضطرب في البيت الرابع، والقصيدة تابعة لرقم(٦١) ص ١١٤ .

(٣٣)

وقال من قصيدة: [من الطويل]

١- يَرَى النَّاسُ إِقْدَامَ الغَبِيِّ شَجَاعَةً وَمَنْ قَهَرَ الأَهْوَاءَ بـالحَزْمِ أَشْجَعُ
٢- فَأَلْقِ عَلَى أَطْمَاعِكَ اليَأْسَ، إِنَّهُ أَمَرُّ مُصَابٍ فَوْتُ مَا فِيهِ مَطْمَعُ
٣- وما النُّصحُ إلاَّ لِلعَدَاوَةِ جَالِبٌ فَلا تُولِيَنَّ النُّصْحَ مَنْ لَيْسَ يَسْمَعُ
٤- وَخَادِعْ يَزِدْكَ النَّاسُ حُبًّا لِمَا صَفَتْ حَيَـاةٌ لِمَنْ لا يَسْتَـفِـزُّ وَيَخْـدَعُ
٥- ولا تُعْطِهِمْ صَفْوَ الوُدَادِ، فَكُلُّهمْ لِمَحْضِ التَّصَافِي والوِدَادِ مُضَيِّعُ
٦- خَلِيلُكَ مَنْ أَهْدَى لَكَ العَيْبَ خَالِيًا حِفَاظًا، وَفِي الأَشْهَادِ قَدْرَك يَرْفَعُ
٧- وَمَا صَدَّ عَنِّي مَنْ هَوِيتُ فَرُمْتُهُ وَلَوْ أَنَّ نَفْسِي حَسْـرَةً تَتَقَطَّعُ

التخريج:الدر الفريد ٤٨٨/٥،والبيتان ٣ ،٤ لابن الشبل فيه ٣٢٠/٥،والسادس له فيه كذلك ٢٥٧/٣ .

[قافية الغين]

(٣٤)

وقال: [من الوافر]

١- يَسُوغُ تَطلُّبُ الحَاجَاتِ مَا لَمْ تَفُـتْكَ ،وَبَعْـدَ فَـوْتٍ لا يَسُـوغُ

٢- وَمَـاذا يَنْفَعُ التِّـرياقُ يَوْمًـا إذا وَافَى وَقَـدْ مَـاتَ اللَّديغُ ؟

التخريج: الدر الفريد ٤٩٦/٥، والثاني لابن الشبل فيه أيضًا ٢٣٦/٥.

[قافية القاف]

(٣٥)

وقال في النهي عن صحبة الأشرار: [من البسيط]

١ تَوَقَّ صُحْبَةَ مَنْ تُعْديكَ صُحْبَتُهُ بالخَيْرِ شَرًا وَبالأَخْـلاقِ أَخْـلاقَا

٢- فَالماءُ وَالنَّارُ ناشٍ مِن طَبيعَتِها بِصُحْبَةِ النَّارِ تُعْطِي الكَفَّ إحْرَاقَا

التخريج: مغاني المعاني ٦٧، وكذا ورد البيت التالي

(٣٦)

وقال: [من البسيط]

١- إيهًا أبا الفَضْلِ كَمْ أَوْليتَ مَكْرُمَةً وَرُمْتُ شُكْرَكَ عَنْهـا ثُمَّ لَمْ أَطِقِ

٢- لا تُولني مِنَنًا بَعْدَ التِّي سَلَفَتْ إليَّ مِنْكَ فَيُوهِي حَمْلُها عُنُقي

التخريج: الأمالي الخميسية ٢٣٢/١،ولعل هذه النتفة والنتفة المذكورة تحت رقم (٧٥) ص ١٢٤ في شعر «ابن الشبل» من قصيدة واحدة .

(٣٧)

وقال: [من الطويل]

١- وَمَا الحَسَبُ المَوْرُوثُ إلا تَعِلَّةٌ إذا لَمْ تُقَـارِنْهُ كِـرَامُ الخَـلائِقِ

التخريج: الدر الفريد ٢١٣/٥.

(٣٨)

وقال في الشمعة: [من البسيط]

١- وَسَاعَدَتْنِي عَلَى الظَّلْماءِ مُشْبِهَتِي هَيْفَاءُ حَافَ عَلَيْهَا السُّقْمُ والأَرَقُ

٢- الفَضْلُ فِيَّ، وَفِيها النَّارُ، نَفْعُهُمَا لِغَيْرِنَا، وَكِلانا فيه يَحْتَرِقُ!

التخريج:الدر الفريد ٢٩/٤، ومعاهد التنصيص ٤٤/٣،ولعلهما تابعين للنتفتين (٧١) ص ١٢٠، و (٧٥) ص ١٢٤

[قافية اللام]

(٣٩)

وقال: [من الرمل]

١- لا يَعُوقَنْكَ التَّمَادِي رُبَّمَا أَنْجَحَ السَّعْيُ عَلَى بُعْدِ الأَمَلْ

٢- عَلَّ أن تَظْفَرَ يَوْمًا بالمُنَى قَبْلَ أَنْ تَأْتِي المَنَايَا بالغِيَلْ

التخريج: الدر الفريد ٤٥٤/٥.

(٤٠)

وقال: [من الوافر]

١- وَإِنِّي مُفْرَدٌ جِلْسٌ لِبَيْتِي أُعالِجُ من صُرُوفِ الدَّهْرِ كَبْلا

٢- ويَهْنِي المَجْدُ أَنِّي لَسْتُ أَبْغِي سِوَى شُغْلِي بِهِ مَا عِشْتُ شُغْلا

٣- وَلا لِسِوَى النَّوَالِ أُرِيدُ مَالاً وَلا غَيْرَ الكِرَامِ أَعُدُّ أَهْلا

٤- وَتَأْبَى نَخْوَتِي وَعَفَافُ نَفْسِي لِقَدْرِي أَنْ يُضَامَ وَأَنْ يُذَلاَّ

٥- فَطَعْمُ الصَّابِ أَعْذَبُ مِنْ لهاتِي وَمِن أَرْيِ الجَنَى بالصَّوْنِ أَحْلَى

٦- وَأَلْقَى الدَّهْرَ بالخُيَلاءِ تِيهًا وَأَلْوِي جَانِبًا عَنْهُ أَزَلاَّ

٧- وآنفُ من قَبُولِ الرِّفْدِ مِنْهُ فَيَرْجِعُ كَفُّهُ عَنِّي أَشَلاَّ

٨- ولا أَسْتَعْطِفُ الأَيَّامَ مِنْهُ لِيَجْمَعَ لِي مِن الآمَالِ شَمْلا

٩- وَلكِنْ كُلَّمَا بَخِلَتْ رَأَتْنِي بِعِرْضِي في الأَنَامِ أَشَدَّ بُخْلا

١٠- إذا نَزَّهْتَ قَدْرَك عَن لَئِيمٍ يَضِنُّ بِمَالِهِ كُنْتَ الأَجَلاَّ

١١- وَمَنْ لَبِسَ القَنَاعَةَ أَلْبَسَتْهُ عَلَى كُلِّ الوَرَى شَرَفًا وَنُبْلا

الـرواية:(١) ورد البيت الأول في الأمـالي الخميسيـة برواية: «كيـلا»، وورد في شعـر ابن الشبل برواية« حلس».

(٢) ورد البيت الثاني في الدر الفريد برواية: «ليهن»، ووردفي الأمـالي الخميسيـة برواية: «ويهنا».

(٦) ورد البيت السادس في الأمالي الخميسية برواية: «أذلا».

(٨) ورد البيت الثامن في الدر الفريد برواية: «لتجمع لي من الأيام شملا».

(٩) ورد البيت التاسع في الأمـالي الخميسيـة برواية: «رأيتني»، وهي رواية غيـر دقيقة .

التخريج: القصيدة في الأمالي الخميسية ٢/٢٠٠، ٢٠١، ما عدا البيتين ٣، ١٠، والأبيات ٢، ٣، ٤، ٦-١١ لابن الشبل في الدر الفريد ٥/٣٣ ،والبيت الثالث له فيه أيضًا ٥/٣٤٩،والعاشر له فيه كذلك ٢/٨٩ ،ووردت االأبيات ١ ، ٢ ، ٤ ،في شعر ابن الشبل برقم ٨٢ ص ١٢٨ .

(٤١)

وقال: [من البسيط]

١- أَحَقُّ دَهْرٍ وَأَوْلاهُ بَلائِمَــةٍ دَهْرٌ أَضَاعَ أديبًا بَيْنَ جُهَّالِ

٢- مَا لِي أرَى طُرقاتِ المَجْدِ عَاريةً لا تُسْتَطَاعُ وَفي الأَقْوَامِ أَمْثَالِي

٣- المُكْثِرُونَ بِفَرْطِ اللَّوْمِ في شُغُلٍ وَيَشْغَلُ القلُّ أَقْوَامًا بِأَشْغَالِ

٤- عَسَى تَهُبُّ صُرُوفُ الدَّهرِ مِنْ سِنَةٍ يومًا، فَتَنتَقِلُ من حَالٍ إلى حَالِ

التخريج: الدر الفريد ١/٢٤٦.

(٤٢)

وقال : [من المنسرح]

١- حَتْمٌ عَلَى الأَعْيُنِ الطَّوَامِحِ أنْ تَنْقَادَ قَسْرًا لِلأَعْيُنِ النُّجْلِ

٢- مَا كَانَ أَجْدَى لَوْمِ اللَّوَائِمِ لَوْ كَانَ فُؤَادِي في الجُبِّ مِنْ قَبْلِي

التخريج: ذم الهوى ١٠١.

(٤٣)

وقال: [من الطويل]

١- ولكِنَّ أَنْسَى اللهُ عَنْهُ تَكَوُّني إلى أنْ زَهَتْ أَنْوَارُ فَضْلِي عَلى النَّسْلِ

التخريج: الوافي بالوفيات ١٨/١٨،ويوضع هذا البيت بعد البيت الثاني في المقطعة رقم (٨٦) ص ١٣٠.

(٤٤)

وقال : [من الطويل]

١- وِصَالُ الفَتَى هَجْرٌ لِمَنْ لا يَودُّهُ وأُنْسُ الفَتَى ذُعْرٌ لِمَنْ لا يُشَاكِلُهْ

التخريج: الدر الفريد ٢٨٤/٥،ولعل هذا البيت تابع للنتفة رقم (٩١) ص١٣٣ من الديوان.

]قافية الميم[

(٤٥)

وقال: [من الطويل]

١- جَزَيْتُكُمُ بالحِلْمِ صَبْرًا عَلَى الأذَى إذا رُمْتَ عِزًّا في العَشِيرَةِ فَاحلُمِ

٢- وَمَا كُلُّ غَرْبٌ من لِسَاني، وإنَّمَا أَبَى الفِعْلُ لِي أَنْ أَشْتَفِي بالتَّكَلُّمِ

٣- وَمَا الشَّيْبُ إلاَّ كالشَّبَابِ، وإنَّمَا يَسُودُ الفَتَى في فَضْلِهِ والتَّكَرُّمِ

التخريج:الدر الفريد ١٩٩/٣، والثاني لابن الشبل فيه ٣٣١/٥، والثالث له فيه ٣١٦/٥.

(٤٦)

وقال: [من الطويل]

١- وَصَمَّمَ عَلَى الأحداثِ بي غيرَ هَائبٍ تَجِدُني عَلَيْها مُقْدِمًا غَيْرَ مُحْجِمِ

٢- فَمَا تَحْسُنُ النُّعْمَى عَلَى غَيْرِ شَاكِرٍ كَـمَـا لا يَلِيقُ الشُّكْرِ إلاَّ بِمُنْعِمِ

التخريج: الدر الفريد ٢٣٤/٤، ولعل هذه النتفة وسابقتها من قصيدة واحدة .

(٤٧)

وقال في مطلع قصيدة: [من الوافر]

١- نَعِيمُ (الحُرِّ في الدُّنْيَا) غَرَامُ وَصِحَّتُهُ وإنْ دَامَتْ سَقَامُ!

٢- وأيّ العُمرِ يَحْمَدُه لَبِيبٌ وجُلُّ خَلائِقِ الأيَّامِ ذَامُ

٣- وَمَنْ بَذَلَ الحَيَاةَ لَهُ بِذُلٍّ فَفِي فَقْدِ الحِمَامِ لَهُ حِمَامُ!

التخريج: الأمالي الخميسية ٢/٢٧٤،وورد صدر البيت الأول في هذا المصدر هكذا «نعيمُ الدُّنيا في الحُرِّ غَرَامُ» والبيت مضطرب على هذا النسق، والصواب ما أثبت.

(٤٨)

وقال في قصيدة: [من الوافر]

١- ضَرَعنَا بَعْدَ نَخْوتِنَا إلَيْكُمْ وذُلُّ الحُبِّ يَألَفُهُ الكِرَامُ

٢- فَتىً بالبِشْرِ يَصطَلِمُ الأعَادِي وَلَوْلا المَاءُ مَا قَطَعَ الحُسَامُ

٣- إذَا صَغُرَتْ عُقُولٌ مِنْ أُنَاسٍ فَلا تَغْتَرُّك الجُثَثُ الضِّخَامُ

٤- وأيُّ الأرْضِ ألأمُ مِنْ بِلادٍ يَضِيقُ بِهَا عَلَى الحُرِّ المَقَامُ؟!

التخريج:الدر الفريد ٥/٢٦٤، والأول لابن الشبل فيه ٤/٤٠،والثاني له فيه كذلك ٤/١٧١،والثالث له فيه كذلك ٢/٣ ،ولعل هذه المقطعة وسابقتها من قصيدة واحدة .

(٤٩)

وقال: [من الطويل]

١-إذا كَثُرَتْ مِنكَ الذُّنُوبُ فَدَاوِهَا بِرَفْعِ يَدٍ فِي اللَّيْلِ، واللَّيْلُ مُظْلِمُ

٢- ولا تَقْنَطنْ مِنْ رَحْمَةِ الله، إنَّما قُنُوطُك مِنْهَا مِنْ خَطَايَاكَ أعْظَمُ

٣- فَرَحْمَتُهُ للمُحسِنِينَ كَرَامَةٌ وَرَحْمَتُهُ لِلمُسْرِفِينَ تَكَرُّمُ

التخريج: الدر الفريد ٢/٣٣.

(٥٠)

وقال : [من الكامل]

١- وإذا استَخَرْتَ اللهَ فاستَسْلِم لَهُ إنَّ المُسَلِّمَ عِندَه المُستَسْلِمُ

٢- واعلَمْ بِأنَّك مَا ابتُلِيتَ بِحَادِثٍ إلاّ بِهِ دَفْعُ الذي هُوَ أعْظَمُ

التخريج: الازدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار ص ٤٩، ولعل هذه النتفة والنتفتين المدرجتين تحت رقم (٩٥) ، (٩٦) ص ١٣٦ في شعر «ابن الشبل» من قصيدة واحدة .

(٥١)

وقال : [من مخلع البسيط]

١- مَا أَطْيَبَ العَيْشَ في التَّصَابي لَوْ أَنَّ عَـهْـدَ الصِّـبا يَدُومُ

٢- لَوْ كانَ طِيبُ الشَّبابِ يَبْقى لم يتْلهِ الشَّـيبُ والهُـمُـومُ

الرواية:(٢) ورد البيت الثاني في الدر الفريد: «أو كان صبغ الشباب يبقى.:.لم يبله».

التخريج: الدر الفريد ٥/٤٠، وهما له في تاريخ الإسلام ٣٥٨/١٠.

(٥٢)

وقال: [من البسيط]

١ عَرَائِسُ الأَرْضِ تُجْلَى في غَلائِلِها وفي حليٍّ عليها صاغَها الدِّيَمُ

٢- تسْتَنُّ في حُلَلِ الأنواءِ مُذْهَبَـةً في كلِّ حاشيةٍ من نَسْجِهَا عَلَمُ

٣- دُرٌّ من الأقْحوانِ الغَضِّ زيَنَّـهَ حُمْرُ اليَوَاقيتِ في المَنْثُورِ يَنْتَظِمُ

٤ - كَأَنَّمَا السَّمَاءُ بالأرضِ شَامِتَةٌ تَبْكِي السَّمَاءُ وَثَغْرُ الأَرْضِ يَبْتَسِمُ

التخريج : محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار٢/٣٤٠

[قافية النون]

(٥٣)

وقال : [من الكامل]

١- قُلْتُ لِزَيدٍ حِينَ أَبْدَى سُخْطَهُ نَبْضًا مِنَ الشَّرِّ الذي فيه كَمَنْ:

٢- لَسْتُ كَمَنْ يَرْعَى سَوَامَ وُدِّهِ في عُشْبةِ الدَّارِ وخَضْرَاءِ الدِّمَنْ!

٣- إليكَ مَا استرْسَلْتُ إلاَّ كَرَمًا أَحْسَنْتُ فيهِ الظَّنَّ مِنْ سُوءِ الظَّنَنْ

٤- أَبْكِي جَنىً مِنْكَ حُرِمْتُ حُلْوَهُ وَحُسْنَ رَأيٍ فِيكَ أَجْلَى عَنْ غَبَنْ

٥- تَرَكْتَنِي أَشْجَى بِكُلِّ صَاحِبٍ مَنْ تَلْسَعِ الحَيَّةُ يُفْزِعْهُ الرَّسَنْ
٦- إنَّ جِنَايَاتِ الوَرَى أَشَدُّهَا ما كان مِنْ فِعْلِ الصَّدِيقِ المُؤْتَمَنْ

التخريج: الدر الفريد ١٢٦/٣، وورد الثالث فيه هكذا: «أحسنت فيه الطن»، والصواب ما أثبت، والبيت السادس لابن الشبل فيه ٣٥٤/٢، وأخذ معنى البيت الخامس من قول «البحتري» في ديوانه ٢١٥٧/٤ :

يَحْسَبُ الأَرْطَى زُهَا الجَيْشِ؛ ومن تَنْهَشِ الحَيَّةُ يُفْزِعْهُ الرَّسَنْ

(٥٤)

وقال من قصيدة في رثاء أبيه: [من الطويل]

١- حَذِرْنَا فَلَمَّا حَلَّ فِيكَ مُصَابُنَا أَمِنَّا، وَشَرُّ الخَوْفِ مَا أَوْرَثَ الأَمْنَا

(٥٥)

وقال: [من الطويل]

١- فَوَاعَجَبًا إنَّ العَجَائِبَ جَمَّةٌ وَأَعْجَبُهَا مَا يَصْنَعُ المَلَوَانِ!
٢- نَهَارٌ وليلٌ يَرْكُضَانِ عَلَى الفَتَى كَأَنَّهُمَا في عُمْرِهِ جَلَمَانِ!
٣- وَيَا عَجَبًا مِنْ حِرْصِنَا، وَنُفُوسُنَا أَعِنَّتُهَا في قَبْضَةِ الحَدَثَانِ!
٤- نُسَرُّ بِتَجْدِيدِ الشُّهُورِ، وإنَّنَا لِيُخْلِقُنَا تَجْدِيدُ كُلِّ أَوَانِ!
٥- وَنَدْفِنُ مَوْتَانَا وَنَسْلُو كَأَنَّنَا أَخَذْنَا مِنَ الأَيَّامِ عَقْدَ أَمَانِ!
٦- فَأَيُّ انْتِفَاعٍ بِالعُقُولِ وَمَوْتُنَا كَمَوْتِ الذي يَرْعَى مِنَ الحَيَوَانِ؟!

التخريج: الدر الفريد ١٧١/٥، والثاني لابن الشبل فيه أيضًا ١٨٥/٥، والسادس له فيه كذلك ١٦٧/٤.

(٥٦)

وقال : [من البسيط]

١- لو كان يُوجَدُ بُرْءٌ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ لَكَانَ في اليَأْسِ لِي طِبٌّ يُدَاوِينِي
٢- فإنْ يَكُنْ أَجَلِي أَقْصَى مُرَادِكُمُ فَمِنْ صُدُودِكِ لي يا عَلْوَ زِيدِينِي
٣- كُفِّي أذى الجسمِ أوْ زيدي الفُؤادَ ضَنًى فالكُلُّ مِنْكِ إذا أَرْضَاكِ يُرْضِينِي
٤- اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مَا مَلَكْتُكُمُ فَعَاهِدُونِي عَلَى أَلَّا تَمَلُّونِي

٥- يا عَلْوَ لا تَجْحَدِي فَضْلِي ولا أَدَبِي ... لا يَجْحَدُ الفَضْلَ إلاَّ كُلُّ مَغْبُونِ

٦- لا تأمُلِي بَعْدَ إعراضِي مُوَاصلَتِي ... فـإنَّ قَـوْمِي من الشُّمِّ العَـرَانِين!

التخريج:الدر الفريد ١/١٩٣.

(٥٧)

وقال : [من البسيط]

١- إمَّا أَبَيْتُ عَلَى البَاغِي يُجَاذِبُنِي ... فَمَـارِنُ الفَحْلِ أَبَّاءٌ عَلَى الرَّسَنِ

٢- أَسْعَى ويُدْرِكُ قَوْمٌ ما سَعَيْتُ لَهُ ... هُبِلْتَ يـا دَهْرُ تَرْعَاهُمْ وَتُهْمِلُنِي

٣- وَرُبَّ يَوْمٍ يَجُرُّ المَجْدُ صَعْدَتَه ... بِأَنْمُلِي وَعُيُـونُ القَـوْمِ تَرْمُـقُنِي

٤- إذا اسْتَهَلَّتْ عَلَى أَبْطَالِكُمْ دِيَمِي ... هُنَاكَ يَعْـرِفُنِي مَنْ كَـان يُنْكِرُنِي

٥- أَهْوَى المَعَالِيَ،والأَسْمَالُ مُنْهَجَةٌ ... وَأَنْشَقُ العِزَّ مِنْ حَتْفِي فَيُنْعِشُنِي

٦- وَلا أُقِيمُ عَلَى حَـالٍ أُذَلُّ بِهَـا ... إنَّ الذَّلِيلَ غَـرِيبٌ وَهْوَ فِي الوَطَنِ

الـرواية:(٤) ورد البيت الرابع في الدر الفريد ١/١٣٢برواية«على أبطاله».

التخريج: الدر الفريد ٢/٢٦٧،والأبيات ١، ٢، ٥، ٦ لابن الشبل فيه ٢/١٣٢،والبيت الرابع له فيه ١/٢٧٢.

(٥٨)

وقال: [من الخفيف]

١- بَكَرَتْ والمَـلامُ مِنْهـا جُنُونُ ... واحـتِـمَـالُ الهَـوَانِ مَـا لا يَهُـونُ

٢- تَرْتَجِي أن أَمُـدَّ كَـفَّـاً لِنَيْلٍ ... لا سَـمَـتْ بِي بِغَـيْـرِ نَصْلٍ يَمِـينُ

٣- أَقْصِرِي لَنْ أُرِيقَ مَاءَ المُحَيَّا ... إنَّ قَـدْرِي بِمَـاءِ وَجْـهِي ضَنِينُ

٤- لَسْتُ أَهْوَى طُولَ الحَيَـاةِ بِذُلٍّ ... إنَّمَـا يَصْـحَبُ الهُـوَيْنَـا المُـهِـينُ

التخريج: الأمالي الخميسية ١/٢٢.

ثانيًا. إخراج ما يلزم إخراجه من ديوان «ابن الشبل»:

تبين لي بعد عرض كل ما احتوى عليه ديوان «ابن الشبل» من قصائد ومقطعات على مصادر التراث العربي أن ما جمعه د. « الكيلاني» ليس كله خالص النسبة إليه، ففي الديوان بعض المقطعات ليست خالصة النسبة «لابن الشبل»، تم إدراجها في الديوان دون إشارة إلى الاختلاف الوارد في نسبتها، وجملة هذه المقطعات المدرجة وَهْمًا في الديوان تبلغ خمس مقطعات، هي:

(١)

النتفة رقم (١٧) ص ٧٧، وتقع في بيتين، هما: [من الكامل]

١- احْفَظْ لِسَانَك لاتَبُحْ بِثَلاثةٍ سِنٍ وَمَالٍ ما استَطَعْتَ وَمَذْهَب

٢- فَعَلَى الثلاثةِ تُبْتَلَى بثلاثةٍ بِمُكَفِّرٍ وَبِحَاسِدٍ وَمُكَذِّب

الرواية:(١) ورد البيت الأول في نفح الطيب، وخلاصة الأثر برواية: «سنٍّ ومالٌ».

(٢) وورد البيت الثاني في خلاصة الأثر برواية: « وبفاضح ومكذب ».

التعقيب: أدرجت هذه النتفة في شعر ابن الشبل، وخرِّجتْ على مصدرين، هما: معجم الأدباء ١٠٨٣/٣، وعيون الأنباء ص ٣٣٩.

قلت: النتفة غير خالصة النسبة لابن الشبل البغدادي، فيلزم إخراجها من الصحيح من شعره، ووضعها في قسم خاص بما نسب إليه وإلى غيره من الشعراء، فهي بلا نسبة في نفح الطيب ٢٠٧/٥، وقدم لها ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر ٣٤٦ بقوله: «وأنشدنا محمد بن عبد الباقي البزاز». وهي لأبي العلاء البغدادي في خلاصة الأثر ٤٩١/١.

(٢)

النتفة رقم (٤٥) ص ٩٧، وتقع في بيتين أيضًا، هما: [من الطويل]

١- وَلَوْ أَنَّنِي أُعْطِيتُ مِنْ دَهْرِيَ المنَى وما كُلُّ مَنْ يُعْطِي المُنَى بِمُسَدَّدِ

٢- لَقُلْتُ لأَيَّامٍ مَضَيْنَ: ألا ارجِعِي ! وقلتُ لأَيَّامٍ أَتَيْنَ: أَلا ابعِدِي

الرواية: (٢) ورد البيت الثاني في نور القبس برواية: «ارجعي إلينا وأيام».

التعقيب: تم إدراج هذه النتفة في شعر ابن الشبل اعتمادًا على مصدر واحد فقط، على أنها صحيحة النسبة إليه، وليس الأمر كذلك، فهي بلا نسبة في العمدة ٦١٩/١،ومحاضرات الأدباء ١٠٩/٣ ، وكفاية الطالب ٢٠٨، والتذكرة الحمدونية

٨٢/٥،ومعاهد التنصيص ٢/٢٣٨-٢٣٩، وأرجح نسبتها لأبي العالية الشامي (ت بعد ٢٤٠هـ) فهي له في نور القبس ٢١٠،وفوات الوفيات ١/ ٣٥٠-٣٥١، والوافي بالوفيات ١٢/٢٠٩.

(٣)

النتفة رقم (٦٠) ص ١١٢، وتقع في بيتين كذلك، هما: [من البسيط]

١- تَسَلَّ عَنْ كُلِّ شَيءٍ بالحَيَاةِ فَقَدْ يَهُونُ بَعْدَ بَقَاءِ الجَوْهَرِ العَرَضُ

٢- يُعَوِّضُ اللهُ مَالاً أَنْتَ مُتْلِفُهُ وَمَا عَنِ النَّفْسِ إِنْ أَتْلَفْتَهَا عِوَضُ

الرواية: (١) ورد البيت الأول في الوافي بالوفيات برواية: «تعز.... عند بقاء... ».

(٢) وورد البيت الثاني في المصدر نفسه برواية:س سيخلف الله ز.

التعقيب: أدرجت ت هذه النتفة في ديوان ابن الشبل على أنها خالصة النسبة إليه، وليس الأمر كذلك، فهي للنسابة الحلبي الأشرف بن الأغر بن هاشم في الوافي بالوفيات ٩/٢٦٨

(٤)

النتفة رقم (٨٧) ص ١٣١، وتقع في ثلاثة أبيات، هي: [من الطويل]

١- إذَا كَانَ دُونِي مَنْ بُلِيتُ بجَهْلِهِ أَبَيتُ لِنَفْسِي أَنْ أُقَابَلَ بالجَهْلِ

٢- وإنْ كُنْتُ أَدْنَى منه في الحِلْمِ وَالحِجَى عَرَفْتُ لَهُ حَقَّ التَّقَدُّمِ وَالفَضْلِ

٣- وإن كان مِثْلِي في الفَطَانَةِ وَالحِجَى أَرَدْتُ لِنَفْسِي أَنْ أَجَلَّ عن المِثْلِ

الرواية: (٢) ورد البيت الثاني في الجليس والأنيس برواية: «في الفضل والحجى... فإن له حق التقدم»، وورد في الغرر والعرر برواية: «أدنى منه في العلم..... ».

(٣) وورد البيت الثالث في ديوان الناشيء الأكبر،والغرر والعرر برواية:« مثلي في محل من النهي».

التعقيب: أدرجت هذه المقطعة في ديوان ابن الشبل، وخرجت على مصدر واحد فقط على أنها صحيحة النسبة إليه، وهذا أمر مجانب للصواب، فهي للناشيء الأكبر في ديوانه برقم ١٠٦ ص ٥٤، ويضاف إلى تخريجها :الغرر والعرر فهي له فيه ٣٧٣، وأنشدها النضر بن شميل (ت٢٠٤ هـ) في ثلاثة أبيات، منها بيت ورد بعد الأول ولم يرد هنا ، هذا البيت هو :

وَإِنْ كَانَ مِثْلِي فِي مَحَلِي من العُلاَ هَوَيْتُ إذًا حِلْمًا وصفحًا عن المثل

وانظر في ذلك الجليس والأنيس ٢/٤١٣، وأظن أن إنشاد النضر بن شميل هذه المقطعة كفيل بأن يدحض صحة نسبة هذه المقطعة لابن الشبل ، وسر ذلك راجع إلى الفاصل الزمني البعيد بينهما.

(٥)

النتفة رقم ٩٧ ص ١٣٧، وتقع في ثلاثة أبيات، هي: [من الطويل]

١- أيا جَبَلَي نعمان بالله خلّيا نَسِيمَ الصبّا يخلصْ إليَّ نَسِيمُهَا

٢- أَجِدْ بَرْدَها أو تشفِ مِنِّي حَرَارَةً عَلَى كَبِدٍ لَمْ يَبْقَ إلاَّ صَمِيمُهَا

٣- فإن الصَّبَا رِيحٌ إذا مَا تَنَفَّسَتْ عَلَى كَبِدٍ حَرَّاءَ قَلَّتْ هُمُومُهَا

الرواية: (١) ورد البيت الأول في ديوان المرار الفقعسي برواية: «طريق الصبا».

(٢) وورد البيت الثاني في ديوان المرار الفقعسي برواية: «مني صبابة»

(٣) وورد البيت الثالث في ديوان المرار الفقعسي برواية: «فإن ريح الصَّبَا إذا ما تَنَسَّمَتْ... على نفس مهموم تَجَلَّت هُمُومها».

التعقيب: أدرجت هذه المقطعة في ديوان ابن الشبل دون إشارة إلى الاختلاف الوارد في نسبتها إليه، وأرى أنها ليست صحيحة النسبة إليه، فهي بزيادة بيتين قبل الأول وبعد الأخير للمرار الفقعسي في ديوانه ص ٣٧٧، وانظر ما بهامشه من مصادر.

ثالثاً . رصد ما لم يرصد من الروايات:

لم تستوعب محاولة د. «الكيلاني» لجمع شعر «ابن الشبل» كل الروايات التي أتت على ذكرها مصادر التراث العربي التي روت هذا الشعر، وأورد فيما يلي ثبتًا، رصدت فيه الروايات التي لم تذكر في الديوان إتمامًا للتحقيق، وتطلعًا إلى تزويد الباحث والقارئ بروايات أخرى للأبيات ، لعل فيها فائدة له ولشعر «ابن الشبل»

● القصيدة رقم (١) ص ٦٥-٦٦: ورد البيت الأول منها في الدر الفريد ١٠٨/٤ برواية :«ما لحي بعد ميت وفاء». وورد البيت الثاني فيه أيضًا ١٠٨/٤ برواية: «وسلت عن شقيقها الخنساء». وورد البيت الرابع في أنوار الربيع ٣٢٦/٢-٣٢٧ برواية: «غير أن الأموات مروا فأبقوا»، وورد في الدر الفريد ١٠٨/٤ برواية: «وبغوا .. ... تسيغها الأحشاء». وورد في عيون الأنباء ٣٣٥-٣٣٧ برواية: «لا يسيغه»، وورد في فوات الوفيات برواية: «عن أن الأموات مروا وأبقوا». وورد البيت السادس في أنوار الربيع ٣٢٦/٢-٣٢٧ برواية: «يذهب العمر ... فيغدوا بما يسر». وورد البيت السابع في الدر الفريد ٢٦/٤ برواية: «صحة الجسم» بدلاً من : «صحة المرء»، وورد في زهر الأكم ٤٢/٣ برواية :«هو البقاء». وورد البيت الثاني عشر منها في زهر الأكم ٤٢/٣ ،والجواهر الثمينة في محاسن المدينة ٢٠٠ برواية: «حلم تمر به»، وورد البيت الثالث عشر في زهر الأكم ٤٢/٣ ، وأنوار الربيع في أنواع البديع ٣٢٦/٢، ٣٢٧ برواية:

من فساد يكون في عالم الكو ن فما للنفوس منها اتقاء

وورد في الجواهر الثمينة في محاسن المدينة برواية: «من فساد يكون في عالم الكسوف». وورد البيت الرابع عشر في الدر الفريد ١٠٨/٤، ٢٩٦ برواية : «قبح الله لذة لأذانا». وورد البيت الخامس عشر في الجواهر الثمينة في تاريخ المدينة ٢٠٠ برواية: «فإيبادنا علينا». وورد البيت السادس عشر في فوات الوفيات ٣٤٠/٣، ٣٤١، والوافي بالوفيات ١٢/٣، ١٣ برواية : «وقليلاً ما يصحب»، وورد في الجواهر الثمينة في تاريخ المدينة ٢٠٠ ، ونصرة الثائر ١١٧، ١١٨ ، وأنوار الربيع في أنواع البديع ٣٢٦/٢-٣٢٧ برواية : «ففيم الشقاء وفيم العناء». وورد البيت الثامن عشر في الوافي بالوفيات ١٢/٣، ١٣ برواية: «على الميت شيء». وورد البيت التاسع عشر في عيون الأنباء ٣٣٦ برواية: «كيف الغيب». وورد البيت العشرون فيه أيضاً ٣٣٦ برواية: «ولا استبان». وورد البيت الرابع والعشرون فيه ٣٣٦ برواية: «أين تلك الخلال والخرم». وورد البيت السابع والعشرون في الدر الفريد ١٠٨/٤ برواية: «وما ليس» بدلاً من: «وما بي»، وورد البيت

الثاني والثلاثون في الدر الفريد ٨/٣ برواية: «إن يكن قَدَّمَتْهُ »، وورد البيت الثالث والثلاثون في الدر الفريد ١٠٨/٤، ٤٨٣/٥ برواية: «في حضنها» وورد البيت الرابع والثلاثون فيه أيضًا ١٠٨/٤، ١٤/٥ برواية: «وللبلى كل ذا الخلق»، وورد البيت الخامس والثلاثون فيه أيضًا ١٠٨/٤ برواية: «موت ذي العالم المميز بالنطق ... وذا السارح البهيم سواء»، وورد في أنوار الربيع في أنواع البديع ٣٢٦/٢-٣٢٧ برواية: «موت ذا العالم المؤيد بالنطق وذا السارح». وورد البيت السادس والثلاثون في أنوار الربيع في أنواع البديع ٣٢٦/٢-٣٢٧ برواية: «لا شقي بفقده»، بدلاً من: «لا غوي لفقده». وورد البيت السابع والثلاثون في الدر الفريد ١٠٨/٤ برواية: «رمسها البيداء». وورد البيت الثامن والثلاثون فيه أيضاً ١٠٨/٤ برواية: «كم شموس وكم بدور وكم أطواد حلم ». وورد البيت التاسع والثلاثون في عيون الأنباء ٣٣٥-٣٣٧ برواية: «صبح ثم حطت». وورد البيت الأربعون في أنوار الربيع ٣٢٦/٢-٣٢٧ برواية: «بدء قوم الآخرين انتهاء».

● النتفة رقم (٢) ص ٦٩: ورد البيت الأول منها في مرآة الجنان ٥٥/٤ برواية: «لعادل ولغادر... الضراء والسراء »، وورد في نتائج المذاكرة ٢٨، والأفضليات ٢٦٨، والدر الفريد ٤٢١/٥ برواية : «لا تعلمن مؤالفًا ومخالفًا» ، وورد في زهر الأكم برواية «الضراء والسراء» ، وورد البيت الثاني منها في نتائج المذاكرة ٢٨، والأفضليات ٢٦٨، والدر الفريد ٤٢١/٥ برواية: «المتوجعين مضاضة»، وورد في الديوان هكذا «المتوجين»، وهو خطأ مطبعي؛ حيث وردت هذه الكلمة في كل مصادر البيت هكذا :«المتوجعين»، وورد البيت في أنوار الربيع ١٨١/٢، والكنى والألقاب ٢٢٥/١،وبحار الأنوار ٢٤/١٠٤ برواية: «حزازة».

● النتفة رقم (٦) ص ٧١: ورد البيت الأول منها في مثير الغرام الساكن ٢٥٧، وتشنيف السمع ٧٢ برواية: «تخذ الهم».

● القصيدة رقم (٧) ص ٧١، ٧٢: ورد البيت الثالث منها في ذم الهوى برواية: «أن تعتاق قلبي خريدة»، وورد في عيون الأنباء ٣٢٩ برواية: «فلا تتكروا»، وورد البيت الخامس في المحمدون من الشعراء ٣٨٠، ٣٨١ برواية: «وللبيض من ماء الرقاب»، وهي رواية أفضل من رواية الديوان.

● المقطعة رقم (١١) ص ٧٤: ورد البيت الثاني منها في دمية القصر (طبعة د. الحلو) ٣٥٤/١ برواية: «من وحشة النوى» ، هي رواية أفضل من رواية الديوان ، وورد البيت الرابع منها في الدمية أيضًا برواية: «عن أثناء حضرتك» .

●النتفة رقم (١٤) ص ٧٦: ورد البيت الأول منها في محاسبة النفس ١٠١ برواية: «إذ كان أدنى »وورد الثاني منها فيه أيضاً برواية : « بأسني العيش ....الجهل في تفريطه».

● القصيدة رقم (٢٢) ص ٨١: ورد البيت الأول منها في مطبوع مسالك الأبصار ١٩٣/٩ برواية: «ملامات»، وورد البيت الرابع في عيون الأنباء ٢٣٩-٢٤٠ برواية: «الزمان به » وورد في فوات الوفيات برواية: «عهدناها»، وورد في الوافي بالوفيات برواية: «لا يبعدن ... به »، وورد البيت الخامس في مسالك الأبصار مطبوعه ومخطوطه برواية: «به ... عندي بقيات»، وورد البيت السادس في فوات الوفيات ٣٤٣/٣-٣٤٤ والوافي بالوفيات ١٥/٣-١٦، ومسالك الأبصار مطبوعه ومخطوطه، والدر الفريد برواية: «دولة الأفراح »، وورد البيت السابع في عيون الأنباء ، والوافي بالوفيات ، والدر الفريد برواية «وهي عارية... وإنما لذة الدنيا إعارات». وورد البيت الثامن منها في فوات الوفيات ٣٤٣/٣-٣٤٤، ومسالك الأبصار مطبوعًا ١٩٣/٩ ، ومخطوطًا ١٠١/٩ برواية : «في فلك الظلماء». وورد البيت العاشر في فوات الوفيات ٣٤٣/٣-٣٤٤ برواية: «من زمن الحمى أحياؤه باعتياد». وورد البيت الثالث عشر في فوات الوفيات ٣٤٣/٣-٣٤٤ برواية: «منها ملاءات» بدلاً من «منها شعاعات». وورد البيت الخامس عشر في مسالك الأبصار مخطوطًا ١٠١/٩، ومطبوعًا ١٩٣/٩ برواية: «قد وقع الدهر سطرًا في صحيفته »، وورد في مطبوع مسالك الأبصار برواية: «شارب الخمر مسرات»، وورد البيت السادس عشر في مخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩ برواية: «فعل اللبيب فللتأخير آفات ».

● النتفة رقم ٢٣ ص ٨٤: ورد البيت الأول منها في مطالع البدور ١٢٠/١ برواية: «ورد غلا».

● المقطوعة رقم (٢٧) ص ٨٦: ورد البيت الأول منها في مخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩ برواية: «تلق بالصبر ضيف الهم ترحله»، وروايته في مطبوعه ١٩٢/٩، ١٩٣ كروايته في الديوان. وورد البيت الثاني في مطبوع مسالك الأبصار ومخطوطه برواية:

فالخطبُ مَا زَادَ إلاَّ وهو مُنْتَقِص وَالأَمْرُ ما ضَاقَ يَوْمًا وَهْوَ مُنْفَرِج

وورد عجزه في عيون الأنباء برواية: « والأمر ما ضاق إلا وهو منفرج»

● المقطوعة رقم (٣٥) ص ٩٢: ورد البيت الثالث منها في الدر الفريد ٤٠٣/٥ برواية: «لا تأمنَنَّ منافسًا»، وورد البيت الرابع فيه أيضًا برواية: «سطا عليه ».

● المقطوعة رقم (٤٢) ص ٩٥: ورد البيت الخامس منها في تمام المتون ١١٥ برواية: «صور الله خلقه»

● القصيدة رقم (٥٠) ص ١٠٧: ورد البيت الأول منها في مخطوط مسالك الأبصار ١٩٢/٩، ومطبوعه هكذا:

وَكأنما الإِنْسَانُ فيه عِبْرَةٌ ... متلونًا والحُسْنُ فيه مُعَارُ

وورد في معجم الأدباء ٣٥/١٠ برواية: «متكون والحس منه»، وورد البيت الثاني منها أيضًا في فوات الوفيات ١٤٢/٣، والوافي بالوفيات برواية: «متصرف ... ومكلف»، وورد في معجم الأدباء ٣٥/١٠ برواية: «متصرف ... ومسير»، وورد البيت الرابع منها في عيون الأنباء ٣٣٧، ومعجم الأدباء ٣٥/١٠ برواية : «ويبصر بعدما» . وورد البيت السادس منها كذلك في عيون الأنباء ٣٣٧، والوافي بالوفيات ١٤/٣ برواية: «العبث به الأفكار». وورد البيت السابع منها كذلك في عيون الأنباء ٣٣٧ برواية: «لا يعرف الإفراط»

● النتفة رقم (٥١) ص ١٠٨: ورد البيت الثاني منها في دمية القصر ٣٥٣/١ (طبعة عبدالفتاح الحلو) برواية «تلوح »، وهي الرواية الصحيحة.

● المقطعة رقم (٥٥) ص ١٠١، ١١١: ورد البيت الثالث منها في شذرات الذهب ١٣٨/٢ برواية: «فطووا رياح»

● النتفة رقم (٥٦) ص ١١١: ورد البيت الثاني منها في الدر الفريد ٣٥٧/٥ برواية: « السن أنزعها».

● النتفة رقم (٦٢) ص ١١٥: ورد البيت الأول منها في الوافي بالوفيات ١١/٣ برواية: «ما تبنيه يهدمها»، وورد في المستطرف ٤٨٢/٢، وحياة الحيوان ٦٠١/٤ برواية: «وللحوادث ما يبقى وما يدع»، وورد في حياة الحيوان ٦٠١/٤ برواية: «يفنى الحريص»، وورد في نهاية الأرب ٢٩٨/١٠ برواية: «يفنى الحريص لجمع».

● النتفة رقم (٦٤) ص ١١٦: ورد البيت الأول منها في عيون الأنباء ٣٣٩، ومخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩ برواية: «والذل والعار حرص النفس والطمع». وورد البيت الثاني منها أيضًا في معجم الأدباء ٣٨/١٠ برواية: «فماذا منه» بدلاً من: «بماذا عنه».

● القصيدة رقم (٧٢) ص ١٢١: (٢) ورد البيت الثاني منها في عيون الأنباء ٣٣٨ برواية: «وحرمة ودي». وورد البيت السادس منها فيه أيضًا برواية: «مد سدوله» بدلاً

من: «أرخى سدوله». وورد البيت السابع في معجم الأدباء ١٠/٣٤ برواية: «أيجمل» بدلاً من: «أيحمل»، وهي رواية أدق من الرواية التي أثبتت في الديوان.

● المقطعة رقم (٧٤) ص ١٢٢-١٢٣: ورد البيت الثاني منها في المحمدون من الشعراء ٣٩٣ برواية: «تسبي العقول». وورد البيت الثالث منها فيه كذلك وفي الحماسة الشجرية ٢/٦٤٣-٦٤٤ برواية: «والنار أذهلها عن الإحراق»، وهي رواية أفضل من رواية الديوان التي وردت هكذا: «والنار أذللها عن الإحراق».

● المقطعة رقم (٧٧) ص ١٢٥: ورد البيت الثاني منها في الدر الفريد ٢/١٤٣، ٤/١٣٧ برواية: «من مهجة» بدلاً من: «من جثة». وورد البيت الثاني منها في المحمدون من الشعراء ٣٩٤ برواية: «ذو جدة»، وهي الرواية الصحيحة، والجدير بالذكر أن كتاب المحمدون من الشعراء هو المصدر الوحيد لتخريج هذه المقطعة في الديوان. وورد البيت الرابع في الدر الفريد ٢/١٤٣ برواية: «فالبحر يرزق قوم منه». وورد البيت الرابع في الدر الفريد ٢/١٤٣ برواية: «بين الفلك والحنك».

● المقطعة رقم (٨٢): ورد البيت الأول منها في الخميسية بروية: «جلس لبيتي».

● النتفة رقم (٨٣): ورد البيت الثاني منها في المحمدون من الشعراء ٣٩٧ برواية: «وبلى بما لا أشتهي»، وهي الرواية الدقيقة التي بها يتفق معنى البيت مع معنى سابقه.

● المقطعة رقم (٨٦): ورد البيت الثالث منها في الوافي بالوفيات ١٨/١٦-٢٠ برواية: «على الرسل» بدلاً من: «مع الرسل»، ورواية الوافي بالوفيات أدق من رواية الديوان. وورد البيت الرابع منها في الوافي بالوفيات أيضاً ١٨/١٦-٢٠ برواية: سولي ألف نمرود وألف أبوجهل»، ورواية الديوان هي الرواية الصحيحة.

● النتفة رقم (٨٩): ورد البيت الثاني منها في تمام المتون ٣٠٠ برواية: « لولا جوهر منه».

● القصيدة رقم (١٠٥): ورد البيت السادس منها في المحمدون من الشعراء ٤٠٠ برواية: «بمثالث»، ورواية الديوان غير دقيقة، والجدير بالذكر أن كتاب المحمدون هو المصدر الوحيد لتخريجها .

● المقطعة رقم (١٠٦) ص ١٤٣:ورد البيت الرابع منها في المحمدون من الشعراء ٤٠٠، - المصدر الوحيد لتخريجها - برواية: «فما أثنيك» وقد رُصِدَت الرواية في الديوان هكذا: «فما أنبئك ».

● النتفة رقم (١٠٧) ص ١٤٣: ورد البيت الثاني منها في فوات الوفيات برواية: «سواه في الحسن» بدلاً من: «ثانيه في الحسن».

● المقطعة ١١٢ ص ١٤٦: (٢) ورد البيت الثاني منها في تاريخ الحكماء ٢٣٣ برواية «ذو عزم». وورد البيت الثالث منها فيه أيضاً برواية: «طرق الهدى منها».

رابعًا ـ استقصاء مصادر التخريج:

ألمحت آنفًا إلى أن هناك طائفة من المصادر لم يتم الرجوع إليها في مرحلة جمع الشعر، وقد أدى ذلك إلى إخلال المجموع الشعري بكثير من الأبيات، ومن المسلم به أن يؤدي عدم الرجوع إلى تلك المصادر إلى إيجاد نقص في الروايات والتخريجات، ومن المسلم به أيضًا أن استقصاء مصادر التخريج يعد أحد الأمور الأساسية اللازمة في جمع وتحقيق الدواوين التي فقدت أصولها المخطوطة، ولهذا الاستقصاء أهمية عظمى في الدراسات الأدبية والنقدية، فهو يشير إشارة بينة إلى مكانة الشاعر، ومنزلته الفنية من خلال سيرورة الشعر، وتهافت الرواة على روايته، كما يفصح عن طبيعة هذا الشعر واتجاه الشاعر الشعري، وذلك من خلال إدراك طبيعة المصادر التي أتت على رواية هذا الشعر، كما يساعد الباحث، ويعبد السبيل أمامه لدراسة هذا الشعر، لأن فيه ذكرًا للمصادر، وتحديدًا لأماكن الشعر فيها، ومن ثم يسهل على الباحث الرجوع إليه في تلك المصادر لإدراك ما فيها من تعليق نقدي، هذا فضلاً عن كون الاستقصاء يزيد في توثيق الشعر، وتعزيز نسبته للشاعر؛ لذا كانت أهميته في العملية التحقيقة عظيمة، خاصة في جمع الدواوين ذات الأصول المفقودة ،وانطلاقًا من هذه الأهمية بادرت إلى استقصاء تخريج قصائد ومقطعات «ابن الشبل البغدادي»،وهذا ثبت ضمنته من التخريجات ما لم يتضمنه الديوان .

● القصيدة رقم (١) ص ٦٥-٦٦:وردت القصيدة في ٣٨ بيتًا في الدر الفريد ١٠٨/٤ بزيادة بعض الأبيات لم ترد في الديوان، وتم استدراكها في هذا البحث ،وبنقص الأبيات ذوات الأرقام ٢٢ ، ٢٤-٢٦، ووردت الأبيات ١، ٣، ٦، ٤٠، ٣٥، ٣٦، ٧، ٩، ١١-١٣، ١٦، ١٤، ١٥ منسوبة لابن الشبل في أنوار الربيع في أنواع البديع ٢٢٦/٢ - ٢٢٧ ،والأبيات ٥-١١، ١٦، ١٤، ١٥ له على هذا الترتيب في نصرة الثائر على المثل الثائر ١١٧، ١١٨،والأبيات ٧ ، ٨-١٣ ، ١٦ ، ١٤ ، ١٥ على هذا النحو في زهر الأكم ٤٢/٣ ، والجواهر الثمينة في محاسن المدينة ٢٠٠،والأبيات ١ ، ٥ ، ٦ ، ٩-١١ له في الكنى والألقاب ٣٢٥/١ ،والبيت الثالث له في الدر الفريد ١٠١/٥،والسابع له فيه ٢٦/٤ ، والثامن كذلك في ٦١/٣، والتاسع أيضًا ٧٧/٥ ،والحادي عشر مثله ٢٩٦/٣،والرابع عشر في الدر الفريد أيضًا ٢٩٦/٤،والخامس عشر فيه ١٦٥/٥ ، والتاسع عشر فيه ٢١٧/٥، والثاني والثلاثون فيه ٨/٣ ، والثالث والثلاثون فيه ٤٨٣/٥ ، والرابع والثلاثون فيه ١٤/٥، والسادس والثلاثون فيه ٤٤٤/٥ ، والأربعون فيه ٢٦٣/٢ .

● النتفة رقم (٦) ص ٧١: له في مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ٢٥٧،

وتشنيف السمع ٧٢.

● القصيدة رقم (٧) ص ٧١: ورد البيت الثالث منها منسوبًا إليه في ذم الهوى ٦٤٥، ومعه بيت آخر لم يرد فيها، وتم استدراكه في هذا البحث.

● النتفة رقم (١٤) ص ٧٦: بلا نسبة في محاسبة النفس للكفعمي ص ١٠١.

● النتفة رقم (١٨) ص ٧٨: لابن الشبل في الدر الفريد ٤٦٠/٥.

● القصيدة رقم (٢٢) ص ٨٠، ٨١،وردت الأبيات ١٦، ١٧، ٦، ٧ منها على هذا الترتيب لابن الشبل في الدر الفريد ٢٤٤/٣، ٤٥/٥،ووردت الأبيات ١، ٥، ٦، ٨، ١٥، ١٦ له في مخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩،ومطبوعه ١٩٣/٩،وورد البيتان ١٦، ١٧ له في تاريخ الإسلام ٣٥٨/١٠.

● النتفة رقم (٢٣) ص ٨٤: نسبت لابن الشبل البغدادي في مطالع البدور ١٢٠/١.

● النتفة رقم (٢٦) ص ٨٥ لابن الشبل في الوافي بالوفيات ١٩/١٨، وبقيتها مستدركة منه في هذا البحث.

● المقطعة رقم (٢٧) ص ٨٦: له في مخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩، ومطبوعه ١٩٢/٩-١٩٣.

● النتفة رقم (٣٣) ص ٩٠: نسبت لأربعة شعراء،وليس لشاعرين فقط ،ويزاد على تخريجها: هي لابن الشبل في مخطوط مسالك الأبصار ١٠١/٩، ومطبوعه ١٩٢/٩، ونسبت لعلي بن إدريس اليماني في جذوة المقتبس ١٧٠،والمطرب ١٢٠، وفوات الوفيات ١٦٢/١،والوافي بالوفيات ٣٢٨/٨، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ٤٩٣/١،ونفح الطيب ٧٥/٤ ،وزهر الأكم ١٦٢/٢،وحماسة القرشي ٤٧٦ ، وهي لبعض المغاربة في المثل السائر ٣٢/٢ ،ونصرة الثائر على المثل السائر ٢٢٤،والكشكول ٤٢/٢ ، ولابن هانئ الأندلسي في بديع ابن منقذ ٢٢٧،وجوهر الكنز ١٩٤،ولم ترد في ديوانه ، ولابن دريد في التذكرة الفخرية ١٩٥ ، ولم ترد في ديوانه بطبعتيه،وبلا نسبة في نهاية الأرب ١٤١/٤،والكشكول ٣٢٤/١.

● النتفة رقم (٣٥) ص ٩١،ورد البيت الأخير منها منسوبًا لابن الشبل في الدر الفريد ٣٥١/٤ .

● المقطعة رقم (٤٢) ص ٩٥: لابن الشبل في تمام المتون ١١٥.

● القصيدة رقم (٤٩) ص ٩٩-١٠١،وردت الأبيات ١-٢١، ٢٢-٣٣، ٢٢-٣١، ٢٤-٥٠

على هذا النحو لابن الشبل في مخطوط مسالك الأبصار ٩/٩٨-١٠٠،ومطبوعه ٩/١٨٧-١٩١ .

● القصيدة رقم (٥٠) ص ١٠٧:ورد البيتان ١، ٢منها لابن الشبل في مخطوط مسالك الأبصار ٩/١٠٠، ومطبوعه ٩/١٩٢.

● المقطعة رقم (٥٥) ص ١١٠-١١١: لابن الشبل في شذرات الذهب ٢/١٣٨،والكنى والألقاب ٢/١٨٠ .

● النتفة رقم (٥٦) ص ١١١ له في الدر الفريد ٥/٢٥٧.

● النتفة رقم (٦٢) ص ١١٥ له في الكنى والألقاب ١/٢٢٥، وبلا نسبة في نهاية الأرب ١٠/٢٩٨، وحياة الحيوان الكبرى ٤/٦٠١، والمستطرف ٢/٤٨٢.

● النتفة رقم (٦٤) ص ١١٦: له في مخطوط مسالك الأبصار ٩/١٠١،ومطبوعه ٩/١٩٢ .

● القصيدة رقم (٧٢) ص ١٢١:ورد البيتان ١، ٢ منها بلا نسبة في المدهش ٣٢١.

● المقطعة رقم (٧٧) ص ١٢٥: لابن الشبل في الدر الفريد ٢/١٤٣، والثاني منها له فيه أيضًا ٤/١٣٧.

● المقطعة رقم (٨٢) ص ١٢٨: له في الأمالي الخميسية ٢/٢٠١-٢٠٢ من قصيدة تم استدراكها في هذا البحث

● المقطعة رقم (٨٣) ص ١٢٩: له في المحمدون من الشعراء ٢٩٧.

● النتفة رقم (٨٩) ص ١٣٢: له في تمام المتون ٣٠٠.

● النتفة رقم رقم (١٠٧) ص ١٤٣: ورد عجز البيت الثاني منها بلانسبة في ألحان السواجع ٢/٢٠٩.

● المقطعة رقم (١١٢) ص ١٤٦: له في تاريخ الحكماء للشهرزوري ٣٣٢.

● رقم (٣) ص ٦٩ له في مرآة الجنان ٤/٥٥،والدر الفريد ٥/٤٢١،وبحار الأنوار ٢٤/١٠٤،والكنى والألقاب ١/٢٢٥،وهي بلا نسبة في نتائج المذاكرة ٢٨،والأفضليات ٢٦٣،وأنوار الربيع في أنواع البديع ٢/١٨١،والجواهر الثمينة في محاسن المدينة ٢٣٨،ونسبت لابن نقطة خطأ في زهر الأكم ١/١٧٢ .

خامسًا . تصحيح الأوهام العروضية:

بذل د. «الكيلاني» جهدًا كبيرًا في ضبط شعر «ابن الشبل البغدادي»، وإقامة وزنه ،والنص على أوزان المقطعات والقصائد ،بإثبات أسماء البحور أعلى يسار كل قصيدة ومقطعة ، ولا انكر أنه صحح الأوهام التي وقعت في تحديد الأوزان في كتاب «المحمدون من الشعراء وأشعارهم»، وهذا بيان بما صححه من أوهام في هذا الكتاب :

١- المقطعة رقم (٢٠) ص ٧٩: ذكر محقق كتاب «المحمدون من الشعراء وأشعارهم» ص ٢٧٨ أنها من الكامل ، وأثبت د. «الكيلاني» وزنها الصحيح، وهو: مجزوء الكامل.

٢- المقطعة رقم (٣٧) ص ٩٢: ذكر محقق الكتاب السابق ص ٣٨٥ أنها من الرجز، وأثبت د. «الكيلاني» وزنها الصيحيح، وهو: السريع.

٣- المقطعة رقم (٥٧) ص ١١٢ ذكر محقق الكتاب السابق ص ٣٨٩ أنها من الكامل وأثبت د. « الكيلاني » وزنها الصحيح، وهو: مجزوء الكامل.

وهذا التصحيح لا يمنع من الإشارة إلى الهنات الهينات في الجانب العروضي المتمثلة في شعر «ابن الشبل البغدادي»، وهذا بيان بما وقفت عليه منها :

١- النتفة رقم (٩١) ص ١٣٣ ،ومطلعها:

يَلُومُ عَلَى لَوْنِ كَسَانِيهِ حُبُّهُ وَقَدْ شَرَكَتْنِي في اصفِرَارِي خَلاخِلُهْ

حدد د. «الكيلاني» وزن هذه النتفة بأنها من الكامل منساقًا في ذلك وراء وهم د. «رياض مراد» محقق كتاب «المحمدون من الشعراء» ص ٣٩٧ الذي ذهب إلى أنها من الكامل، وهذا غير صحيح ، فهي من الطويل، وليس من الكامل.

٢- البيت الثالث من المقطعة رقم (٢١) ص ٧٩-٨٠، وهو:

صَفَفْنَا عَلَى السِّمْطِ أُتْرجَّنَا فَعَنْ بَعْضِنَا قَدْ حُجِبْ

هذا البيت من المتقارب، وتم إثباته على الصورة السابقة، وهو مضطرب الوزن في عجزه ، بسبب سقوط المبتدأ المؤخر ، (بعضنا) ، وصواب البيت أن يأتي هكذا :

صَفَفْنَا عَلَى السِّمْطِ أُتْرجَّنَا فَعَنْ بَعْضِنَا بعضُنا قَدْ حُجِبْ

٣- البيت الأول من المقطعة رقم (١٠٢) ص ١٤٠ ،وهو :

إنْ تَكُنْ تجْزَعُ مِنْ دَمْـ ـعِي إذا فَاضَ فَصُنْه

هذا البيت من مجزوء الرمل، وقد كتب على الصورة السابقة،وهو من الأبيات المدورة ، وتفعيلة عروضه كما كتب ليست متفقة مع تفعيلة العروض في باقي أبيات المقطعة، ولكي يكون كذلك يكتب على الصورة التالية :

إنْ تَكُنْ تجْـــزعُ مِنْ دَمْـ ـعي إذا فَـــاضَ فَـــصُنْه

٤- البيت السابق من المقطعة رقم (٣٤) ص ٩١، وهو:

كَـــانَ لي غـــشُّـــه فَـبـــالـ ـحَـــزْدِ وَالغِشُّ افْـــتُـــضِح

هذا البيت من مجزوء الخفيف، وقد ورد الفعل (افتضح) في البيت هكذا، وليستقيم وزن البيت لابد من إثبات همزة الوصل ضرورة .

٥- البيت الثالث من المقطعة رقم (٣٥) ص ٩٢، وهو :

فَـتَـوَقَّ كَـيْـدَ مُنَافِسٍ لَكَ رُتْبَـةً وَلَـوَ أنَّهُ الـوَلَـدُ الـذي لَكَ يُـولَـدُ

هذا البيت من الكامل التام، ووزنه مكسور بإثبات همزة (أن)، ولاستقامته يلزم حذف هذه الهمزة هكذا : «ولو انه».

٦- البيت الأول من النتفة رقم (٣٨) ص ٩٣،وهو :

فَلَوَ أن قَلْبَكَ مِثْلُ جِسْمِكَ رِقَّةً لم يُزْهِق المُشْتَاقَ مِنْكَ صُدُودُ

وهذا البيت من الكامل التام أيضًا، وهو مكسور في صدره بسبب إثبات همزة (أن) ولاستقامته يلزم حذف هذه الهمزة هكذا : «فَلَوَ ان».

والجدير بالذكر أن هذه الأبيات الثلاثة قد وردت في كتاب «المحمدون من الشعراء وأشعارهم » مكتوبة على الوجه الصحيح الذي أشرت.

سادسًا. تصحيح أوهام النقل من المصادر

وقعت في ديوان «ابن الشبل البغدادي» بعض الكلمات تم نقلها من بعض المصادر بطريقة غير دقيقة؛ فأدت إلى غموض معاني الأبيات التي ضمتها، وأسوق الآن أبيات هذه الكلمات مشيرًا إلى الرواية الصحيحة.

١- ورد البيت التالي في ديوان ابن الشبل ص ٧٠ هكذا:

كالخَمْرِ تَعْلُو الماءَ حُمْرَةُ لَوْنِهِ وَشُعَاعُهَا يَعْلُو بَيَاضَ الماءِ

وقد تم نقل هذا البيت من مصدره الوحيد وهو كتاب المحمدون من الشعراء ص ٧٠، والرواية الدقيقة التي وردت في هذا المصدر ٣٧٨ هي: «حمرة لونها»، وبهذه الرواية يتضح معنى البيت.

٢- كما تم رصد البيت التالي في ص ٨٤ هكذا:

لا تُنْكِحَنْ سِرَّك المَكنونَ خَاطِبَةً واجعَلْ لِمَيِّتِهِ بَيْنَ الحَشَا جَدَثَا

وروايته الصحيحة التي وردت في مصدره الوحيد، وهو كتاب المحمدون من الشعراء ٢٨٢ هي: « خَاطِبَه ».

٣- وقد تم إثبات البيت التالي في ص ١٢٥ هكذا:

واحْفَظْ قَلِيلَكَ لا يَغْرُرْكَ ذا جِدَةٍ لمِثلِهِ الحظُّ غَلْطَاتٌ من الفَلَكِ

والرواية الصحيحة التي وردت في المصدر الذي اعتمده المحقق ٣٩٤ هي: « ذو جدة »، وعلى هذه الرواية ورد أيضًا في الدر الفريد٢/١٤٣.

٤- وتم كتابة البيت التالي في ص ١٤٢ هكذا:

وَحَدا الظَّلامُ مع الكَوَاكِبِ سُحْرَةً بمثالِبٍ مِن صَوْتِهِ وَمَثَانِي

والرواية الصحيحة التي وردت في مصدره الوحيد، وهو كتاب المحمدون من الشعراء ص ٤٠٠ هي: «بمثالث»، وهي أدق من الرواية المعتمدة نظرًا لمراعاة معنى البيت.

٥ - وتم رصد البيت التالي في ص ١٤٣ هكذا:

فَمَا أنبئك عَنْ غَيٍّ بِرُشْدٍ لأنَّ طِلابَ مَا أعْيَا تَجَنّى

والرواية الدقيقة التي وردت في مصدره، وهو كتاب المحمدون من الشعراء ٤٠٠ هي: « فما أثنيك».

٦ - كما تم إدراج البيت الثاني من النتفة رقم ٨٣ ص ١٢٨ هكذا:

وَبَلي بِمَا لا يَشْتَهِي فَإِذَا انقَضَى وَأَتَى سِـوَاه رَجَـعتُ أَبْغِي الأَوَّلا

وقد اعتمد د. «الكيلاني» في إثبات هذا البيت على كتاب الأنساب المتفقة ص ٨٢ فقط.

قلت: النتفة التي بها هذا البيت في «المحمدون من الشعراء وأشعارهم»، وهو من مصادره، والرواية فيه أدق من رواية الأنساب المتفقة؛ لذا ينبغي الاعتماد عليها، وهي: «وبلى بما لا أشتهي»، وبهذه الرواية يتناسب معنى البيت مع معنى البيت السابق عليه.

سابعًا . تقويم المنهج والتنسيق:

سلك د. «حلمي الكيلاني» منهجًا في جمع شعر «ابن الشبل البغدادي»، ذكره بالتفصيل في سبع نقاط ص ٦٤ تحت عنوان: «منهج العمل»، ويعنيني من هذه النقاط النقطتان الثانية والثالثة؛ لذا أورد هنا ما قاله د. «الكيلاني» تحت النقطة رقم (٢) من النص التالي: «رتبت بعض الشعر الذي كان مجزءاً أو أبياتاً متناثرة ليأتلف منه نص متلاحم يربطه رابط فني واحد مع مراعاة المعاني،وتدرج الأفكار» .

وأقول: هذا الكلام طيب وحميد لا غبار عليه،طبقه د. «الكيلاني» في المقطعة رقم ٢١ ص ٧٩ -٨٠، ولم يطبقه في طائفة من مقطعات الديوان ونتفه، وربما يكون ذلك عن قصد ودراية من د. «الكيلاني»، والدليل على ذلك أنه قال: « رتبت بعض الشعر».

غير أني أرى أنه كان من الأفضل - ما دام قد تحقق شرطه هذا - ضم النتفة رقم (٤٦) وهي في الحكمة إلى المقطعة رقم (٤٢) وهي في الحكمة أيضًا، وهما متحدتان في الوزن وحرف الروي، وحركته،وأول النتفة رقم (٤٦) البيت التالي : (من الطويل)

وَرُبَّ أُمُــورٍ بالأَقَــارِبِ تَلْتَـوِي   وَرُبَّ أُمُــورٍ تَسْـتَـوِي بـالأَبَاعِـدِ

ومطلع المقطعة رقم (٤٢) هو: (من الطويل)

وَلا تَحْتَقِرْ ضَعْفَ العَدُوِّ ،وَلا تَقُلْ   عَلَى كَيدِهِ أَسْطُو بِخِلٍّ مُسَـاعِدِ

وكذلك أرى من الأفضل ضم المقطعة رقم (٩٦) إلى المقطعة رقم (٩٥)، فهما متحدتان في الغرض ، وهو الحكمة، وكذلك في الوزن، وهو الكامل ، وحرف الروي ، وحركته ، وهو الميم المضمومة ، ومطلع الأولى هو :

أبدًا تُفَـهِّمُنَا الخُطُوبُ كُـرُورَهَا   وَنَعُـودُ في غَيٍّ كَـمَنْ لا يَفْـهَمُ

ومطلع الثانية هو :

مــا تنفــذُ الأَقْــدَارُ إلاَّ أَنَّهــا   بَيْنَ الخَـلائِقِ وَقْـتُـهَـا لا يُعْلَمُ

وكذلك أرى أفضلية ضم النتفة رقم ٦٤ إلي النتفة رقم ٦٢ ،لأن المعنى فيهما متقارب ،والوزن واحد،وهو البسيط ،وكذلك الروي،وهو الراء المضمومة،والبيت الأول من النتفة الأولى رقم (٦٤) هو :

قَالُوا القَنَاعَةُ عِزٌّ، وَالكَفَافُ غِنىً   وَالذُّلُّ وَالعَارُ حِرْصُ المَرْءِ وَالطَّمَعُ

والبيت الأول من النتفة الثانية رقم (٦٢) هو:

يَفْنَى البَخِيلُ بِجَمْعِ المالِ مُدَّتَه   وَلِلْحَــوَادِثِ وَالورَّاثِ مَــا يَدَعُ

أما بخصوص النقطة رقم (٣) في المنهج فإن في المجموع الشعري ما يتعارض مع مضمونها الذي ذهب إليه د. «الكيلاني» في قوله: «رتبت النصوص حسب القوافي على حروف الهجاء.....».

قلت: وقفت على النتفة رقم (٢٦) التالية:

وَستَّةٍ فيكَ لَمْ يُجمَعْنَ في بَشَرٍ: كِذْبٍ، وكِبْرٍ، وَبُخْلٍ أَنْتَ جَامِعُهُ

مَعَ اللَّجَاجِ، وَشرِّ الحِقْدِ، والحَسَدِ ؟

مدرجة بعد نتفة على قافية الثاء، وقبل نتفة على قافية الجيم، والصواب أن تدرج هذه النتفة في حرف الدال، كما وردت في هذا المستدرك .

ثامنًا. تصحيح ديباجة المقطعة رقم (٥٥) ص١١٠:

رصد المحقق ديباجة لهذه المقطعة، هذا نصها: «وقال يمدح دبيس بن صدقة».

قلت:الصواب أن تأتي الديباجة على هذا النحو:«وقال يمدح أبا المنيع قِرواش بن المقلَّد ت٤٤٣هـ»، وأسوق ثلاثة أدلة على صحة ما أذهب إليه، هي:

١- أن المقطعة وردت في سياق ترجمة «أبي المنيع قرواش» في كتاب وفيات الأعيان٥/٢٦٤، ولم ترد في نص ترجمة «دبيس بن صدقة» في الكتاب نفسه ص ٢/٢٦٣.

٢-أن الضمير راجع إلي «قرواش» صاحب الترجمة، وليس راجعًا إلى «دبيس بن صدقة»، فصاحب الوفيات لم يقصد « بن صدقة» في قوله: «ومدحه أبو علي بن الشبل الشاعر المشهور بقصيدة» ، وإنما قصد «أبا المنيع قرواش».

٣- أن «ابن صدقة» ولد عام (٤٦٣هـ)، وتوفي عام (٤٢٩هـ)، فإذا عرفنا ذلك وعرفنا أن «ابن الشبل» توفي عام (٤٧٣هـ) أدركنا أن «ابن صدقة» كان عمره (١٠) سنوات فقط، وذلك في السنة التي توفي فيها «ابن الشبل»، ومن ثم فلا يعقل أن يمدح «ابن الشبل» طفلاً عمره عشر سنوات؛ ومن هنا أرجح أنه مدح بهذه المقطعة «أبا المنيع»، وليس «ابن صدقة».

٤- فيلزم إذًا تصحيح هذه الديباجة في مجموع شعر «ابن الشبل» ص١١٠-١١١، وكذا في ص ٣١٣٢من بحث الدكتور «الكيلاني»: «ابن الشبل: أبو علي محمد بن الحسين:حياته وشعره»، ويلزم كذلك تصحيح وفاة «دبيس بن صدقة» في ص٣١٤٦ من البحث نفسه، فقد حدده د. «الكيلاني» بأنه عام (٤٧٤هـ)، على حين حدده في مجموع شعر «ابن الشبل» على الوجه الدقيق، وهو عام (٤٢٩هـ). أما عام (٤٧٤هـ) هذا فهو العام الذي توفي فيه «منصور بن صدقة»، والد «صدقة بن منصور» المتوفى عام (٥٠١هـ)، وصدقة هذا والد «دبيس».

تاسعًا . الأخطاء الطباعية:

أما الأخطاء الطباعية في ديوان ابن الشبل فهي قليلة، وأثبت هنا ما وقفت عليه منها ، خدمة للديوان ، وتطلعًا إلى الارتقاء به درجة نحو الكمال .

الخطأ	الصواب	محله
أيحمل	أيجمل	البيت السابع من القصيدة رقم ٧٢
البيتان	الأبيات	تخريج المقطعة رقم ٧٧ ص ١٢٥
البيتان كلها	الأبيات كلها	تخريج المقطعة رقم ٧٨ ص ١٢٦
٣٧	٣٣٧	السطر الثانى من أعلى من الصفحة ٦٧
١ - ٩	١ - ١٩	السطر الثانى من أعلى من الصفحة ٦٧
والوافي	وفوات الوفيات	فى تخريج البيت ١٣ في الصفحة ٦٧
٢٧	٢٨	السطر الثانى من أسفل في الصفحة ٦٧

فهرس القوافي، والأوزان وعددالأبيات في كل مقطعة وقصيدة

م	القافية	الوزن	عدد الأبيات
١	البرحاءَ	الرمل	٦
٢	الدواءِ	الوافر	٧
٣	القضاءُ	الخفيف	٧
٤	العطب	البسيط	٣
٥	لم يقرب	الطويل	٢
٦	جنبي	الوافر	٢
٧	لها وثب	البسيط	١
٨	السبب	البسيط	١
٩	ومن رعب	البسيط	١
١٠	الذرب	البسيط	١
١١	طنب	البسيط	١
١٢	فيجاب	الطويل	١
١٣	اللجج	البسيط	٣
١٤	وانفتاحِ	مجزوء الكامل	١
١٥	فهمدُ	الرمل	١
١٦	أو اعتدى	الطويل	١٥
١٧	تقييد	البسيط	٥
١٨	الجوامد	الطويل	٣
١٩	الحسدِ	البسيط	٤
٢٠	الحقد	الطويل	٢
٢١	معتادُ	البسيط	٤
٢٢	يعبدُ	الطويل	٣
٢٣	الدهرا	الطويل	١١
٢٤	شرا	الوافر	٢
٢٥	الأقدار	الكامل	٢١
٢٦	الخاطرِ	الكامل	٨
٢٧	بتكدير	البسيط	٥
٢٨	بوقار	الطويل	١
٢٩	جديرُ	الطويل	٢
٣٠	افترسا	البسيط	٢
٣١	فأقلعا	الكامل	٢
٣٢	أشجعُ	الطويل	٧
٣٣	أنفعُ	الطويل	٧
٣٤	لايسوغِ	الوافر	٢
٣٥	أخلاقا	البسيط	٢
٣٦	لم أطق	البسيط	٢
٣٧	الخلائق	الطويل	١
٣٨	الأرقُ	البسيط	٢
٣٩	الأملْ	الرمل	٢
٤٠	كيلا	الوفر	١١
٤١	جهالِ	البسيط	٤
٤٢	النحلِ	المنسرح	٢
٤٣	النسلِ	الطويل	١
٤٤	يشاكله	الطويل	١
٤٥	واحلمِ	الطويل	٣
٤٦	محجمِ	الطويل	٢
٤٧	سقامُ	الوافر	٣
٤٨	مظلمُ	الطويل	٣
٤٩	المستسلمُ	الكامل	٢
٥٠	الكرارمِ	الوافر	٤
٥١	يدومُ	مخلع البسيط	١
٥٢	فيه كمنْ	الكامل	٦
٥٣	الأمنا	الطويل	١
٥٤	الملونِ	الطويل	٦
٥٥	يداوينى	البسيط	٦
٥٦	الرسنِ	البسيط	٦
٥٧	يهونْ	الخفيف	٤

فهرس المصادر والمراجع

١- «أخبار النساء»: لعبد الرحمن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) بعناية:بركات هبود - المكتبة العصرية - بيروت ٢٠٠١م

٢- «أدب القرن الرابع (نصوص ودراسات)» : د. حسن عباس - مطبعة الشاعر بطنطا - ٢٠٠٠م.

٣- «الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار»: لجلال الدين السيوطي - تحقيق: د. علي حسين البواب - المكتب الإسلامي، بيروت - دار الخاقاني، الرياض ١٩٩١م.

٤- «ألحان السواجع بين البادئ والمراجع:للصفدي» (ت٧٦٤هـ) تحقيق: إبراهيم صالح - دار البشائر - دمشق - ٢٠٠٤م

٥- «الأمالي الخميسية»: للإمام المرشد بالله يحيى بن الحسين الشجري (ت ٤٧٩هـ) - عالم الكتب - بيروت - د.ت

٦- «أنوار الربيع في أنواع البديع»: للسيد على صدر الدين بن معصوم (ت١١٢٠ هـ) - تحقيق: شاكر هادي شكر - مكتبة العرفان - النجف الأشرف - ط١ - ١٩٦٨م.

٧- «بحار الأنوار»: لمحمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ) مؤسسة الفواء - بيروت - لبنان - ط٢ - ١٩٨٣م.

٨- «البداية والنهاية»:لابن كثير الدمشقي (ت٧٧٧هـ) - دار الفكر العربي - بيروت - ط٢- ١٩٧٧م.

٩- «البديع في نقد الشعر»:لأسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) . تحقيق د: أحمد بدوي و آخر . مصطفي الحلبي . ١٩٦٠م

١٠- «تاج العروس من جواهر القاموس»: لمحب الدين الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) - المطبعة الخيرية - مصر ١٣٠٦هـ)

١١- «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام»: لشمس الدين الذهبي (ت٧٤٨) تحقيق: بشار عواد معروف . الجزء ١٠- دار الغرب الإسلامي - ط١- ٢٠٠٣م.

١٢- «تاريخ الحكماء» (نزهة الأرواح وروضة الأفراح) : لشمس الدين الشهرزوري - تحقيق: عبدالكريم أبوشويرب - جمعية الدعوة الإسلامية العالمية - ط١ - ١٩٨٨م.

١٣- «تاريخ دمشق»: لأبي القاسم علي بن الحسن هبة الله المعروف بابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ) : دراسة وتحقيق : محب الدين العمروي - دار الفكر - بيروت - ١٩٩٦م

١٤- «التذكرة الحمدونية»:لابن حمدون (ت ٥٦٢ هـ) تحقيق د.إحسان عباس، وآخر. دار صادر. ط١. ١٩٩٦ م.

١٥- «التذكرة الفخرية»: للصاحب بهاء الدين الإربلي (ت ٦٩٢هـ) تحقيق: د نوري حمودي القيسي، ود. حاتم صلاح الضامن - مكتبة عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية - بيروت - لبنان - ط١- ١٩٨٧م.

١٦- «تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق»:داود الأنطاكي (ت١٠٠٨هـ) - تحقيق د :محمد التونجي - عالم الكتب - بيروت - ط١- ١٩٩٣م

١٧- «تشنيف السمع بانسكاب الدمع»: للصفدي (ت٧٦٤هـ) تحقيق د محمد علي داود - دارالوفاء، الإسكندرية ١٩٩٧

١٨- «تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون»: للصفدي (ت ٧٤٦هـ) تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم - دار الفكر العربى - مطبعة المدنى - ١٩٦٩م.

١٩- «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس»: للحميدي (ت ٤٨٨ هـ)-الدار المصرية للتأليف والترجمة - ١٩٦٦م.

٢٠- «الجليس الصالح الكافي»، والأنيس الناصح الشافي:لابن زكريا النهرواني(ت ٣٩٠ هـ)- دراسة وتحقيق: د. محمد مرسي الخولي، د. إحسان عباس - عالم الكتب - بيروت - ط١ - ١٩٩٣م.

٢١- «الجواهر الثمينة في محاسن المدينة»: لمحمد كبريت الحسيني المدني - تحقيق: محمد الشافعي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٩٧م.

٢٢- «جوهر الكنز»: لنجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي(٧٣٧هـ) - تحقيق د. محمد زغلول سلام - منشأة المعارف - الإسكندرية - د .ت.

٢٣- «الحماسة الشجرية»: لهبة الله ابن الشجري (ت ٥٤٢هـ) - تحقيق:عبدالمعين الملوحي، وأسماء الحمصي - وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٧٠م.

٢٤- «حماسة القرشي»: لعباس بن محمد القرشي (ت١٢٩٩هـ) تحقيق: خير الدين قبلاوي -وزارة الثقافة-دمشق-١٩٩٥م.

٢٥- «الحماسة المغربية»: لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي - تحقيق - د: محمد رضوان الداية - دار الفكر المعاصر - بيروت - دار الفكر - سوريا - ط١ - ١٩٩١م.

٢٦- «حياة الحيوان الكبرى»: للدميرى (ت ٨٠٨ هـ) . سلسلة كتاب الجمهورية . القاهرة . ١٩٩١ م .

٢٧- «خزانة الأدب»:لابن حجة الحموي (ت ٨٣٧) - تحقيق: عصام شعيتو -دار ومكتبة

الهلال - بيروت ١٩٨٧م
٢٨- «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»: للمحبي (ت ١١١١هـ) - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة-د.ت
٢٩- «الدر الفريد وبيت القصيد»: لمحمد بن أيدمر (ت بعد ٧١٠ هـ) - مخطوط أشرف على طباعته مصوراً د. فؤاد سزكين - فرانكفورت ١٩٨٩ .
٣٠- «دريد ابن دريد»، محمد بن الحسن (ت٣٢١ هـ) تحقيق:محمد بدر الدين العلوي - القاهرة ١٩٤٦م.
٣١- «دمية القصر وعصرة أهل العصر»: للباخرزي (ت ٤٦٧هـ)تحقيق:عبد الفتاح الحلو - دار الفكر -القاهرة ١٩٧١م.
٣٢- «ديوان البحتري»: (ت ٢٨٤ هـ): تحقيق وشرح وتعليق:حسن الصيرفي. دار المعارف. مصر. ط ٣ . ١٩٧٧ م.
٣٣- «ديوان الحسين بن مطير الأسدي»: جمع وتحقيق: د. حسين عطوان - دار الجيل - بيروت- د.ت.
(٢) تحقيق: عمر بن سالم - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٧٣م.
٣٤- «ديوان (شعر) ابن الشبل البغدادي» (ت ٤٧٣ هـ): جمع وتحقيق:د. حلمي عبدالفتاح الكيلاني - مجلة مجمع اللغة العربية الأردني - ع ٥٤ - السنة ٢٢ - ١٩٩٨م.
٣٥- «ديوان مجنون ليلي»: (ت ٦٨ هـ). جمع وتحقيق: عبد الستار أحمد فراج. مكتبة مصر. القاهرة. د. ت.
٣٦- «ديوان (شعر) المرار بن سعيد الفقعسي»: جمع وتحقيق: عبدالمعين الملوحي - ضمن أشعار اللصوص وأخبارهم - دار الحضارة الجديدة - بيروت - ط١ - ١٩٩٣م.
٣٧- «ديوان محمد بن هانئ الأندلسي»: تحقيق: محمد اليعلاوي - دار الغرب الإسلامي - ط١ - ١٩٩٤م.
٣٨- «ديوان النابغة الذبياني»: تحقيق:محمد أبي الفضل إبراهيم - دار المعارف - مصر- ط٢- ١٩٨٥م.
٣٩- «ديوان (شعر) الناشئ الأكبر «(ت ٢٩٣ هـ): جمعه وحققه: هلال ناجي - مجلة المورد العراقية - مج ١١ - ع١، ٢، ٣، ٤ - لسنة ١٩٨٢، مج ١٢ - ع١-١٩٨٣.
٤٠- «ذم الهوى»:لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق:مصطفى عبد الواحد - دار الكتب الحديثة- القاهرة ١٩٦٢م.

٤١- «ذيل تاريخ بغداد»: لابن النجار البغدادي (ت ٦٤٣ هـ) - تصحيح د. قيصر فرح - دار الكتب العلمية - بيروت

٤٢- «زهر الأكم في الأمثال والحكم»: للحسن اليوسي (ت ق١١) - تحقيق د: محمد حجي، د: محمد الأخضر ـ دار الثقافة ـ الدار البيضاء ـ ط١ ـ ١٩٨١م.

٤٣- «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»:لابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) - طبعة دار المسيرة - بيروت ١٩٧٩م.

٤٤- «صيد الخاطر»: لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) - تحقيق: عبدالقادر عطا - مكتبة الكليات الأزهرية - ١٩٧٩م.

٤٥- «العقد الفريد»: لابن عبدربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ) - تحقيق: أحمد أمين، وآخرين - مصر- ١٩٦٩م

٤٦- «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»: لابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ) تحقيق: د. النبوي شعلان -مكتبة الخانجي - ط١- ١٩٩٩م

٤٧- «عيون الأخبار»: لابن قُتَيْبَة الدِّيَنَورِي (ت ٢٧٦هـ) - بعناية:د م. مفيد قميحة - دار الكتب العلمية١٩٨٦م.

٤٨- «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»: لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨) . تحقيق:د. نزار رضا ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ د. ت.

٤٩-«غررالخصائص الواضحة ودرر النقائص الفاضحة»: لبرهان الدين الكتبي (ت ٧١٨هـ) ـ دار صعب ـ بيروت

٥٠- «غريب الحديث»: لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٨٦ هـ)- تحقيق: عبدالله الجبوري -مطبعة العاني-بغداد ١٣٩٧هـ

٥١- «الغيث المسجم في شرح لامية العجم»: للصفدي (ت ٧٩٤ هـ)دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٠ م .

٥٢- «فوات الوفيات والذيل عليها»: لابن شاكر الكتبي(ت ٧٦٤هـ) تحقيق:إحسان عباس- دار صادر - بيروت د ت

٥٣- «الكشكول»: لبهاء الدين العاملي (ت ١٠٣١ هـ) تحقيق:الطاهر الزاوي ـ طبعة عيسى الحلبي ١٩٦١ م .

٥٤- «كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر الكاتب»: لضياء الدين بن الأثير الجزري (ت ٦٣٧ هـ) - دراسة وشرح وتحقيق : د. النبوي شعلان - الزهراء للإعلام العربي - مصر - ط١ - ١٩٩٤م.

٥٥- «الكنى والألقاب»: للشيخ عباس القمي (ت ١٣٥٩ هـ) - تقديم: محمد هادي

الأميني - مكتبة الصدر - طهران
٥٦- «لسان العرب» :لابن منظور (ت٧١١هـ) - تحقيق: عبد الله علي وآخرين - دار المعارف - مصر - د.ت.
٥٧- «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»: لابن الأثير (ت٦٣٧هـ) - تحقيق: أحمد الحوفي وآخر - نهضة مصر - ١٩٦٠م .
٥٨- «مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن»: لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق د. مصطفى الذهبي - دار الحديث - القاهرة- ط١ - ١٩٩٥م.
٥٩- «مجلة دراسات»: عمادة البحث العلمي - عمان - الأردن- مج٢٢- ع٦ -١٩٩٥م.
٦٠- م«جلة مجمع اللغة العربية الأردني» - العدد ٥٤ - السنة ٢٢ - ١٩٩٨م.
٦١- «محاسبة النفس»: للشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي (ت ٩٠٥ هـ) - تحقيق: فارس الحسون - مؤسسة قائم آل محمد - مطبعة نمونة - قم - إيران - ط١ - ١٤١٣ هـ .
٦٢- «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار»: لمحيي الدين بن عربي - بيروت - د.ت
٦٣- «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء»: للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) - تحقيق: د. رياض عبدالحميد مراد - دار صادر - بيروت - ط١ - ٢٠٠٤م.
٦٤- «المحمدون من الشعراء وأشعارهم»: لجمال الدين القفطي (ت٦٤٦هـ) - تحقيق: رياض عبد الحميد مراد - دار ابن كثير - دمشق - ط٢ - ١٩٨٨ م.
٦٥- «المدهش»: لعبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق:خيري سعيد - المكتبة التوفيقية - مصر - د.ت
٦٦- «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان»: لليافعي اليمني (ت ٧٦٨هـ) - وضع حواشيه: خليل المنصور - دار الكتب العلمية - بيروت- ط١ - ١٩٩٧م.
٦٧- «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»: لابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ) مخطوط أشرف على طباعته مصوراً: د. فؤاد سزكين وآخرون ـ معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ـ فرانكفورت - ١٩٨٨م.
٦٨- «المستطرف في كل فن مستظرف»: للأبشيهي (ت ٨٥٤ هـ) - تحقيق: إبراهيم صالح - دار صادر - بيروت - ط١ - ١٩٩٩م.
٦٩- «مصارع العشاق»: لأبى محمد جعفر بن أحمد السراج (ت ٥٠٠ هـ) - دار صادر - بيروت - ١٩٥٨ م.
٧٠- «مطالع البدور في منازل السرور»: لعلاء الدين الغزولي (ت ٨١٥ هـ) - مكتبة

الثقافة الدينية - مصر -٢٠٠٠م.

٧١- «المطرب من أشعار أهل المغرب»، لابن دحية (ت ٦٤٠ هـ) - تحقيق: إبراهيم الإبياري وآخرين - القاهرة - ط٢ - ١٩٩٣م.

٧٢- «معاهد التنصيص على شواهد التلخيص». تأليف: الشيخ عبد الرحيم العباسي (ت ٩٦٣ هـ). حققه وعلق حواشيه وصنع فهارسه: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية. القاهرة. عالم الكتب. بيروت. ١٩٤٧ م.

٧٣- «معجم الأدباء»: لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) تحقيق:محمد نجاتي وآخر. دار الفكر. ط٣. ١٩٨٠م.

٧٤- «مغاني المعاني»: لزين الدين الرازي (ت٦٩٦هـ) - تحقيق د: محمد سلام - منشأة المعارف - الإسكندرية - ١٩٨٧م.

٧٥- «نتائج المذاكرة»: لابن الصيرفي (ت ٥٤٢ هـ) تحقيق: إبراهيم صالح - دار البشائر- دمشق - ط١ - ١٩٩٩م .

٧٦- «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»: لابن تغري بردي الأتابكي (ت٨٧٤هـ)- مصورة طبعة دار الكتب المصرية -د.ت .

٧٧- «نصرة الثائر على المثل السائر»: لصلاح الدين الصفدي(ت٧٦٤هـ) - تحقيق د: محمد علي سلطاني - طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٧١م.

٧٨- «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»: للمقري التلمساني(ت١٠٤١هـ) تحقيق د: إحسان عباس - دار صادر - ١٩٨٦م.

٧٩- «نهاية الأرب في فنون الأدب»: لشهاب الدين النويري (ت ٧٣٣ هـ). مطبعة دار الكتب المصرية. ط١. ١٩٢٩م.

٨٠- «نور القبس المختصر من المقتبس»: لمحمد بن عمران المرزباني اختصره:الحافظ اليغموري - تحقيق : رودلف زلهايم - دار نشر - فرانتس شتاينر - فيسبادن - ١٩٦٤م .

٨١- «الوافي بالوفيات»: للصفدي (ت٧٦٤هـ). ج ١٨ باعتناء د. أيمن سيد - دار نشر فرانز شتاينر - فيسبادن ١٩٩١م .

(١) ونشره أيضاً محمد شهاب العاني في مجلة آداب المستنصرية - بغداد - ع ٢٦- ١٩٩٥م، انظر نشر الشعر وتحقيقه في العراق حتى نهاية القرن السابع الهجري ٨٤

عبد الرحمن بدوي
شيخ المحققين لتراث الفلسفة العربية(*)

د. مصطفى لبيب عبد الغني(**)

تنوَّعت جهود عبد الرحمن بدوى، الفيلسوف المصرى المعاصر، فشملت الفكر الفلسفي بأسره في قضاياه الرئيسة وعند أعلامه البارزين. والمتتبِّع لمؤلفاته المتلاحقة لأكثر من خمسين عامًا يلحظ شغفه المبكِّر بالفكر الإسلامى المنفتح على حضارات الدنيا التي سبقته أو عاصرته، والتي نهل من ينابيعها الفيَّاضة وبخاصة النبع اليوناني. ولقد تأكدَّت ثقه بدوى- منذ مطلع حياته العلمية- بأن روح الحضارة العربية والمعبِّر عن وجودها الخلاَّق هو في طابعها الإنسانى الرَّحب، فنجده وهو يسلك دروبَها الوَعِرة ينكّب على الكثير من مفردات هذه الحضارة بغية الكشف عن إنجازها المتميِّز في التاريخ.

وتشعَّبت به هذه الدروب ما بين عرضٍ وتحليل لتراث الأعلام، ورصدٍ لإبداعات المتكلمين (في "مذاهب الإسلاميين") وتجارب المتصوفة (في "رابعة العدوَّية" ، "شطحات الصوفية"، و"تاريخ التصوف الإسلامى")، وترجمةٍ لطائفة من نفائس بحوث المستشرقين ("التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية"، و"شخصيات قَلِقة في الإسلام"، و"ابن عربى لآسين بلا ثيوس" ، و"الخوارج والشيعة" لِفلْهَوْزن")، وثبْتٍ ببليوجرافي لبعض جوانب هذه الحضارة عند عَلَمٍ من أعلامها الشوامخ ("مؤلفات الغزالى"، و"مؤلفات ابن خلدون"). وكان اهتمام بدوي بإبراز جهود المستشرقين في دراسة التراث الإسلامي كبيرًا إلى حد دفعه إلى إصدار موسوعةٍ هامة عن المستشرقين. وَمثَّلت علاقة بدوي بالمستشرقين- قديمًا وحديثًا- مناسبةً يحلو للبعض أن يخوضوا في الحديث عنها متناسين جسارَته في رفض الانصياع لوَهْم المركزية الأوربية في التاريخ، متغافلين عن بيانه -منذ ما يقرب من أربعين عامًا- لريادة الفكر العربي ودوره في تكوين الفكر الأوربي وتجاوز تأثير هذا الدور لميدان النظر العقلي إلى ميدان التطبيق العملي في الصناعة والزراعة، وعدم اقتصاره على الفلسفة والعلوم الطبيعية والفزيائية والرياضيات، بل وامتداده كذلك إلى الأدب: الشعر منه والقصص،

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخ العلوم، كلية الآداب جامعة القاهرة.

(**) عبد الرحمن بدوي، «أرسطو عند العرب - دراسة ونصوص غير منشورة»، جـ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة ١٩٤٧، ص ٦٤ (من التصدير العام للنشرة).

وإلى الفن: المعمار والموسيقى منه بخاصة. وحرص بدوي على تحديد البيئات التي تمَّت فيها عملية الإخصاب بين الفكر العربي البالغ كمال تطوره وبين العقل الأوربي وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه في البداية. والذين يتحفَّظون على علاقة بدوى بالمستشرقين يتغافلون عن نبل مقاصده حين يعترف بالفضل لذويه بغية شحْذِ الهمم العربية الخائرة التي تراجع عزمها، وغاب وعيها بماضيها، واضطربت رؤيتها لحاضرها بين أمم العالم المتمدين؛ وهو في ذلك كله يؤكِّد على الدوام حضور «الأنا» العربى في علاقته الإنسانية بـ"الآخر" الغربي. وهى علاقة بناء وتأسيس لا هدم وإلغاء، وعلاقة تعارف وتعاون لا توجُّس وصراع، وهو حضور لا يُصادر على حق المفكر العربى في دَحْض كل صور الافتراءات والشُّبَه الجهولة والمغرضة التي تستهدف أعزَّ ما لديه. ولعلَّ في آخر ماكتبه بدوي -في دفاعه المجيد عن الإسلام باللغة الفرنسية- آية صدق على ذلك.

ويتفوَّق على ما سبق كله- مع عظيم قيمته وجليل أثره في التعليم الفلسفي- جهده غير المسبوق في تحقيق النصّ الفلسفي العربى ونَشْره نشرًا علميًا دقيقًا؛ ومعلوم بالطبع أن ذلك هو أول مراحل الصراط المستقيم إلى فَهْم التراث وحُسْن تقويمه. ويزداد تقديرنا لهذه المهمة إذا ماعرفنا أن تراثنا الإسلامى الهائل جُلّه مفقود، وقليلُه الباقي موزَّعٌ على أرجاء الدنيا في المكتبات العامة والخاصة، وفي أروقة المساجد، وضمن مقتنيات بعض المتاحف، وأنَّ بعض هذا القليل مختلط بسواه، وبعضه الآخر أصابه ما أصابه من تشويه أو تحريف ومن انتحال أحيانًا؛ مع تنوُّع صور إخراجه، وتباين خطوطه، واختلاف نُسَخ النَّصّ الواحد منه عبْر حياته في التاريخ، وكلها عوائق يُدرك مصاعبها أهلُ الاختصاص.

وإذا ما تبيَّنا أنَّ من أكبر النقائص المنهجية هي الانطلاق - في النظر إلى تراثنا والحكم عليه - من مجرّد التعرُّف على بعض مفرداته المجتَزَئة وإغفال بقية الكثرة الهائلة الغائبة منه؛ فنغدو بذلك كمن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ونقع في وهم التطابق بين الكلّ والجزء، وتلك نقيصة علمية وأخلاقية تضيع بسببها الحقيقة، ويتعمَّق معها الشعور بالنقص، فإنَّ أىَ جهدٍ رشيد يُبذل في سبيل الكشف عن جانب ما من جوانب تراثنا وتوسيع رقعةِ التعرف عليه يكون مقدمةً لاغنى عنها.

ولئن يكن نشر التراث في مجموعه مهمةً يلزم أن تضطلع بها أجيال متواصلة من باحثين أولي عزم فإن ما أَنجزه بدوي من نَشْر أعمال بعينها من عيون التراث الفلسفي، بَدْءًا من "أرسطو عند العرب" سنة ١٩٤٧ وانتهاء" بـ"كتاب الأخلاق" سنة ١٩٧٧ كان حقا

مناسبةً طيّبةً لمعالجة أخطر قضايا الفكر العربى، ومنها: مدى أصالة هذا الفكر من ناحية ("صوان الحكمة" للسُجستاني" - "الإشارات الإلهية" للتوحيدى - "رسائل فلسفية للكندى والفارابي وابن عَدِيّ وابن باجة" - و"الإنسان الكامل للجيلي".. الخ)، وصلة الفكر العربى بالتراث اليوناني بعامة من ناحية أخرى وبيان صورة هذا التراث اليوناني، الصحيح منه والمنحول، في عيون العرب من ناحية أخرى والكثير منه نُقل عَبرْ وساطة سُريانية في أول الأمر ("ارسطو عند العرب" - "أفلاطون في الإسلام" - "أفلوطين عند العرب" - و"الأفلاطونية المحدَثة عند العرب")، والكشف عن المنابع المنوَّعة للفكر العربى وبخاصة: اليونانية والهندية والفارسية ("الحكمة الخالدة": لمسكويه - و"مختار الحِكَم ومحاسِن الكَلِم" للمبشّر بن فاتك). وحرص بدوي في تقديمه لنشراته على تَتبُّع تاريخ النصّ وحياته في الفكر العربى وفي الفكر الأوربى كذلك عند مترجميه وشرَّاحه.

* * *

عَبَّر بدوى، منذ البداية، عن وعيه بالهدف الحقيقي من نشر النصوص وهو بَعْثُ التراث المغيَّب في التاريخ، وتقديم شاهد على المنزلة العالية التي بلغتها عناية العرب بالتراث القديم. وحقًا كشف بدوي عن واقعة تاريخية هامة حين وَجَّه نَظر الباحثين إلى إمكانية الاستعانة بالترجمات العربية القديمة ذاتها للتراث اليوناني في استعمالنا الحالي للمؤلفات اليونانية (المنقوصة في بعض جوانبها) بما أنَّ ترجمات العرب القديمة جاءت على درجة عالية من الدِّقة. وفي ذلك بيان للقيمة الكبرى لهذه الترجمات في دراسة التراث اليوناني بعامة (ومعلوم أنه ركيزة الفكر الغربي الحديث وجوهره)، مع ما يدفع إليه من نزعة إنسانية جديدة تهيب بالمؤمنين بالإنسان أن يشاركوا فيها. وفضلا عن ذلك فإنه يمكن الاستعانة بالترجمات العربية القديمة في استعمالنا الحالي لتلك المؤلفات اليونانية الأصلية إذْ صارت تغني في الواقع عن ترجمتها من جديد؛ لأنها تنهض بحاجاتنا العلمية اليوم، ونهوضها بها لا يقتصر على دقة النقل بل يمتد خصوصًا إلى دقة المصطلح الفني.

واستهدف بدوي من تحقيقه للتراث أيضًا الاضطلاع على أيامه بمهمة جليلة هي إيجاد نثر فلسفي عربي معاصر ظاهر القيمة بعد أن تطوَّر لدينا النثر في نهضتنا الحديثة في اتجاه أدبي باعد كثيرًا بينه وبين التلاؤم مع النثر الفلسفي الذي يمتاز بالإيجاز والإحكام. والعَوْد هنا يكون عَوْد استلهام واستيحاء لا عَوْد تقليد واقتصار واكتفاء. وهذه الدعوة إنْ لزمت لزمانها في أربعينيات القرن الماضى فهي ألزم ما تكون

لزماننا الراهن الذي اعتلّت فيه لغتنا العربية إلى حد أنْ انكّب على مداواة عللها بعض المترخّصين من أهلها ممن هان عليهم خطرُها.

* * *

آيةُ الصدق مع النفس ومع الغير هو أن نعرف أنّ لكل صنعة أساليبها الفنيّة، وأنّ لكل معلول علّته الحقيقية: فتلك سُنّة الله في خلقه التي لا نجد لها تبديلا. ولقد أدرك بدوي بصدق أنّ الوصول إلى غايته النبيلة في الكشف عن بعض جوانب من تراثنا لن يكون إلاّ بمنهج مثمر في تحقيق النصوص؛ فاختار لنفسه منهجًا وطبّقه بالفعل بعد أنْ ألمَّ بمناهج المحققين من قبل. وهو يصف منهجه بأنه «بسيط وبقدر ما هو بسيط فهو خصبٌ دقيق معًا: وهو أن نجيد قراءة المخطوط عن تدبُّر وحسن فهم. وهذا مبدأ على الرغم من بساطته ووضوحه كثيرًا ما أغفله الناشرون بالأحرى أجفلوا منه وكأين من أخطاء في تحقيق النصوص لم يكن السبب فيها إلا عدم إجادة القراءة. والمهم هو أنْ تقدّم للناس- على أساس ما يتيسّر من مخطوطات قلّت أو كثُرت أو كانت وحيدة- نصًا جيّدا يحاكى تمامًا ما في الأصول المخطوطة بعد تدبّرها تمام التدبّر. فالذين مارسوا المخطوطات يعرفون أن ثمت أحوالا لا حصر لها من إهمال النقط أو تشابك الحروف أو تقلّب النقط من فوقها واضطرابها بين حروف الكلمة الواحدة أو الكلمات المتجاورات. ومثل هذه الأحوال لا يمكن أن تُعدَّ اختلافات في القراءات، إنما هى عوارض شخصية في المخطوطات يجب أن يستقريها الناشر لنفسه أثناء القراءة الأولى للمخطوط، ثم يُعيِّن -لنفسه أيضًا- أحوال اضطرادها حتى يتهيّأ له جهاز تحليلي لحسن القراءة؛ وإلا فستكون النتيجة أن يضل القارئ إذا ما ذُكِر في الجهاز النقدي كل ألوان الإهمال أو الهفوات الهيّنة لسقطات القلم فلا يستبين ما إذا كان بإزاء اختلاف قراءة أو مجرد مخالفة خطيَّة أو قلمية تافهة ومفهومة».[1] ويدفعُ هذا بعالمنا الكبير إلى القول: «لهذا فلسنا نتردَّد في اتهام أولئك الذين يلجأون إلى هذه الطريقة بالعجز عن فهم النصوص وقراءتها، أو بالتمويه على القارئ بوضع جهاز نقدى ضخم محشوّ بهذه الاختلافات المزعومة ليُدخل في روعه أن الناشر قد بذل مجهودًا هائلاً، والحق أنه لم يبذل شيئًا أكثر من جهدالنَّسْخ والمسْخ معا دون أن يبذل أى مجهود في الفهمْ وتدبّر المقروء. ومع هذا نراهم يصيحون ملء أشداقهم وتصف ألسنتهم الكذب: إن هذا هو

(١) عبد الرحمن بدوي «أرسطو عند العرب». دراسة غير منشورة، جـ ١ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة ١٩٤٧م، ص ٦٤ (من التصدير العام للنشر)..

المنهج العلمى الصحيح! مع أن الأَوْلى بهم أن يُسمّوه منهج الإحصاء الآلى العاجز.

«ولَكَم رأينا في مقارنتنا لبعض النصوص التي نشرها هؤلاء الناشرون المزعومون بالأصول المخطوطة التي نشروا مانشروا عنها أن ما ادَّعوه تحريفًا أو اختلاف قراءة لم يكن في الواقع إلا سُوء قراءة من عيونهم وعقولهم. كما رأينا كذلك من هذه المقارنات أنَّ من أسباب الوقوع في أخطاء النشر أن الناشرين كثيرًا ما يعتمدون على نَسْخ النُّسَاخ الحاليين دون أنْ يراجعوا المخطوطات نفسها ويعملوا فيها فتكون النتيجة أن يفترضوا وقوع أخطاء أو نقص أو تحريف في المخطوطات الأصلية، مع أنَّ هذا لم يقع إلا في نسخهم هم التي استنسخوها؛ وكان يكفيهم مراجعة المخطوطات نفسها كيما يكونوا على بيِّنة من أمر هذه الأخطاء أو أنواع النقص والتحريف المظنونة»[1].

ولقد أعان بدوى على تطبيق منهجه المثمر في التحقيق معرفته الجيِّدة باللغة اليونانية القديمة وبعدد من اللغات القديمة الأخرى كالعبرية واللاتينية، فضلاً عن اللغات الأوربية الحديثة كالألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والروسية!، وبعضها كان قد تُرجم إليها المخطوط العربى، وما نظن أحدًا غيره من الباحثين العرب المعاصرين- فيما نعلم- قد أوُتِى مثل هذا الحّظ من الصبر ومن الجهد الصادق في التعلمّ المستمر.

* * *

تمثَّلت جودة الإتقان لهذا المنهج الصارم في النشرة التي أنجزها بدوي عام ١٩٧٧ لكتاب أرسطو الهام «الأخلاق النيقوماخيَّة»- الذي كان قد ترجمه «إسحق بن حنين» من اليونانية إلى العربية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي (عصر ازدهار الترجمة في التاريخ)- فجاءت نشرة بدوى مُزَوَّدةً بتعليقات وشروح ومقارنات فيلولوجية؛ ابتغاء الإيضاح والتدليل على أهمية الترجمة العربية القديمة التي تمَّت عن أقدم نصّ يوناني معروف لنا، وتميَّزت بذلك عن جميع الترجمات الأوربية اللاحقة للنص سواء منها اللاتينية أو الأوربية الحديثة، والتي اعتمدت على مخطوطات يونانية أحدث زمنًا من المخطوط الذي ترجمه «إسحق بن حنين»[2]. وقَدَّم بدوي لنشرته -هذه- بعرض أهم مؤلفات أرسطو الأخلاقية، وأهم الشُرَّاح اليونان الذين بقيت لنا شروحهم أو تلخيصاتهم للكتاب، وكذلك عرض مخطوطات النص اليوناني الباقية حاليًا في العالم وعددها ٩٩

(١) السابق، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) عبد الرحمن بدوي، «الأخلاق تاليف ارسطوطاليس ترجمة إسحق بن حنين»، وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٩، ص ١١ - ١٢ (من التصدير العام للنشرة).

مخطوطًا كاملاً و٢٠ مخطوطًا تحتوى مقالات كاملة منه أو على شذراتٍ، فضلاً عما ورد في شروح الشرَّاح. وتحدَّث بدوي عن "نيقوماخيا" في المصادر العربية في تواريخ العلماء الأطبَّاء والفلاسفة، وما نُقِل في المؤلفات العربية الأخرى وبخاصة عند «ابن النديم»، و«القِفْطي»، و«ابن أبى أُصيبعة»، و«المبشِّر بن فاتك»، وعما ماحصل من تحريف لهذه النصوص، ثمّ ذكَر الشواهد والنقول عن «نيقوماخيا» عند الفلاسفة المسلمين وبخاصة «الفارابي» (ت: ٣٣٩هـ)، و«أبي الحسن العامري» (ت: ٣٨١هـ) و«مِسكويه» (ت: ٤٢١هـ) و«ابن باجة» (ت: ٥٣٣هـ) ،و«ابن رشد» (ت: ٥٩٥هـ). وألحق بدوي بمقدمته قائمة بالمراجع التي احتوت بيان نشرات النص القديمة وترجماته، وشروحه الحديثة ثم شروحه القديمة اليونانية وشروحه اللاتينية[١].

وقد أَظهر بدوى أن بالمخطوط العربي مقالة مُضافة بين المقالتين السادسة والسابعة؛ ولذلك جاء في إحدى عشرة مقالة بدلاً من عشر، وهذه المقالة المضافة مفقودة في نسخة المخطوط الباقية الآن ومحفوظة في ترجمة لاتينية مختصرة قام بها «هرمَن» الألمانى سنة ١٢٤٣م أو سنة ١٢٤٤م وكان لها أكبر الأثر في «القديس ألبير الكبير» و«روجر بيكون»[٢].

ومع أن المخطوطة العربية الوحيدة الباقية للكتاب تخلو من ذكر اسم المترجم إلا أن بدوى استطاع أن يُحدِّد لنا هويته، فذكر أنه «إسحق بن حنين» وذلك استنادًا إلى المقارنة بين أسلوب الكتاب وترجمة «إسحق بن حنين» لكتاب «النفس» لأرسطو[٣].

وقد أكمل بدوي المواضع المثقوبة والممحوَّة، وصَحَّح بعض الأخطاء، وحقَّق أسماء الأعلام، ووازن بين القراءات الواردة في الصُّلب وفي الهامش أحيانًا. والأهم أنه استطاع أن يُكمل الناقص من الكتاب فترجمه عن النص اليوناني الأصلي وهو، كما يقول، قرابة ١٤٪ منه، وزوَّد نشرته بترقيم «بكَر» الذي تُعَدُّ نشرته لأعمال أرسطو هى المعتمدة عند الباحثين المحدثين،[٤] ،وذَيَّل نشرته بدراسةٍ موسَّعة عن الكتاب باللغة اللاتينية.

على هذا النحو جاءت نشرة بدوي للنص العربي القديم لترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو مثالاً يُحتَذى.

* * *

(١) عبد الرحمن بدوى، «الأخلاق تأليف أرسطوطاليس ترجمة إسحق بن حنين»، وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٩، ص ٣ - ٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١ - ٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٥ - ٤٦.

محمد سليم سالم
وجهوده في تحقيق التراث العربي اليوناني

أ. حسام أحمد عبد الظاهر(*)

شهدت السنوات الأخيرة صعود وسقوط الكثير من النظريات الحضارية كنظرية فوكاياما في نهاية التاريخ، ونظرية هنتنجتون عن صراع الحضارات، ثم برزت نظرية حوار الحضارات، وقررت الجمعية العامة للأمم المتحدة بالإجماع اعتبار عام ٢٠٠١ هو عام حوار الحضارات؛ وأدى ذلك إلى الاهتمام على كل المستويات المحلية والإقليمية والعالمية بالحوار الحضارى؛ إلا أنه وفي نفس العام عادت أجواء الحديث عن صراع الحضارات إلى الساحات الفكرية بعد أحداث سبتمبر الشهيرة التي تستمر تداعياتها إلى اليوم، وبالرغم من ذلك فإن هناك مؤشرات دالة على أن الحوار الحضاري هو الاتجاه الغالب في المستقبل، وأن العالم بحضاراته المختلفة يتجه نحو تشكيل الحضارة العالمية الواحدة التي تضم داخلها شرائح ثقافية متنوعة(١).

ودور المفكر والمؤرخ والباحث في التراث أن يساهم ويدعو إلى تحقق هذه النتيجة عن طريق الحوار الحضارى وليس عن طريق أساليب الصراع والتغلغل والنفوذ والهيمنة التي تتبعها بعض الدول الآن، وهذا الحوار الحضاري له جذور تاريخية بعيدة المدى، ويمكن التمثيل عليه بالتراث العربي اليوناني كنموذج دال على إعلاء قدر الحوار الحضاري بين الأمم.

وهذا التراث العربي اليوناني يقصد به مؤلفات العلماء والفلاسفة اليونانيين القدماء، والتي تم ترجمتها إلى اللغة العربية في العصور الوسطى، كما يضم هذا التراث ما دار حول هذه المؤلفات من تلخيصات وشروح ومناقشات وتعليقات وإضافات، من ذلك يمكن إدراك قيمة وأهمية نشر وتحقيق مؤلفات التراث العربي اليوناني؛ إذ يُعد هذا التراث مصدرًا مزدوجًا للفكر العربي والفكر اليوناني في آن واحد، غير إن معظم ما تُرجم عن اليونان ونقل إلى اللغة العربية «قد ضاع ولم يبق منه إلا شتات متفرق في دور الكتب، وقد بعد بيننا وبينه الزمن فتعذر علينا فهمه واستحال علينا حل طلاسم أكثره، ومازالت الأمة العربية في حاجة ماسة إلى إعادة نشر هذا التراث الخالد»(٢).

(*) باحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية.

(١) السيد ياسين: «حوار الحضارات»، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م، ص ص ١٠ - ٢٩.

(٢) محمد سليم سالم: «البدائع». القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٥م، ج ١، ص (جـ).

وتحقيق النصوص التراثية ونشرها علم له قوانينه وأعرافه ومصطلحاته وأدواته، وتوجد الكثير من الكتابات حول هذا العلم من أهمها كتابات الأساتذة: عبد السلام هارون[١]، وصلاح الدين المنجد[٢]، ورمضان عبد التواب[٣]، وهلال ناجي[٤]، وأيمن فؤاد سيد[٥]...وغيرهم وهذه الكتابات تهتم بتحقيق النص التراثي عامة، أما فيما يتعلق بتحقيق نصوص التراث العربي اليوناني خاصة فلم أجد - في حدود علمي - من تحدث عن منهجية تحقيق هذا النوع من النصوص التراثية بشكل واف، ونحاول بعد قليل أن نتبين المعالم المنهجية الخاصة بذلك عند حديثنا عن منهج التحقيق عند محمد سليم سالم.

والأستاذ الدكتور محمد سليم سالم هو أحد أهم المحققين الذين عملوا في هذا التراث الذى نحن بصدده، وفي إطلالة سريعة على السيرة العلمية له يمكن القول إنه ولد سنة ١٩٠٤ بمحافظة أسيوط، وتدرج في مراحل التعليم المختلفة حتى حصل سنة ١٩٣٠م على ليسانس الحقوق من جامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - وكان ترتيبه السابع على دفعته، كما حصل في نفس السنة - عن طريق الانتساب - على ليسانس الآداب وكان ترتيبه الأول، ثم التحق بجامعة ليفربول بإنجلترا وحصل فيها على ليسانس الدراسات الأوربية القديمة، وأكمل دراساته العليا في نفس الجامعة، حتى حصل على الدكتوراه سنة ١٩٣٨م، وبعد عودته إلى مصر عمل بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، وتدرج في سلك أعضاء هيئة التدريس مدرسًا فأستاذًا مساعدًا ثم أستاذًا، وفي سنة ١٩٥٠ تولى رئاسة قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب - جامعة إبراهيم - عين شمس الآن - وخلال الفترة ١٩٥٥ - ١٩٦٢م صار وكيلاً للكلية، وفي سنة ١٩٦٤م أصبح أستاذًا متفرغًا، وبعد حياة علمية حافلة بالعطاء وافته المنية، ولقى ربه الكريم سنة ١٩٩٣م[٦].

وقد تعددت الجهود العلمية لعالمنا الجليل فترك ميراثًا علميًا ضخمًا تنوعت أشكاله فشملت التأليف والترجمة والتحقيق والمراجعة والإشراف... وغير ذلك، وما نود إلقاء الضوء عليه في ورقتنا هذه هو جهوده في مجال تحقيق مؤلفات التراث العربي اليوناني.

---

(١) «تحقيق النصوص ونشرها»، ط ٧. القاهرة : مكتبة الخانجى، ١٩٩٨م.

(٢) «قواعد تحقيق النصوص»، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٦م.

(٣) «مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين»، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٨٦م.

(٤) «محاضرات فى تحقيق النصوص»، بيروت: دار الغرب الإسلامى، ١٩٩٤م.

(٥) «الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات»، القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧م.

(٦) اعتمدنا فى هذه الترجمة على السيرة الموجزة لسليم سالم: والتي أعدتها الدكتورة عزة سليم سالم. انظر: مجلة أوراق كلاسيكية (كلية الآداب - جامعة القاهرة)، العدد الرابع، سنة ١٩٩٥م، ص ٧٣.

وقد قام سليم سالم بتحقيق تسعة عشر نصًا تراثيًا خمسة منها لابن رشد، وهي تلخيصاته لكتب أرسطو: «الخطابة»، و«الشعر»، و«العبارة»، و«الجدل»، و«السفسطة»، وخمسة أخرى ترجمات وشروح حنين إسحاق لكتب جالينوس في فرق الطب، والتأتي لشفاء الأمراض، والنبض، والاسطقسات على رأي أبقراط، والصناعة الصغيرة، بالإضافة إلى ثلاثة نصوص للفارابي، وثلاثة أخرى لابن سينا، ورسالتين لابن باجة، وأخيرًا رسالة واحدة لثامسطيوس.

ويمكن توزيع هذه التحقيقات زمنيًا على النحو الآتي:

م	السنة	المؤلف	عنوان الكتاب	بيانات الطبعة
١	١٩٥٠	ابن سينا	في معاني كتاب ريطوريقا	القاهرة: مكتبة النهضة المصرية
٢	١٩٥٤	ابن سينا	الشفاء [المنطق، الخطابة]	القاهرة: وزارة المعارف العمومية
٣	١٩٦٧	ابن رشد	تلخيص الخطابة	القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٤	١٩٦٩	ابن سينا	كتاب المجموعة أو الحكمة العروضية - في معانى كتاب الشعر	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
٥	١٩٧٠	ثامسطيوس	رسالة ثامسطيوس إلى يوليان الملك في السياسة وتدبير المملكة	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
٦	١٩٧١	ابن رشد	تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر (ومعه)	القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٧		الفارابي	جوامع الشعر	
٨	١٩٧٢	ابن رشد	تلخيص السفسطة	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
٩	١٩٧٦	ابن باجة	تعليقات في كتاب باري أرمينياس (ومعه)	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
١٠			تعليقات من كتاب العبارة لأبي نصر الفارابي	
١١	١٩٧٦	الفارابي	كتاب في المنطق - الخطابة (ومعه)	القاهرة: دار الكتب المصرية - مركز تحقيق التراث
١٢			كتاب في المنطق - العبارة	

م	السنة	المؤلف	عنوان الكتاب	بيانات الطبعة
١٣	١٩٧٧	جالينوس ـ حنين بن إسحق	كتاب جالينوس في فرق الطب للمتعلمين	القاهرة: دار الكتب المصرية ـ مركز تحقيق التراث
١٤	١٩٧٨	ابن رشد	تلخيص كتاب أرسطوطاليس في العبارة	القاهرة: دار الكتب المصرية ـ مركز تحقيق التراث
١٥	١٩٨٠	ابن رشد	تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الجدل	القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مركز تحقيق التراث
١٦	١٩٨٢	جالينوس ـ حنين بن إسحق	كتاب جالينوس إلى غلوقن في التأتي لشفاء الأمراض	القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مركز تحقيق التراث
١٧	١٩٨٥	جالينوس ـ حنين بن إسحق	كتاب جالينوس إلى طوثرن في النبض للمتعلمين	القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مركز تحقيق التراث
١٨	١٩٨٦	جالينوس حنين بن اسحق	كتاب جالينوس فى الاسطقساط على رأي أبقراط	القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مركز تحقيق التراث
١٩	١٩٨٨	جالينوس حنين بن اسحق	الصناعة الصغيرة	القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مركز تحقيق التراث

جدول (١) التوزيع الزمنى لتحقيقات محمد سليم سالم

ومن هذا الجدول نخرج بعدة نتائج، أهمها:

١ - تغطي الفترة الزمنية لتحقيقات سليم سالم مايقرب من أربعين عامًا (١٩٥٠ - ١٩٨٨م).

٢ - يعتبر عقد السبعينيات هو أخصب الفترات؛ حيث نشر خلاله سالم عشرة نصوص، بينما الخمسينيات والستينيات نشر في كل منهما نصين، أما في الثمانينيات فنشر فيها خمسة نصوص.

٣ - يعد عام ١٩٧٦ هو العام الذي بلغت فيه تحقيقاته أعلى معدلاتها؛ حيث شهد هذا العام ظهور ثلاثة نصوص محققة لسليم سالم.

وقد اتبع الدكتور سالم في تحقيقاته منهجًا علميًا بالغ الدقة يمكن استخلاصه واستقراؤه في ضوء نصوصه المحققة في النقاط الآتية:

أولاً- اختيار النصوص التراثية ذات القيمة في مجالها:

فالنصوص التي توفر على تحقيقها تعد علامات مهمة في موضوعاتها الفلسفية والطبية والأدبية ؛ فهي كتب اجتمع على تأليفها علماء وفلاسفة كبار، أمثال: ثامسطيوس (ت ٣٨٨ ق. م)، وأرسطو (ت ٣٢٢ ق. م)، وجالينوس (ت ٢٠١ ق. م)، وحنين ابن إسحق (ت ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م)، والفارابي (ت ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م)، وابن سينا (ت ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م)، وابن ماجة (ت ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م)، وابن رشد (ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م).

ثانيًا - التقديم الوافي للتحقيق:

حرص الدكتور سليم سالم على تصدير كثير من كتبه بمقدمات وافية[1]، وهو في هذه المقدمات يُقدم لنا دراسات مهمة عن المؤلفين والمترجمين والشراح، كما يقدم أحيانًا وصفًا مجملاً لمحتويات الكتب. هذا بالإضافة إلى الحديث عن أهمية الكتب ومخطوطاتها والطريقة المتبعة في التحقيق.

ثالثًا - جمع النسخ الخطية ووصفها:

قام الدكتور سالم بوصف كل نسخة خطية اعتمد عليها وصفًا علميًا متكاملاً - في ضوء المتاح - من حيث زمن كتابة النسخة وناسخها وخطها وما يكون عليها من تصحيحات وتمليكات، وقد رجع سالم إلى مخطوطات محفوظة في كثير من الدول ، وهو ما يمكن بيانه بالجدول الآتى:

(١) هذا نراه واضحًا في مقدمة التحقيق لكتاب «تلخيص الخطابة»، والتى بلغت ثلاثين صفحة، ومقدمة التحقيق لكتاب «أرسطوطاليس فى الشعر» والتى تقع فى الكتاب فيما بين صفحتي ٥ - ٥٢.

الدولة / الكتاب	مصر	تركيا	إيران	إيطاليا	إسبانيا	فرنسا	إنجلترا	هولندا	السويد	تشيكوسلوفاكيا
الشفاء، لابن سينا	√	√					√			
تلخيص الخطابة، لابن رشد				√				√		
كتاب المجموع أوالحكمة العروضية - فى معانى كتاب الشعر، لابن سينا									√	
رسالة ثامسطيوس إلى يوليان الملك فى السياسة وتدبير المملكة		√								
تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر، لابن رشد				√				√		
جوامع الشعر، للفارابي										√
تلخيص السفسطة، لابن رشد				√				√		
تعليقات في كتاب باري أرمينياس، لابن ماجة					√		√			
من كتاب العبارة لأبي نصر الفارابي، لابن ماجة					√		√			
كتاب في المنطق - الخطابة للفارابى										√
كتاب في المنطق - العبارة للفارابي		√								√
تلخيص كتاب أرسطوطاليس في العبارة، لابن رشد				√				√		
تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الجدل، لابن رشد				√				√		
كتاب جالينوس إلي غلوقن فى التأتي لشفاء الأمراض		√	√				√			
كتاب جالينوس إلى طوثرن في النبض للمتعلمين		√	√			√				

الدولة / الكتاب	مصر	تركيا	إيران	إيطاليا	إسبانيا	فرنسا	إنجلترا	هولندا	السويد	تشيكوسلوفاكيا
كتاب جالينوس فى الاسطقسات على رأى أبقراط		√	√		√					
الصناعة الصغيرة لجالينوس		√	√			√				
كتاب جالينوس فى فرق الطب للمتعلمين						√				

جدول (٢) مواطن مخطوطات بعض النصوص التراثية التي حققها محمد سليم سالم

والدكتور سليم سالم في تحقيقه يحدد نسخة كأصل ـ وفقًا للاعتبارات العلمية ـ يقابل عليها النسخ الأخرى، وهذه النسخة الأصلية هي التي يحرص ـ في غالب الكتب ـ على ذكر أرقام أوراقها على هامش صفحات النص المحقق رابطًا بذلك بين ترتيب صفحات كل من المخطوط والمطبوع.

وقد بلغ عدد المخطوطات التي اعتمد عليها في تحقيق أحد النصوص تسعة مخطوطات (كتاب الشفاء، لابن سينا)، هذا بالإضافة إلى كتب مخطوطة أخرى كثيرة يرجع إليها في تحقيقاته، ومن الجدير بالذكر هنا أن نذكر أن سليم سالم كان يرى ظهور نسخة خطية جديدة ومتميزة للكتاب المحقق يُعد مبررًا لإعادة تحقيقه حيث قام هو نفسه بإعادة تحقيق كتاب «تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر» لابن رشد بعد اكتشاف نسخة جيدة للكتاب في ليدن بهولندا، وفي مقابل ذلك كان يرى أيضًا أن عدم وجود أكثر من نسخة خطية للنص الواحد لا يحول دون تحقيقه، وقد قام هو بتحقيق نصين للفارابي (كتاب في المنطق ـ الخطابة، وجوامع الشعر) وآخر لابن سينا (في معاني الشعر ـ من الحكمة العروضية) لكل منهم نسخة خطية واحدة.

وكان سليم سالم يؤمن بأهمية احتفاظ المؤسسات العلمية بصورة من المخطوطات التي بالخارج ؛ ولهذا قام وعلى نفقته الخاصة بتصوير بعض المخطوطات من المكتبات الأوربية وأهداها إلى بعض الهيئات المعنية كدار الكتب المصرية[1] وكلية الآداب بجامعة عين شمس.

(١) على سبيل المثال كتاب «تلخيص الخطابة» لابن رشد، وبالرجوع إلى الفهرس الورقى لمخطوطات دار الكتب المصرية وجدت بطاقة مسجل عليها البيانات الآتية: «تلخيص خطابة أرسطو لابن رشد ـ إهداء السيد الدكتور/ محمد سليم سالم ـ رقم ٢٩٦ ميكروفيلم»؛ إلا أننى وباستعارتى للميكروفيلم وجدت علبة الميكروفيلم مسجل عليها بيانات كتاب «تلخيص الخطابة» غير إن الميكروفيلم نفسه ليس هو الكتاب المنشود، بل جزء من كتاب أدبي مجهول.

رابعًا - اعتبار المتن المحقق وحدة واحدة:

بمعنى أن الدكتور سالم قلما كان يميل إلى تقسيم المتن سواء بالأرقام أو العناوين أو الفصول بالرغم من أنه يصنع فهرسًا في ذيل الكتاب يضم الكثير من رؤوس الموضوعات التي استخرجها من المتن، ولم أجده خالف ذلك إلا في كتابين لجالينوس أولهما :كتابه إلى طوثرن في النبض للمتعلمين، والذي قسم متنه إلى فصول واضعًا ذلك على هامش الصفحة في اليسار أو في اليمين، والكتاب الثاني: هو كتابه إلى غلوقن في التأتي لشفاء الأمراض وفيه يضع عناوين داخلية للمتن بين معقوفين.

وبطبيعة الحال هو يقسم المتن إلى فقرات مستخدمًا علامات الترقيم التي تساعد على فهم النص المحقق.

خامسًا - تقسيم الحواشي إلى قسمين:

الشائع لدى المحققين أن يكون هناك قسم واحد للحواشي إلا أن الدكتور سليم سالم ارتضى منهجًا يستخدمه البعض في حواشى التحقيق، وهو تقسيم الحواشى داخل كل صفحة إلى قسمين أحدهما لفروق النسخ الخطية، وثانيهما للإحالات والتخريجات والتعليقات والتعريفات والمقارنات... إلخ، وقد اتبع الدكتور سالم هذا المنهج في غالب كتبه، ويجدر هنا التنويه بعمق وثراء القسم الثانى من الحواشي، والتي تمثل وحدها ثروة علمية ضخمة يتعذر العثور عليها في أي مرجع آخر.

سادسًا - التعليق على أخطاء الطبعات السابقة للكتاب إن وجدت:

وهذا نراه واضحًا - على سبيل المثال - في تحقيق سليم سالم لكتاب «تلخيص كتاب الشعر» لابن رشد؛ حيث يُعلق كثيرًا على طبعتي فاوستو لازينيو وعبد الرحمن بدوي للكتاب.

سابعًا - المقابلة بين نص الكتاب ونص الترجمة العربية التي اعتمد عليها مؤلف الكتاب:

نظرًا للعلاقة الوثيقة بين التحقيق والترجمة[١] فإن سليم سالم يعقد مقابلة متأنية يعلق فيها على أخطاء الترجمات العربية وبُعدها عن النص الأصلي للكتاب؛ مما أدى بدوره إلى أخطاء وقع فيها المؤلفون العرب كابن سينا وابن رشد، ومن ذلك على سبيل المثال تعليقاته على تلخيص الخطابة لابن رشد؛ فهو يؤكد في حواشيه اعتماد ابن رشد على الترجمة العربية القديمة لكتاب الخطابة وهي ترجمة - يراها - تعج بالأخطاء

---

(١) انظر فى ذلك: ماهر عبد القادر : من يحقق التراث العلمى؟ ضمن أبحاث ندوة (التراث العلمى العربى مناهج تحقيقه وإشكالات نشره): معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠٠م، ص ص ١٢٥ - ١٣٤.

الفاحشة وهو الأمر الذى أوقع ابن رشد نفسه في أخطاء كثيرة ترتبط بالنص الأرسطي[١].

وفي تحقيقه لكتاب تلخيص كتاب الشعر يُعلق سليم سالم على أخطاء الترجمة العربية القديمة لكتاب الشعر والتي قام بها متى بن يونس القنائي[٢].

ثامنًا - المقابلة بين النص العربي للكتاب والنص اليوناني الأصلى له:

وهذا نراه في غالب تحقيقات سليم سالم، وهو في هذه المقابلات يخرج بالكثير من الأمور المهمة المرتبطة بفن الترجمة عند العرب في العصور الوسطى، ويرى الدكتور سليم سالم أنه بدون المعرفة باللغة اليونانية لايمكن إحياء التراث العربي اليوناني على نهج عملي سليم[٣].

تاسعًا - المقابلة بين نص الكتاب وما له من ترجمات لاتينية:

وهو يرجع إلى مثل هذه الترجمات لاستخدامها في ترجيح إحدى القراءات للنسخ المخطوطة، ويتمثل هذا في تحقيقه لتلخيص كتاب العبارة لابن رشد، والصناعة الصغيرة لجالينوس... وغيرهما.

عاشرًا - المقابلة بين المتن المحقق وبعض الشروح والمختصرات:

ونرى ذلك في تحقيقه لـ«تلخيص كتاب الشعر» لابن رشد؛ حيث يقابل بينه وبين شرحى الفارابى وابن سينا لكتاب فن الشعر، وفي تحقيقه لكتاب جالينوس في الاسطقسات على رأي أبقراط يقابل بينه وبين شرح حنين بن إسحق المسمى (العناصر على رأي أبقراط) وهو المخطوط في أيا صوفيا... ،وغير ذلك.

حادى عشر - التعليق على أخطاء الترجمات الحديثة للكتب اليونانية القديمة:

ويظهر ذلك واضحًا في تعليقات سليم سالم المتعددة على ترجمة عبد الرحمن بدوي لخطابة أرسطو وذلك في حواشي تحقيقه لكتاب «تلخيص الخطابة»، لابن رشد.

ثاني عشر - تنوع مصادر التحقيق:

بالرغم من أن الدكتور سليم سالم لم يورد في أى كتاب حققه قائمة بمصادر التحقيق كما هو معروف الآن في مناهج التحقيق؛ إلا أنه وبالاطلاع على حواشيه في

---

(١) ابن رشد: «تلخيص الخطابة»، هوامش صفحات ٧، ١٠٣، ١٠٥، ٢٠٦، ٢١١، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٥٧، ٢٧٢، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٢، ... وغيرها.

(٢) ابن رشد: «تلخيص كتاب الشعر». هوامش صفحات ٥٦، ٧٢، ٧٦، ٧٧، ٩٠، ١٠٥، ١١١...وغيرها.

(٣) حنين بن إسحق: كتاب جالينوس إلى غلوقن فى التأتي لشفاء الأمراض»، مقدمة التحقيق، ص (و).

هذه الكتب نجد أن مكتبة التحقيق لديه تتصف بالثراء والتنوع، وقد شملت هذه المصادر: الكتب الأدبية والبلاغية والمعاجم اللغوية ودواوين الشعراء، وكتب الفلسفة، والتراجم ، والكتب التاريخية، والطبية... وغيرها.

ثالث عشر - وضع الفهارس الفنية للكتب المحققة:

قام الدكتور سليم سالم بصنع عدة فهارس للكتب التي حققها، وكان في فهارسه يركز أساسًا على فهرسين بالدرجة الأولى، هما: فهرس الأعلام، وفهرس آخر للمصطلحات والمطالب المهمة كان يسميه دليل الكتاب. وتحتوى بعض كتبه على فهارس أخرى كأسماء الكتب الواردة في المتن، وأسماء المدن، والأدوية والعقاقير، إلا أنه يُلاحظ على بعض كتبه خلوها من فهارس ضرورية لموضوع النص المحقق، فعلى سبيل المثال كتاب «تلخيص كتاب الشعر» لابن رشد لم يصنع له فهرسًا للأشعار العربية الواردة بالمتن[1].

هذه هى أهم معالم منهج تحقيق التراث العربي اليوناني عند محمد سليم سالم، والملاحظ أن سليم سالم فرق في تحقيقاته - كما يظهر على أغلفة الكتب التي حققها - بين ثلاثة مستويات، هى:

- المستوى الأول - وهو التحقيق: ولجأ فيه بالدرجة الأولى إلى إظهار النص سليمًا دون تعليقات أو شروح مطولة.
- المستوى الثانى - وهو التحقيق والتعليق: وقام فيه بالتعليق اليسير علي بعض أجزاء المتن.
- المستوى الثالث - وهو التحقيق والشرح: وقام فيه بالتعليق والشرح الوافيين على المتن.

وتظهر نماذج لاستخدام هذه المستويات الثلاثة في الجدول الآتي:

(١) ترد هذه الأشعار العربية فى كتاب تلخيص كتاب الشعر لابن رشد فى ثلاث وثلاثين صفحة متفرقة من صفحات الكتاب، منها صفحات ٥٨، ٥٩، ٩٦، ٩٩، ١١١، ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١١٧ ... والخ.

المستوى	نماذج الكتب	
التحقيق	جالينوس	النبض للمتعلمين
		الاسطقسات على رأي أبقراط
		الصناعة الصغيرة
	ابن سينا	الشفاء (المنطق، الخطابة)
	ابن رشد	تلخيص السفسطة
التحقيق والتعليق	جالينوس	فرق الطب للمتعلمين
		التأتى لشفاء الأمراض
	ابن رشد	تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر
		تلخيص كتاب أرسطوطاليس في العبارة
		تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الجدل
التحقيق والشرح	ابن سينا	كتاب المجموع أوالحكمة العروضية
	ابن رشد	تلخيص الخطابة

جدول (٣) مستويات التحقيق لبعض النصوص التراثية عند سليم سالم

والسؤال الذى يطرح نفسه - في ضوء إسهامات سليم سالم المتعددة ومنهجه العلمى الدقيق والصارم في الوصول للمتن الصحيح وفهمه واستخدامه - ما موقع سليم سالم بين محققي التراث العربي اليوناني؟ وسنحاول الإجابة عن هذا التساؤل بالاعتماد على ثلاثة مداخل أساسية:

● **المدخل الأول - النشر المؤسسى:**

في حقيقة الأمر سنجد أن معظم المراكز أو المؤسسات المعنية بتحقيق التراث تهتم بالدرجة الأولى بالتراث الدينى يليه التراث الأدبى ثم التاريخي، أما التراث العلمي والفلسفي فيأتى في ذيل القائمة غالبًا؛ ولهذا فقليلة جدًا هي المراكز والمؤسسات التي يأخذ التراث العربي اليوناني نصيبًا واضحًا من حركة نشرها، ولعل مركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة أحد أهم تلك المراكز؛ ولهذا سنأخذه كحالة أو عينة في دراسة النقطة التي بين أيدينا الان[1].

إذا استعرضنا إصدارات هذا المركز سنجد أنها تضم فيما بينها ثمانية عشر كتابًا من كتب التراث العربي اليوناني، قام الدكتور سليم سالم وحده بتحقيق اثني عشر كتابًا

(١) انظر : حسام أحمد عبدالظاهر: اتجاهات النشر التراثى بمركز تحقيق التراث بدار الكتب الوثائق القومية بالقاهرة، (دراسة ببليومترية لإصدارات المركز خلال الفترة من أغسطس ١٩٦٦ حتى أغسطس ٢٠٠٥م) مجلة الفهرست، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، العدد الثالث عشر - يناير ٢٠٠٦م، ص ١١ - ٤٦.

من أخبار التراث

أ. حسام أحمد عبد الظاهر(*)

شهر يناير ٢٠٠٦م

● مع بداية عام ٢٠٠٦م أعلنت الحكومة الإسبانية عن عزمها إنشاء معهدين للتراث والدراسات العربية أحدهما فى مدريد وهو (معهد البيت العربي) والثانى فى قرطبة وهو (المعهد الدولي للدراسات العربية) ، وقد خصصت إسبانيا لهذين المعهدين موازنة سنوية قدرها عشرة ملايين يورو .

● وفى يوم الأربعاء ٤ يناير عُقدت ندوة (علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي) فى مقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، حاضر فيها الدكتور أيمن فؤاد سيد .

● وخلال هذا الشهر تم الإعلان عن إهداء معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب بسوريا إلى مكتبة الإسكندرية مجموعة ضخمة من كتب التراث العلمي العربي فى مجالاته المتعددة .

● أصدرت مكتبة الإسكندرية اسطوانة مدمجة باللغتين العربية والإنجليزية عليها مخطوطة كمامة الزهر للأديب الأندلسي ابن بدرون ، وهي إحدى المخطوطات التي تقتنيها جامعة أوبسالا السويدية .

● أصدر مركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة كتاب (الآثار) للإمام محمد بن الحسن الشيباني بتحقيق الأستاذة خديجة محمد كامل ، وذكرت المحققة فى مقدمة التحقيق أنها اعتمدت على ثلاث نسخ خطية للكتاب محفوظة بدار الكتب المصرية بالإضافة إلى طبعتين غير محققتين من الكتاب .

شهر فبراير٢٠٠٦م

● فى يوم الأربعاء الأول من فبراير عقد سيمنار التاريخ الإسلامى والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ندوته هذا الشهر وتحدث فيها الدكتور سعيد مغاوري عن (أسعار الدواب فى ضوء أوراق البردى العربية)، كما تحدث الدكتور أحمد أسد عن (طريقة جديدة لكتابة التاريخ الحجازى المبكر بين التاريخ الدينى وكتب الأنساب) .

● وفى يوم الأربعاء ٨ فبراير ناقش الباحث ناصر محمدى جاد رسالته للماجستير

(*) باحث بمركز تحقيق التراث - دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة تحت عنوان (التحقيق فى تقرير أدلة الإكفار والتفسيق للإمام يحيى بن حمزة العلوي ـ دراسة مقارنة وتحقيق) . كانت لجنة المناقشة تتكون من الدكتور عبد الحميد مدكور مُشرفًا ، والدكتور عبد اللطيف العبد مُناقشًا ، والدكتور محفوظ على عزام مُناقشًا . وانتهت المناقشة بحصول الباحث على تقدير ممتاز .

● وفى يوم الأحد ١٢ فبراير عُقدت ندوة بقصر التذوق بالإسكندرية حول شعراء الإسكندرية فى العصر الإسلامي .

● وفى يوم الأربعاء ١٥ فبراير عُقدت ندوة بجامعة القاهرة عنوانها (اللغة العربية وتحديات العصر) . شارك فيها نخبة من المهتمين باللغة العربية وقضاياها، منهم: الدكتور كمال بشر ، والأستاذ فاروق شوشة ، والأستاذ طاهر أبو زيد ، والدكتور أحمد كشك ، والدكتور أحمد فؤاد باشا ... ، وغيرهم .

● وفى نفس اليوم ١٥ فبراير أقامت دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة احتفالية بمناسبة توقيع اتفاقية تعاون ثقافي مع دارة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية ، وتضمنت هذه الاتفاقية تبادل الخبرات فى مجال الصيانة والترميم والتقنية فى مجالات عمل كلتا المؤسستين ، وإتاحة الفرص للباحثين من الدولتين للاطلاع وتصوير المواد العلمية والتاريخية ، والتعاون فى إقامة المعارض والندوات ، وتبادل النشرات العلمية والإصدارات ، وتبادل زيارات المختصين والفنيين .

● أُعلن هذا الشهر أنه تم الاتفاق بين وزارة الاتصالات واتحاد الناشرين المصريين على البدء فى وضع عيون الفكر العربي الصادر فى مصر من خلال الكتب على شبكة المعلومات (الانترنت) .

● وفى يوم الأحد ٢٢ فبراير ألقت الدكتورة وفاء بلقاسم المتخصصة فى علم الآثار محاضرة عن (السياسات التراثية فى مصر بين الطموح والواقع) ، وذلك بالمركز الفرنسي للثقافة والتعاون بالقاهرة .

● وفى يوم الأحد ٢٦ فبراير عقد مركز تحقيق التراث أُولى ندواته هذا العام وكان موضوعها (التراث والتنمية الثقافية). حاضر فيها الدكتور زين نصار عن (التأثير العربي على الموسيقى الأوربية) ، كما حاضر الدكتور فاروق الرشيدى عن (فن السينما والتراث والتنمية الثقافية) ، وأدار الندوة الدكتور حسين نصار والذى ساهم بدوره أيضًا فى الحديث؛ حيث تكلم عن (دور التراث فى الحركة الأدبية) .

● وفى يوم الإثنين ٢٧ فبراير عقد مركز دراسات التراث العلمي بجامعة القاهرة

بالتعاون مع دار الكتب والوثائق القومية ومركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية ندوة حول (حقوق الملكية الفكرية للمقتنيات التراثية وأخلاقياتها) . تحدث فى الندوة الدكتور حسن بدراوى والدكتور أحمد مرسى عن (القوانين والتشريعات الوطنية والدولية فى مجال التراث العلمي) . كما تحدث الدكتور عبدالستار الحلوجى والدكتور يوسف زيدان والدكتور فيصل الحفيان عن (الوضع الراهن للمخطوطات والوثائق) ، وقد عُقدت على هامش الندوة حلقة نقاشية موسعة عن (التراث العلمي المصري - الواقع والمأمول) شارك فيها الكثير من الباحثين المهتمين بالتراث العلمي وأدار الحوار فيها الدكتور أحمد فؤاد باشا ، والدكتور رفعت هلال ، والدكتور آلان روسيون .

● صدر عن الدار العربية للكتاب بالقاهرة كتاب (ذيل خطط المقريزى) لعبدالحميد نافع ، وقام بتحقيق الكتاب الدكتور خالد عزب والدكتور محمد السيد حمدي ؛ وذلك بالاعتماد على ثلاث نسخ خطية للكتاب اثنتين منها محفوظتين بدار الكتب المصرية والثالثة مخطوطة بالمكتبة الأزهرية .

● وخلال شهر فبراير صدر عن مركز تحقيق التراث كتاب (الشكوك على جالينوس) لأبي بكر الرازي بتحقيق الدكتور مصطفى لبيب عبد الغني ، وقد اعتمد المحقق على نسخة واحدة من مخطوطات الكتاب، وهي نسخة طهران بالإضافة إلى الطبعة التي حققها الدكتور مهدي محقق معتمدًا فيها على ثلاث نسخ خطية . كما صدر عن المركز أيضًا الأجزاء السابع والثامن والتاسع من الطبعة الجديدة لكتاب (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) لأبي المحاسن ابن تغري بردي .

شهر مارس ٢٠٠٦م

● فى يوم الأربعاء الأول من مارس عقد سيمنار التاريخ الإسلامي والوسيط جلسته العلمية لشهر مارس ، وحاضر فيها الدكتور خالد حسين عن (رقيق السلطة فى مصر في العصر الطولوني) .

● أعلنت وزارة الثقافة التونسية عن البدء فى إقامة العديد من الاحتفالات الثقافية خلال شهر مارس بمناسبة إحياء الذكرى المئوية السادسة لوفاة العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، وتتضمن هذه الاحتفالات ندوات علمية ومعارض كتب ومخطوطات وإعادة طبع لكتب ابن خلدون خاصة كتابه فى التاريخ العام (العبر وديوان المبتدأ والخبر) وكتابه في السيرة الذاتية (التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا) .

● أُقيم بمعهد العالم العربي فى باريس معرضًا مهمًا عن (العلوم العربية فى عصرها الذهبى) ، والذي شهد إقبالاً كبيرًا من الجمهور الأوربي الراغب فى التعرف على الحضارة العربية الإسلامية .

● وخلال الفترة ٤ـ٦ مارس عُقد المؤتمر الدولي الثاني عن الاستشراق والدراسات العربية والإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة المنيا ، وقد هدف المؤتمر إلى التعرف على أعمال المستشرقين في التراث العربي والإسلامي ، وتحديد أهداف المستشرقين وتوجهاتهم وتحليل أعمالهم ونقدها ، وإبراز سلبياتها وإيجابياتها ، وإبراز حقيقة التراث العربي والإسلامي وتنقيته مما علق به من آراء بعض المستشرقين .

● وفى الفترة ٧ـ٩ مارس عقد مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية مؤتمره الدولي الثالث تحت عنوان (المخطوطات الشارحة) ، وقُدم للمؤتمر خمسون بحثًا منها :

بحث الدكتور رشدي راشد عن (شروح كتاب المجسطي لبطليموس المنسوبة لابن الهيثم) ، وبحث الدكتور مريام روزنسكايا عن (شرح الخازنى لمخطوطة الأوزان النوعية للبيرونى) ، وبحث الدكتور قسطنطين كاناقاس حول (النصوص التقنية الشارحة فى المخطوطات المصورة ـ دراسة تصنيفية لكتاب الحيل لبني موسى بن شاكر) ، وبحث الدكتور كمال عرفات نبهان حول (الشرح والتفسير ـ حاجة إنسانية ووظيفة علمية وثقافية) .

كما قُدم بحث حول (شرح الدخوار على تقدمة المعرفة لأبقراط) للدكتور ماهر عبد القادر ، وبحث عن (الأصالة في الشروح العلمية المتأخرة ـ شمس الدين الخفرى نموذجًا) للدكتور جورج صليبا .

وعن (الذيول على المتون التاريخية) تحدث الدكتور أيمن فؤاد سيد ، وعن الشروح التاريخية تناول الدكتور عمر عبد السلام تدمري (شروحات ابن الجزري والذهبى على المقتفى للبرزالى ، وتناول الدكتور أندرو بيكوك (شروح تاريخ اليميني للعُتبي) .

وعن الشروح الفلسفية تحدث الدكتور فريدريك ورثر عن (شرح الفارابي لكتاب الخطابة لأرسطو) ، كما قدم الدكتور مارون عواد ورقته (هوامش مخطوطات فلورنسا وليدن لشروح ابن رشد على كتاب الخطابة لأرسطو) .

وعن الشروح الأدبية قدم الدكتور عبد الله محارب بحثه عن (المخطوطات

الشارحة لديوان الحماسة) ، وقدم الأستاذ عصام الشنطى بحثه عن (شروح إصلاح المنطق لابن السكيت) .

ومن الأبحاث التي تعرضت للشروح الدينية بحث الدكتور عبد الحكيم الأنيس وعنوانه (شروح أرضية لكتاب سماوى) ، وبحث الدكتور عبد السميع الأنيس عن (المخطوطات الشارحة فى الحديث النبوى الشريف) ، وبحث الدكتور محمود مصرى حول (مصطلح الحديث وشروح كتاب ابن الصلاح) ، وبحث الدكتور رضوان السيد تحت عنوان (التأليف الفقهي المبكر - شروح المختصرات / المزني نموذجًا) ... وغير ذلك من أبحاث .

● قام مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية باستضافة الدكتور رشدى راشد ليُلقى أربع محاضرات بالمكتبة ضمن برنامج الباحث المقيم . وكان موضوع المحاضرة الأولى فى ١٢ مارس (العلم العربي وتجديد تاريخ العلوم) ، والمحاضرة الثانية فى ١٤ مارس بعنوان (رياضيات ديوفنطس الإسكندراني وتجديدها بالعربية وانتقالها إلى أوربا) ، والمحاضرة الثالثة فى ١٦ مارس تحت عنوان (بين الرياضيات وعلم المناظر)، أما المحاضرة الرابعة والأخيرة ففى ١٩ مارس عن (فلسفة الرياضيات العربية بين حساب التوافيق والميتافيزيقا) .

● وفى يوم الأحد ١٩ مارس عقد مركز تحقيق التراث ثانى ندواته هذا العام وكان موضوعها (التراث العلمي فى الحاضر والمستقبل) حاضر فيها الدكتور أحمد فؤاد باشا عن (أهمية التراث العلمي العربي) ، كما حاضر الدكتور كمال الدين البتانونى عن (التراث العلمي الإسلامى ماهيته والخصائص التي بني عليها) ، وأدار الندوة الدكتور رفعت هلال .

● وفى شهر مارس أيضًا أعلنت وزارة الأوقاف المصرية عن تطوير مكتبة المخطوطات الملحقة بمسجد السيدة زينب وتزويدها بأحدث التقنيات التكنولوجية فى الحفظ والفهرسة وتعاونها مع المنظمات والهيئات الدولية المعنية بالتراث الإسلامى والمخطوطات النادرة للحفاظ عليها وحمايتها . ومن الجدير بالذكر أن عدد المخطوطات التي جمعتها الوزارة وأوشكت المكتبة على حفظها يقرب من ستة آلاف مخطوطة .

● صدر هذا الشهر عن مركز تحقيق التراث إعادة طبع للجزأين الحادى عشر والرابع عشر من كتاب (الخطط التوفيقية) لعلي مبارك .

● وصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب الجزء الأول من كتاب الدكتور أحمد عرفات القاضي عن (على بن رضوان) ، وهو أشهر أطباء مصر فى العصر الإسلامي .

● وخلال هذا الشهر أيضًا صدر بالقاهرة التحقيق الكامل لكتاب ساويرس بن المقفع عن تاريخ الآباء البطاركة ، وهو أحد المصادر التراثية المهمة عن تاريخ مصر فى العصر الإسلامي ، قام بتحقيق الكتاب معتمدًا على مخطوطة المتحف القبطي الأستاذ عبد العزيز جمال الدين .

شهر إبريل ٢٠٠٦م

● فى بادرة تُعد الأولى من نوعها فى أثيوبيا تم افتتاح المعرض الأول للتراث الإسلامي بجامعة أديس أبابا ، ويشتمل المعرض على نحو ١٥٠ مخطوطة من مخطوطات التراث الإسلامى سواء المكتوبة بالحرف العربي أو المكتوبة باللغات المحلية .

● قامت مكتبة الإسكندرية بنشر مخطوطة الحيل الروحانية للفارابي على أسطوانة مدمجة باللغتين العربية والإنجليزية مع مجموعة أخرى من مخطوطات التراث العربي المهمة الموجودة فى جامعة أُوبسالا السويدية .

● قام رئيس الوزراء الكويتى بافتتاح مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي وهى من المكتبات النادرة على مستوى العالم المتخصصة فى الشعر ، وتهدف المكتبة إلى الحفاظ على التراث الشعرى العربي ، وهى تضم ما يقرب من ثمانين ألف كتاب ومخطوط ودورية . تقع المكتبة على مساحة ٢٣ ألف متر مربع والواجهة على شكل كتاب مفتوح ، وقد تكلف البناء ١٧ مليون دولار .

● وفى الأسبوع الثاني من شهر إبريل أعادت دار الكتب المصرية طباعة كتابين مهمين عن ابن خلدون . بمناسبة احتفال العالم بمرور ستمائة عام على رحيله . وهما كتاب (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) للدكتور طه حسين ، وكتاب (ابن خلدون وتراثه الفكرى) للأستاذ محمد عبد الله عنان .

● بدأت الهيئة المصرية العامة للكتاب فى إصدار سلسلة تراثية جديدة تحت عنوان (المختصرات التراثية)؛ تهدف إلى تهذيب الموسوعات التراثية وتلخيصها واختصارها ، وقد صدر أول كتاب من هذه السلسلة وهو كتاب (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا) للقلقشندي فى جزأين ، قام بإعدادهما الأستاذ مصطفى موسى الباحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

● وفى الفترة ١١-١٢ إبريل عقدت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مؤتمرها السنوى لهذا العام تحت عنوان (مصر والوطن العربي - تواصل أم انقطاع) ، ومن أبحاث هذه الندوة : (المقامات بين بديع الزمان الهمذاني وجلال الدين السيوطي) للدكتور عوض الغباري ، وبحث (تأثير الثقافة العربية الإسلامية فى شعر مصر الإسلامية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين) للدكتور جمال حسين حماد ، وبحث (ابن خلدون فى مصر وأثره فى دراسة التاريخ المصرى فى القرن التاسع الهجري) للدكتور أيمن فؤاد سيد ، وبحث (مصر وموقفها من المحنة بخلق القرآن فى العصر العباسي) للدكتور عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم .

● وفى يوم الأحد ١٦ إبريل عقد مركز تحقيق التراث ثالث ندواته هذا العام وكان موضوعها (التكنولوجيا في خدمة التراث) حاضر فيها الدكتور علي راشد عن (التكنولوجيا وخدمة التراث الإسلامى) ، كما حاضر الدكتور شريف كامل شاهين تحت عنوان (التكنولوجيا في خدمة التراث - لامحتوى بدون تكنولوجيا ، ولا تكنولوجيا بدون محتوى) ، أدار الندوة الدكتور عبد الستار الحلوجي .

● وفى إطار الاحتفال بذكرى ابن خلدون قامت دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة بعقد ندوة يوم الأربعاء ٢٦ إبريل تحت عنوان (الأثر الخلدوني فى الفكر العربي المعاصر) . ومن أبحاث هذه الندوة : بحث (هل نجح المؤرخون العرب فى قراءة ابن خلدون) للدكتور قاسم عبده قاسم ، وبحث (ابن خلدون شاهدًا على عصرنا) للدكتور عبادة كحيلة ، وبحث (قراءات مغاربية لابن خلدون) للدكتور مصطفى خياطي، وبحث (الدين والسياسة عند ابن خلدون) للدكتورة زينب الخضيرى ، وبحث (أثر ابن خلدون في بعث الفكر الفلسفي في مصر) للدكتور مصطفى لبيب عبد الغني .

● وخلال شهر إبريل صدر عن مركز تحقيق التراث عدة كتب هى :

كتاب (الوافي بحل الكافي فى علمي العروض والقوافي) لابن مرشد المعمرى ، بتحقيق الدكتور أحمد عفيفي ، وقد اعتمد المحقق فى تحقيقه على ثلاث نسخ خطِّية للكتاب : الأولى محفوظة فى مكتبة وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان ، والثانية فى المكتبة الأحمدية بحلب بسوريا ، والثالثة بدار الكتب المصرية .

كما صدر عن المركز كتابا (الظرائف واللطائف)، و(اليواقيت فى بعض المواقيت)، للثعالبي والذان جمعهما أبو نصر المقدسي ، وقام بالتحقيق الأستاذ ناصر محمدى جاد معتمدًا على نسختين للكتاب محفوظتين بدار الكتب المصرية ، ومن

الجدير بالذكر أن هذا الكتاب قد طبع عدة مرات قبل ذلك كان آخرها الطبعة التي حققها الدكتور عبد الرحيم الجمل وصدرت سنة ١٩٩٣م .

وصدر أيضًا عن المركز الأجزاء العاشر والحادي عشر والثاني عشر من الطبعة الجديدة لكتاب (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) لأبي المحاسن ابن تغري بردي .

شهر مايو ٢٠٠٦م

● فى يوم الثلاثاء ٢ مايو عُقدت ندوة (الإسكندرية دور حضاري وتراث) بالمجلس الاعلى للثقافة ، وقد تناولت بعض أبحاث الندوة الجوانب التراثية في حضارة الإسكندرية فى العصر الإسلامي .

● صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر كتاب (أبو الطيب المتنبى شاعر العروبة وحكيم الدهر) للدكتور عبد العزيز الدسوقي ، ويتناول الكتاب أهم القضايا التي أُثيرت حول المتنبي خاصة فى كتابات محمود محمد شاكر وعبد الوهاب عزام وطه حسين .

● وفى الفترة ١٥-١٨ مايو وبالتعاون بين دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة واتحاد جامعات العالم الإسلامى عُقدت دورة تدريبية حول ترميم المخطوطات وصيانتها فى الدول العربية .

● وفى يوم الأربعاء ١٧ مايو قامت السلطات الأمنية فى مطار القاهرة الدولى بمصادرة عشرين مخطوطة عربية من راكب سوري لدى وصوله من إسبانيا ، وكان رجال الجمارك قد اشتبهوا بحقائب الراكب السوري وعند فتحها عثروا على المخطوطات ، وقاموا بعرضها على خبراء الآثار المصريين الذين أكدوا قيمتها الأثرية وقرروا مصادرتها لصالح المجلس الأعلى للآثار .

● وفى إطار الاحتفالات الدولية بذكرى ابن خلدون قامت العديد من المؤسسات الإسبانية كجامعات إشبيلية، وغرناطة، وقرطبة ومؤسسات أوربية أخرى كالمكتبة الوطنية الفرنسية، وجامعة أثينا، والمعهد الإسباني في البرتغال، ومعهد الدراسات الشرقية فى نابولي وغيرها بتنظيم معرض ضخم عن العلامة ابن خلدون تحت رعاية الحكومة الإسبانية ، وقد قام الملك الإسبانى بافتتاح هذا المعرض يوم الخميس ١٨ مايو بحضور العديد من الزعماء والقيادات، منهم: الرئيس المصري محمد حسنى مبارك ، والرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة ، والأمير فيصل شقيق ملك الأردن ،

ومولاي رشيد شقيق ملك المغرب ، ومحمد بن جاسم وزير خارجية قطر ، ووزيرا الثقافة فى سوريا وتونس ... وغيرهم . ومن المقرر استمرار هذا المعرض إلى نهاية شهر سبتمبر القادم.

● صدر فى شهر مايو كتاب (أخبار البرامكة) لمؤلف مجهول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، قام بتحقيقه المحقق العراقي الدكتور جليل العطية ؛ وذلك بالاعتماد على نسخة خطية وحيدة للكتاب عثر عليها فى مكتبة فاتح بإستانبول .

● عُقدت بكلية الآداب بجامعة حلب ندوة علمية عن (الحياة الفكرية والأدبية فى بلاط سيف الدولة) ، ومن الجدير ذكره أن هذه الندوة هي الثالثة التي تعقدها جامعة حلب حول هذا الموضوع ، وقد أوصت الندوة بإعداد موسوعة ضخمة عن عصر سيف الدولة وبلاطه الفكرى وطباعة بحوث الندوات ووضعها على الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) .

شهر يونيو ٢٠٠٦م

● أقام مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ندوة عن (التراث الإسلامى فى أُوزبكستان) وذلك بالتعاون مع سفارة أوزبكستان بالمملكة العربية السعودية .

● أعلنت منظمة اليونيسكو أن عام ٢٠٠٦م سيشهد تكريم اسم عائشة الباعونية الشاعرة والفقيهة والمتصوفة ، والتي كانت واحدة من شهيرات النساء فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، ويأتي هذا التكريم فى إطار إحياء ذكرى الذين ساهموا فى خدمة الثقافة والمعرفة . ومن المقرر أيضًا أن يقوم مهرجان جرش للثقافة والفنون بالأردن بالاحتفال بعائشة الباعونية .

فى الطريق إليك من إصدارات

مركز تحقيق التراث

● «أخبار نيل مصر» :

المؤلف : الأقفهسي .

تحقيق: د/ لبيبة إبراهيم مصطفى ، أ/ نعمات عباس محمد .

● «التبر المسبوك في ذيل السلوك» ـ الجزء الرابع :

المؤلف: السخاوي .

تحقيق: أ/ نجوى مصطفى كامل ، د / لبيبة إبراهيم مصطفى.

- «ربيع الأبرار وفصوص الأخبار» ـ الجزء الرابع :

المؤلف: الزمخشري .

تحقيق: أ / مرزوق على إبراهيم .

- «رسالة فى الهيئة» :

المؤلف: ابن سينا .

تحقيق: د/ مها مظلوم خضر .

مراجعة وتقديم: د / أحمد فؤاد باشا .

- «السلوك لمعرفة دول الملوك» ـ ١٢ مجلد : [إعادة طبع]

المؤلف : المقريزي .

تحقيق : د / محمد مصطفى زيادة ، د / سعيد عبد الفتاح عاشور .

- «شرح كتاب سيبويه» . الأجزاء ٧، ٩، ١٠ :

المؤلف: السيرافي .

الجزء السابع. تحقيق: أ.د .أحمد عفيفى .

الجزء التاسع: تحقيق: أ.د .شعبان صلاح .

الجزء العاشر: تحقيق: أ.د. صلاح روّاى ، د. مها مظلوم.

- «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» (العصر الأيوبي) الجزء الثالث:

المؤلف: بدر الدين العيني .

تحقيق: د. محمود رزق محمود .

- «عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران» ـ الجزء الثالث :

المؤلف: البقاعي .

المحقق: أ.د حسن حبشي .

- «مدارج السالكين» ـ الجزء الخامس :

المؤلف: ابن قيم الجوزية .

تحقيق: أ.د عبدالحميد مدكور .

- «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي». الجزء ١٢ :

المؤلف: أبو المحاسن ابن تغري بردي .

تحقيق: د / محمد محمد أمين .

- «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». الأجزاء ١٣و١٤و١٥و١٦.

المؤلف : أبو المحاسن ابن تغري بردي .

تحقيق : مجموعة من المحققين .

- «نهاية الأرب في فنون الأدب». ٣٢ مجلد : [إعادة طبع]

المؤلف : النويري .

تحقيق : نخبة من المحققين .

خطة العمل بمركز تحقيق التراث

خلال الشهور القادمة

جارى العمل فى تحقيق الكتب الآتية :

- «جواهر القرآن ودرره »: لأبي حامد الغزالى .
- «بغية الفلاحين» : للجفني .
- «مدارج السالكين»: لابن قيم الجوزية جـ ٦ .
- «عقد الجمان» : للعيني (العصر الأيوبى) جـ ٤ .
- «عقد الجمان»: للعيني (العصر المملوكى) جـ ٥ .
- «شرح كتاب سيبويه» : للسيرافي جـ ٨ ،١٧، ١٩، ٢٠ .
- «لقط المنافع» : لابن الجوزي .
- «مزيل الاشتباه فى أسماء الصحابة والتابعين»: لعبد الكريم بن ولى الدين .
- «السموم ودفع مضارها» : لجابر بن حيان .

مشروع التحويل الرقمى لإصدارات المركز :

- «كتاب الأمالي» : للقالي . جزآن .
- «ذيل الأمالي» : للقالي .
- «التنبيه على الأمالي» ، لأبي عبيد البكري .